الدكتور صلاح إسماعيل

فلسفة اللغة والمنطق

دراسة فى فلسفة كواين



فلسفة اللغة والمنطق

دراسة فى فلسفة كواين

تأليف

دكتور صلاح إسماعيل

قسم الفلسفة

كلية الآداب - جامعة القاهرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أستاذى الدكتور محمد مهران
اعترافا بعلمـــه وفضلـــه

تصـــدير

فلسفة اللغة موضوع قديم ، ولكنه جاء مع مطلع القرن العشرين واحتل مكان الصدارة بين موضوعات الفلسفة ، ثم زادت العناية به فى النصف الثانى من هذا القرن زيادة كادت أن تحول الفلسفة برمتها إلى فلسفة للغة ، إذ ينظر كثير من الفلاسفة المعاصرين إلى فلسفة اللغة باعتبارها الفرع الفلسفى الوحيد الذى يستحق الاهتمام هذه الأيام ؛ ولا يكاد هؤلاء الفلاسفة يحفلون بمشكلات الميتافيزيقا أو الانطولوجيا أو القيم ، وإنما يعنون العناية كلها بالمشكلات الفلسفية والمنطقية المتعلقة باللغة ؛ وتزخر فلسفة اللغة بفلسفات عديدة ، بيد أن إحداها التى تجئ من سواها فى الطليعة هى فلسفة الفيلسوف والمنطقى الأمريكى ويلارد فان أورمان كواين Willard Van Orman Quine.

وعلى الرغم من أن أهمية كواين لا تضارعها أهمية أى فيلسوف آخر من الفلاسفة الأحياء ، إلا أنه لم يحظ بعناية الدرس الفلسفى العربى ، ولعل الذى جعل الدارسين ينصرفون عن فلسفة كواين هو صعوبة أسلوبه فى الكتابة وجدة النظريات التى يطرحها ، وأقول بكل ما يمكن أن يملكه الإنسان من تواضع إن كتابى هذا يعالج فلسفة كواين لأول مرة فى المكتبة العربية ، ويناقش أيضا أبرز النظريات المعاصرة فى فلسفة اللغة والمنطق .

ولد كواين فى ٢٥ يونيو من عام ١٩٠٨ فى أكرون بولاية أوهايو ، وأظهر فى دراسته الأولى نبوغا فى الرياضيات ، كما اهتم باللغة وبخاصة مسائل النحو وعلم تاريخ الكلمات ؛ وعندما التحق بكلية أوبرلين فى سنة ١٩٢٦ كان فى حيرة من أمره : هل يختار الرياضيات والفلسفة موضوعا للتخصص ، أم يختار اللغة والدراسات الكلاسيكية ؟ ووقع اختياره على الرياضيات وألحقها بقراءة فى فلسفة الرياضيات ، واستهل هذه القراءة فى سنة ١٩٢٨ ، وبعد ذلك التحق كواين بجامعة هارفارد ودرس مع وايتهد ولويس وشيفر وحصل على الماجستير فى ربيع ١٩٣١ ، ثم حصل على الدكتوراه فى سنة ١٩٣٢ فى موضوع « منطق المتواليات : التعميم فى برنكبيا ماثيماتيكا » ؛ وفى هذه الرسالة المنطقية الرياضية تجلت اهتماماته الفلسفية ، وهنا نؤكد بأنه يخطئ أشد الخطأ من يفصل بين كواين المنطقى وكواين الفيلسوف ، وذلك لأن معظم إسهامات كواين فى مجال المنطق ، وهو أعظم المناطقة

المعاصرين بعد رسل بلا منازع ، كان الدافع إليها اهتمامات فلسفية ؛ وبعد ذلك مباشرة سافر كواين فى منحة ما بعد الدكتوراه إلى فينا وبراغ ووارسو ، وفى فينا تعرف على أوتونيورات ، ومورتس شليك ، وكورت جودل ، وهانز هان ، وكارل منجر ، وكان قد قابل هربرت فايجل فى جامعة هارفارد فى سنة سابقة ؛ وحضر كواين محاضرات شليك ، وحضر أيضا بعض لقاءات جامعة فينا ، وليس من شك فى أن لقاءات كواين بجماعة فينا قد تركت عظيم الأثر فى تفكيره ، إذ بدأ يحدد موقفه من أفكار التيار التجريبى المعاصر الذى ينتمى إليه ، وكان لنقدها يومئذ أقرب منه إلى قبولها .

وفى براغ قابل كواين رودلف كارناب وحضر محاضراته ، وكان أثر كارناب فى غيره من الفلاسفة بالغا وعميقا شأنه فى ذلك شأن رسل ؛ والحق أن فيلسوفنا بدأ عمله الجامعى كنصير لكارناب ، إذ ألقى ثلاث محاضرات طويلة عن كارناب فى سنة ١٩٣٤ ، ونشرت هذه المحاضرات ، بالإضافة إلى الخطابات بين كارناب وكواين منذ سنة ١٩٣٢ وحتى ١٩٧٠ (وهو العام الذى توفى فيه كارناب) فى كتاب ضخم يحمل عنوان « عزيزى كارناب ، عزيزى فان » سنة ١٩٩٠ ؛ ولكن كواين أصبح بعد ذلك من أعمق نقاد كارناب ، ونتج عن التعارض بين آراء كارناب وكواين ، مثل التعارض بين آراء رسل وكواين ، جانبا هاما من فلسفة القرن العشرين .

وسافر كواين من براغ إلى وارسو حيث حضر محاضرات أبرز المناطقة البولنديين مثل تارسكى وليزنفسكى ولوكاشيفتش ، وكان فيلسوفنا على إتفاق تام مع مناطقة وفلاسفة مدرسة وارسو ، إذ سلموا جميعا بالنزعة الماصدقية وفى بعض الأحيان بالمذهب الاسمى . وبعد هذه الأسفار عاد كواين إلى جامعة هارفارد وعمل بها حتى حصل على منصب الأستاذية سنة ١٩٤٨ ؛ تلك خلاصة يسيرة لسيرة حياة فيلسوفنا عرضتها عليك فى كثير جدا من الإيجاز .

أما عن أعماله فقد ألف كواين عشرين كتابا ، كان أولها « نسق اللوجسطيقا » سنة ١٩٣٤ وآخرها « ملاحقة الصدق » ١٩٩٠ ، بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات والبحوث المطولة التى نشر بعضها فى كتبه ، والتى بدأها بمقال « ملاحظة عن مصادرة نيكود » سنة ١٩٣٢ (ونيكود Nicod منطقى فرنسى) وكان آخرها مقال « فى الثناء على جمل الملاحظة » سنة ١٩٩٣ ، وترجمت هذه الأعمال إلى معظم اللغات الحية ؛

وأنت ترى أننا أمام فيلسوف اتيحت له حياة ثقافية ثرية طال أمدها حتى أمسك صاحبها بالقلم ما يزيد على ستين عاما قضاها فى كتابة فلسفية ومنطقية عميقة .

ولفلسفة كواين جوانب متعددة أهمها اللغة والمنطق والرياضيات والابستمولوجيا ، ولقد اخترنا فلسفة اللغة والمنطق على أساس أنهما بمثابة حجر الزاوية فى فلسفته ، وترتبط بهما الجوانب الأخرى بروابط وثيقة ؛ وفى محاولة لتوضيح هذين الجانبين قسمنا الدراسة إلى خمسة فصول يسبقها مدخل وتلحقها خاتمة ، ناقشنا فى المدخل المقصود بمصطلح فلسفة اللغة وفلسفة المنطق ، ثم أوضحنا مصادر اهتمام الفيلسوف باللغة ، وتناولنا التيارات المعاصرة فى فلسفة اللغة وحددنا موقع كواين منها ؛ وأفردنا الفصل الأول لمناقشة مشكلة التحليلية ، وقبل عرضنا لنقد كواين للتمييز التحليلى – التركيبى ، رأينا أنه من الأفضل أن نقدم خلفية تاريخية لهذا التمييز من خلال كتابات بعض الفلاسفة مثل لوك وليبنتز وهيوم ، وكانط ؛ ونظرا لأهمية التمييز بالنسبة للفلسفة التحليلية المعاصرة ، فقد قوبلت اعتراضات كواين بردود كثيرة تسعى للدفاع عن هذا التمييز ، وناقشنا أشهرها وهى دفاع كاوفمان ، وفيتز ، وجرايس وستراوسون ، ثم عرضنا لعودة كواين إلى مشكلة التحليلية فى كتاباته الأخيرة وذلك من خلال النظر إليها من زاوية نظرية التعلم .

وفى الفصل الثانى شرح لنظرية كواين التجريبية السلوكية فى دراسة اللغة والإشارة ، وقد مهدنا له بلمحة سريعة عن مبادئ السلوكية ، ثم بينا كيف استبعد كواين التناول العقلى للغة وذلك قبل أن نوضح نظريته فى تعلم اللغة بشكل عام وتعلم الجانب الإشارى على وجه الخصوص .

حتى إذا ما وصلنا إلى الفصل الثالث ، ألفينا أنفسنا إزاء مشكلة كانت لها ارهاصات فى الفصلين الأول والثانى ولها أيضا امتداد فى الفصلين الرابع والخامس ، وهى مشكلة المعنى ؛ ولا غرو فى ذلك ، فمشكلة المعنى تقع من البناء الفكرى عند فيلسوف اللغة والمنطق عند حجر الأساس ؛ وأشرنا فى بداية هذا الفصل إلى نظريات المعنى فى فلسفة اللغة . وبعد ذلك أوضحنا انتقادات كواين لعلم الدلالة العقلى ، ثم عرضنا لتفسير كواين السلوكى للمعنى . وأخيرا بسطنا بعض الملامح العامة التى تشكل نظرية الاستعمال فى المعنى التى نعتنقها وندافع عنها ، ونأمل أن نزيدها تدعيما وتوضيحا فى بحوث مقبلة .

وأفردنا الفصل الرابع لأقوى انتقادات كواين لنظرية المعنى من منظور علم الدلالة

العقلى ، والتى تتمثل فى دعوى « اللاتحديد فى الترجمة » ، وبينا فى بداية هذا الفصل علاقة هذه الدعوى بعلم الدلالة عند كارناب على أساس أنها تمثل رد كواين على كارناب ، وعرضنا حجج كواين على اللاتحديد ، ونتائج دعوى اللاتحديد بالنسبة لنظرية المعنى وفلسفة العقل ونظرية الإشارة ، ثم ناقشنا بعض الانتقادات الموجهة لهذه الدعوى .

ويأتى الفصل الخامس والأخير ليعالج مشكلات تضرب بجذورها فى فلسفة المنطق ويوضح موقف فيلسوفنا منها ، مثل المشكلة الخاصة بحوامل الصدق : هل هى القضايا أم العبارات أم الجمل ؟ وأيضا مسألة تعريف الحقيقة المنطقية ، ومتى تكون العبارة صادقة منطقيا ، وليس من شك فى أن هناك صلة حميمة بين فلسفة المنطق وفلسفة اللغة بصفة عامة وعند كواين بصفة خاصة ، وتعد محاولة توضيح هذه الصلة هدفا من بين الأهداف المرومة من وراء دراستنا ، وتتجلى هذه الصلة عندما نعالج حوامل الصدق ، مثلا ، ونقول بأن القضايا هى حوامل الصدق ، فإن النظر فى ماهية القضايا يفضى إلى مشكلة المعنى على أساس أن إحدى وجهات النظر فى تبيان ماهية القضايا هى القول بأن القضايا هى المعانى التى تعبر عنها الجمل ، وبالتالى إذا أراد المرء أن يقدم نظرية معينة فى القضايا ، أو إذا أراد أن يستبعد مصطلح القضية ، كما يفعل كواين ، فما أمامه إلا سبيل واحد هو أن يلتزم ببعض المواقف إزاء نظرية المعنى والانطولوجيا ؛ أما الخاتمة فتجيب على السؤال : ما هى وجهة نظر كواين التى تجمع فلسفته كلها فى عقد واحد ؟ وناقشت بعض الإجابات ، وكان جوابى هو أننى أفضل أن اسمى فلسفته باسم التجريبية السلوكية .

والحق أن فلسفة كواين تؤثر تأثيرا بالغا فى الفكر الفلسفى المعاصر ، وهو أمر لا تخطئه عين من يراجع أية دراسة فلسفية أو أية مجلة من المجلات الفلسفية الرائدة على الأقل فى العالم الناطق بالإنجليزية ، إذ تحظى فلسفته بمشايعة كثير من الأنصار ، ولكنها تثير أيضا كثيرا من المعارضة والجدل ؛ وطالما أننا نريد أن نكشف عن عمق هذه الفلسفة وحيويتها ، فلم نجد بدا من أن نقدمها من خلال حوار فعال بينها وبين الآراء المعارضة لها والمؤيدة على السواء ؛ وإذا كان الصواب قد جانبنى هنا أو هناك ، ففى وسعى أن اعتذر اعتذار الفارس الذى تخونه قواه على لسان حافظ إبراهيم عندما قال :

لا تلم كفى إذا السيف نبا   صح منى العزم والدهر أبى

ويطيب لى أخيرا أن أزجى خالص شكرى وتقديرى لاستاذى الأستاذ الدكتور محمد

مهران الذى غمرنى بفضله وعلمه طوال ما يقرب من عشر سنوات خلت ، أفدت فيها من حسن توجيهه ونصحه ، فجزاه الله عن العلم والنصح والفضل خير الجزاء ، ونسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب كفاء ما بذلنا فيه من جهد ، وهو فى الأصل يمثل جانبًا كبيرًا من رسالتى للدكتوراه التى تقدمت بها لجامعة القاهرة سنة ١٩٩٣ ، وعلى الله قصد السبيل .

مدينة السادس من أكتوبر

فى ١٩٩٥/١/١٢

د . صلاح إسماعيل

اختصارات لأسماء مؤلفات
كواين الواردة فى الدراسة

أولاً : الكتب :

- *M.L.*	Mathematical Logic.
- *M. of L.*	Methods of Logic.
-*F.LP.V.*	From a Logical Point of View.
- *W. & O.*	Word and Object.
- *W. ofP. & O.E.*	The Ways of Paradox and Other Essays.
- *S.LP.*	Selected Logic Papers.
- *O.R. & O.E.*	Ontological Relativity and Other Essays.
-*P. of L.*	Philosophy of Logic.
- *R. of R.*	The Roots of Reference.
-*T. & T.*	Theories and Things.
-*T. of M.L.*	The Time of My Life.
Q.	Quiddities: An Intermittently Philosophical Dicitionary.
-*P. ofT.*	Pursuit of Truth.

ثانيًا : المقالات غير المنشورة فى الكتب السابقة :

- *M. & T.*	Meaning and Translation.
- *L. & P.*	Linguistics and Philosophy.
- *M.R. on C.L.T.*	Methodological Reflections on Current Linguistic Theory
- *O. R. for I. T.*	On the Reasons for Indeterminacy of Translation.
-*P.P. In L. T.*	Philosophical Progress in Language Theory.
- *M. & V. D.*	Mind and Verbal Dispositions.
- *N. of N. K.*	The Nature of Natural Knowledge.
- *R. In W. S. & O. S.*	"Replies" in Words and Objections: Essays on the Work of W.V. Quine.
- *O.E.E.S. of W.*	On Empirically Equivalent Systems of the World.
-*F. of M.*	Facts of the Matter.
- *O. & I.R.*	Ontology and Ideology Revisited.

- *S. of M.* States of Mind.
- *R. to C. inP. of Q.* Replies to Critics in the Philosophy of W.V. Quine. edited by L.E. Hahn and P.A. Schilpp.
- *A. of Q.* Autobiography of W.V. Quine.
- *I. of T.A.* Indeterminacy of Translation Again.
- *S. & N.* Structure and Nature.
- *O. S.* In Praise of Observation Sentences.

مدخل

١ – فلسفة اللغة وفلسفة المنطق
٢ – مصادر اهتمام الفيلسوف باللغة
٣ – تيارات فلسفة اللغة

– ١ –

هناك أسباب كثيرة جعلت من اللغة موضوعا هاما وجديرا بالدراسة ، يأتى فى موضع الصدارة منها ثلاثة أسباب : أولا ، يوجد افتراض مؤداه أن اللغة خصيصة إنسانية فريدة تميز الإنسان من بقية الكائنات الأخرى ، ولو نظرنا إلى هذا الافتراض بعين الاعتبار ، لكان من الطبيعى أن نعتقد بأن أى تقدم فى فهم اللغة سيفضى إلى فهم أفضل للطبيعة البشرية بصفة عامة والعقل البشرى على وجه الخصوص ؛ ثانيا ، يتعين علينا دراسة اللغة لسبب عملى ، لأن سوء استعمالنا للغة يؤدى إلى صعوبات متنوعة فى التواصل بين الذوات تتجلى فى مشكلات نظرية المعنى ، ويفضى إلى صعوبات فى إدراك العالم الخارجى تتجسد فى مشكلات نظرية المعرفة والميتافيزيقا ؛ وليس من شك فى أن الفهم الصحيح للغة يؤدى إلى فهم دقيق لهذه المشكلات ومن ثم يمكن اجتنابها أو التغلب عليها ؛ ثالثا وأخيرا ، تدخل اللغة بطريقة أساسية فى الفكر والفعل والعلاقات الاجتماعية ، فهى « صورة الحياة » على حد تعبير فتجنشتين (١٨٨٩ – ١٩٥١) ، و « بيت الوجود » كما يصفها هيدجر (١٨٨٩ – ١٩٧٦) ،وهى « مرآة العقل » كما يقول العقليون ، وهى « فن اجتماعى » كما يصفها كواين ، ولا عجب بعد ذلك أن نقول كل الصيد فى جوف اللغة .

وإذا كانت اللغة تخضع لفحص عميق ودقيق من المختصين بدراستها من أمثال النحاة وعلماء اللغة والبلاغيين ، فإنها تمثل أيضا موضوعا للدراسة عند الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا ، ويهتم كل فريق من هؤلاء باللغة اهتماما خاصا يتباين عن اهتمام غيره بها ، فعلماء اللغة يعنون باللغة لذاتها ، أما الفلاسفة فيهتمون باللغة بغية اكتساب معرفة حولها تساعدهم فى معالجة المشكلات المحورية فى الفلسفة ، ويهتم علماء النفس باللغة لأنها تلقى ضوءا شارحا على تطور العمليات العقلية ووصفها ، أما علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فيهتمون باللغة بغية التوضيح الذى يمكن أن تقدمه حول بنية المجتمعات وطبيعة ثقافتها .

على أن اهتمام الفلسفة باللغة ليس وليد عصرنا ، وإنما هو قديم قدم الفلسفة ذاتها ،

فأنت تستطيع أن تلتمس اهتماما بعلوم اللغة والبلاغة والجدل عند السوفسطائيين الأوائل مثل بروتاجوراس ، وتجد بحثا عميقا يقدمه أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٨ ق .م) فى محاورة « اقراطليوس » ، أما فى فلسفة العصر الوسيط فتجد اهتماما بالغا باللغة عند فلاسفة الإسلام ويأتى على رأسهم الفارابى (المتوفى ٣٣٩ هـ) فى كتابه « الحروف » ، وفى الفلسفة الحديثة عنى الفلاسفة أصحاب الاتجاه العقلى باللغة مثل ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) وليبنتز (١٦٤٦ – ١٧١٦) وكذلك أصحاب الاتجاه التجريبى مثل لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) وباركلى (١٦٨٥ – ١٧٥٣) وهيوم (١٧١١ – ١٧٧٦) ومل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) .

غير أن البحث فى « فلسفة اللغة » قد بات يحتل مكان الصدر والمحراب فى الفلسفة المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من أن أعظم الكتابات الفلسفية المعاصرة وأقواها أثرًا تدور فى هذا المجال ، بدءًا من كتابات فريجه (١٨٤٨ – ١٩٢٥) وحتى كتابات كواين وديفيدسون (١٩١٧ –   ) ؛ ولو أننا نظرنا إلى الدوريات الفلسفية فى أعلى مستوياتها الآن ، لوجدنا أن موضوع فلسفة اللغة يأتى فى موضع الصدارة من اهتمامات الفلاسفة والباحثين فى الفلسفة ، ولكى نكون بمأمن من الزلل يجمل بنا أن نحدد مجال حكمنا السابق فنجعله قاصرًا على ما يصدر بالانجليزية ؛ ويتصل بفلسفة اللغة موضوع آخر على درجة كبيرة من الأهمية فى الفلسفة المعاصرة ألا وهو « فلسفة المنطق » ويرتبط الموضوعان معًا بوشائج قربى وصلات حميمة عند فيلسوفنا كواين ، فما هى « فلسفة اللغة » ؟ وما هى « فلسفة المنطق » ؟

يحسن بنا أن نميز بين عدة مصطلحات طالما يحدث خلط بينها وهى « فلسفة اللغة » Philosophy of Language من ناحية ، و « الفلسفة اللغوية » Linguistic Philosophy و « التحليل اللغوى » Linguistic Analysis من ناحية ثانية ، و « فلسفة علم اللغة » Philosophy of Linguistics من ناحية ثالثة ؛ فلسفة اللغة هى محاولة لتقديم أوصاف فلسفية لملامح عامة فى اللغة من قبيل الإشارة والمعنى والصدق ، ولا ترتبط بعناصر محددة فى لغة بعينها ، أو بالأحرى فى لسان معين ، اللهم إلا بضورة عارضة ، وهى بذلك اسم لمبحث من مباحث الفلسفة ، فهى جزء من الفلسفة يصب جل اهتمامه على مشكلات تثيرها اللغة ذاتها ، وتبعًا لذلك لا تعد فلسفة اللغة دراسة للغة من حيث هى كذلك ، بل هى حديث فلسفى « حول » اللغة وليست من بين ما يقال « فى » علم اللغة Linguistics

الذى هو دراسة علمية للغة من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وغيرها .

أما مصطلح « الفلسفة اللغوية » فإنه لا يزيد – شأنه فى ذلك شأن مصطلح « التحليل اللغوى » – على أن يكون « منهجًا » يمكن استخدامه لحل مشكلات تظهر فى الميتافيزيقا والأخلاق والمعرفة وغيرها من مباحث الفلسفة ؛ إذ يعتقد الفيلسوف اللغوى بأننا نستطيع توضيح المشكلات الفلسفية التقليدية وحلها عندما نعيد طرحها فى صياغة لغوية ، فمثلاً ، بدلاً من أن نسأل ما الذى يجعل الفعل أخلاقيًا ؟ فإننا نعيد صياغة السؤال فى مجموعة من الأسئلة حول معنى أو استعمال تعبيرات من قبيل « خير » و « ينبغى » و « حق » و « واجب » و « الزام » وهلم جرا ؛ وفى حالة « المعرفة » يمكن فحص استعمال تعبيرات مثل « يعرف » و « يشك » و « يعتقد » و« يظن » وغيرها ؛ وفى مشكلة حرية الإرادة يمكن فحص استعمال كلمات من قبيل « يستطيع » و « إرادى » و « لا إرادى » .

وإلى جانب مصطلح فلسفة اللغة فى ناحية والفلسفة اللغوية والتحليل اللغوى فى ناحية ثانية ، يقف مصطلح فلسفة علم اللغة فى ناحية ثالثة ، فماذا عسى أن يكون المراد بالمصطلح الأخير ؟ مما هو جدير بالإشارة أن فودر وكاتز قد ذهبا فى مقال « ما هو الخطأ فيما يتعلق بفلسفة اللغة ؟ ١٩٦٢ إلى وجهة نظر مفادها « بقدر ما يقدم علم اللغة الحالى نظرية تجريبية فى اللغة ، فلابد من تأويل فلسفة اللغة على أنها ليست شيئًا آخر غير فلسفة علم اللغة ، أى الفرع المماثل فى كل جانب لفلسفة علم النفس وفلسفة الرياضيات وفلسفة الفيزياء وهلم جرا »(١) ونحن لا نوافق فودر وكاتز على هذه المطابقة بين فلسفة اللغة وفلسفة علم اللغة لأن فيها تضييقا لمجال فلسفة اللغة لا يتفق مع فهمنا لها والذى يكشف عنه تعريفنا السابق .

على أن كاتز عاد ورفض هذه الوجهة من النظر فى كتابه « فلسفة اللغة » على أساس أن فلسفة اللغة تشكل مجالاً مختلفًا عن فلسفة علم اللغة ، إذ ينظر إلى فلسفة اللغة على أنها مجال فى البحث الفلسفى عن المعرفة المفهومية أحرى من أن تكون فرعًا من الفروع العديدة فى الفلسفة المعاصرة مثل فلسفة العلم وفلسفة الرياضيات وغيرهما ، إنها المجال

(١) - Fodor, J., and J. J. Katz, "What's Wrong with the Philosophy of Language ?" in Philosophy and Linguistics, edited by C. Lyas, Macmillan, St. Martin's Press, 1971, p. 280.

الذى يسعى إلى كشف ما يمكن كشفه حول المعرفة المفهومية من الطريقة التى يتم بها التعبير عن هذه المعرفة وتوصيلها فى اللغة ؛ وتبعًا لذلك فإن المقدمة الأساسية لفلسفة اللغة هى أن هناك علاقة قوية بين صورة اللغة ومحتواها وصورة عملية التصور ومحتواها ، ومن ثم فإن المهمة الخاصة لفلسفة اللغة هى كشف هذه العلاقة ووضع عمليات استدلال كائنة ما تكون حول بنية المعرفة المفهومية التى يمكن إقامتها على أساس ما نعرفه حول بنية اللغة ؛ وعلى هذا النحو تعد فلسفة اللغة مجالاً متميزًا عن فلسفة علم اللغة التى هى جزء من فلسفة العلم والتى يكون اهتمامها الأساسى هو فحص النظريات والمناهج والممارسة لدى عالم اللغة الوصفى(١) ؛ وثمة حالات من التداخل جديرة بالاعتبار بين هذين المجالين ، ولكن هذا التداخل لا يبيح لنا أن نجمعها تحت اسم واحد « فمشكلات فلسفة اللغة تتطابق تطابقًا جزئيًا فقط مع مشكلات فلسفة علم اللغة ولكن لا يتضمن أى فرع منهما نظيره تضمنًا كليًا »(٢) .

ذلك هو مصطلح فلسفة اللغة وما يدور فى فلكه من مصطلحات ، وأما مصطلح « فلسفة المنطق » فيتضح بصورة أفضل بعد تحديدنا للمنطق نفسه ، فالمنطق دراسة نسقية للحقائق المنطقية ، وهو علم الاستدلال ويهتم بتمييز الحجج الصحيحة عن الحجج الباطلة ، وفلسفة المنطق هى بحث المشكلات الفلسفية التى يثيرها المنطق ، وتتمثل هذه المشكلات فى أسئلة من قبيل : ما الذى نعنيه بقولنا إن حجة ما صحيحة وأخرى باطلة ، وإن عبارة معينة صادقة منطقيًا ؟ أو بعبارة أخرى ما هو الصدق المنطقى أو الحقيقة المنطقية ؟ وما هى نظريات الصدق ، وما هى حوامل الصدق ؟ هل هى الجمل أم العبارات أم القضايا ؟

— ٢ —

هنالك مجالات فلسفية يبرز فيها اهتمام الفيلسوف باللغة ، وسوف نتناول ثلاثة منها هى الميتافيزيقا والمنطق ونظرية المعرفة ؛ ويمكن وصف الميتافيزيقا على وجه التقريب على

---

(١) - Katz, J.J., The Philosophy of Language, New York and London: Harber & Row, 1966, P. 4, and see alos J.M.E. Moravcsik, "Linguistics and Philosophy" in Current Trends in Linguistics, edited by, T.A. Sebeok, vol. 12, Mouton, The Hague. Paris, 1974, P. 5.

(٢) - Pelc, J., "The Place of the Philosophy of Language", in Contemporary Philosophy, A new survey, edited by G. Floisted, vol.1, Philosophy of Language and Philosophical Logic, The Hague, Boston: Martinus Nijhoff, 1981, P. 16.

أنها محاولة لصياغة الحقائق العامة إلى حد بعيد عن العالم ، بما فى ذلك سرد المقولات الأساسية التى تنتمى إليها الكائنات ووصف علاقاتها المتبادلة ، ولقد حاول بعض الفلاسفة الوصول إلى بعض هذه الحقائق العامة عن طريق بحث الملامح الأساسية فى اللغة التى نستعملها للكلام عن العالم ؛ فها هو أفلاطون يقول فى الكتاب العاشر من « الجمهورية » : « نفترض لكل مجموعة من الأفراد يجمعهم اسم مشترك ، مثالاً أو صورة مناظرة »[١] ؛ ولتوضيح هذه الملاحظات يلفت أفلاطون أنظارنا إلى ملمح عام فى اللغة مؤداه أنه من الممكن أن ينطبق اسم أو صفة معينة مثل « شجرة » و « حاد » بشكل صحيح وبنفس المغزى على مجموعة كبيرة من الأشياء الفردية المختلفة ، ويرى أن هذا لا يكون ممكنًا إلا إذا كان هنالك كائن واحد يسميه الحد العام موضوع البحث ، أى « الشجرية » و« الحادية » ، والذى يشارك فيه كل فرد من الأفراد ، ولو لم يكن ذلك هو الواقع ، فسوف يتعذر على الحد العام أن ينطبق على مجموعة من الأفراد المختلفين[٢] .

وظهرت فى الفلسفة المعاصرة نظرية عرفت باسم « الذرية المنطقية » LogicalAtomism دعا إليها رسل (١٨٧٢ — ١٩٧٠) وفتجنشتين ، ولقد ابتكر رسل هذا المصطلح كاسم أطلقه على فلسفته الخاصة التى أودعها مجموعة محاضراته التى نشرت تباعًا عامى ١٩١٧ — ١٩١٨ بعنوان « فلسفة الذرية المنطقية » ، وفى هذه المحاضرات يضع رسل المبدأ الآتى : « ... فى رمزية صحيحة منطقيًا يوجد دائمًا تطابق أساسى معين فى التركيب بين الواقعة والرمز الذى يمثلها ... ويتناظر التعقيد فى الرمز تناظرًا دقيقًا للغاية مع التعقيد فى الوقائع التى يرمز إليها »[٣] ؛ ولعلنا نلاحظ أن هذا التطابق فى التركيب لا يفترض بحيث يقوم بين أية لغة موجودة والتركيب الميتافيزيقى الأساسى للعالم ، ولكن يقوم فقط بين « اللغة الكاملة منطقيًا » والتركيب الميتافيزيقى ، والافتراض هنا أننا عندما نبتكر مثل هذه اللغة ، أو نكتسب فكرة تخطيطية على الأقل لما يشبه هذه اللغة ، فسوف يكون فى مقدورنا أن نستمد نتائج منوعة تتعلق بأنماط الوقائع التى منها بنى العالم ، وبنية كل

---

(١) أفلاطون : جمهورية أفلاطون ، ترجمة ودراسة د . فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٨٥ ، الكتاب العاشر ، فقرة ٥٩٦ ، ص ٥٣٠ .

(٢) - Alston, W.P., Philosophy of Languagc, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, Inc., 1967, PP. 1-2.

(٣) - Russell, B., Logic and Knowledge, edited by R.C. Marsh, London: George Allen & Unwin LTD., New York: The Macmillan Compeny, Third Impression, 1966, P. 197.

واحدة من هذه الوقائع ، وسوف نكتشف أنماطًا مختلفة من الجمل التى نملكها فى هذه اللغة بالنسبة لتقرير الوقائع ، على سبيل المثال ، جمل الموضوع والمحمول من قبيل « هذا الكتاب ثقيل » والجمل الوجودية مثل « هناك قلم على الورقة »[1] . وكل هذا يكشف عن مدى علاقة اللغة بالميتافيزيقا من خلال تحليل بنية اللغة والعالم .

والفرع الثانى الذى تتجلى فيه العناية باللغة هو المنطق ، والمنطق هو دراسة الاستدلال ، وهو على وجه الدقة محاولة لابتكار معايير لفصل الاستدلالات الصحيحة عن الاستدلالات الباطلة ؛ وطالما أن التدليل العقلى يتم نقله عن طريق اللغة ، فإن تحليل الاستدلالات يعتمد على العبارات التى تبرز كمقدمات ونتائج ، فدراسة المنطق تكشف عن الحقيقة القائلة إن صحة الاستدلال أو عدم صحته تعتمد على صورة العبارات التى تشكل المقدمات والنتيجة ، والمقصود بالصورة أنواع الحدود التى تتضمنها العبارات والطريقة التى ترتبط بها هذه الحدود فى العبارة[2] .

أما الفرع الثالث من فروع الفلسفة التى يظهر فيها الاهتمام باللغة فهو نظرية المعرفة ، وأبرز مشكلات هذا الفرع التى تعنى باللغة هى مشكلة المعرفة الأولية a priori ، والمعرفة الأولية هى المعرفة التى يفترضها العقل وتكون سابقة على التجربة ، مثل المعرفة التى نملكها فى الرياضيات ؛ ولقد بدا فهم طبيعة هذه المعرفة الأولية وتفسيرها أمرًا حير أذهان الفلاسفة ، إذ كيف نستطيع أن نعرف بيقين وبصرف النظر عن الملاحظة أن ٥ + ٥ = ١٠ دائمًا وبشكل ثابت ؟ والجواب عند أصحاب المذهب العقلى وبخاصة ديكارت أن المعرفة الأولية تتألف من حقائق خالدة أودعها الله فى العقل الإنسانى ، أما جواب أصحاب التجريبية المنطقية فيتمثل فى أن ما نقرره فى مثل هذه الحالات يكون صادقًا عن طريق التعريف ، أو يكون صادقًا بمقتضى معانى الكلمات المستخدمة ، أى أنه جزء مما نعنيه بـ (٥) و (٥) و (١٠) و (زائد) و (يساوى) أن ٥ زائد ٥ تساوى ١٠ ، أو قل إننا أمام تكافؤ بين تعبيرين ينشأ عن مجموعة من المواضعات اللغوية التى قيدت نفسى بها لضبط استعمالى للأعداد (٥) و (١٠) والعلاقات (+) و (=) ؛ وليس من شك فى أن هاتين الفكرتين عن المعرفة الأولية موضع خلاف ، لكن الذى يعنينا فى

(١) - Alston, W.P., Philosophy of Language, P. 3.

(٢) Ibid, P. 3.

هذا الخلاف فى المقام الأول هو أنه يفضى بنا إلى إثارة أسئلة حول ماهية « المعنى » الذى يمكن أن تتمتع به كلمة معينة أو عبارة معينة ، وكيف يمكن لعبارة معينة أن تكون صادقة بمقتضى معانى كلماتها فقط ، وعلى هذا النحو يولى الفيلسوف الباحث فى نظرية المعرفة عنايته باللغة وبخاصة مشكلة المعنى .

– ٣ –

ولو غضضنا النظر عن إسهامات فريجه ورسل فى فلسفة اللغة ، لوجدنا أن هناك شخصية محورية قامت بدور حاسم وبارز فى تطور هذه الفلسفة فى عصرنا ألا وهو فتجنشتين ، ولقد مرت فلسفته بتحول كبير الأمر الذى حدا بالباحثين إلى تصنيفها إلى مرحلتين أساسيتين : فتجنشتين المبكر وفتجنشتين المتأخر ، وهناك تيار من التطور يمتد من فتجنشتين المبكر عبر الوضعية المنطقية حتى يومنا الحالى فى كتابات كواين وديفيدسون ، وهذا لا يعنى أن المواقف داخل هذا التيار متشابهة أو متقاربة وإنما الذى يعنينا من زاوية فلسفة اللغة أن هذا التيار يهتم فى غالب الأمر بالعلاقة بين المعنى والصدق ، إذ أنه يعالج العلاقة بين اللغة والأشياء التى تدور حولها كلمات المتكلم ومن ثم يبحث فى شروط صدق الجمل أو محاولة تحديد هذا الصدق ؛ والسؤال الهام فى هذا التيار هو « ما هى شروط صدق المنطوق » ؟ ويرتبط هذا التيار ارتباطًا وثيقًا بفلسفة العلم ؛ أما التيار الثانى فيمثله فتجنشتين المتأخر ومدرسة اكسفورد أو فلاسفة اللغة العادية وأبرزهم رايل G. Ryle (١٩٠٠ – ١٩٧٦) وأوستن J.L. Austin ، (٩١١١ – ١٩٦٠) وستراوسون P. Strawson (١٩١٩–   ) ويمثل هذا التيار أيضًا جرايس H.P. Grice وسيرل J. Searle وغيرهما ؛ وعلى حين يحفل التيار الأول ببحث العلاقة بين اللغة والعالم ، نجد أن التيار الثانى يصب جل اهتمامه على العلاقة بين اللغة والمتكلم ، وهنا ينشأ الاهتمام بأسئلة تتعلق باستعمال اللغة ، وباللغة منظورًا إليها كجزء من السلوك الإنسانى والسؤال الأساسى فى هذا التيار هو: ما هى العلاقة بين المعنى والاستعمال ؟ ويخطئ المرء لو ظن أن هذين التيارين منفصلان كل الانفصال ، وإنما الأقرب إلى الصواب القول بأنهما يتداخلان ويتشابكان بطرائق شتى ، وبالإضافة إلى هذين التيارين فقد ظهر تيار ثالث ظهورًا بارزًا فى العقود الأخيرة من هذا القرن ألا وهو تيار علم اللغة كما تصوره كتابات

تشومسكي (١٩٢٨-) وماترتب عليه من تصور معين لفلسفة اللغة ظهر بصورة بارزة عند أتباعه مثل كاتز وفودر .

ويرد « تايلر بيرج » التيار الأول إلى فريجه والتيار الثانى إلى مور ، ويدخل ضمن التيار الأول رسل وفتجنشتين والوضعية المنطقية وكواين ، والتيار الثانى تمثله فلسفة اللغة العادية ، ويقول : « التقليد المستمد من فريجه أخذ العلم ، والمنطق والرياضيات كمصدر للالهام بالنسبة للفحص اللغوى والفلسفى ، على حين أن التقليد المستمد من مور أخذ الممارسة العادية على أنها المحك بالنسبة للحكم اللغوى والفلسفى »[1] ؛ وهذا صحيح إلى حد كبير ، ولكن الذى دفعنا إلى التركيز على فلسفة فتجنشتين كمصدر للتيارين المشار إليهما هو الأثر الكبير الذى تركه هذا الفيلسوف فى غيره من فلاسفة اللغة المعاصرين .

وسبيلنا الآن إلى تفصيل ما أوجزناه ؛ يناقش التيار الأول العلاقة بين اللغة والعالم ، والشخصية الأولى فيه هو فتجنشتين المبكر فى كتابه « رسالة منطقية فلسفية » ،ويتضح مفهوم فلسفة اللغة عند فتجنشتين من خلال فهمنا لوظيفة الفلسفة عنده ، فهو على خلاف بعض الفلاسفة لا يرى أن مهمة الفلسفة إضافة معرفة جديدة إلى معرفتنا ، بل توضيح ما نعرفه بالفعل ، ولذلك نراه يقول : « إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقى للأفكار ، فالفلسفة ليست نظرية من النظريات بل هى فاعلية ، ولذا يتكون العمل الفلسفى أساسًا من توضيحات ولا تكون نتيجة الفلسفة عددًا من القضايا الفلسفية ، إنما هى توضيح للقضايا ، فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة ، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة ، إذا جاز لنا هذا الوصف »[2] ؛ وعلى هذا النحو فإن مهمة الفلسفة التى لا مهمة سواها عند فتجنشتين هى توضيح منطق اللغة والفحص الدقيق لكيفية عملها ، إذ أن العجز عن فهم طريقة عمل لغتنا يؤدى إلى نوع من القلق اللغوى الذى يكشف عن ذاته فى إثارة مشكلات قد لا تكون فى حقيقتها مشكلات على الإطلاق .

---

(١) Burge, T., "Philosophy of Language and Mind: 1950-1990", The Philosophical Review, vol. 101, No. 1, January 1992, P. 12.

(٢) لو دفيج فتجنشتين رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة د . عزمى إسلام ، مكتبة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، الفقرة ١١٢ ر ٤ ، ص ٩١ .

ولو أنعمنا النظر فى المحاور الأساسية التى دار حولها بحث فتجنشتين فى « الرسالة » ، لوجدنا أنها تتمثل فى فكرته عن الذرية المنطقية والنظرية التصويرية للغة ، ونظريته فى طبيعة المعنى ، ونظرية دوال الصدق ، وفكرته عن الأنا وحدية ، بيد أن النظرية التصويرية إلى جانب الذرية المنطقية تمثلان لب لباب تلك « الرسالة » .

ويمكن فهم النظرية التصويرية فهمًا جيدًا إذا ألقينا نظرة سريعة على الذرية المنطقية ، والذرية المنطقية عند فتجنشتين هى نظرية عن القضايا ونظرية ميتافيزيقية فى آن واحد ، وذلك طالما أن افتراض رد العالم إلى وقائع ، لا إلى أشياء ، ذرية يتم التعبير عنها بالقضايا الأولية هو افتراض ميتافيزيقى فى صميمه ، وعلى هذا النحو يجوز تقديم مجموعتين متميزتين من الافتراضات ، الأولى هى افتراضات الذرية المنطقية ومن بينها[١] :

١ – افتراض التحليل القابل للانتهاء ، فالقضايا التى يتم تحليلها تمامًا تتألف فقط من أسماء بسيطة (والأسماء البسيطة غير قابلة للتحليل) .

٢ – افتراض الأسماء الفارغة من المعنى ؛ الأسماء البسيطة ليس لها معنى ولكنها ذات دلالة بالضرورة .

والمجموعة الثانية من الافتراضات هى افتراضات الذرية الميتافيزيقية وهى[٢] :

١ – تشكل الأشياء البسيطة جوهر العالم .

٢ – يتحدد وجود العالم عن طريق جميع الأشياء .

٣ – إن وجود واقعة ذرية معينة أو عدم وجودها مستقل منطقيًا عن وجود أية واقعة ذرية أخرى أو عدم وجودها .

وواضح أن الافتراضات الأولى تنصب على بنية اللغة على حين تنصب الثانية على بنية العالم ، ويسلك فتجنشتين فى تحليله طريقين متوازيين أحدهما تحليل العالم والآخر تحليل اللغة ، ويمضى فى تحليل العالم من الوقائع المركبة إلى الوقائع البسيطة التى لا تنطوى على وقائع أخرى إذ لا يمكن تجزئتها إلى ما هو أبسط منها ؛ وفى خط مواز يمضى فتجنشتين

(١) - Hacker, P.M.S., "The Rise and Fall of the Picture Theory", in I. Block (ed.) : Prespectives on the Philosophy of Wittgenstein, Cambridge, Massachusetts: the MIT Press, 1981, P. 93.

(٢) -Ibid, P. 95.

فى تحليل اللغة من قضايا تنحل إلى قضايا أولية ElementaryPropositions لا يمكن تجزئتها إلى ما هو أبسط منها ، وقوام القضية الأولية مجموعة من الأسماء ، والسؤال الآن هو : إذا كان تحليل العالم قد انتهى إلى أشياء وانتهى تحليل اللغة إلى أسماء ، فما هى العلاقة بين اللغة والعالم أو قل بين الأسماء والأشياء ؟ جواب ذلك هو النظرية التصويرية برمتها ؛ ومؤدى هذه النظرية أن اللغة تصوير للواقع ، والاسم الوارد فى القضية يمثل الشىء فى الواقعة ، والعلاقة بين الاسم والشىء هى علاقة واحد بواحد ، يقول فتجنشتين : « إننا نكون لأنفسنا صورا للوقائع »[١] و « القضية هى صورة للوجود الخارجى ، لأننى أعرف الواقعة التى جاءت لتمثيلها ، وذلك إذا فهمت القضية »[٢] .

ويخطئ المرء لو ظن أن القضية سلسلة أو قائمة من كلمات ، وإنما الأصح أنها ارتباط بين كلمات ، إذ « ليست القضية خليطًا من الكلمات (كما أن القطعة الموسيقية ليست خليطًا من النغمات) »[٣] ؛ وعلى هذا النحو يؤكد فتجنشتين على عنصر الترتيب فى القضية أو الجملة الذى يناظر عنصر التركيب فى الواقعة ، ويتضح ذلك لو تأملنا القضية أو الجملة القائلة « محمد ضرب عليًّا » ، فهى تتألف من أربعة عناصر هى محمد وعلىّ وعلاقة الضرب وترتيب الكلمات فى الجملة ، وتتألف الواقعة التى تكون هذه الجملة صورة أو رسمًا لها من أربعة عناصر هى شخص محمد وشخص علىّ والضرب وتركيب هذه العناصر ، أى أن محمدًا هو الذى قام بالضرب وأن عليًّا تلقاه وليس العكس .

وإذا كانت القضية صورة للواقع ،ويكمن صدق هذه الصورة أو كذبها فى مدى اتفاقها أو اختلافها مع الواقع ، فمن الضرورى مقارنة القضية بالواقعة ، تلك المقارنة التى ستكشف عن صدق القضية أو كذبها ، فإذا كانت الصورة مطابقة للواقع كانت القضية صادقة وإذا كانت غير ذلك كانت كاذبة .

ولقد أفضت النظرية التصويرية فى اللغة إلى القول بعدة أفكار من بينها فكرة الأنا وحدية Solipsism ، وطالما أن القضية صورة للواقع ، فيلزم عن ذلك أن تكون حدود هذا الواقع هى حدود اللغة التى أعبر بها عنه ،« إن حدود لغتى تعنى حدود عالمى »[٤] ؛

(١) لودفيج فتجنشتين ، رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة د . عزمى إسلام ، الفقرة ١ ر ٢ ، ص ٦٧ .
(٢) المرجع السابق ، الفقرة ٠٢١ ر ٤ ، ص ٨٥ .
(٣) المرجع السابق ، الفقرة ١٤١ ر ٣ ، ص ٧٢ .

ويمكن إيجاز فكرة الأنا وحدية فى القول بأن ما يقع فى خبرتى أنا فقط هو ما يوجد ، وإن ما لا يقع فى خبرتى أنا لا يوجد ، وعلى هذا النحو يعتمد معنى العالم ووجوده على إدراك الإنسان له ، كما يتوقف معنى اللغة على ما يعبر به الإنسان عما يحدث فى حدود خبرته الخاصة ، ومن ثم تصبح حدود العالم هى حدود اللغة عند هذا الإنسان المدرك .

ولقد أثرت « رسالة » فتجنشتين تأثيرًا عظيمًا فى جماعة فينا ، إذ كانت « الرسالة » أحد الكتب التى تدارسها أعضاء الجماعة فيما بينهم ، وشكلت مناقشات جماعة فينا الإطار العام لحركة الوضعية المنطقية ، التى سميت بأسماء أخرى مثل « التجريبية المنطقية » و « التجريبية العلمية » و « الفلسفة الوضعية الجديدة » ؛ وضمت الوضعية المنطقية عدة أسماء من أبرزها شليك » مؤسس جماعة فينا وفايزمان (الذى أخذ فى فلسفته المتأخرة بموقف قريب من فتجنشتين المتأخر ومدرسة اكسفورد) و « كارناب » و « فايجل » و « كرافت » و « جودل » و « كاوفمان » و « اير » وغيرهم ، وجرى الاتفاق بين هؤلاء الفلاسفة على عدة مبادئ شكلت لب حركتهم الفلسفية وهى :

١ — الفلسفة تحليلية .
٢ — الفلسفة علمية .
٣ — القضايا إما تحليلية أو تركيبية .
٤ — معنى الجملة هو منهج التحقق منها (مبدأ التحقق) .
٥ — الميتافيزيقا لغو .

وسوف نقصر حديثنا الآن على المبدأين الثالث والرابع لأنهما يشكلان نظرية المعنى فى هذه الفلسفة .

ويمكن فهم هذين المبدأين فهمًا دقيقًا من خلال تصور هؤلاء الفلاسفة لوظيفة اللغة وكيفية عملها ، إذ ميزوا بين وظيفتين أساسيتين إحداهما هى الوظيفة المعرفية Cognitive أو الإخبارية Informative وهى التى تستخدم فيها اللغة للإشارة إلى وقائع وأشياء موجودة فى العالم ، ولا تزيد مهمة اللغة بذلك على أن تجئ تصويرًا لتلك الوقائع والأشياء ، أما الأخرى فهى الوظيفة غير المعرفية non-cognitive والانفعالية emotive ومؤداها أن المرء قد يستخدم اللغة للتعبير عن انفعالات ومشاعر تجول فى خاطره وتضطرب بها نفسه كما هو

(٤) المرجع السابق ، الفقرة ٦ ر ٥ ، ص ١٣٨ .

الحال مع الشاعر مثلاً ، ويدخل فى نطاق هذه الوظيفة غير المعرفية استعمالات معينة للغة تشغل بال الفيلسوف الذى يعالج مسائل الميتافيزيقا والأخلاق والجمال ؛ ولو اكتفى فلاسفة الوضعية المنطقية بالتمييز بين هاتين الوظيفتين ما كان هناك صراع واصطراع ، ولكنهم أصروا على أن العبارات التى تندرج فى إطار الوظيفة المعرفية أى العبارات التجريبية ، هى وحدها ذوات المعنى ، بالإضافة إلى قضايا تحصيل الحاصل ، أما العبارات التى تقع فى نطاق الوظيفة غير المعرفية مثل عبارات الميتافيزيقا والأخلاق والجمال فهى عبارات خالية من المعنى على أساس أننا لا نجد لها من وقائع العالم ما يجعلها صادقة أو كاذبة ، وعلى هذا النحو تحددت مهمة العبارة ذات المعنى فى وصف حالة من حالات الواقع ، ثم يأتى الحكم على هذه العبارة بالصدق أو بالكذب بناءً على قابليتها للتحقق .

ولا تخرج العبارة التى يمكن وصفها بالصدق أو بالكذب عن أحد نوعين فهى إما تحليلية أو تركيبية ، العبارة التحليلية هى التى لا تخبرنا بخبر جديد عن الموضوع الذى نتحدث عنه ، وإنما تحلل ذلك الموضوع إلى عناصره ، فإذا قلنا مثلاً « الأرملة امرأة مات زوجها » فنحن لا نقول شيئًا جديدًا يضاف إلى تعريف الأرملة ، إذ لو طلب منا شخص ما أن نحدد له معنى الأرملة أولاً قبل أن نقول عنها ما نقوله ، لاستحال علينا توضيح معناها دون أن نذكر هذه الصفة عنها ، أى أنها امرأة مات زوجها ، وهكذا لم يخبر قولنا بخبر جديد ، وإنما هو تحصيل حاصل أو عبارة تحليلية ؛ أما العبارة التركيبية فهى التى تخبرنا بخبر جديد عن الواقع ، إذا شئنا أن نتثبت من صدقه أو كذبه تعين علينا أن نقارن بين واقع الأشياء وما تزعمه العبارة ؛ فإذا قلنا « الحجرة مظلمة » ، فلسنا نقول بذلك معنى كلمة الحجرة ، وإنما نضيف إلى معناها خبرًا هو أنها مظلمة ، ولكن هب أن شخصًا طلب منا أن نحدد له معنى كلمة « الحجرة » قبل أن نقول له عنها ما نقول ، عندئذ نستطيع أن نشرح له معناها دون أن يكون قولنا إنها مظلمة جزءًا من معناها ، ومن ثم فقولنا عنها إنها مظلمة هو خبر جديد يتطلب تصديقه أو تكذيبه مراجعة الواقع ؛ العبارة التحليلية إذن عبارة تكرارية ، تحصيل حاصل ، يقينية ، محك الصدق فيها هو اتساق صدرها مع عجزها ، والعبارة التركيبية تجريبية ، احتمالية ، مقياس الصدق فيها تجربة الحواس ، والعبارات من هذين النوعين هى وحدها العبارات ذوات المعنى .

ويستند هؤلاء الفلاسفة فى التفرقة بين ما له معنى من العبارات وما لا معنى له على

مبدأ التحقق Verification Principle، يقول شليك : « كلما نسأل عن جملة « ماذا تعنى ؟ » فإننا نتوقع درسًا فيما يتعلق بالظروف التى تستعمل الجملة فيها ، ونود أن نصف الشروط التى سوف تشكل الجملة بمقتضاها قضية (صادقة) والشروط التى تجعلها (كاذبة) ... ومعنى القضية هو منهج تحققها »(١) .

ويقول فايزمان : « لكى يحصل المرء على فكرة عن معنى القضية ، فمن الضرورى أن يكون واضحًا بشأن الإجراء الذى يؤدى إلى تحديد صدقها ، وإذا لم يعرف المرء هذا الإجراء ، فلا يمكن له أن يفهم القضية أيضًا .. إن معنى القضية هو منهج تحققها »(٢) .

وقامت ضد مبدأ التحقق عدة اعتراضات من بينها الاعتراض الذى ينصب على منطوق المبدأ نفسه ومؤداه أن عبارة المبدأ ليست عبارة علمية يمكن التحقق منها ، وبالتالى يمكن رفض المبدأ باعتباره خاليًا من المعنى ؛ بيد أن هذه الحجة مردود عليها بما يسمى بنظرية الأنماط المنطقية التى مفادها أن العبارات اللغوية ليست من نمط واحد ، ومقياس الصدق فى أحد هذه الأنماط ليس هو مقياسه فى النمط الآخر ؛ تأمل العبارتين : « انكسر الزجاج لأن الرياح عصفت به » و « لكل حادثة سبب » ، فإذا وصفنا العبارة الأولى على أنها عبارة سببية ، إذن لا نستطيع أن نصف الثانية بالطريقة ذاتها ، إذ أن مبدأ السببية لا يمكن أن يكون هو نفسه عبارة سببية تتناظر مع العبارات التى تضرب له الأمثلة ؛ حقًا إن تسميته مبدأ هو التصريح بأنه ليس عبارة على الإطلاق ، وبطريقة مماثلة ، يجب أن لا نتوقع أن يكون مبدأ التحقق بذاته موضوعًا للمعيار الذى يتحكم فى رسم العبارات ذات المعنى ، فنحن لا نتوقع أن تزن آلة الوزن نفسها (٣) . ولكن إذا لم يكن مبدأ التحقق عبارة تقبل التحقق ، فماذا عساه أن يكون ؟ الجواب عند أصحاب الوضعية المنطقية أنه لا يجب أخذ المبدأ بوصفه « عبارة » بل بوصفه « اقتراحًا » أو « توصية » بألا نقبل القضايا على أنها ذوات معنى إلا إذا كانت قابلة للتحقق .

وهناك اعتراض آخر يتعلق بطبيعة الكائنات التى يطبق عليها المبدأ ، أهى الجمل أم

---

(١) - Schlick, M., "Meaning and Verification", in A. Lehrer and K. Lehrer (eds.): The Theory of Meaning, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice - Hall, 1970, PP. 100 - 101.

(٢) -Waismann, F., "Verification and Definition", in O. Hanfling (ed.), Essential Readings in Logical Positivism, Basil Blackwell, Oxford, 1981, P. 27.

(٣) - Evans, J. L., "On Meaning and Verification", Mind, vol. LXII, No. 245, 1953, P. 3.

القضايا أم العبارات ؟ لو أخذنا الجمل أولاً ، لوجدنا أن هناك صعوبة بشأن النظر إلى الجمل بوصفها صادقة أو كاذبة ، ومن ثم كونها قابلة للتحقق أو غير قابلة ، إذ لا يمكن للإنسان أن يتساءل ما إذا كانت الجملة « الباب مفتوح » صادقة أو كاذبة ، لأن الجملة ذاتها ربما تستعمل لقول شيء صادق فى مناسبة وكاذب فى أخرى ، صادق بالنسبة لمجتمع كلامى معين وكاذب بالنسبة لآخر ، وبالتالى فإن الكلام عن « منهج التحقق للجمل » لا معنى له ؛ وفى محاولة للتغلب على هذه الصعوبة ، استند أنصار المبدأ إلى مصطلح « القضية » ، وتبعًا لاستعمال هذا المصطلح نجد أن الجملة « إنها تمطر » المنطوقة يوم الجمعة سوف تعبر عن القضية ذاتها « كانت تمطر فى يوم الجمعة » المنطوقة يوم السبت أو الأحد ، فالقضية هى اسم يختص بالشيء الذى يظل صادقًا أو كاذبًا طوال مجموعة منوعة من الجمل وعند أكثر من متكلم وفى أكثر من مناسبة .

ولكن إذا كان مبدأ التحقق باستعماله كلمة « قضية » بدلاً من « جملة » قد تخلص من مشكلة ، فإنه سرعان ما يقع فى مشكلة أخرى تتعلق باستعمال المبدأ كمعيار لما هو ذو معنى ، إذ يذهب أنصار المبدأ إلى أن القضية التى ليس لها منهج للتحقق ليس لها معنى ، وهنا لا يفيد معنى أن نطبق هذا المعيار على القضايا ، طالما أن القضية ، بحكم تعريفها ، صادقة أو كاذبة ، وما يكون صادقًا أو كاذبًا لا يكون خاليًا من المعنى ، ومن ثم لا يصلح المبدأ كمعيار للتفرقة بين ما له معنى وما لا معنى له ، وعلى هذا النحو يجد أنصار مبدأ التحقق أنفسهم أمام معضلة لا سبيل إلى الخروج من قرنيها ، فإما أن يكون المبدأ حول الجمل ، وبالتالى لا يمكن طرح السؤال « هل هى صادقة » ؟ وإما أن يكون حول القضايا وبالتالى لا يمكن طرح السؤال « هل هى ذوات معنى » ؟ ، وخلاصة هذا الاعتراض هى أن المبدأ إما أنه غير ضرورى أو لا سبيل إلى تطبيقه[١] .

وهكذا أخذت الاعتراضات تتوالى ، وجاء كل واحد منها بمثابة حجر عثرة أمام قبول مبدأ التحقق واستعماله ، وكانت هذه الاعتراضات قوية إلى الحد الذى أجبر أنصار المبدأ إلى التنازل تدريجيًا عن كثير من الدعاوى التى ذهبوا إليها ، فقد ذهب اير وهو بصدد حديثه عن معيار القابلية للتحقق Criterion of Verifiability إلى أنه لا يشترط لكى

---

(١) - Hanfling O., Logical Positivism, Oxford: Basil Black Well, 1981, P. 16.

تكون العبارة ذات معنى أن يكون التحقق منها « تحققًا عمليًا » بل يكفى التحقق « من حيث المبدأ »[١] ؛ وليس من شك فى أن الصيغ المعدلة للمبدأ مثل « التحقق بالمعنى القوى » و « التحقق بالمعنى الضعيف » و « قابلية التحقق العملى » و « قابلية التحقق من حيث المبدأ » قد أظهرت مدى افتقاره إلى الدقة المرومة فيما يوهم أنه معيار صارم للمعنى ؛ ولقد دفع اخفاق نظرية التحقق فى المعنى بعض الفلاسفة إلى البحث عن نظرية ملائمة لطبيعة اللغة والبحث الفلسفى فيها ، وتجسدت نتيجة هذا البحث فى نظرية الاستعمال عند فتجنشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة اكسفورد كما سوف نوضح فيما بعد .

وعبر تدفق هذا التيار الأول من تيارات فلسفة اللغة والذى يحفل بالعلاقة بين اللغة والواقع يبرز اسهام فيلسوفنا كواين ، وإن شئت أن تدرك المكانة العالية التى يشغلها هذا الفيلسوف فى الفلسفة المعاصرة ، فاقرأ ما يقوله عنه الفلاسفة الآخرون ، وها هو اير ، على سبيل المثال ، يقول : « منذ وفاة فتجنشتين وتحول إهتمامات رسل الأساسية من الفلسفة إلى السياسة والفيلسوف الحى الذى أثر أعظم التأثير فى زملاءه – على الأقل فى العالم الناطق بالإنجليزية – هو الأمريكى ويلارد فان أورمان كواين »[٢] .

ويصف كواين فى مقالة « خمسة معالم للتجريبية » (ضمن كتاب « النظريات والأشياء » ١٩٨١) خمس نقاط حيث سلكت التجريبية مسلكًا نحو ما هو أفضل وذلك فى القرنين الماضيين ، وينظر كواين إلى فلسفته على أنها تمثل ذروة هذه العملية من التحسين ، وهذه النقاط أو المعالم هى[٣] :

١ – التحول من الأفكار إلى الكلمات .
٢ – تحول المركز الدلالى من الألفاظ إلى الجمل .
٣ – تحول المركز الدلالى من الجمل إلى أنساق الجمل .
٤ – الواحدية المنهجية ، أى التخلى عن ثنائية التحليلى – التركيبى .
٥ – المذهب الطبيعى ، أى التخلى عن هدف الفلسفة الأولى السابقة على العلم الطبيعى.

وسوف نقصر حديثنا هنا على المعلمين الثالث والرابع ، وذلك لسببين ، الأول أنهما

(١) - Ayer, A. J., Language, Truth and Logic, New York: Dover Publications, 1952, P. 36.
(٢) - Ayer, A., Philosophy in the Twentieth Century, London: Weidenfeld and Nicolson, 1982, P. 242.
(٣) - T. & T., P. 67.

يتصلان اتصالاً وثيقًا بحديثنا السابق عن اسهام الوضعية المنطقية فى فلسفة اللغة ، والثانى أنهما يمثلان جانبًا كبيرًا من التحسين الذى أضفاه كواين على التجريبية .

وفى سنة ١٩٥١ نشر كواين مقالته المشهورة « عقيدتان للتجريبية » وهى واحدة من الأعمال الكلاسيكية فى الفلسفة المعاصرة ، والعقيدة الأولى هى الاعتقاد بوجود تمييز أساسى وصارم بين العبارات التحليلية والعبارات التركيبية ، والعقيدة الثانية هى النزعة الردية Reductionism، أى الاعتقاد بأن كل عبارة ذات معنى تكون مكافئة لبناء منطقى معين على حدود تشير إلى خبرة مباشرة ؛ وهجوم كواين العنيف على هاتين العقيدتين وضع نهاية لحركة الوضعية المنطقية ، ولقد ظهر اعتراض كواين على التمييز التحليلى — التركيبى فى سنة ١٩٤٠ عندما كان كارناب وتارسكى وكواين فى جامعة هارفارد ، وسوف نوضح هذا فيما بعد (١ — ٢) .

على أن اعتراض كواين على التحليلية ربما يرجع إلى ما قبل هذا التاريخ ، ويمكن أن نلتمس هذا فى تقرير « اير » الذى يحدد فيه موقف كواين من أفكار دائرة فينا ، إذ يقول : « ولم تسمح الدائرة لكثير من الزائرين بحضور اجتماعاتها ، بيد أن الشخص الذى حضر هذه الاجتماعات فى الوقت الذى حضرتها أنا فيه هو كواين .. وكان كواين ناقدًا أكثر منى لأفكار الدائرة ، ولقد أثار بالفعل بعض الاعتراضات الحادة على تقريرها عن الحقائق الأولية فى مقالته « الصدق بالمواضعة »[١] سنة ١٩٣٦ .

ولقد ناقش كواين كل التعريفات المقترحة لمصطلح « تحليلى » ، وفصل القول وركزه على بعض التعريفات من قبيل : العبارة التحليلية هى العبارة التى تكون صادقة فقط بمقتضى معانى كلماتها وبشكل مستقل عن الواقع ، أو هى التى يمكن ردها إلى حقيقة منطقية عن طريق استبدال مرادفات بمرادفات أخرى ، أو هى التى يمكن ردها إلى حقيقة منطقية عن طريق التعريف ، وأثبت كواين أن هذه التعريفات دائرية ، أو أنها تعول على مفاهيم أكثر غموضًا من مفهوم التحليلية ذاته مثل المعنى والترادف .

وفيما يتعلق بالعقيذة الثانية وهى النزعة الردية نجد أنها تدخل فى نسيج مبدأ التحقق ، إذ يرى كواين أنه على الرغم من تنازل كارناب عن النزعة الردية الجذرية ، فإن عقيدة

---

(١) Ayer, A.J., Philosophy in the Twentieth Century. P. 139.

النزعة الردية واصلت تأثيرها على الفلاسفة التجريبيين وبقيت الفكرة التى تقول : « إنه بالنسبة لكل عبارة أو كل عبارة تركيبية ، يوجد مجال وحيد مرتبط من الحوادث الحسية التى سيضيف ظهور أية حادثة منها ترجيحًا لصدق العبارة ، وهناك مجال وحيد أيضًا من الحوادث الحسية الممكنة التى سيقلل ظهورها من هذا الترجيح ، وهذه الفكرة متضمنة بطبيعة الحال فى نظرية التحقق للمعنى ؛ وتواصل عقيدة النزعة الردية البقاء فى الافتراض الذى مؤداه أن كل عبارة – مأخوذة بمعزل عن أترابها – يمكن أن تقبل الإثبات أو اللا إثبات على الإطلاق ، واقتراحى المضاد .. هو أن عباراتنا حول العالم الخارجى تواجه محكمة الخبرة الحسية ليس على انفراد بل فقط كجسم متحد »[1] ؛ وهكذا يزعم كواين أن مناهج التأييد فى العلم لا يمكن ربطها بالجمل الفرادى ، كما يتطلب مبدأ التحقق ، وإنما يعتقد أن الجمل يمكن تأييدها أو تفنيدها فى سياق النظرية ككل ، وهذه هى النزعة الكلية Holism التى تتجلى فى المعلم الثالث من معالم التجريبية ألا وهو تحول المركز الدلالى من الجمل إلى أنساق الجمل .

وبالإضافة إلى الأفكار السابقة يمكن تصنيف فلسفة اللغة عند كواين إلى اتجاهين على وجه التقريب ، الأول يغلب عليه نقد المواقف الفلسفية التى يرى كواين أنها لا تقدم فهمًا أوضح وأفضل لكيفية دراسة اللغة والمشكلات الدلالية ، وصب جل نقده على التناول العقلى للغة وعلم الدلالة العقلى ؛ وفى الاتجاه الثانى ظهرت أفكار كواين المتميزة ، والتى أخذ فيها بالنزعة التجريبية – السلوكية فى دراسة اللغة واكتسابها والمسائل المتعلقة بها مثل المعنى والإشارة والصدق .

وفى مجرى التيار الأول تبرز فلسفة دونالد ديفيدسون الذى يحاول إثبات أن هناك علاقة حميمة بين المعنى والصدق ، وذلك فى مواضع كثيرة من كتاباته التى تأتى فى مقدمتها مقالة « الصدق والمعنى » ١٩٦٧ ؛ والحق أن هناك فكرة تتدفق فى نهر الفلسفة منذ فريجه مؤداها أن معنى الجملة يمكن تقديمه عن طريق تعيين الشروط التى تكون صادقة بمقتضاها ، وتمسك بهذه الفكرة ، بالإضافة إلى فريجه ، فتجنشتين المبكر وكارناب وكواين ، ثم يأتى ديفيدسون ليكون نصيرها الأكبر ؛ إذ قدم فتجنشتين تعبيرًا

---

(١) -F.L.P.V., PP. 40 - 41.

واضحًا عن هذه الفكرة فى الرسالة عندما قال : « ولأن نفهم معنى قضية ما ، هو أن نعرف ما هنالك إذا كانت صادقة »(١) ، ووضع كارناب فى كتاباته المتأخرة عبارة تكشف عن تلك الفكرة أيضًا ، وهى العبارة القائلة : « لأن نعرف معنى الجملة هو أن نعرف الحالات الممكنة التى ستكون فيها صادقة والحالات التى لا تكون كذلك »(٢).

وهناك نقطة ألمحنا إليها عند بيان اهتمام الميتافيزيقا باللغة وتجلت أيضًا فى النظرية التصويرية للغة عند فتجنشتين ألا وهى أن المرء عندما يفحص بنية اللغة فإنه يفحص بنية العالم ، ويوضح ديفيدسون هذه النقطة بقوله : « عندما نشارك فى اللغة ، بأى مغزى مطلوب للتواصل ، فإننا نشارك فى صورة للعالم لابد من أن تكون صادقة فى ملامحها الواسعة ، ويلزم عن هذا أنه باظهار الملامح الواسعة فى لغتنا ، فإننا نظهر الملامح الواسعة فى الواقع »(٣) ؛ وتبعًا لذلك يرى ديفيدسون أن الشىء الذى يتعين علينا العناية به فى اللغة ، إذا شئنا أن نقدم ملامح عامة للعالم ، هو ما يوجد بشكل عام بالنسبة لجملة فى اللغة بحيث تكون صادقة(٤) .

ويذهب ديفيدسون إلى أن أية نظرية فى المعنى لابد من أن تستوفى بعض الشروط مثل(٥) :

١ – يجب أن تمكننا من تقديم المعنى لكل جملة فى اللغة الطبيعية التى ندرسها (ولتكن س) .
٢ – يجب أن تبين كيف تتركب الجمل فى (س) تركيبًا دلاليًا من مخزون متناه من كلمات (س) عن طريق قواعد (س) لربط هذه الكلمات .
٣ – يجب أن تبين أن برهانها على كيف تعنى الجمل فى (س) يكون مؤسسًا على نفس مخزون المفاهيم الذى تتأسس عليه جمل (س) ذاتها .
٤ – يجب أن تكون قابلة للاختبار تجريبيًا .

ويؤكد ديفيدسون أن أية نظرية مقنعة فى المعنى لابد من أن تقدم تقريرًا حول اعتماد

(١) لودفيج فتجنشتين ، رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة د . عزمى إسلام ، فقرة ٢٤ ر ٤ ص ٨٦ .
(٢) - Carnap, R., Meaning and Necessity, Chicago: University of Chicago Press, 1956, P. 10.
(٣) - Davidson, D., Inquiries into Truth and Interpretation, Oxford: Clarendon Press, 1984, P. 199.
(٤) - Ibid, P. 201.
(٥) - Ibid, PP. 23, 27.

معانى الجمل فى (س) على معانى الكلمات المكونة لها ، وما لم يتم تقديم مثل هذا التقرير ، فلا يوجد تفسير للحقيقة القائلة بأن المرء يستطيع تعلم (س) ، ولا يوجد تفسير للحقيقة القائلة بأن الشخص عندما يتمكن من فهم ثروة لفظية متناهية ومجموعة محددة بشكل متناهى من القواعد ، يكون على استعداد لإنتاج أى عدد لا متناهى من الجمل وفهمه(١).

وتأتى كتابات فتجنشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة اكسفورد فى مقدمة ما يمثل التيار الثانى فى فلسفة اللغة المعاصرة ، والذى يركز جل عنايته على العلاقة بين اللغة والمتكلم ، ويهتم بأسئلة تختص بقصد المتكلم من وراء استعماله للغة ، وباللغة من حيث هى جزء من السلوك الإنسانى ، وقد تخلى فتجنشتين عن مجموعة كبيرة من الأفكار التى نادى بها فى « الرسالة » ومن أبرزها الفكرة القائلة إن الاسم يعنى الشيء والشيء هو معناه ، ونقد فى بداية « البحوث الفلسفية » وجهة النظر التى مؤداها أن معنى أية كلمة هو الشيء الذى تمثله أو تشير إليه ، إذ أن هذه الوجهة من النظر لا تكشف إلا عن جانب واحد من جوانب اللغة المتعددة وهو التسمية ، ومن ثم فهى قاصرة ، وفى محاولة للتغلب على هذا القصور عثر فتجنشتين على حيلة جديدة هى « ألعاب اللغة » بالإضافة إلى تشبيه آخر هو « الأداة » ؛ فاللغة نشاط يرتكز على استخدام الكلمات كأدوات ، وهو يقدم تشبيه الأداة ليلفت انتباهنا إلى تنوع استعمال الكلمات كما تتنوع الأدوات فى صندوق مثلاً ؛ أما بالنسبة لألعاب اللغة فإن فتجنشتين يقدم قائمة يدعونا فيها إلى تأمل كثرة هذه الألعاب فى الأمثلة الآتية : إصدار الأوامر والامتثال لها ، ووصف المظهر الخارجى لشيء ، والتقرير عن حادثة ، وتأليف النكات وسردها ، والتساؤل ، والسب ، والترحيب ، والتوسل(٢) ؛ والنتيجة التى يمكن أن نخلص إليها من تقديم مفهوم « لعبة اللغة » هى أن اللغة لا تقوم بوصف الواقع أو تصويره فحسب ، بل الصواب أنها تؤدى وظائف كثيرة منوعة يتبين من خلالها النظر إلى اللغة كجزء من الفاعلية الاجتماعية ، وطريقة للسلوك الإنسانى .

ويستنتج فتجنشتين من تصور اللغة كلعبة وأداة نتيجة مؤداها أن معنى الكلمة هو

---

(١) - Ibid, P. 17.

(٢) Wittgenstein, L., Philosophical Investigations, translated dy G.E.M. Anscomde, Oxford : Basil Blackwell, 1963, Part 1, Sec. 23, p, p.11

استعمالها فى ألعاب اللغة التى تقوم الكلمة بدور فيها ، إذ يقول : « فيما يتعلق بطائفة (كبيرة) من الحالات – وليس جميعها – التى تستعمل فيها كلمة (معنى) يمكن أن يتم تحديدها هكذا : معنى الكلمة هو استعمالها فى اللغة »[١] .

ميز فلاسفة الوضعية المنطقية ، كما أسلفنا الإشارة ، بين وظيفتين أساسيتين للغة إحداهما هى الوظيفة المعرفية ، وتقوم اللغة فيها بوصف الواقع وتتجلى فى العبارات الإخبارية التى تحتمل الصدق والكذب وتكون وحدها ذوات معنى ؛ والأخرى هى الوظيفة غير المعرفية ، وتظهر فى عبارات الأخلاق والجمال والميتافيزيقا وغيرها ؛ وذهب هؤلاء الفلاسفة إلى أن الوظيفة المشروعة بالنسبة للبحث الفلسفى والجديرة بعناية الفيلسوف هى الوصف ؛ وهنا جاء فلاسفة اكسفورد ليثبتوا خطأ هذه الوجهة من النظر ، لأن النظر إلى اللغة ووظيفتها على هذا النحو يمثل ما أسماه أوستن « المغالطة الوصفية » Descriptive Fallacy[٢] اذ ما الذى يمكن أن نفعله بالعبارات الأخرى التى لا تصف الواقع ، ولا تتعلق بالصدق أو الكذب ، ماذا نحن فاعلون بالجملة الطلبية (بالأمر والنهى) والجمل الاستفهامية وغيرها ، هل يمكن الحكم عليها بأنها خالية من المعنى ؟ إن جل كتابات فلاسفة اكسفورد ، على الرغم من تنوعها ، تمثل محاولة لدحض المغالطة الوصفية ، ويتضح هذا من مقال ستراوسون ، مثلاً ، « فى الإشارة » الذى رد فيه على نظرية الأوصاف المحددة عند رسل ، وحاول إثبات أن رسل قد أخطأ فى جانبين على الأقل : « أولاً لم يستطع أن يدرك أن الجملة يمكن أن يكون لها مجموعة منوعة من الاستعمالات ؛ ثانيًا ، اعتقد بصورة خاطئة أن كل جملة ذات معنى لابد من أن تكون صادقة أو كاذبة »[٣] .

على أن الرد الأساسى والمباشر على المغالطة الوصفية يتمثل فى نظرية الفعل الكلامى Speach act Theory عند أوستن الذى عمد إلى الكشف عن التعارض بين نوعين من

---

(١) - Ibid, Part 1, Sec 43, P. 20

(٢) - Austin, J.L., How To Do Things With Words, edited J.O. Urmson, New York, Oxford University Press, 1970, P. 3.

(٣) - Ammerman, R.R., (ed), Classics of Analytic Philospphy, , Bombay, New Delhi, Tata McGraw Hil l Publishing Company LTD, 1965, P. 315.

المنطوقات : الأول هو المنطقوقات التقريرية ، والثانى يتشابه مع الأول تشابهًا ظاهريا فى التركيب ، ولكنه لا يصف الواقع كما يصفه الأول ، ومع ذلك لا يمكن الزعم بأن المنطوقات الداخلة فيه خالية من المعنى ، وبعض أمثلتها هى(١) .

١ – إننى أقبل هذه المرأة لتكون لى زوجة شرعية .

٢ – إننى اسمى هذا المسجد باسم مسجد عمر بن عبد العزيز .

٣ – إننى اهب وأورث مكتبتى لتلميذى .

فالمنطوق الأول يتم التلفظ به عند الزواج ، والثانى عند تسمية المبانى ، والثالث عند التوصية ، وواضح أن هذه المنطوقات ليست خالية من المعنى ، بل هى ذوات معنى ، ومع ذلك فإنها :

(أ) لا (تصف) أى شىء على الإطلاق أو(تقرره) أو تثبته، وليست (صادقة أو كاذبة).

(ب) يعتبر النطق بالجملة أداء لفعل ، ومن ناحية ثانية لا يوصف بصورة عادية على أنه قول لشىء ما(٢) .

ويسمى أوستن هذا النمط من الجمل باسم الجمل الأدائية Perormative التى ترتكز على فكرة مفادها أن القول Saying يكون أحيانًا أداء لفعل Doing فعندما ينطق المرء الجملة فى المثال رقم (١) فى مراسم الزواج ، « لا يصف » الزواج ، وإنما ينغمس فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وعلى هذا النحو نظر فلاسفة اكسفورد إلى الوصف باعتباره وظيفة واحدة من بين وظائف كثيرة للغة يمكن أن يحفل بها البحث الفلسفى ، فهناك السؤال والأمر والنهى والتعجب والرجاء وهلم جرا ، الأمر الذى دفع هؤلاء الفلاسفة إلى البحث عن قواعد الاستعمال لهذه العبارة أو تلك تحت هذا الظرف أو ذاك ، ومن ثم بحث المعنى فى حدود الاستعمال اللغوى ، وتعد نظرية الاستعمال فى المعنى حجر الزاوية فى حركتهم الفلسفية .

وفى إطار التيار الثانى الذى يحفل ببحث العلاقة بين اللغة والمتكلم ، تأتى محاولة جرايس لتحليل المعنى اللغوى فى حدود نوع خاص من القصد الاتصالى Communicative Intention إذ يزعم جرايس أن المعنى اللغوى لابد من فهمه فى حدود ما يعنيه المتكلم

(١) - Austin, J.L., How To Do Things With Words, edited by J.O. Urmson, P.5

(٢) - Ibid, p. 5.

بالمنطوق ، ولابد من فهم هذا النوع الأخير من المعنى فى حدود أن يقصد المتكلم بمنطوقه أن يحدث تأثيرًا معينًا فى المستمع عن طريق إدراك المستمع لهذا القصد ؛ ولكى يوضح جرايس هذه الفكرة يميز بين نوعين من المعنى ، الأول هو المعنى الطبيعى **Natural Meaning** الذى تمثله الجمل الآتية :

(١) هذه البقع تعنى (تدل على) الحصباء .

(٢) هذه السحب تعنى (تدل على) المطر .

(٣) الدخان يعنى (يدل على) النار .

ومن الواضح أن استعمال هذه الجمل لا ينطوى على قصد ، لأن الأشياء الدالة فى هذه الجمل ، أى البقع والسحب والدخان ، لم تحدث بشكل قصدى من جانب شخص معين للدلالة على الحصباء والمطر والنار ، وإنما ترجع دلالتها لوجود علاقة علّية بين الدال والمدلول وهذا يعنى غياب القصد فى استعمال هذه الجمل التى تمثل المعنى الطبيعى .

أما النوع الثانى من المعنى فيسميه جرايس « المعنى غير الطبيعى » **non - natural meaning** وهذا المعنى يستلزم أن يحدث المتكلم صوتا (أو علامة أخرى) بقصد التأثير فى اعتقادات المستمع (أو حالة ذهنية أخرى له) من خلال « إدراك » **recogniting** هذا المستمع أن الصوت (أو العلامة) قد قدم بهذا القصد ، مثال ذلك إذا رأيت استاذى على جانب آخر من الشارع ولوحت له بيدى قائلاً : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ، فإننى بذلك اقصد إلقاء التحية عليه ، غير أن قصدى هذا لن يتحقق ما لم يدرك استاذى أننى أحييه ؛ ويقدم جرايس مثالاً يقول : « هذه الرنات الثلاث فى جرس الأتوبيس تعنى أن (الأتوبيس ممتلئ) »(١) ، هنا محصل الأتوبيس يرن الجرس ثلاث مرات بقصد حمل الناس على الاعتقاد بأن الأتوبيس ممتلئ من خلال « إدراكهم » أنه يرن الجرس ثلاث مرات بهذا القصد على وجه الدقة ؛ وهكذا برن الجرس فإن محصل الأتوبيس يعنى على نحو

---

(١) - Grice, H. P., "Meaning" Philosophical Review, vol.LXVI, 1957, PP. 377 - 388, "Utteres Meaning, Sentence - Meaning, and Word - Meaning", Foundations of Language, vol. IV, 1968, PP. 225 - 242, "Utterer's Meaning and Intentions", Philosphical Review, Vol.LXXVIII, 1969, PP. 147 - 177, Studies in the Way of Words, Cambridge: Harvard University Press,, 1989, and See also Schiffer, s.R., Meaning. Oxford: Clarendon Press, 1972, PP. 7 - 16.

وانظر أيضًا : د . عادل فخورى ، « الاقتضاء فى التداول اللسانى » عالم الفكر ، المجلد العشرون ، العدد الثالث ، أكتوبر – ديسمبر ، الكويت ، ١٩٨٩ ، ص ص ١٤١ – ١٦٦ .

غير طبيعى ، باصطلاح جرايس ، أنِ الأتوبيس ممتلئ وأنِ الزنابات الثلاث ذاتها تملك هذا المعنى غير الطبيعى .

ولعلنا نلاحظ من خلال عرض بعض الأفكار المحورية فى التيارين السابقين أن ثمة تعارضًا بين مدرسة الوضعية المنطقية ومدرسة اكسفورد فى تصورهما لتحليل اللغة ووظيفتها ومدى ملاءمتها للبحث الفلسفى ، وهو تعارض عام ينشأ عنه تعارض يختص بنوع اللغة التى ينصب عليها التحليل ، فاعتقد الوضعيون المناطقة أن صياغة الأسئلة الفلسفية فى اللغة الطبيعية أفضت إلى خلط لا أمل فى التخلص منه ، وذلك بسبب غموضها والتباسها واعتمادها على السياق وتضليلها ، ولقد أدرك هؤلاء الفلاسفة أمثال كارناب أن مهمتهم هى بناء لغة اصطناعية يمكن من خلالها اجتناب عيوب اللغة العادية ، وكان الأمل يحدوهم أن اللغة المثالية سوف تفعل للفلسفة ما فعلته اللغة الرمزية فى الرياضيات والمنطق بالنسبة للعلم .

بيد أن الرأى عند فلاسفة اكسفورد على خلاف ذلك إذ اعتقد هؤلاء الفلاسفة أن اللغة العادية الطبيعية ملائمة تمام الملائمة للأغراض الفلسفية ، وإن الضرر يكمن فى الانحراف عنها ، وقرروا أن كل – وإن شئت اعتدالاً فى القول قل معظم – مشكلات الفلسفة تنشأ من حقيقة أن الفلاسفة قد أساءوا استعمال بعض الكلمات الهامة مثل « يعرف » و« يرى » و« حر » و« صادق » و« سبب » ، وبسبب انحراف الفلاسفة عن الاستعمالات العادية لهذه الكلمات وقعوا فى أحاجى لا سبيل إلى حلها مثل التساؤل عما إذا كنا نستطيع أن نعرف ما يفكر فيه الآخرون ، ومن ثم اعتقد فلاسفة اللغة العادية أنه من غير الضرورى ومن المتعذر على حد سواء الإفلات من اللغة العادية عن طريق اللجوء إلى بناء لغات اصطناعية ، وكما قرر ستراوسون أن الهدف من توضيح المشكلات الفلسفية التى تحث على بناء لغة مثالية « سوف يبدو فارغًا ، ما لم يكن للنتائج التى تم التوصل إليها تأثير ما على المشكلات والصعوبات التى تنشأ فيما يتعلق بالمفاهيم التى يتعين توضيحها ؛ والآن فإن هذه المشكلات .. لها جذورها فى المفاهيم العادية غير المركبة ، وفى الطرق المحيرة والخادعة لعمل التعبيرات اللغوية التى يتم تشكيلها .. وإذا كانت الطريقة الواضحة لعمل المفاهيم المركبة هى القاء الضوء على المشكلات والصعوبات المتأصلة فى الطريقة غير الواضحة لعمل المفاهيم غير المركبة ، فيجب أن نظهر بوضوح

الطرق المحيرة والخادعة لعمل التعبيرات اللغوية التى يتم تشكيلها .. وإذا كانت الطريقة الواضحة لعمل المفاهيم المركبة هى القاء الضوء على المشكلات والصعوبات المتأصلة فى الطريقة غير الواضحة لعمل المفاهيم غير المركبة ، فيجب أن نظهر بوضوح الطرق التى ترتبط بها المفاهيم المركبة وتحيد عن المفاهيم غير المركبة ، وكيف يمكن الوصول إلى « هذه » النتيجة دون أن نصف وصفًا دقيقًا طرق عمل المفاهيم غير المركبة ، ولكن هذه المهمة هى على وجه الدقة مهمة وصف السلوك المنطقى للتعبيرات اللغوية فى اللغات الطبيعية ، وربما تصل بذاتها إلى الحل المروم للمشكلات والصعوبات المتأصلة فى الطريقة المحيرة والخادعة لعمل المفاهيم غير المركبة »(١) ؛ وعلى هذا النحو يذهب فلاسفة اللغة العادية إلى أن مهمة الفلسفة هى توضيح المفاهيم العادية التى تثير مشكلات فلسفية وذلك من خلال فحص الطرق التى يستعمل بها المتكلم لغته الطبيعية .

وفى إطار هذا التصور للبحث الفلسفى فى اللغة ذهب فتجنتشين إلى أن التفسير — باعتباره عملية رد للاختلافات السطحية إلى نظام تحتى — لا يمكن أن يقوم بدور فى البحث الفلسفى ، إذ يقول : « يجب أن لا يوجد شىء افتراضى فى أبحاثنا ، ويجب أن نتخلص من كل « تفسير » ويجب أن يحل محله الوصف وحده ، ويحصل هذا الوصف على ضوءه ، أى أثره ، من المشكلات الفلسفية ، وهذه المشكلات ليست مشكلات تجريبية بطبيعة الحال ، إذ يتم حلها بالأحرى عن طريق النظر إلى طرائق عمل لغتنا .. فالمشكلات لا تحل عن طريق تقديم حقائق جديدة ، بل بترتيب ما سبق أن عرفناه ، فالفلسفة معركة ضد افتتان عقولنا باللغة »(٢) .

وهنا تيار ثالث فى فلسفة اللغة يقوم على أساس النظرية التحويلية فى اللغة كما وضعها تشومسكى وأتباعه ، ويختلف عن التيارين السابقين فى جوانب معينة ويتفق معهما فى جوانب أخرى ، ويوضح كاتز التصور الذى يقدمه هذا التيار على النحو الآتى : « المهمة الخاصة لفلسفة اللغة ، والتى تميزها عن فروع الفلسفة الأخرى ، هى أنها تسعى لالقاء الضوء على بنية المعرفة المفهومية على أساس حالات من التبصر فى بنية اللغات التى يتم فيها التعبير عن هذه المعرفة وتوصيلها ، ومن ثم فإن تصور فلسفة اللغة يبدأ بفكرة ما عن : (١) ما هى اللغات الطبيعية ، وكيف تتم دراستها على أفضل وجه ؟ (٢) ما هى

(١) - Strawson, P.F., "Carrnap's View on Constructed Systems vs Natural Language in Analytic Philosophy", in The Philosophy of Rudolf Carnap, edited by P.A. Schilpp, La. Salle: Open Court, 1963, PP. 512 - 513.

(٢) - Wittgenstein, L. Philosophical Investigations, Part 1, Sec. 109, P. 47.

العلاقة السائدة بين البنية اللغوية والمفاهيم التى تثير مشكلات فلسفية ، (٣) إلى أى حد يمكن أن تكون نتائج دراسة اللغات الطبيعية ملائمة لصياغة حلول للمشكلات الفلسفية »[١] .

وتقبل المدرسة التحويلية وجهة نظر فيما يختص باللغة ودراستها مختلفة عن وجهة نظر الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة العادية ، ويكمن الاختلاف فى أن المدرسة التحويلية تنظر إلى إشارات هاتين المدرستين إلى البنية اللغوية على أنها إشارات إلى المظهر السطحى للغات وتنظر إلى إشاراتها الخاصة بوصفها إشارات إلى الواقع التحتى حيث توجد العلاقات اللغوية الهامة[٢] .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الأساسى ، فإن هناك مجالات تتفق فيها المدرسة التحويلية مع كل مدرسة من هاتين المدرستين ، إذ تتفق المدرسة التحويلية مع الوضعية المنطقية فى البحث عن نظرية لبنية لغوية تتخذ صورة النسق الذى تتم صياغته ولكنها تشترط أن تكون النظرية التى تتم صياغتها نظرية عن بنية لغوية فى لغة طبيعية وليست لغة اصطناعية ، وعلى هذا النحو فإن القواعد الصورية للنظرية يجب أن تمثل العلاقات الواقعية فى اللغة التى تكمن تحت ربطها للصوت والمعنى ، وبالتالى تتفق المدرسة التحويلية مع مدرسة اللغة العادية فى الإصرار على وصف طرائق عمل المفاهيم غير المركبة وصفًا دقيقًا ، كما قرر ستروسون ، فى حدود الوصف الدقيق للسلوك المنطقى للتعبير اللغوى فى اللغات الطبيعية ، فالظواهر التجريبية هى نقطة البدء فى بناء نظرية لغوية ونقطة النهاية فى تحققها على السواء ، ولكن المدرسة التحويلية ترى أن الوصف ليس كافيًا بذاته ، إذ أن الوصف هو المرحلة الأولى فى بناء التفسيرات التى تفترض بنى لغوية لا يمكن ملاحظتها فى الكلام ، فالوصف يقدم الدليل على هذه البنى اللغوية التحتية التى يتم تفسيرها بدورها عن طريق نظرية نحوية للبنى اللغوية التحتية[٣] .

وهكذا يرى أنصار المدرسة التحويلية أن تصورهم لفلسفة اللغة يتمتع بالمزايا التى يتمتع بها تصور الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة العادية سواء بسواء ، ولا تتعرض مدرستهم

---

(١) Katz, J.J., The Underlying Reality of Language and Its Philosophical Import. New York. Evanston: Harper & Row. 1971. P. 183.

(٢) - Ibib, P. 183.

(٣) - Ibid, PP. 183 - 184.

للنقائص التى تعانى منها كل مدرسة منهما ، فمن جهة التمتع بالمزايا نجد أن مزايا الصياغة والنظرية ترتبط بمزايا الاهتمام الواقعى باللغات الطبيعية والوصف المدقق للبنية اللغوية ؛ وارتباط المزايا على هذا النحو يفضى إلى اجتناب النقائص ، لأن التصور بهذا الوضع يتفادى تجاهل اللغة الطبيعية واللجوء إلى لغة اصطناعية من ناحية ، ويجتنب قصر التحليل اللغوى على الوصف غير الصورى للاستعمال الذى لا يكشف عن مبادئ تفسيرية للصورة اللغوية من ناحية أخرى(١) .

وعلى أساس رسم هذه الخطوط العريضة لأبرز الاتجاهات المعاصرة فى فلسفة اللغة ، يمكن أن نحدد أهم المشكلات التى تشكل مضمون هذا المبحث الفلسفى ، وتأتى الأسئلة التى تتعلق بالمعنى اللغوى فى مقدمة الأسئلة التى يعالجها فيلسوف اللغة مثل : ما هو المعنى ؟ وما هى نظريات المعنى ؟ وكيف نميز بين العبارة ذات المعنى والعبارة الخالية من المعنى ؟ وهل تتمتع عبارتان بنفس المعنى ؟ وبعبارة أخرى ، ما هو الترادف ؟ وهل يوجد ترادف بالفعل ؟ وما هو التشابه والاختلاف الدلالى ؟ وما هو اللبس الدلالى ؟ وما هو الصدق الدلالى (التحليلية) ؟ وما هى أنواع المعنى ، مثلاً ، هل هناك تمييز بين المعنى المعرفى Cognitive والمعنى الانفعالى Emotive ؟ وما هى العلاقة بين المعنى والمواقف القضوية مثل الاعتقاد والقصد ؟ وما هى العلاقة بين المعنى والترجمة ؟ وما هى العلاقة بين المعنى والصدق ، والمعنى والاستعمال ؟

وهناك أسئلة تختص باللغة ذاتها مثل : ما هى طبيعة اللغة ، وما وظائفها ؟ وهل هى توقيف أم اصطلاح ؟ وما هى النظريات المفسرة لعملية تعلم اللغة ؟ وكيف نفسر تعلم المرء للجانب الإشارى من اللغة ؟

وبالإضافة إلى تلكم الأسئلة التى تقع فى صميم فلسفة اللغة ، هناك مشكلات تربط فلسفة اللغة بالميتافيزيقا والمنطق ، مثل مشكلة العلاقة بين اللغة والعالم ، والتى يجسدها السؤال : ما هى العلاقة بين بنية اللغة وبنية الأشياء التى تستعمل اللغة للكلام حولها ؟ وفى إطار هذه المشكلة يعالج فيلسوف اللغة أسئلة أخرى مثل : هل اللغة الطبيعية العادية كافية للقيام بالوظائف المرجوة ، أم أنها غامضة وقاصرة ، ومن ثم يتعين علينا وضع لغات مثالية ؟

---

(١) - Ibid, PP. 184 - 185.

كما يحفل فيلسوف اللغة ببحث الملامح المحددة لبعض التعبيرات اللغوية التى يهتم بها الفلاسفة لأسباب خاصة من قبيل أسماء الأعلام ، والأوصاف المحددة ، والمفارقات ونظرية الأنماط المنطقية .

وبعد أن حددنا التيارات الأساسية الثلاثة فى فلسفة اللغة ، وحددنا موقع فيلسوفنا كواين داخل هذه التيارات حيث وجدناه ينتمى إلى التيار الأول ، فإننا نستطيع أن نتعامل مع فلسفة كواين ونحن على بصيرة من موقفنا .

الفصل الأول

نقد ثنائية التحليلى - التركيبى

١ - ١ التمييز التحليلى - التركيبى ، خلفية تاريخية .

١ - ٢ اعتراضات كواين :

١ - ٢ - ١ استبعاد المعانى .

١ - ٢ - ٢ التعريف .

١ - ٢ - ٣ قابلية الاستبدال .

١ - ٢ - ٤ القواعد الدلالية .

١ - ٢ - ٥ نزعة الكلية ورفض المعرفة الأولية .

١ - ٣ اعتراضات وايت .

١ - ٤ دفاع عن التمييز التحليلى - التركيبى .

١ - ٥ عودة كواين إلى التحليلية .

١ - ١ التمييز التحليلي - التركيبي ، خلفية تاريخية :

يعد التمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيبي ملمحًا هامًا من ملامح الفلسفة التحليلية في جانب كبير منها ، ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إنه الملمح الرئيس الذي لا ترتبط به الملامح الأخرى فحسب ، بل وتنتج عنه أيضًا ، ومن قبيل هذه الملامح القول بأن الفلسفة علمية والقول بأن الميتافيزيقا لغو ؛ بيد أن هذا التمييز قد تعرض منذ العقدين الخامس والسادس من هذا القرن لانتقادات عنيفة ظهرت ظهورًا أساسيًا ومنهجيًا في كتابات كواين ، و « مورتن وايت » ، و « نيلسون جودمان » ، وارتكزت هذه الانتقادات على عدم وضوح الأفكار الأساسية التي يقوم عليها التمييز مثل المعنى والترادف والتعريف وعدم التناقض والقواعد الدلالية ، زد على ذلك أن توضيح التمييز من خلال هذه الأفكار يظهر أنها دائرية وعقيمة ؛ وحسب هذه الانتقادات خطرًا أنها لو صحت لأفضت بصاحبها إلى التخلي عن الحصن الحصين للفلسفة التحليلية المعاصرة بصفة عامة ، ومدرسة الوضعية المنطقية على وجه الخصوص ؛ فلا عجب ، إذن ، أن تجد هذه الانتقادات من المعارضة سيلاً لم ينقطع من الدراسات التي تسعى إلى الدفاع عن هذا التمييز من خلال توضيح بعض الأفكار التي يقوم عليها تارة أو سد النقائص التي تعيبه تارة أخرى أو تفنيد الاعتراضات عليه تارة ثالثة .

وهناك ثلاث اعتبارات أساسية توضح الاهتمام بالدفاع عن هذا التمييز والسعي إلى توضيح أفكاره وهي :

١ - يستند هذا التمييز على إرث فلسفي ثري ، إذ تعتمد عليه كتابات ليبنتز وهيوم وكانط وفتجنشتين اعتمادًا واضحًا .

٢ - يقوم التمييز بدور محوري في الدراسات الابستمولوجية المعاصرة ، وينظر التجريبيون العلميون على وجه الخصوص إلى هذا التمييز بوصفه أداة أساسية لا سبيل إلى الاستغناء عنها .

٣ – إن أثارة الشكوك حول هذا التمييز من حيث هو أداة أساسية هكذا تمثل خطرًا يهدد جانبًا كبيرًا من الفلسفة التحليلية[١] .

على أن التمييز التحليلي – التركيبي ليس وليد عصرنا ، وإنما يضرب بجذوره في الماضي ؛ فعلى الرغم من أن كانط هو أول من وضع التمييز بين الأحكام التحليلية والتركيبية ، فإننا نجد أن الفلاسفة السابقين عليه قد وضعوا الفكرة المحورية التي يدور عليها هذا التمييز في صيغ تتفق في معناها وإن كانت تتباين في مبناها ؛ ومن هؤلاء الفلاسفة لوك وليبنتز وهيوم ، وتشكل كتاباتهم ، بالإضافة إلى كانط ، الأساس الذي جاءت الفلسفة التحليلية المعاصرة لتبني عليه وتمضي به إلى أبعد نتائجه المنطقية ؛ ويحسن بنا أن نبدأ بالنظر في بعض المحاولات المبكرة لصياغة التمييز التحليلي – التركيبي ، ذلك لأن النظر في هذه المحاولات سوف يساعد بلا شك في فهم الرؤية المعاصرة لتوضيح هذا التمييز وتقويمها .

١ – جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) :

يمكن أن نلتمس بذور التمييز بين العبارات التحليلية والتركيبية في كتابات جون لوك ، فقد أفسح لوك – مؤسس التجريبية في العصر الحديث – مجالاً للمعرفة الحدسية بين أنواع المعرفة في فلسفته ، إذ نراه يميز بين ثلاثة أنواع من المعرفة : المعرفة الحدسية Intuitive، والبرهانية Demonstrative، والحسية Sensitive؛ والمعرفة الحدسية هي التي يرى العقل فيها الحق ماثلاً أمامه كما تلقى العين الضوء أو التي ندركها بعقولنا مباشرة دون الاستعانة بأية فكرة وسيطة ؛ على أن التفاوت في درجة الوضوح لمعرفتنا يكمن في الطريقة المختلفة التي يدرك بها العقل الاتفاق أو الاختلاف على أفكاره ، « لأننا لو تأملنا في طرقنا الخاصة في التفكير سوف نجد أحيانًا أن العقل يدرك اتفاق فكرتين بذاتهما أو اختلافهما إدراكًا مباشرًا دون توسط فكرة أخرى ، وأعتقد أن هذا هو ما يجوز أن نسميه « بالمعرفة الحدسية » ذلك لأن العقل هنا لا يعاني أدنى مشقة في البرهنة أو الفحص ، وإنما يدرك الحقيقة كما تدرك العين الضوء بأن تنحو نحوه ؛ وهكذا يدرك العقل أن الأبيض ليس بأسود ، وأن الدائرة ليست مثلثًا ، وأن الثلاثة أكبر من الاثنين ،

---

(١) - Harris, J. F. and R. H. Severens, (eds. with an introduction): Analyticity, Selected Readings, Chicago: Quadrangle Books, 1970 introduction, PP. 3 - 4.

وأنها تساوى ٢ و ١ ... وهذا النوع من المعرفة هو النوع الأوضح والأكثر يقينًا فى مقدور العقل »[١] .

أما المعرفة البرهانية فهى التى لا يدرك العقل فيها أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين فكرتين إدراكًا مباشرًا ، بل يأتى الإدراك فى هذه الدرجة من المعرفة عن طريق أفكار أخرى وسيطة يسميها لوك بالبراهين ، وهذه المعرفة من حيث الوضوح واليقين أقل درجة من المعرفة الحدسية[٢] ؛ والنوع الثالث من المعرفة عند لوك هو المعرفة الحسية التى تتوقف على ما يوجد فى العالم الخارجى .

وطالما أن المعرفة الحدسية عند لوك لا تضيف إلى ما نعرفه شيئًا جديدًا ، ولا تزيد على أن تكون تحليلاً وتوضيحًا لما نعرفه بالفعل ، فإن لوك يسمى قضايا هذا النوع من المعرفة باسم القضايا التكرارية (أو التحليلية) trifling, ويعرض لوك هذه القضايا التكرارية على النحو الآتى :

أولا : كل القضايا القائمة على الهوية بشكل محض ، وهى التى يبدو بوضوح وللنظرة الأولى أنها لا تنطوى على خبر جديد ؛ إذ أنها لا تعدو أن تقول عن الشيء إنه هو هو ، ومثالها النفس هى النفس ، والروح هى الروح ، وهلم جرا[٣] .

ثانيًا : بعض القضايا التى يكون محمولها تعريفًا لموضوعها (أى التعريف بالجنس) وهى القضايا التى يكون فيها الجنس محمولاً على النوع ، مثل « الرصاص معدن » ؛ فكل الأفكار البسيطة التى نعبر عنها بالكلمة « معدن » ليست شيئًا أكثر مما فهمناه وعبرنا عنه بالاسم « رصاص » ؛ وبالفعل ، فإن الشخص الذى يعرف مغزى كلمة « معدن » ولا يعرف كلمة رصاص فإن أقصر طريقة لتوضيح مغزى كلمة رصاص بالنسبة له هى القول بأنه « معدن » ، والتى تعبر فى وقت واحد عن مختلف أفكارها البسيطة أحرى من أن تعددها واحدة بواحدة ، وتخبره بأنه جسم له ثقل حقيقى ، وقابل للانصهار ، وقابل للطرق[٤] .

---

(١) - Locke, J., An Essay Concerning Human Understanding, vol. 2, edited with an introduction by J.W. Yolton, Dent: London, Dent: London, Everyman's Library, Dutton: New York, 1961, Book IV, Ch. 11, Sec. 1, P. 138.

(٢) - Ibid, Book IV, Ch. 11, Sec. 2 - 3, P. 139.

(٣) - Ibid, Book IV, Ch. VIII, Sec. 2, P. 208.

(٤) - Ibid, Book IV, Ch. VIII, Sec. 4, PP. 211- 212.

وانظر د . عزمى إسلام ، جون لوك ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٤ .

ثالثًا : بعض القضايا التى يكون محمولها جزءًا من تعريف الموضوع (أى التعريف بالفصل) ، وبعبارة أخرى ، حمل أى جزء آخر من تعريف الحد المعرف على الاسم فى الفكرة المركبة الكاملة ، أو توكيد أية فكرة من الأفكار فى الفكرة المركبة ، مثال ذلك « كل الذهب قابل للانصهار » ، لأن قابلية الانصهار هى إحدى الأفكار البسيطة التى تشكل الفكرة المركبة التى تمثل الذهب ؛ وإذا كنت على علم بأن الاسم « ذهب » يمثل الفكرة المركبة من جسم ، وأصفر ، وثقيل ، وقابل للانصهار ، وقابل للطرق ، فإنك لن تخبرنى بشىء كثير عندما تضع اسم « ذهب » فى قضية فيما بعد وتقول : « كل الذهب قابل للانصهار »[1] ؛ وخلاصة القول هى أن المحمول فى مثل هذه القضايا يقتصر على جزء واحد من تعريف الموضوع ، وهو بذلك يكرره ولا يضيف إليه خبرًا جديدًا .

وهكذا فإن القضايا التكرارية أو التحليلية عند لوك إما أنها قضايا تقوم على « الهوية » فيكرر المحمول فيها الموضوع ، وصورتها « أ هى أ » ، أو قضايا تعتمد على « التعريف » ويكرر محمولها كل عناصر موضوعها أو بعضها بحيث تصبح صريحة بعد أن كانت ضمنية ، وصورتها « س هى ص » ، إذا كانت (ص) على كل عناصر (س) أو كانت (ص) من بين عناصر (س) ، وهى فى كل هذه الحالات لا تضيف خبرًا جديدًا يتطلب التحقق من صدقه أو كذبه الرجوع إلى الواقع ، وإضافة الخبر الجديد من شأن القضايا الإخبارية أو التركيبية .

٢ - ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦)

ذهب ليبنتز إلى أن معرفتنا العقلية تقوم برمتها على مبدأين أساسيين : مبدأ عدم التناقض ، ومبدأ السبب الكافى ؛ وعلى أساس مبدأ عدم التناقض « نحكم (بالكذب) على كل ما ينطوى على تناقض ، و (بالصدق) على كل ما يضاد الكذب أو يناقضه »[2] ، وبمقتضى مبدأ السبب الكافى نسلم بأنه لا يمكن التثبت من صدق واقعة أو وجودها ، ولا التثبت من صحة عبارة بغير أن يكون ثمة سبب كاف يجعلها على هذا النحو دون غيره ، وإن تعذر علينا فى أغلب الأحوال أن نتوصل إلى معرفة هذه الأسباب »[3] .

---

(١) - Ibid, Book IV, Ch. VIII, Sec. 5, P. 212.

وانظر د . عزمى إسلام ، جون لوك ، ص ٢٠٤ .

(٢) ليبنتز ، جوتفريد فيلهلم ، المونادولوجيا ، والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى ، ترجمة وتقديم وتعليق د . عبد الغفار مكاوى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الفقرة ٣١ ، ص ١٤٣ .

(٣) المرجع السابق ، فقرة ٣٢ ، ص ١٤٣ .

ويرتبط بهذين المبدأين تمييز واضح يقيمه ليبنتز بين نوعين من الحقائق : حقائق العقل Truths of Reson ، وحقائق الواقع Truths of Fact: حقائق العقل ضرورية وعكسها مستحيل ، وحقائق الواقع عرضية وعكسها ممكن »[1] ، وحقائق العقل ضرورية الصدق بمعنى أن صدقها لم يحدث أن ظهر فى لحظة بعينها من لحظات الزمن ثم تلاشى فى زمن آخر ، بل هى صادقة منذ الأزل وإلى الأبد فضلاً عن كونها صادقة فى كل مكان موجود أو ممكن الوجود ، أو هى على حد تعبير ليبنتز « صادقة فى جميع العوالم الممكنة » ؛ وهى ضرورية الصدق أيضًا بمعنى أنه يستحيل علينا تصور نقيضها ، والاستحالة التى نقصدها هنا هى الاستحالة المنطقية ؛ وتعتمد هذه الحقائق فى ضرورة صدقها على مبدأ عدم التناقض ، لأننا لو قلنا بنقيضها لوقعنا حتمًا فى خطأ ؛ ويمكن توضيح ذلك بنوعين من العبارات : النوع الأول من قبيل « الماء ماء » و « الهواء هواء » ، والنوع الثانى من قبيل « المثلث له ثلاثة أضلاع » أو « المربع له أربعة أضلاع » ؛ فإذا أخذنا العبارة الأخيرة وقلنا إن المربع له أربعة أضلاع ، فإننا نعد هذا القول من بين الحقائق العقلية لأن نقيضة مستحيل ، ذلك أننا لو قلنا إن المربع ليس له أربع أضلاع ، وقعنا فى تناقض ، لأن قولنا هذا يعنى أن المربع ليس مربعًا : وحقائق العقل متطابقة لأنها لا تفعل شيئًا ولكنها تكرر الشيء نفسه دون أن تخبرنا بخبر جديد .

هذه هى « حقائق العقل » فى ضرورة صدقها واستحالة نقيضها ، أما حقائق الواقع فصدقها عرضى » وعكسها ممكن » لأنها لا تعول على مبدأ عدم التناقض ، بل تعول على مبدأ السبب الكافى ؛ فلو قلنا عن الحديد إنه يتمدد بالحرارة عند درجة معينة ، كان قولنا حقيقة عرضية الصدق وليست ضرورية الصدق ، إذ ليس من التناقض ألا يتمدد الحديد عند هذه الدرجة المعينة من الحرارة ، وكان من الممكن ألا تكون هذه هى حالة الحديد ، ولكن الذى جعل حالة الحديد هذه هى حالة الواقع – دون الحالات الممكنة الأخرى – هو أن الله قد اختارها لتحقق عالمًا ممكنًا ، وبعبارة أخرى ، تعتمد حقائق الواقع على إرادة الله لتحقق عالمًا معينًا من العوالم الممكنة .

وإذا كانت حقائق العقل تعتمد فى معرفة صدقها على العقل ، فإن معرفة صدق حقائق الواقع تعتمد على الملاحظة الحسية ، يقول ليبنتز : « إننى أعترف بأن الحقائق العرضية ،

---

(١) المرجع السابق ، فقرة ٣٣ ، ص ١٤٤ .

أو حقائق الواقع ، تصل إلينا عن طريق الملاحظة والخبرة ، ولكننى أعتقد أن الحقائق الضرورية المشتقة تعتمد على التدليل العقلى ، أى على التعريفات أو الأفكار المرتبطة بالحقائق الأصلية ، والحقائق الأصلية (مثل مبدأ عدم التناقض) لا تأتى على الإطلاق من الحواس أو الخبرة ولا يمكن إقامة الدليل العقلى عليها تمامًا ، ولكنها تأتى من ضوء داخلى طبيعى ، وهذا هو ما أعنيه بالقول إنها فطرية »[1] .

إننا لو نقلنا تفرقة ليبنتز بين « حقائق العقل » و « حقائق الواقع » إلى مجال العبارات أو القضايا ، لكان فى وسعنا أن نشير ، دون خشية الجور على فلسفة ليبنتز ، إلى « حقائق العقل » على أنها « العبارات التحليلية » ، وإلى « حقائق الواقع » على أنها « العبارات التركيبية » ، أو ، على حد تعبير « برود » ، يمكن إدراك القضايا الضرورية مباشرة بحيث تكون تحليلية ويمكن ردها إلى قضايا تحليلية بتحليل محدود ، ولا يمكن جعل القضايا العرضية تحليلية بوضوح[2] لأنها تركيبية .

٣ – ديفد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦)

يعد ديفد هيوم الأب الحقيقى لحركة الوضعية المنطقية وذلك لأنه وضع لها الأساس الذى جاءت لتبنى عليه ، ويتمثل هذا الأساس فى التفرقة بين نوعين من المعرفة : المعرفة التى ينصب موضوعها على تحديد العلاقات القائمة بين الأفكار ، والمعرفة التى تخبرنا بخبر جديد عن أمور الواقع ؛ والعلوم الرياضية من النوع الأول ، والعلوم الطبيعية من النوع الثانى ، يقول هيوم : « ربما تنقسم جميع موضوعات الفكر أو البحث الإنسانى بصورة طبيعية إلى نوعين : « علاقات الأفكار » Relations of Ideas و « أمور الواقع » Matters of Fact؛ وعلوم الهندسة ، والجبر ، والحساب من النوع الأول ، وباختصار كل إثبات يكون يقينيًا على نحو حدسى أو برهانى عقلى ؛ فقولنا إن « المربع المنشأ على وتر المثلث قائم الزاوية مساو للمربعين المنشأين على الضلعين الآخرين » هو قضية تعبر عن علاقة بين هذه الأشكال ، وقولنا إن « ثلاثة مضروبة فى خمسة تساوى نصف الثلاثين »

---

(١) - Leibnitz, G.W., New Essays Concerning Human Understanding, Translated by L.G. Langiey, 3rd Edition, The Open Court Publishing Company, 1949, P. 22, See also P. 78, 490 FF.

(٢) - Broad, C.D., Leibnitz, An Introduction, edited by C. Lewy, Cambridge University Press, 1975, PP. 31-32.

هو قضية تعبر عن علاقة بين هذه الأعداد ؛ والقضايا من هذا النوع قابلة للكشف بمجرد عملية التفكير ، دون اعتماد على شيء يوجد في أى مكان في الكون ؛ فعلى الرغم من أنه لا توجد أبدًا في الطبيعة دائرة أو مثلث ، فإن الحقائق التى أقام عليها اقليدس البرهان العقلى سوف تحتفظ دائمًا بيقينها وذليلها .

أما أمور الواقع التى هى الموضوعات الثانية للتفكير الإنسانى فلا نتحقق منها بالطريقة ذاتها ، ولا يشبه دليلنا على صدقها ، مهما كان عظيمًا ، دليل علاقات الأفكار فى طبيعته ؛ فنقيض كل أمر من أمور الواقع لا يزال ممكنًا ، لأنه أمر لا يستلزم التناقض أبدا ، ويمكن للعقل أن يتصوره بنفس السهولة والوضوح كما لو كان منسجمًا مع الواقع إلى حد بعيد ، فالقضية القائلة : « الشمس لن تشرق غدًا » ليست أقل معقولية من الإثبات القائل : « إن الشمس ستشرق غدًا » ، ولا تنطوى على تناقض أكثر منه ، ولذلك عبثًا نحاول إقامة البرهان العقلى على كذب هذه القضية ، ولو جاء كذبها عن طريق البرهان العقلى ، فسوف يستلزم التناقض ، ولا يمكن للعقل أن يتصوره تصورًا واضحًا »(١) .

ولكن ، إذا كان الوضعيون المنطقيون على إتفاق مع هيوم فى مثل هذه الأصول ، فإنهم يختلفون معه فى مجال التحليل ، إذ أنه قد حلل الفكر الإنسانى تحليلاً « نفسيًا » على حين جاء تحليلهم لهذا الفكر تحليلاً « منطقيًا » فى لبه ولبابه ؛ فهيوم يتعقب بالتحليل الوحدات الأولية التى يتكون منها الفكر حيث يصل فى نهاية المطاف إلى العناصر الأولية المتمثلة فى الانطباعات والأفكار ، أما مدار التحليل عند أتباعه من المعاصرين فهو « اللغة » ووحدات التحليل الأولية عندهم هى « القضايا » وليست « الحالات النفسية » التى حفل بها هيوم(٢) .

وثمة اختلاف آخر بين هيوم وأتباعه من المعاصرين على ما يعد نموذجًا للمعرفة ؛ فهيوم ينظر إلى الرياضيات على أنها المجال الوحيد الذى نحتفظ فيه بالدقة والوضوح التام ، وبصفة عامة ، ترتبط « المعرفة » و « التفكير » و « الفهم » ارتباطًا كليًا وعلى وجه الحصر بعلاقات الأفكار بالنسبة لهيوم ، وهو بهذا المعنى يتابع التقليد العقلانى عند

---

(١) - Hume, D., An Enquiry Concerning Human Understanding, in Enquireis Concerning Human Understanding And Concerning The Principles of Morals, edited by L.A. Selby-Bigge, third Edition, Oxford: Clarendon Press, 1975, Sec. IV, Part 1, PP. 25 - 26.

(٢) انظر د. زكى نجيب محمود، ديفد هيوم، نوابغ الفكر الغربى (٧) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ، ص١٢ .

أفلاطون وديكارت وليبنتز ، فلا يستطيع الإنسان أن يقول أبدا إن لديه « معرفة » حول أمور الواقع ، وإنما يمكن أن يملك فحسب « اعتقادًا » أو « رأيًا » حول هذه الأمور ؛ ويعكس هذا قيمة معينة يضفيها هيوم على استعمال كلمة « معرفة » ، وهو رأى لا يشاركه فيه فلاسفة الوضعية المنطقية ؛ وعلى العكس تحتل القضايا القابلة للتحقق على نحو تجريبى المكانة البارزة فيما يعد « معرفة » عند هؤلاء الفلاسفة ، وتم ابعاد علاقات الأفكار عند هيوم إلى وضع تكون فيه بمثابة عبارات « تكرارية » أو « لا تقدم لنا معلومات » ؛ وتظهر الطرق المختلفة التى استعمل بها هيوم وأتباعه كلمة « معرفة » الأهمية النسبية التى تتمتع بها علاقات الأفكار (أو العبارات التحليلية) بالنسبة للنظريات الابستمولوجية عندهما ؛ فعلى حين تصلح علاقات الأفكار كنموذج للمعرفة برمتها وتقدم أساسًا للتفكير بأسره طبقًا لهيوم ، فإن أمور الواقع (التى يتم توكيدها عن طريق العبارات القابلة للتحقق على نحو تجريبى) تعد نموذجًا للمعرفة عند أتباعه من الوضعيين المناطقة[1] .

٤ – كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤)

يضع كانط فى مقدمة « نقد العقل الخالص » نوعين من التمييز : الأول هو التمييز بين ما هو « أولى » وما هو « بعدى » ، والثانى هو التمييز بين ما هو « تحليلى » وما هو « تركيبى » ، ويذهب كانط إلى أن المعرفة الأولية هى أية معرفة تكون « مستقلة عن التجربة » ومستقلة عن كل انطباعات الحواس ، وعندما يقول كانط إن المعرفة الأولية هى المعرفة المستقلة عن التجربة فإنه يعنى أنها مستقلة عن أية تجربة كائنة ما تكون ؛ « سوف نفهم المعرفة الأولية ، ليست المعرفة المستقلة عن هذه التجربة أو تلك ، بل المعرفة المستقلة استقلالاً مطلقًا عن كل تجربة »[2] ؛ ولكن ما الذى يعنيه كانط بالقول بأن المعرفة الأولية هى المعرفة المستقلة عن كل تجربة ؟ إن وجهة نظر كانط تحتجب فى عبارته التالية : « على الرغم من أن كل معرفتنا تبدأ بالتجربة ، فلا يلزم أن تستخلص كلها من التجربة » [3] ؛ ويمكن أن يشكل الجزء الأول من هذه العبارة أساسًا للتجريبية ، وبهذا المغزى فإن كل معارفنا « تبدأ من التجربة » ، ومع ذلك يقصد كانط التوكيد على

---

(١) - Harris, J.F. and R.H. Severens (eds.): Analyticity, Selected Readings, Introduction, PP. 9 - 10.

(٢) - Kant, I., Critique of Pure Reason, translated by N.K. Smith, London: Macmillan, New York: St Martin's Press, 1958, Introduction IV, P. 43.

(٣) - Ibid, P. 41.

أن أصل تصوراتنا لا يتعلق بما هو مطلوب للتحقق ؛ وبالتالى فإنه يقول إن « كل معرفتنا لا تستخلص من التجربة » ، ولعل إعادة الصياغة الدقيقة لعبارة كانط السابقة هى « ليست كل معرفتنا بحاجة إلى التحقق منها عن طريق الرجوع إلى الخبرة الحسية »(١) ؛ وإذا كان كانط قد حدد المعرفة الأولية بأنها معرفة مستقلة استقلالاً مطلقًا عن كل تجربة ، فمن الملاحظ أن هذا التحديد لمعنى كلمة « أولى » « تحديد سلبى وليس إيجابيًا »(٢) ؛ فالمعرفة الأولية من حيث هى مستقلة عن كل تجربة هى ما ليست بمعرفة بعدية ، والمعرفة البعدية هى التى تستمد من التجربة .

وهنا يدرك كانط أن المطلوب هو معيار نميز عن طريقه بما لا يترك مجالاً للشك بين المعرفة الخالصة (الأولية) والمعرفة التجريبية (البعدية) ، ويقدم كانط بالفعل معيارين لهذا الغرض ؛ المعيار الأول هو « الضرورة » : « إذا كانت لدينا قضية يعتقد بأنها « ضرورية » فإنها حكم « أولى » ، وإذا لم تكن مستمدة ، بالإضافة إلى ذلك ، من أية قضية اللهم إلا إذا كانت قضية لها أيضًا صحة الحكم الضرورى ، فإنها حكم « أولى » بصورة مطلقة »(٣) ويمكن تفسير عبارة كانط على أنها تقول إنه بالنسبة لكل س (حيث ينسحب س على فئة الأحكام) ، فإن س أولى إذا كان س ضروريًا ، أو إذا كان س يلزم بالاستدلال الدقيق فقط من أحكام ضرورية ؛ وسوف يعترض بالتأكيد خصوم التمييز التحليلى — التركيبى من المعاصرين اعتراضًا مفاده أن كانط يقدم فحسب « أساسًا متحولاً » ، أى انه قد أسس معياره فقط عن طريق إثارة مشكلة أخرى ، ويجوز أن يسأل كواين ووايت « ألا يتركنا تمييز كانط مع مشكلة تحديد ما تعنيه كلمة « ضرورى » ؟(٤)

والمعيار الآخر الذى يقدمه كانط لتحديد المعرفة الأولية هو « الكلية الصارمة » ، فنراه يقول : « إذا تم التفكير فى الحكم بكلية صارمة ، أى بطريقة لا تفسح المجال أمام الاستثناء كشىء ممكن ، فإنه لا يستمد من الخبرة ، بل هو أولى صحيح بصورة مطلقة »(٥) .

---

(١) - Harris, J.F., and R.H. Severens, Op. Cit., Interoduction, P. 11.

(٢) د. يحيى هويدى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٨١، ص١٠١.

(٣) - Kant, Op. Cit., P. 43.

(٤) - Harris, J. F. and R. H. Severens, Op. Cit., P. 12

(٥) - Kant, I., Op. Cit., P. 44 and See also Hamlyn, D. W., The Theory of Knowledge, Macmillan, 1970, PP. 251 - 252.

أما التمييز الثانى الذى يقدمه كانط فى مقدمة « نقد العقل الخالص » فهو بين الأحكام التحليلية والتركيبية ، وإذا كان التمييز بين المعرفة الأولية والبعدية يرتكز على مناهج التحقق ، فإن التمييز بين الأحكام التحليلية والتركيبية يعتمد على العلاقة الدلالية بين الموضوع والمحمول ؛ وهذه العلاقة من نوعين : إما أن ينتمى المحمول إلى الموضوع أو لا ينتمى إليه ، وفى الحالة الأولى يكون الحكم تحليليًا وفى الثانية يكون تركيبيًا ؛ يقول كانط : « فى جميع الأحكام التى توجد فيها علاقة بين الموضوع والمحمول ... فإن هذه العلاقة يمكن أن تكون بطريقتين مختلفتين ؛ إما أن المحمول ب ينتمى إلى الموضوع أ باعتباره شيئًا متضمنًا تضمنا خفيًا فى الموضوع أ ، أو أن ب يبتعد عن مجال أ ، وإن كان يرتبط به بالفعل ؛ واسمى الحكم فى الحالة الأولى تحليليًا ، وفى الأخرى تركيبيًا ، والأحكام التحليلية (الموجبة) هى إذن تلك الأحكام التى فيها يتم التفكير فى العلاقة بين الموضوع والمحمول من خلال الهوية ، على حين أن الأحكام الأخرى التى فيها يتم التفكير فى هذه العلاقة دون هوية لابد أن نسميها تركيبية ؛ ولا تضيف الأحكام الأولى شيئًا من خلال المحمول إلى مفهوم الموضوع ، ولكن تقسمه فحسب إلى تلك المفاهيم المكونة التى تعتبر فيه دائمًا ، وإن كانت بشكل غامض ، ويمكن تسميه هذه الأحكام أيضًا بالتفسيرية Explicative، ومن ناحية ثانية ، فإن الأحكام التركيبية تضيف إلى مفهوم الموضوع محمولاً لا يعد فيه بأية طريقة ، ولا يمكن أن يستخرجه التحليل منه بأية حال ، ومن ثم يجوز تسميتها موسِّعة Apliative »(١) .

ويسوق كانط بعض الأمثلة ليوضح ما يذهب إليه ، فمثال الحكم التحليلى هو « كل الأجسام ممتدة » والسبب فى كون هذا الحكم تحليليًا هو أننا نستخرج عن طريق التحليل مفهوم « الامتداد » من مفهوم « الجسم » دون حاجة إلى تجاوز الأول (أى الجسم) إلى أى مجال لاستنتاج الثانى (أى الامتداد) ومعرفته ، فوجود الجسم يعنى أنه ممتد ؛ أما مثال كانط للأحكام التركيبية فهو « كل الأجسام ثقيلة » والسبب فى كون هذا الحكم تركيبيًا هو أننى لا أستطيع أن استخرج عن طريق التحليل مفهوم « الثقل » من مفهوم « الجسم » ، بل لابد من العودة إلى التجربة لمعرفة هذا الحكم .

ونستدل مما أسلفناه أن كانط يقدم ثلاثة معايير للأحكام التحليلية ، إذ أنه ينظر إلى

---

(١) - Ibid, P. 48,

هذه الأحكام على أنها : (١) الأحكام التى فيها يكون المحمول « متضمنًا » فى الموضوع ، (٢) الأحكام التى فيها تكون العلاقة بين الموضوع والمحمول علاقة هوية ، (٣) الأحكام التى لا يمكن إنكارها دون الوقوع فى تناقض ؛ وفى مقابل الأحكام التحليلية تتميز الأحكام التركيبية بأنها (١) الأحكام التى يقع فيها المحمول بعيدًا عن الموضوع ، (٢) الأحكام التى لا تكون فيها العلاقة بين الموضوع والمحمول علاقة هوية ، (٣) الأحكام التى يمكن إنكارها دون وقوع فى تناقض .

ولعلنا نلاحظ أن كانط قد وضع تمييزه بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى فى حدود « الأحكام » و « المفاهيم » ، ولقد أضفى هذا عليه سمة سيكولوجية جعلته موضع نقد من قبل كثير من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين ؛ ففكرة الحكم غامضة بين فعل الحكم Act of Judgingوما يحكم عليه أو موضوع الحكم Object of Judging، والمشكلة هى كيف نوسع ما قاله كانط إلى الحد الذى ينطبق معه فقط على موضوع الحكم أو القضايا(١) .

على أن الذى تعرض لنقد أكثر من غيره فى تمييز كانط هو معاييره للأحكام التحليلية ، والأول منها على وجه الخصوص ، فإذا نظرنا إلى هذا المعيار وجدنا أنه يعتمد على فكرة « التضمن » ، وهنا يحق لنا أن نتساءل مع فايزمان : ما هو المقصود بالقول إن المحمول « متضمن فى » مفهوم الموضوع ، أو « يعد موجودًا فيه » ؟ إن كلمة « يتضمن » contain – حتى لو أخذناها بمعناها المكانى ، أى «ينطوى على» – تستعمل بطرق كثيرة مختلفة مثلما أقول « الكيلو جرام يتضمن ١٠٠٠ جرام » و « هذا الكتاب يتضمن بعض المعلومات القيمة » و « مقدمة الاستدلال تتضمن النتيجة » وما جرى مجراها ، فبأى معنى من هذه المعانى ، إذن ، يكون المحمول متضمنًا فى فكرة الموضوع ؟ ربما بمعنى مثالنا الأخير ؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فما هى على وجه الدقة العلاقة التى تظل بين مقدمة الاستدلال ونتيجته ؟ هل أقول ، مثلاً ، إننى كلما فكرت فى المقدمة افكر تفكيرًا « متزامنًا » فى النتيجة ؟ إن هذا غير دقيق بصورة واضحة ، إذ ربما افكر فى المقدمة دون أن ألاحظ نتيجة معينة ، فلا يمكن أن نأخذ القول بأن النتيجة متضمنة فى المقدمة على أنه يشير إلى أية علاقة سيكولوجية بين الاثنين إلى درجة أن التفكير فى الأول

(١) The Encyclopedia of Philosophy, vol. 1, edited by P. Edwards, New York: The Macmillan Company & The Free Press, 1967, Art "Analytic and Synthetic Statements", P. 105.

يلازمه أو يتبعه التفكير فى الثانى ؛ لا ، إننا فى دراستنا للعلاقة المنطقية بين أجزاء الاستدلال لا نفحص يقينًا ما الذى يحدث بالفعل ، أو ما الذى يجوز أن يحدث فى عقل الإنسان ، ويمكن أن نقول مثل هذا فى حالتنا ، وهى حالة الحكم التحليلى ؛ فالقول بأن المحمول متضمن فى الموضوع لا يمكن أخذه يقينًا ليعنى أن الإنسان عندما يفكر فى الموضوع سوف يفكر فى وقت واحد ، أو بعد ذلك بفترة قليلة ، فى المحمول[1] ؛ وصفوة القول هى أن استعمال كانط لفكرة « التضمن » فى تمييزه للأحكام التحليلية يترك المسألة على نحو مجازى ، زد على ذلك أن المعيار الثالث يعتمد على فكرة التناقض الذاتى وهى من بين الأفكار التى يزعم كواين أن بها حاجة إلى التوضيح قدر حاجة فكرة التحليلية ذاتها إليه .

وهناك صعوبة أخرى تواجه تعريف كانط للأحكام التحليلية وتنشأ من الألفاظ المستخدمة أيضًا فى هذا التعريف ؛ فالتعريف من حيث هو كذلك لا ينطبق إلا على العبارات التى توضع فى صيغة موضوع ومحمول ، وبذلك يتجاهل كانط الأنماط الأخرى من قبيل العبارات العلاقية والوجودية ، ناهيك عن الصيغة الرياضية مثل ٧ + ٥ = ١٢ ، والتى يستشهد بها كانط باعتبارها مثالاً للحكم التركيبى ، والتعريف ، إذن ، ضيق أكثر مما ينبغى[2] .

وإذا غضضنا النظر عن كل هذه الاعتراضات ، فإننا نستطيع أن نعبر عن تمييز كانط فى حدود المعنى ، فما نعنيه بمفهوم المحمول يكون متضمنًا بالفعل فيما نعنيه بمفهوم الموضوع ، الأمر الذى يفضى بنا إلى صيغة أقرب إلى الصيغ المعاصرة للتحليلية ومفادها أن العبارة تكون تحليلية عندما تكون صادقة بمقتضى معانى الكلمات المستخدمة وبشكل مستقل عن الواقع ، ويذهب كواين إلى مثل هذا التفسير كما سنشير فيما بعد .

على أن كانط لم يتوقف عند التمييز بين ما هو أولى وما هو بعدى ، والتمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، بل ربط بينهما أيضًا ، إذ ربط بين الحكم التحليلى والأولى على أساس أن كليهما مستقل عن التجربة كائنة ما تكون ، وربط بين الحكم التركيبى والبعدى

---

(١) - Waismann, F., How I See Philosophy, edited by R. Harre, London. Melbourne. Toronto: Macmillan, New York: St Martin's Press, 1968, PP. 123 - 124.

(٢) - Ibid, P. 124.

على أساس أن كليهما مستمد من التجربة ؛ وعلى الرغم من أن كانط يتفق مع السابقين عليه من أمثال ليبنتز وهيوم فى أن كل حكم تحليلى هو حكم أولى ، فإنه لا يجاريهم فى القول بأن كل حكم أولى هو حكم تحليلى دائمًا ، وإنما يذهب إلى إمكانية وجود أحكام تركيبية أولية ، وهو رأى يرفضه أصحاب الفلسفة التحليلية المعاصرة .

٥ – التمييز فى الفلسفة المعاصرة

كانت تلك الأفكار السابقة جميعها بمثابة المحور الذى دارت حوله محاولات الفلسفة التحليلية المعاصرة للتمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، بيد أن هذه المحاولات لا تنتمى برمتها إلى تيار واحد بعينه من تيارات الفلسفة التحليلية ، أعنى تيار الوضعية المنطقية ، وإنما يذهب إلى التمييز السابق ويدافع عنه فلاسفة لا ينتمون أصلاً إلى هذا التيار كما هو الحال مع فنجنشتين الذى أثرت رسالته فى الوضعية المنطقية مع أنه لم يكن عضوًا فيها ، وستراوسون الذى يعد من رواد مدرسة اكسفورد أو فلسفة اللغة العادية ، وجرايس الذى يقول بنظرية فى المعنى تختلف اختلافًا بعيدًا عن نظرية التحقق عند الوضعية المنطقية ، والتى ألمحنا إلى بعض جوانبها فى مدخل بحثنا الحالى ؛ وإذا أمعنا النظر فى الإرهاصات الأولى للتمييز فى الفلسفة المعاصرة ، وجدنا أنها تتجلى فى رسالة فنجنشتين ، وكتابات كارناب واير على سبيل المثال لا الحصر ، وسوف نعرض فيمايلى لأفكار كل واحد منهم .

يقسم فنجنشتين فى كتابه « رسالة منطقية فلسفية » القضايا إلى ثلاثة أنواع يوجزها فى قوله : « القضية إما تحصيل حاصل ، وإما هى قضية دالة على شىء ، أو هى تناقض »[١] ، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتى :

١ – قضايا تحصيل الحاصل هى قضايا المنطق والرياضيات ، وهى لا تعنى شيئًا لأنها لا تقول شيئًا ، وهى لا تقول شيئًا لأنها ليست صورة للواقع ، وبذلك يقول عنها فنجنشتين : « إنها هى القضايا التحليلية »[٢] ؛ وقضايا تحصيل الحاصل صادقة بالضرورة ،

---

(١) لودفيج فتجنشتين ، رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة د . عزمى إسلام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، فقرة ٥٢٥ ر ٥ ، ص ١٣٠ ، وانظر :

-Pitcher, G., The Philosophy of Wittgenstein, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, Inc., 1964, P. 139 FF.

-وانظر كذلك : د . عزمى إسلام ، لدفيج فتجنشتين ، دار المعارف ، القاهرة ، دون تاريخ ، ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) لودفيج فتجنشتين ، المرجع المذكور ، فقرة ١١ ر ٦ ، ص ١٤٢ .

أى أنها صادقة فى كل الظروف الممكنة ، ولا نستطيع تصورها بوصفها كاذبة ؛ « إن القضية تظهر ما تقوله (بحكم تركيبها) ، وبهذا لا تقول قضية تحصيل الحاصل شيئًا ... إذ ليس لتحصيل الحاصل شروط صدق ، لأنه صادق صدقًا غير مشروط »[1] .

ولتوضيح ذلك خذ المثال الآتى : هب أننا نقول إن « الكتاب صغير » ، وأننا نرمز لقولنا هذا بالرمز (ق) الذى يعبر عن واقعة معينة نرمز لها بالرمز (ل) ؛ وطالما أن احتمالات وجود هذه الواقعة أو عدم وجودها لا تزيد على احتمالين هما :

(أ) إما أن توجد الواقعة بوجود كتاب صغير .

(ب) وإما ألا توجد الواقعة بعدم وجود كتاب صغير .

فإن احتمالات صدق أو كذب القضية (ق) لا تزيد على احتمالين ، أى إما أن تكون (ق) صادقة فى حالة وجود (ل) أو كاذبة فى حالة عدم وجود (ل) ، وذلك تبعًا لقول فتجنشتين : « إن إمكانات صدق القضايا الأولية تعنى وجود الوقائع الذرية وعدم وجودها »[2] ؛ والآن إذا تناولنا قضايا الهوية وقضايا الوسط المرفوع باعتبارها تعبر عن قضايا تحصيل الحاصل ، وقلنا قضية الهوية الآتية : « الكتاب هو الكتاب » ، فإن قولنا هذا يكون صادقًا إذا قارناه بإمكانات صدق القضية (ق) ، أى يكون صادقًا سواءً كان الكتاب صغيرًا أو لم يكن صغيرًا ، لأنه لا يقول شيئًا عن الواقعة (ل) التى تعبر عنها القضية (ق) ، أى « الكتاب صغير » .

وقل مثل ذلك عن قضية الوسط المرفوع القائلة : « إما أن يكون الكتاب صغيرًا أو لا يكون كذلك » ، إذ أن هذه القضية تكون صادقة إذا قارناها بإمكانات صدق القضية (ق) ، فهى قضية صادقة إذا كانت (ق) صادقة ، أى إذا كان الكتاب صغيرًا ، وهى قضية صادقة أيضًا إذا كانت (ق) كاذبة ، أى إذا لم يكن الكتاب صغيرًا ، ولذلك يقول فتجنشتين : « أنا لا أعرف مثلاً ، أى شئ عن الطقس ، حين أعرف أن السماء إما أن تمطر أو لا تمطر »[3] .

---

(١) المرجع السابق ، فقرة ٤٦١ ر ٤ ، ص ١٠٤ –١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ، فقرة ٣ ر ٤ ، ص ١٠١ .
(٣) المرجع السابق ، فقرة ٤٦١ ر ٤ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ .

٢ – قضايا التناقض هى القضايا الكاذبة بالضرورة ، أى كاذبة فى جميع الأحوال الممكنة ، ولا يمكن أن نتصورها باعتبارها صادقة لأن « صدق التناقض مستحيل »[١] ، وهى تشترك مع تحصيل الحاصل فى أنها لا تقول شيئًا لأنها ليست صورة للواقع ، وتصورها القضية « الكتاب ليس هو الكتاب » ، وصورتها (س ليست هى س) أو القضية « الكتاب صغير وليس صغيرًا » ، وصورتها (س هى ص وليست ص) .

٣ – القضايا التركيبية ، وهى القضايا الدالة على شىء فى العالم الخارجى ، أو التى تقول شيئًا عن هذا العالم ، وتشمل القضايا التجريبية أو قضايا العلوم الطبيعية ، ويمكن تصور هذه القضايا على أنها صادقة أو كاذبة تبعًا لمدى اتفاقها مع احتمالات صدق القضايا الأولية أو إختلافها عنها ، أى أن صدقها أو كذبها يكون تجريبيًا طالما أنها تتكلم عن العالم الخارجى ؛ ومن هنا يتجلى الفرق بين القضايا التجريبية اللامنطقية على حد تعبير فتجنشتين والقضايا المنطقية ؛ فالقضايا المنطقية صادقة بالضرورة أو يقينية الصدق طالما أنها تحصيلات حاصل ، ويمكن أن ندرك صدق أية قضية منها من خلال النظر فى تركيب القضية ذاتها ، على حين أن القضايا التجريبية ممكنة الصدق ، وإذا شئنا أن نعرف صدق أية قضية منها فلابد من مطابقتها بالواقع الخارجى الذى تكون رسمًا له ؛ « إن العلامة المميزة للقضايا المنطقية هى أن الإنسان يمكنه أن يدرك فى الرمز وحده أنها صادقة ، وهذه الحقيقة تتضمن فى ذاتها كل فلسفة المنطق ، كما أنه من أهم الحقائق أيضًا أن صدق القضايا اللامنطقية أو كذبها لا يمكن التعرف عليه من مجرد القضايا وحدها »[٢] .

ولقد حذا كارناب حذو فتجنشتين فى تصنيف العبارات إلى ثلاثة أنواع هى عبارات تحصيل الحاصل ، وعبارات التناقض ، والعبارات التركيبية أو التجريبية ، إذ نجد أن العبارات ذات المعنى عند كارناب تنقسم إلى الأنواع الآتية :

أولاً : هناك عبارات تكون صادقة بمقتضى صورتها فقط (وهى عبارات تحصيل الحاصل تبعًا لفتجنشتين ، والتى تناظر تقريبًا « الأحكام التحليلية » عند كانط) وهى لا تقول شيئًا عن العالم ، وصيغ المنطق والرياضيات من هذا النوع .

---

(١) المرجع السابق ، فقرة ٤٦٤ ر ٤ ، ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، فقرة ١١٣ و ٦ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

ثانيًا : هناك حالات نفى هذه العبارات (عبارات التناقض) ، وهى متناقضة ذاتيًا ، ومن ثم تكون كاذبة بمقتضى صورتها .

ثالثًا : العبارات التجريبية التى قد تكون صادقة أو كاذبة وتنتمى إلى مجال العلم التجريبى(١).

والسمة الأساسية التى تتسم بها القضايا المنطقية عند كارناب هى أنها تحصيل حاصل ، وصحة القضية المنطقية تدرك من صورتها ، وكارناب يتابع فتجنشتين هنا أيضًا ، « تحصيل الحاصل صادق بمقتضى صورته فحسب »(٢) ؛ وما قلناه عن القضايا المنطقية يمكن أن نقول مثله عن قضايا الرياضيات ، فالرياضيات ، بوصفها فرعًا من فروع المنطق ، هى أيضًا تحصيل حاصل ، وقضايا الرياضيات تحليلية وليست قضايا أولية تركيبية ... ولقد واجهت التجريبية ، وهى وجهة النظر التى ترفض وجود معرفة أولية تركيبية ، صعوبة بالغة فى تفسير الرياضيات ، تلك الصعوبة التى لم يفلح جون استيورات مل فى التغلب عليها ، ويمكن التغلب على هذه الصعوبة عن طريق الحقيقة القائلة إن القضايا الرياضية لا هى أولية تجريبية ولا أولية تركيبية ، بل أولية تحليلية(٣) .

ويربط كارناب بين تقسيمه للعبارات ذات المعنى واستبعاد الميتافيزيقا ، حيث لا تندرج عبارات الميتافيزيقا تحت أى نوع من العبارات ذات المعنى ، فنراه يردف بعد تقسيمه السابق قائلاً : « وأية عبارة يروم المرء تركيبها ولا تقع ضمن هذه الأنواع تصبح تلقائيًا خالية من المعنى ، وطالما أن الميتافيزيقا لا تود أن تقرر قضايا تحليلية ، ولا تقع ضمن مجال العلم التجريبى ، فإنها مجبرة على استخدام كلمات لا يكون معيار التطبيق بالنسبة لها محددًا ومن ثم تكون خالية من المعنى ، أو تربط بطريقة أخرى كلمات ذات معنى بطريقة لا تنتج عبارة تحليلية (أو متناقضة) ولا عبارة تجريبية ، والعبارات الزائفة هى الناتج المحتوم فى الحالتين »(٤) .

وإذا غضضنا النظر عن عبارات التناقض على أساس أن التناقض هو نفى تحصيل الحاصل ،

---

(١) - Carnap, R. "The Eliminaion of Metaphysics Through Logical Analysis of Language", Translated From The German by A. Pap, in Ayer, A.J., (ed,): Logical Positivism, Glencoe, Illinois: The Free Press, 1959, p. 76.

(٢) - Carnap, R., "The Old and The New Logic", in Ayer, A.J., (ed.), Op. cit., P.142.

(٣) - Ibid, p. 143.

(٤) - Carnap, R., "The Elimination of Metaphysics Through Logical Analysis of Language", p. 76.

جاز لنا أن نقول إن هناك نوعين أساسيين من العبارات عند فتجنشتين وكارناب ؛ النوع الأول هو قضايا تحصيل الحاصل أو القضايا التحليلية ، والنوع الثانى هو القضايا التركيبية .

أما اير فإنه يقسم القضايا ذات المغزى إلى فئتين : القضايا التحليلية والقضايا التركيبية ، وهو يحذو فى ذلك حذو هيوم ، بل ويستعير مصطلحاته ، وها هو يقول : « إننى اقسم ، مثلما قسم هيوم ، جميع القضايا الحقيقية إلى فئتين : القضايا التى تتعلق « بعلاقات الأفكار » بمصطلح هيوم ، والقضايا التى تتعلق « بأمور الواقع » ؛ وتشمل الفئة الأولى القضايا الأولية » فى المنطق والرياضيات البحتة ، والتى اسلم بأنها ضرورية ويقينية لأنها تحليلية فقط ؛ أعنى أننى اؤكد أن السبب فى أن هذه القضايا لا يمكن دحضها فى الخبرة هو أنها لا تضع أى تقرير حول العالم التجريبى ، وإنما تسجل ببساطة تحديدنا لاستعمال الرموز بطريقة معينة ، ومن ناحية أخرى فإننى أعتقد فى أن القضايا الخاصة بأمور الواقع التجريبى هى فروض ، ويمكن أن تكون محتملة لكنها لا يمكن أن تكون يقينية مطلقًا »[١] .

ويذهب اير إلى أننا نستطيع أن نحتفظ بالأهمية المنطقية لتمييز كانط بين القضايا التحليلية والتركيبية ، بينما نجتنب المثالب وحالات اللبس التى تفسد التقرير الفعلى الذى يقدمه كانط عن هذا التمييز « إذا قلنا إن القضية تكون تحليلية عندما تعتمد صحتها فقط على تعريفات الرموز التى تنطوى عليها ، وتكون تركيبية عندما تعتمد صحتها على وقائع الخبرة »[٢] ؛ والقضية التحليلية تحصيل حاصل ، أى أنها لا تزودنا بأية معلومات عن العالم الخارجى ، ولا تنطوى على أى محتوى واقعى ، ومن ثم فهى يقينية الصدق لأن يقينها يستند إلى قواعد اللغة ولا يرتبط بوضع الأشياء فى العالم ، وهذا هو السبب فى كونها أولية ؛ بيد أن قولنا إن القضية التحليلية تحصيل حاصل وإنها خلو من كل محتوى واقعى لا يعنى أنها خالية من المعنى ، كما هو الحال بالنسبة لعبارات الميتافيزيقا ، بل هى ذات معنى بقدر ما تساعدنا فى فهم بعض الأمور اللغوية وتنير لنا الطريق الذى نستخدم به رموزًا معينة ، وإن شئت قل إنها تلقى الضوء على ما هو متضمن فى استعمالاتنا اللغوية ؛ ويضرب اير مثالاً للقضية التحليلية فيقول إن القضية القائلة « إما أن يكون بعض النمل طفيليًا أو لا يكون أى منه كذلك » هى قضية تحليلية ، لأننا لا نحتاج إلى

(١) - Ayer, A.J., Language, Truth and Logic, New York: Dover Publications, 1952, p. 31.

(٢) - Ibid, p. 78.

الملاحظة للتأكد من صحة ذلك ، وحسبنا أن نعرف وظيفة الكلمات « إما » و « أو » و « لا » ، وذلك لكى ندرك أن أية قضية فى صيغة « إما س صادقة أو س ليست صادقة » هى قضية صحيحة ، وبشكل مستقل عن الخبرة ؛ أما القضية التركيبية أو التجريبية عند اير فهى على خلاف القضية التحليلية ، تعتمد فى صدقها أو كذبها على الخبرة ، ومن ثم فإنها ليست يقينية الصدق ، وإنما تفتقر إلى خبرة إضافية تأتى فتؤيدها أو تدحضها ، وهكذا فإن القضايا التركيبية فروض قابلة للتحقق ، ويوضح اير مثل هذه القضايا عن طريق المثال الآتى : إن القضية القائلة : « هناك نمل أثبت نظامًا من العبودية » هى قضية تركيبية لأننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت صادقة أو كاذبة فحسب عن طريق النظر فى تعريفات الرموز التى تحتوى عليها ، وإنما علينا أن نلجأ إلى الملاحظة الفعلية لسلوك النمل للتحقق من ذلك[1] .

هذه هى بعض البذور الأولى للتميز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى فى الفلسفة المعاصرة ، والتى حاولت أن تميز القضية التحليلية بأنها تحصيل حاصل وأولية ، وبذلك اقتصرت فى ضرب الأمثلة لتوضيح ما هو تحليلى على قضايا المنطق والرياضيات ، بيد أن المحاولات الأخرى لتوضيح طبيعة التحليلية قد أضفت عليها سمات إضافية وأضافت إليها مفاهيم أخرى من قبيل المعنى والتعريف ، والترادف ، وهلم جرا ، ومن ثم لم تعد القضايا التحليلية قاصرة على قضايا المنطق والرياضيات ، بل أصبحت تضم « القضايا الدلالية » .

فإذا تناولنا مفهوم التعريف ، وجدنا أن تحديد العبارة التحليلية فى حدود هذا المفهوم يجئ على النحو الآتى : تكون العبارة تحليلية لو أمكن ردها ، عن طريق التعريفات فقط ، إلى حقيقة فى المنطق ، ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً فنقول إن العبارة القائلة « كل الكواكب تدور حول الشمس » هى عبارة تحليلية لأنه يمكن ردها إلى حقيقة منطقية ، وذلك تبعًا لتعريفنا للكوكب » بأنه « الجرم السماوى الذى يدور حول الشمس » ، وإذا وضعنا هذه العبارة الأخيرة بدلاً من الكوكب ، فإننا نحصل على الحقيقة المنطقية القائلة « كل الأجرام السماوية التى تدور حول الشمس تدور حول الشمس » ، ومفهوم التعريف هنا يستند على مفهوم آخر هو الترادف ؛ والحق أن المعنى باعتباره أحد المفاهيم التى ارتبطت بصلات حميمة مع عائلة التحليلية يستطيع أن يمكننا من تعريف العبارة التحليلية

---

(١) - Ibid, pp. 78-79.

عندما نقول العبارة التحليلية هى التى تكون صادقة بمقتضى معانى الكلمات التى تتضمنها .

وكان من نتائج ارتباط المفاهيم الجديدة بالمفاهيم الأساسية فى عائلة التحليلية أن ظهرت محاولات لتصنيف تعريفات العبارة التحليلية ؛ فنرى « انتونى كوينتون » يميز أربعة تفسيرات أساسية لكلمة « تحليلى » هى :

١ – فى التفسير الأول والواسع ، العبارة التحليلية هى العبارة الصادقة بمقتضى معانى الألفاظ التى تتضمنها .

٢ – كما فهمها ليبنتز وكانط ، العبارة التحليلية هى تحصيل حاصل تكرر ذاتها ، ولا تقرر أكثر مما تفترضه ، وهى مثال لقانون الهوية الذى يفضى انكاره إلى تناقض واضح .

٣ – كما فهمها الذين يقبلون وجهة نظر هوبز فى الصدق الضرورى ، العبارة التحليلية هى العبارة التى تكون صادقة بمقتضى مواصفات اللغة .

٤ – أخيرا ، كما فهمها فريجة ومعظم المناطقة المعاصرين العبارة التحليلية هى حقيقة فى المنطق أو تقبل الرد إلى هذه الحقيقة بمساعدة التعريفات(١) .

ويذهب « سوينبرن » إلى أن تعريفات التحليلية تنقسم إلى ثلاث مجموعات هى :

١ – التعريف من النوع الأول يعرف القضية التحليلية عن طريق الرجوع إلى أفكار الحقيقة المنطقية والترادف .

٢ – التعريف من النوع الثانى يعرف القضية التحليلية عن طريق الرجوع إلى استنتاج صدقها فقط من معانى الكلمات (أو القواعد الدلالية) .

٣ – التعريف من النوع الثالث يعرف القضية التحليلية فى حدود التناقض الذاتى أو عدم اتساق نفيها(٢) .

ولعلنا نلاحظ أن ثمة تكرارًا وايجازًا فى تصنيف هذه التعريفات ، فالتعريف الرابع عند كوينتون هو النوع الأول عند سوينبرن ، والأول والثالث عند كوينتون هما النوع الثانى عند سوينبرن ، والثانى عند كوينتون هو النوع الثالث عند سوينبرن .

---

(١) - Quinton, A., "The A Priori and The Analytic", in Slegh, R.C. (ed.): Necessary Truth, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentic- Hall, 1972, pp. 90-91.

(٢) - Swinburne, R.G., "Analyticity, Necessity and A Priority", Mind, vol. LXXXIV, No. 334, 1975, pp. 226-228.

على أن هناك محاولة أخرى أكثر تفصيلاً وشمولاً يقدمها « ماتيس » يذهب فيها إلى أن التعريفات الأساسية للتحليلية التى يبحثها كواين ووايت هى[١] :

١ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى أن تكون صادقة فى جميع العوالم الممكنة .

٢ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى أنها لا يمكن أن تكون كاذبة مهما حدث .

٣ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى أن تكون لا س متناقضة ذاتيًا .

٤ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى إذا كانت س صادقة بمقتضى المعانى وبشكل مستقل عن الواقع .

٥ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى إما أن تكون س صادقة منطقيًا أو يمكن تحويلها إلى حقيقة منطقية بوضع مرادفات بدلاً من مرادفات .

٦ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى أن تظهر س صادقة تحت أية « حالة وصف » .

٧ – تكون س تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى إن كان من الممكن رد س إلى حقيقة منطقية عن طريق التعريف .

٨ – تكون س تحليلية فى اللغة (ل) إذا كانت س صادقة وفقًا للقواعد الدلالية فى (ل) .

وها نحن قد أعددنا الساحة لصراع فلسفى بين كواين وقلة قليلة من أنصاره من ناحية وتقليد فلسفى طويل على قدر كبير من قوة الأثر وصلابة الرأى وكثرة الأنصار فى عصرنا من ناحية أخرى .

١ – ٢ اعتراضات كواين

لقد ظهرت بداية الخلاف على مفهوم التحليلية فى سنة ١٩٤٠ عندما كان كل من كارناب وتارسكى وكواين فى جامعة هارفارد ، ولطالما اجتمع الثلاثة (وكان ينضم إليهم أحيانًا ريتشاردز I. A. Richards، وجودمان N. Goodman وكولى J. Cppley) فى شقة كارناب على حديث فى الفلسفة ، واقترح كارناب قراءة مخطوط كتابه « مقدمة لعلم

(١) - Mates, B., "Analytic Sentences", Philosophical Review, vol. LX, No. 4, 1951, p. 525.

الدلالة » ليكون مادة للمناقشة وموضوعًا للحوار ، وعندما وصل كارناب فى قراءته إلى منتصف الصفحة الأولى التى يميز فيها بين الجمل التحليلية والتركيبية ، أخذ تارسكى وكواين يتجادلان مع كارناب على التحليلية ، واستمرت المناظرة والمجادلة خلال جلسات تالية دون حل ودون مواصلة قراءة مخطوط كتاب كارناب[١] ؛ وفى سنة ١٩٥١ نشر كواين مقالته المشهورة « عقيدتان للتجريبية » والتى تحددت فيها تمامًا معالم نقده للتمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى باعتباره العقيدة الأولى ، ونقد النزعة الردية بوصفها العقيدة الثانية ، وترتبط العقيدتان بعلاقة ما سوف نوضحها فى (١ - ٢ - ٥) .

والحق أن كواين يعالج كل تعريفات التحليلية التى أشرنا إليها فى تصنيف « ماتيس » ، على حين يبحث وايت بعضها فقط كما سوف يتبين من مناقشة أفكاره فى (١ - ٣) ؛ على أن معالجة كواين لهذه التعريفات لا تأتى بدرجة واحدة ، وإنما تتفاوت فى حظها من اهتمامه ، فنراه يبحث التعريفات (١) ، (٢) ، (٣) ، (٦) بايجاز شديد ، فالتعريفان الأول والثانى لا يقدمان لنا فهمًا للتحليلية طالما أن افتراض أن الظرف بالضرورة (ونظيره بشكل محتمل « مهما حدث ») يكون معقولاً هو افتراض أننا نملك بالفعل مغزى مقنعًا لمفهوم التحليلية ؛ أما التعريف الثالث فله قيمة تفسيرية ضئيلة فيما يرى كواين ، لأن فكرة التناقض الذاتى المطلوبة بالمعنى الواسع لهذا التعريف للتحليلية يعوزها التوضيح الذى تفتقر إليه فكرة التحليلية ذاتها ، والفكرتان وجهان لعملة واحدة مشكوك فيها[٢] ؛ والتعريف السادس ينسب إلى كارناب ، إذ اتجه كارناب إلى تفسير التحليلية عن طريق الاستعانة بما أطلق عليه اسم أوصاف الحالة State - Descriptions ، ووصف الحالة هو أى تخصيص شامل لقيم الصدق للعبارات الذرية أو غير المركبة فى اللغة ، ويفترض كارناب أن كل العبارات الأخرى فى اللغة تتألف من جملها المكونة عن طريق الوسائل المنطقية المألوفة ، وبمثل هذه الطريقة فإن قيمة الصدق لأية عبارة مركبة تكون ثابتة بالنسبة لكل وصف حالة عن طريق قوانين منطقية قابلة للتحديد ، ويتم تفسير العبارة إذن على أنها تحليلية عندما تظهر صادقة بمقتضى وصف كل حالة[٣] ؛ ولابد من أن

(١) - A.Q., p. 19, and T.M.L., p. 150, and See The Philosophy of Rudolf Carnap, edited by Schilpp, P.A., La Salle, Illions, Open Court, London, Cambridge University Press, first edition, 1963, pp. 35-36.

(٢) - .L.P.V., p. 20.

(٣) - Ibid, p. 23.

نلاحظ بعناية أن كارناب لم يرد أن يطبق هذا التعريف على اللغة الطبيعية ، بل يطبقه فحسب على اللغة الاصطناعية ، ونقطة كواين هنا هى أنه إذا طبقنا هذا التعريف على اللغة الطبيعية فسوف يكون غير مقنع ، طالما أنه يفترض مسبقًا أن الجمل الذرية فى اللغة تكون مستقلة الواحدة منها عن الأخرى ، وهو أمر لا يمكن أن يكون كذلك إذا كان هناك أى زوج من الترادف الذى يخرج عن نطاق المنطق ، وبالتالى فإن فئة الجمل التى يتم تعريفها عن طريق التعريف (٦) هى فى الحقيقة فئة الحقائق المنطقية فقط وليست الجمل التحليلية بأسرها .

« إن معيار التحليلية فى حدود أوصاف الحالة لا يصلح إلا بالنسبة للغات المجردة من زوج من المرادفات التى تخرج عن نطاق المنطق مثل « أعزب » و « رجل غير متزوج » ، أى زوج من المرادفات من النوع الذى يكون باعثًا على الفئة الثانية[١] من العبارات التحليلية ؛ والمعيار فى حدود وصف الحالة هو على أفضل الفروض إعادة بناء للحقيقة المنطقية وليس للتحليلية »[٢] ؛ وإذا كان كواين يفحص هذه التعريفات بايجاز هكذا ، فإنه يفصل القول إلى حد ما فى التعريفات الأخرى ، ويستهل فحصه بالتعريف الذى يرتكز على مفهوم المعنى (التعريف رقم ٥) .

١ -٢ - ١ استبعاد المعانى

لو أننا عدنا إلى تعريف كانط للعبارة التحليلية القائل إنها العبارة التى لا تسند إلى محمولها أكثر مما هو متضمن بالفعل فى الموضوع ، لوجدنا أن كواين ينقد هذا التعريف على أساس أنه يعانى من نقيصتين : الأولى أنه يحصر العبارات فى شكل موضوع ومحمول ، والثانية أنه يستعين بفكرة التضمن التى تترك الأمر على مستوى مجازى ، ولكن كواين يمضى خطوة أبعد ويرى أن قصد كانط ، الواضح من الاستعمال الذى يضعه لفكرة التحليلية أكثر من تعريفه لها ، يمكن صياغته على النحو الآتى : تكون العبارة تحليلية عندما تكون صادقة بمقتضى المعانى وبشكل مستقل عن الواقع[٣] .

ولو صح هذا التأويل – وهو صحيح إلى حد كبير – فإن فكرة المعنى تقوم بدور

---

(١) سوف نشير إليها فيما بعد .

(٢) - Ibid, pp. 23-24.

(٣) - Ibid, p. 21.

محورى فى تعريف التحليلية عند كانط وغيره من الفلاسفة المعاصرين الذين يناصرون التمييز ، ولن نقف هنا طويلاً عند نقد كواين للمعنى ، لأننا سوف نعالج هذا النقد بشىء من التفصيل فى الفصل الثالث ، وحسبنا أن نتناوله بالقدر الذى يفى بغرض نقد التمييز المشار إليه ؛ وعندما نفترض المعانى ، نستطيع النظر إلى العبارة « كل العزاب رجال غير متزوجين » على أنها تحليلية بقدر ما تكون معانى الكلمات « رجل غير متزوج » متضمنة فى معنى « أعزب » ، وبالتالى تكون هذه الكلمات مترادفة بالإضافة إلى أنها تشير إلى فئة بعينها من الموضوعات وتدل على نفس المعنى ؛ ولعل خلط المعنى بالإشارة يعد من بين الأشياء التى تدفعنا إلى الثقة فى وجود المعانى ، وهذا أمر يمكن إدراكه بسهولة فى النظرية الإشارية فى المعنى التى ترى أن الكلمة (أو الرمز) يكون لها معنى عندما تشير إلى موضوع معين ، ثم ننظر إلى هذا الموضوع على أنه معنى الكلمة .

ولكن فريجه وضع تفرقة هامة وحاسمة بين المعنى والإشارة وذلك فى بحثه « المعنى والإشارة » ، على أساس أنه قد يكون لكلمتين (أو تعبيرين) نفس الإشارة ، بينما لا يكون لهما معنى واحد بعينه ، بل معنيان مختلفان ، وقدم مثالاً هو « نجم الصباح » و « نجم المساء » ، فعلى الرغم من أنهما يشيران إلى نفس الموضوع وهو كوكب الزهرة ، فإنهما يختلفان فى المعنى ؛ وتدعى الحدود المفردة تسمية الكائنات ، سواء كانت عينية أم مجردة ، على حين لا تسمى الحدود العامة الكائنات وإنما تقال بحيث تكون صادقة بخصوص كائن ما أو آخر ؛ « وتسمى فئة كل الكائنات التى يكون الحد العام صادقًا بخصوصهم باسم ما صدق الحد ، والآن لكى نحذو حذو التقابل بين معنى الحد المفرد والكائن الذى يسميه ، لابد من أن نميز بصورة متساوية بين معنى الحد العام وما صدقه ، فالحدود العامة ، مثلاً ، « كائن ذو قلب » و « كائن بكليتين » ربما تكون متشابهة فى الماصدق ولكنها مختلفة فى المعنى »[1] ؛ ويفصل كواين بوضوح نظرية المعنى عن نظرية الإشارة ، ويرى أن النظرية الأولى تناقش أسئلة تتعلق بالمعانى ، والترادف ، والتحليلية وهلم جرا ، على حين تناقش النظرية الثانية أسئلة تدور حول الإشارة ، والصدق ، والانطولوجيا ، ويقتنع كواين اقتناعًا راسخًا بالأفكار التى تعالجها نظرية الإشارة ، بينما ينظر بعين الشك إلى الأفكار التى تنطوى عليها نظرية المعنى .

---

(١) - Ibid, p. 21.

على أن رفض كواين لمصطلحات نظرية المعنى قد اكتسب تسويغًا آخر من خلال تطوره الفلسفى وميله إلى السلوكية ، فيقرر رفض هذه المصطلحات باعتبارها غير علمية ، وأحد مسوغاته لرفضها هو تعذر تأسيس معاييرها على سلوك المتكلم ونماذج الإثارة ؛ إذ « عندما ندرك مع ديوى أن المعنى ... هو فى المقام الأول خاصية للسلوك ، ندرك أن ليس ثمة معانى ، ولا تشابهات ، ولا تمييزات للمعنى سوى ما هو متضمن فى استعدادات الناس للسلوك الصريح »(١) .

وحينما يطبق كواين مذهب ديوى فى المعنى على التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، وينظر إلى هذا التمييز من خلال منظوره السلوكى ، يدرك على الفور أنه تمييز مخفق ، « يخفق التمييز حالما نحاول تأسيسه على السلوك اللفظى ... والنقص الذى يبطل الفكرة ... (هو أنها) تجريبية بصورة غير كافية تمامًا ... وتنظر السلوكية بارتياب إلى التحليلية »(٢) ، (وسوف نشير فى نهاية هذا الفصل إلى تناول كواين للتحليلية من منظور سلوكى) ؛ وعلى هذا النحو يتخلى كواين عن مفهوم المعنى ، وبخاصة فى إطار علم الدلالة العقلى ، باعتباره مفهومًا غامضًا وغير علمى ، ومن ثم إذا أردنا أن نفهم فكرة التحليلية ، فلابد من أن نسعى إلى هذا الفهم دون الاستعانة بالمعانى .

١ - ٢ - ٢ التعريف

إن اعتراض كواين على مفهوم التحليلية فى مقال « عقيدتان للتجريبية » كان منصبًا فى المقام الأول على البديل الثانى من تقرير فريجه عن التحليلية على النحو اللآتى :

تعد س تحليلية فى حالة كونها إما :

١ - س حقيقة منطقية .

أو

٢ - س تقبل الرد إلى حقيقة منطقية عن طريق استبدال مرادفات بمرادفات .

يجب ، إذن ، أن نميز بين فئتين من العبارات التحليلية :العبارات التى تكون صادقة منطقيًا ، ويسميها كواين بالحقائق المنطقية ومثالها ليس الرجل غير المتزوج بمتزوج » ،

---

(١) -O. R. & O.E., P.29.

(٢) -P. P. in L.T., PP. 6-7.

والسمة التى تميز هذا النمط من العبارات هو أنها ليست صادقة فحسب فى صورتها الحالية ، بل تظل صادقة تحت كل التفسيرات الجديدة لكلمتى « رجل » و « متزوج » ؛ وإذا أخذنا بعين الاعتبار قائمة تتضمن مجموعة من الأدوات المنطقية مثل « لا » و« غير » و « ليس » و « إذا » و « إذن » ، وهلم جرا ، فإننا نستطيع أن نحدد الحقيقة المنطقية بأنها العبارة التى تكون صادقة وتظل صادقة تحت كل التفسيرات الجديدة لألفاظها غير المنطقية ، وسوف نناقش فى (٥ — ٢) البنية المنطقية لهذه الفئة من العبارات التحليلية التى يقبلها كواين دون شك أو اعتراض ، بل يعد تعريفه لها واحدًا من الاسهامات الأساسية فى فلسفة المنطق .

بيد أن هناك فئة أخرى من العبارات التحليلية ، ومثالها « ليس الأعزب بمتزوج » ، والسمة التى تتميز بها هذه العبارة هى أنها يمكن تحويلها إلى حقيقة منطقية عن طريق وضع مرادفات بدلاً من مرادفات ، فإذا « استبدلنا رجل غير متزوج » بـ « أعزب » فى هذه العبارة ، فإننا نحصل على العبارة « ليس الرجل غير المتزوج بمتزوج » وهى مثال للحقيقة المنطقية ؛ ومن هذين النوعين من العبارات التحليلية والعلاقة التى يمكن أن تقوم بينهما يأتى أحد التعريفات المنوعة « لتحليلى » وهو التعريف الذى بمقتضاه تكون العبارة التحليلية هى العبارة التى إما أن تكون حقيقة منطقية أو يمكن تحويلها إلى حقيقة منطقية عن طريق استبدال مرادفات بمرادفات[1] .

وإذا صح مثل هذا التعريف ، فلن تكون بنا حاجة لإثارة الشكوك أو الاختلاف حول التمييز بين العبارات التحليلية والتركيبية ، طالما أن التعريف يحدد لنا السمات التى يمكن أن نميز بها العبارات التحليلية ، ويقدم لنا منهجًا نعين على أساسه أى العبارات تكون تحليلية وأيها تكون تركيبية ؛ غير أن كفاية هذا التعريف للقيام بمثل هذه المهمة تعتمد على إمكانية تسويغ تحويل العبارات التحليلية غير المنطقية إلى حقائق منطقية ، لأنه ما لم نستطع تسويغ هذا التحويل ، فلن يكون لنا الحق فى إضفاء السمة التحليلية على أية عبارة لا تنتمى أصلاً إلى الحقائق المنطقية ، وترتكز كل محاولة تسعى لتسويغ هذا التحويل على افتراض مفاده أن هناك علاقة ترادف بين « أعزب » و « غير متزوج » فى

---

(١) - F.L.P.V., PP. 22-23.

المثالين السابقين ، ولكن عبثًا نحاول تسويغ هذا التحويل ، طالما أن فكرة الترادف بحاجة إلى التوضيح ليس بأقل من حاجة التحليلية ذاتها إليه ؛ وهنا يفحص كواين ثلاثة تقريرات لتفسير الترادف ومن ثم تفسير التحليلية بالمغزى المتنازع عليه وهى التعريف وقابلية الاستبدال ونظرية قابلية التحقق فى المعنى .

والاقتراح الأول لتفسير الترادف هو الاستعانة بالتعريفات ، يقول كواين : « هناك من يجدون أنه من المرضى القول بأن العبارات التحليلية من الفئة الثانية ترد إلى العبارات من الفئة الأولى ، أى الحقائق المنطقية عن طريق « التعريف » ، فنعرف « أعزب » مثلاً على أنها « رجل غير متزوج »[1] .

وثمة ثلاثة أنواع من التعريف هى : التعريف المعجمى Lexical Definition، والتعريف التفسيرى Explicative والتعريف الاشتراطى Stipulative، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتى :

(أ) التعريف المعجمى :

هو تعريف الكلمة أو العبارة بما يرادفها فى الاستخدام الفعلى عند جماعة لغوية معينة ، فإذا قال المعجمى إن الكلمة س مرادفة فى المعنى للكلمة ص ، فإنه لا يضيف شيئًا جديدًا من عنده على علاقة الترادف هذه ، وإنما يقرر فحسب أن جماعة بعينها تستعمل كلمة معينة بحيث ترادف كلمة أخرى ، وهو بذلك يؤرخ لواقعة حدثت أو لا تزال تحدث ، فإذا كانت الجماعة اللغوية تستعمل كلمة « الليث » بمعنى مرادف لكلمة « أسد » ، فإن إحداهما تعد تعريفًا معجميًا للأخرى .

وطالما أن المعجمى يقرر علاقة الترادف بين كلمات أو تعبيرات معينة ، فإن المعجم « يتبع الاستعمال ولا يسبقه ، والمعجم يستوحى ولا يملى ، والمعجم يؤرخ ولا يشرع »[2] ؛ ومن ثم يرتكز هذا النوع من التعريف على الترادف ولا يفسره ، الأمر الذى دفع كواين إلى التخلى عنه ، فنراه يقول : « كيف نجد أن كلمة « أعزب » تعرف

---

(١) - Ibid, P. 24.

(٢) د . زكى نجيب محمود ، المنطق الوضعى ، الجزء الأول ، ص ١٢٩ ، واستبدلت كلمة المعجم بكلمة القاموس الواردة فى النص لتساير السياق .

على أنها « إنسان غير متزوج » ؟ من الذى عرفها هكذا ، ومتى ؟ هل نستعين بأقرب معجم ، ونقبل صياغة المعجمى بوصفها قانونًا ؟ من الواضح أن هذا سوف يضع العربة أمام الحصان ؛ فواضع المعجم عالم تجريبى ، ومهمته هى تدوين حقائق سابقة ، ولو شرح كلمة « أعزب » على أنها « رجل غير متزوج » فذلك بسبب اعتقاده أن هناك علاقة ترادف بين هاتين الصيغتين ، تلك العلاقة المتضمنة فى استعمال عام أو مفضل سابق على عمله الخاص ... ومما لا ريب فيه أن « التعريف » الذى هو تقرير المعجمى لترادف ملحوظ لا يمكن أن يؤخذ على أنه أساس للترادف »[١] .

(ب) **التعريف التفسيرى :**

وهناك نوع مختلف من الفاعلية المنصبة على التعريف لا تحصر نفسها فى وصف المرادفات الموجودة من قبل ، ويقوم بها الفلاسفة والعلماء أيضًا فى لحظاتهم الفلسفية ، وهذه الفاعلية هى « التفسير » فى اصطلاح كارناب ، وليس الغرض من التفسير مجرد إعادة صياغة موضوع التعريف Definiendum إلى مرادف صريح ، بل ادخال تحسينات بالفعل على موضوع التعريف وذلك عن طريق تهذيب معناه واكماله ؛ وعلى الرغم من أن التفسير ليس مجرد وصف للترادف الموجود سلفًا بين موضوع التعريف وعناصر التعريف Definiens، فإنه يرتكز – فيما يقول كواين – على ترادفات « أخرى » موجودة من قبل[٢] .

(جـ) **التعريف الاشتراطى :**

إذا كان التعريف المعجمى يقرر ما يجرى به الاستعمال بين جماعة لغوية معينة ، فإن التعريف الاشتراطى يشرع أو يعلن عن استعمال رموز جديدة بمعان محددة ، ومن ثم فإن هذا النوع من التعريف بخلق الترادف عن طريق المواضعة ولا يفسره .

ويوضح كواين هذه الفكرة بقوله : « ومع ذلك هناك نوع أخير من التعريف الذى لا يرجع إلى ترادفات سابقة على الإطلاق ، أعنى التقديم الاصطلاحى بوضوح لرموز جديدة بغية الاختصار التام ؛ وموضوع التعريف هنا يصبح مترادفًا مع عناصر التعريف والسبب ببساطة أنه قد تم ابتكاره على وجه الخصوص بقصد أن يكون مترادفًا مع عناصر التعريف »[٣] .

---

(١) -F.L.P.V., P.24.

(٢) F.L.P.V., P. 25.

(٣) Ibid, P.26.

وهكذا ينظر كواين إلى التعريف من جانبين : إما أنه تقرير لاستعمال موجود من قبل أو اشتراط لاستعمال جديد ، وكلاهما لا يوضح الترادف ، إذ أن التعريف فى الجانب الأول يتوقف على علاقات سابقة للترادف ، والتعريف فى الجانب الثانى يخلق الترادف بالمواضعة ؛ وصفوة القول هى أن فكرة التعريف لا تملك المفتاح للترادف والتحليلية ، وعلينا أن ننحيها جانبًا وننعم النظر مرة أخرى فى الترادف .

١ - ٢ - ٣ قابلية الاستبدال .

والاقتراح الثانى لتفسير الترادف هو قابلية الاستبدال ، يقول كواين : « إن الاقتراح الطبيعى الذى يستحق منا فحصًا دقيقًا هو أن ترادف صورتين لغويتين يكمن ببساطة فى قابليتهما للتبادل فى كل السياقات دون تغيير فى قيمة الصدق »(١) .

ويذهب « ماتيس » إلى مثل هذا الرأى عندما يقول : إننى اقترح العبارة التالية بوصفها شرطًا كافيًا بالنسبة لتعريفات الترادف ، وبوصفها مرشدًا يهدى البحث إلى تحديد أى التعريفات تكون مترادفة فى الواقع بالنسبة لشخص معين : يكون التعبيران مترادفين فى اللغة ل فى حالة واحدة فقط وهى أنه يجوز استبدالهما فى كل جملة فى (ل) دون تغيير لقيمة صدق هذه الجملة(٢) ؛ ويمكن أن نغض النظر عن الحالات التى تخفق فيها قابلية الاستبدال لمترادفين مثل استبدال « رجل غير متزوج » بـ « أعزب » فى « (أعزب) كلمة لها أقل من عشرة حروف » ، ونستطيع أيضًا أن ننحى جانبًا فهم الترادف بمغزى التطابق الكامل فى التداعيات السيكولوجية أو الخاصية الشعرية للتعبيرات ، إذ لا يكون التعبيران مترادفين بمثل هذا المغزى ، وحسبنا أن نركز على الترادف « المعرفى » cognitive synonymy كما يسميه كواين .

وإذا افترضنا التحليلية ، فإننا نستطيع أن نفسر الترادف المعرفى للتعبيرات على النحو الآتى : إن القول بأن « أعزب » و « رجل غير متزوج » مترادفان معرفيًا هو قول ليس بأكثر ولا أقل من أن العبارة :

١ - كل العزاب فقط رجال غير متزوجين .

تحليلية

---

(١) Ibid, P. 27.

(٢) - Mates, B., "Synonymity" in Harris, J.F., and R.H. Severens, (eds.), Analyticity: Selected Readings, P. 103.

على أن الأمر الذى نحن فى أشد الحاجة إليه هو تقرير عن الترادف المعرفى لا يفترض التحليلية مسبقًا ، ويكمن هذا التقرير المستقل عن الترادف المعرفى فى قابلية الاستبدال ؛ والسؤال الآن هو : هل تكون قابلية الاستبدال شرطًا كافيًا للترادف المعرفى ؟ يمكن أن نقنع أنفسنا بسرعة عن طريق أمثلة تتجلى فى المحاولة الآتية : إنه بسبب كون العبارة :

٢ — بالضرورة كل العزاب فقط عزاب .

صادقة بوضوح ، وحتى افتراض « بالضرورة » يتم تفسيره تفسيرًا ضيقًا بحيث يكون قابلاً للتطبيق فقط على العبارة التحليلية ، ثم لو كان « أعزب » و « رجل غير متزوج » قابلين للاستبدال مع الاحتفاظ بقيمة الصدق ، فإن العبارة :

٣ — بالضرورة كل العزاب فقط رجال غير متزوجين .

لابد من أن تكون صادقة مثل العبارة (٢) وذلك بسبب وضع « رجل غير متزوج » بدلاً من « أعزب » فى العبارة (٢) ، ولكن القول بأن العبارة (٣) صادقة هو القول بأن العبارة (١) تحليلية ، ومن ثم فإن « أعزب » و « رجل غير متزوج » مترادفان معرفيًا(١) .

ولكن كواين يرفض هذه المحاولة بوصفها « خدعة » ، ويرى أن شرط قابلية الاستبدال مع الاحتفاظ بقيمة الصدق يختلف فى قوته مع الاختلافات فى غنى اللغة المتاحة ، وتفترض الحجة السابقة أننا نعمل مع لغة غنية إلى حد يكفى لأن تتضمن الظرف « بالضرورة » ، ويتم تفسير هذا الظرف على هذا النحو بحيث ينتج الصدق عندما ينطبق فقط على عبارة تحليلية ؛ ولكن هل نتغاضى عن اللغة التى تنطوى على مثل هذا الظرف ؟ وهل الظرف معقول بالفعل ؟ إن افتراض أنه معقول هو افتراض أننا قد أضفنا بالفعل مغزى مقنعًا على « تحليلى » .

إن قابلية الاستبدال لا تكون ذات مغزى إلا إذا كانت مرتبطة بلغة محددة ، ولنفترض الآن أننا نبحث لغة لا تتضمن سوى الأدوات الآتية : هناك مخزون كبير غير محدود من المحمولات ذات الموضع الواحد مثل « هـ » حيث (س هـ) تعنى (س إنسان) ، والمحمولات كثيرة الموضع مثل (و) حيث (س ص و) تعنى أن (س يحب ص) ، وهى محمولات تتعلق فى غالب الأمر بموضوع خارج نطاق المنطق ، أما بقية اللغة فمنطقى ؛ وتتألف الجمل الذرية من محمول ومتغير أو أكثر ، وتتكون الجمل المركبة من جمل ذرية عن طريق

---

(١) F.L.P.V., P. 29.

دوال الصدق (« ليس » و « واو العطف » و « أو » وهلم جرا) والتسوير ، وتتمتع هذه اللغة أيضًا بفوائد الأوصاف ، والحدود المفردة القابلة للتعريف على نحو سياقى ، وحتى تلك التى تسمى الفئات وتفترض محمولاً ذا موضعين من عضوية الفئة ، وهذه اللغة كافية للرياضيات الكلاسيكية والحديث العلمى بصفة عامة ، اللهم إلا إذا تضمن الأخير ما يعتبره كواين وسائل عليها خلاف مثل العبارات الشرطية المتعارضة مع الواقع أو الظروف المتعلقة بالجهة مثل « بالضرورة » وما جرى مجراها ، واللغة من هذا النوع هى لغة ما صدقية Extensional، بمعنى أن أى محمولين فيها يتفقان فى الماصدق يمكن أن يحل الواحد منهما محل الآخر مع الاحتفاظ بقيمة الصدق(١) .

غير أن قابلية الاستبدال فى اللغة الماصدقية المعروضة على هذا النحو لا تقدم نوع الترادف المعرفى المطلوب لتأسيس التحليلية وتسويغها ، أو ليست ضمانًا ، على حد تعبير كواين ، للترادف المعرفى من النوع المروم ؛ إذ القول بأن « أعزب » و « ورجل غير متزوج » قابلان للاستبدال مع الاحتفاظ بقيمة الصدق فى لغة ماصدقية لا يقول شيئًا أكثر من أن العبارة (١) صادقة ، والذى ليس هو القول بأن الاتفاق الماصدقى لـ « أعزب » و « رجل غير متزوج » يرتكز على المعانى أحرى من ارتكازه على حقائق ممكنة فحسب ، والارتكاز على الحقائق الممكنة هو حالة تتعلق بالاتفاق الماصدقى الممكن للتعبيرات غير المترادفة مثل « مخلوق له قلب » و « مخلوق بكليتين » ، ولكى نحصل على التخصيص المطلوب للتحليلية فى حدود الترادف المعرفى ، لابد من أن يكون الترادف المعرفى شيئًا أكثر من قابلية الاستبدال الماصدقى ، إذ لابد من أن يكون مثل تسوية ترادف « أعزب » و « رجل غير متزوج » بتحليلية العبارة (١) وليس بصدقها فحسب(٢) .

وإذا كانت اللغة تتضمن الظرف المفهومى « بالضرورة » بالمعنى الذى لاحظناه ، فإن قابلية الاستبدال مع الاحتفاظ بقيمة الصدق فى هذه اللغة تقدم شرطًا كافيًا للترادف المعرفى ، ولكن هذه اللغة لا تكون معقولة إلا بقدر ما تكون فكرة التحليلية مفهومة بالفعل سلفًا(٣) .

---

(١) Ibid, P. 30.

(٢) - Ibid, P. 31.

(٣) - Ibid, P. 31.

وهكذا نرى أن حجة كواين فى هذه النقطة تأخذ صورة المعضلة التى لا مخرج من قرنيها[١] ، فإذا استخرجنا معيار الترادف المعرفى من معيار قابلية الاستبدال مع الاحتفاظ بقيمة الصدق ، فإننا لا نبحث المعيار ذاته فحسب ، بل نبحث اللغة التى ينطبق عليها أيضًا ، سواء كانت لغة ماصدقية أم لغة مفهومية Intensional؛ وفى حالة اللغة الماصدقية تبين أن قابلية الاستبدال ليست شرطًا كافيًا للترادف المعرفى ، طالما أن التعبيرات غير المترادفة ، مثل « مخلوق له قلب » و « مخلوق بكليتين » يمكن استبدال الواحد منهما مكان الآخر دون أن يغير ذلك من قيمة صدقهما ؛ أما فى حالة اللغة المفهومية ، فإذا كان الظرف المفهومى « بالضرورة » متاحًا ، فإن قابلية الاستبدال تنتج الترادف المعرفى ، ولكن الأمر لا يأتى على هذا النحو إلا إذا كانت فكرة التحليلية مفهومة من قبل ، وهكذا فإن فكرة التحليلية يتم افتراضها أحرى من تفسيرها .

ويوجز كواين نقده للتحليلية حتى هذه النقطة على النحو الآتى : لقد بدت التحليلية فى بادئ الأمر قابلة للتعريف بصورة طبيعية إلى حد بعيد عن طريق الاستعانة بمجال المعانى ، وعند التفكير الدقيق اتضح أن الاستعانة بالمعانى قد أفسحت المجال للاستعانة بالترادف أو التعريف ، ولكن التعريف تبين فى نهاية المطاف أنه سراب ، وأثبت الترادف أنه لا يفهم كأحسن ما يكون الفهم إلا بفضل استعانة سابقة بالتحليلية ذاتها ، وهكذا نعود إلى مشكلة التحليلية ؛ ولا ينشأ التردد الذى نعانى منه عند تصنيفنا للعبارات إلى تحليلية وتركيبية من نقص فهمنا لمعانى الكلمات التى تتضمنها العبارات ، وإنما الذى يمثل مصدرًا للتردد والحيرة أصلاً هو صفة « تحليلية » التى نخلعها على العبارات ؛ « إننى لا أعرف ما إذا كانت العبارة « كل شيء أخضر ممتد » عبارة تحليلية ؛ والآن هل حيرتى إزاء هذا المثال تدل بالفعل على فهم غير كامل وإدراك ناقص « لمعانى » و« أخضر » و« ممتد » ؟ لا أظن ذلك ، إذ المشكلة ليست مع « أخضر » أو « ممتد » بل مع « تحليلية »[٢] .

١ - ٢ - ٤ القواعد الدلالية

إذا كانت جميع الطرائق السابقة قد أخفقت فى تعريف التحليلية وتفسيرها ، فإن كواين

(١) - Harrison, B., An Introduction to The Philosophy of Language, The Macmillan Press, London and Basingstoke, 1979, P. 98.

(٢) - F.L.P.V., 32.

يناقش طريقة أخرى تكمن فى بناء لغة اصطناعية ، ثم نعرف « تحليلى » بالنسبة لها ، ولعل الدافع إلى بناء مثل هذه اللغة هو الغموض الذى تعانى منه اللغة العادية أو الطبيعية .

« ولطالما يشار إلى أن الصعوبة فى فصل العبارات التحليلية عن التركيبية فى اللغة العادية تكون ناشئة عن غموض اللغة العادية وأن التمييز يكون واضحًا عندما نملك لغة اصطناعية ذات قواعد دلالية semantical rules دقيقة »[1] .

ومشكلة التحليلية التى ينتابنا القلق بشأنها هى علاقة مزعومة بين العبارات واللغات : فالعبارة (ع) قيلت بحيث تكون « تحليلية بالنسبة إلى » اللغة (ل) ، والمشكلة هى فهم هذه العلاقة بصفة عامة ، أى بالنسبة للمتغير (ع) و (ل) ، وخطورة هذه المشكلة لا يمكن إدراكها بالنسبة للغات الاصطناعية على نحو أقل من إدراكها بالنسبة للغات الطبيعية ؛ فمشكلة فهم المراد من التعبير الاصطلاحى « ع تحليلية بالنسبة إلى ل » مع المتغير (ع) و (ل) ، تحتفظ بصعوبتها حتى لو جعلنا مجال المتغير (ل) قاصرًا على اللغات الاصطناعية[2] .

لقد حاول كارناب بناء مثل هذه اللغة الاصطناعية ، وتتخذ القواعد الدلالية عنده صورًا منوعة ، وسوف نناقش صورتين منها ، والسؤال الآن هو : هل نجح كارناب بالفعل فى توضيح طبيعة التحليلية بالنسبة للغة الاصطناعية ؟ اقترح كارناب أن الجملة س تكون تحليلية فى ل ٥ فى حالة واحدة فقط وهى إذا كان صدق س يتم إثباته على أساس القواعد الدلالية وحدها ، دون إشارة إلى حقائق غير لغوية [3] ؛ ولكن كواين لا يقتنع بهذه الفكرة ، ويقدم عليها اعتراضًا مفاده أنها دائرية ، فنراه يقول : « تخبرنا القواعد أن العبارات كيت وكيت ، وتلك العبارات فقط ، تكون تحليلية فى ل ٥ ، والصعوبة هنا الآن هى ببساطة أن القواعد تتضمن كلمة « تحليلية » التى لا نفهمها ، فنحن نفهم التعبيرات التى تسند القواعد صفة التحليلية إليها ، ولكننا لا نفهم ما الذى تسنده القواعد لهذه التعبيرات ؛ وباختصار قبل أن نستطيع فهم القاعدة التى تبدأ بـ « العبارة (ع) تكون تحليلية بالنسبة إلى اللغة ل٥ فى حالة واحدة فقط وهى ... » ، لابد أن نفهم المصطلح النسبى العام (تحليلى بالنسبة إلى ...) »[4] .

---

(١) - Ibid, P. 32.

(٢) - Ibid, P. 33.

(٣) - Carnap, R., Meaning and Necessity, Chicago: University of Chicago Press, 1956, P. 10.

(٤) -F.L.P.V., P.33

إن تعريف المحمول ط فى حدود نفسه هو أمر لا طائل من تحته ، لأن هذا التعريف يمنعنا من معرفة ما الذى ننسبه إلى س عندما ننسب ط إلى س ، وهذا هو عيب التعريفات الدائرية بصفة عامة ، وهذا يفضى إلى تعميم الاعتراض السابق الذى يمكن اعتباره حجة كواين الأساسية ضد خطة كارناب(١) .

ولكن ، ربما ننظر بالفعل إلى القاعدة التى تسمى هكذا على أنها تعريف اصطلاحى للرمز البسيط الجديد « تحليلى – بالنسبة إلى – ل٥ » ، والذى قد يكون من الأفضل كتابته بشكل غير متحيز على أنه « ك » حتى لا يبدو أننا نلقى الضوء على الكلمة الهامة « تحليلى » ؛ وبالفعل يمكن تخصيص أية فئة من العبارات ك ، م ، ن ، وهلم جرا ، لأى غرض كائنًا ما يكون ، ولكن ما الذى يعنيه القول إن ك – بوصفها مقابلة لـ م ، ن ، الخ – هى فئة العبارات « التحليلية » فى ل٥ ؟ إن هذه المحاولة لم تحظ عند كواين بشيء من القبول ، لأننا عندما نقول أى العبارات تكون تحليلية بالنسبة إلى ل٥ ، فذلك أمر لا يفيد كثيرًا ، إذ أننا نفسر « تحليلى – بالنسبة إلى – ل٥ » دون أن نفسر ما نريد تفسيره ألا وهو « تحليلى »(٢) ، وهذه هى الصورة الأولى للقاعدة الدلالية .

وإذا نظرنا إلى الصورة الثانية للقاعدة الدلالية ، وجدنا أنها لا تقول إن العبارات كيت وكيت تحليلية ، بل تقول ببساطة إن العبارات كيت وكيت تدخل ضمن الحقائق ، أى تكون صادقة ؛ وهذه القاعدة لا تتعرض للنقد الذى ينصب على تضمين كلمة « تحليلى » غير المفهومة ، وربما نسلم بأنه لا توجد صعوبة بشأن الكلمة الواسعة « صادق » وذلك لكى نضع الحجة على النحو الآتى : إذا كانت القاعدة الدلالية المستخدمة لا تتضمن « تحليلى » ، بل ترتكز فحسب على ما يعد حقائق من ل٥ ، فربما نستطيع تعريف العبارة التحليلية بصورة اشتقاقية على النحو الآتى : العبارة التحليلية هى العبارة التى لا تكون صادقة فحسب بل صادقة بمقتضى القاعدة الدلالية (٣) .

على أن هذه الصورة الثانية للقاعدة الدلالية ليست فى حالة أفضل من حيث القبول

(١) - Levin. M.E., "Quine On Analyticity in L", Mind, vol. LXXXIV, No. 333, 1975, P. 115.

(٢) -F.L.P.V., P.33

(٣) - Ibid, P. 34.

من سابقتها ، لأنه لا يوجد – فيما يقول كواين – تقدم بالفعل ، فبدلاً من الاستعانة بكلمة تحليلى غير المفسرة ، ترانا نستعين الآن بعبارة « القاعدة الدلالية » غير المفسرة[١] .

وعلى هذا النحو لا تفلح فكرة اللغة الاصطناعية ذات القواعد الدلالية فى توضيح مفهوم التحليلية .

١ – ٢ – ٥ نزعة الكلية ورفض المعرفة الأولية

تعد محاولة رفض المعرفة الأولية من بين الاعتراضات غير المباشرة على التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، وإن كانت فى غاية الأهمية ، لأن تفسير المعرفة الأولية كان سببًا من الأسباب التى دفعت إلى تقديم هذا التمييز ، وهنا يأتى الدور الابستمولوجى للتمييز ، ذلك الدور الذى ألمحنا إليه فى مستهل هذا الفصل ، وانكار كواين لوجود مثل هذه المعرفة يفقد هذا التمييز جانبًا قويًا من أهميته وقوته ؛ وتنشأ مشكلة المعرفة الأولية من عدم اتساق الدعوتين الآتيتين :

١ – مبدأ التجريبية القائل بأن المعرفة برمتها تعتمد على التجربة أو يتم تسويغها عن طريق الاستعانة بالتجربة .

٢ – هناك معرفة أولية ، أى مستقلة عن الخبرة .

وتشغل عبارات الرياضيات والمنطق المجالات الأساسية التى تتضح فيها المعرفة الأولية ، وإلى جانب هذه العبارات توجد عبارات لا هى رياضية خالصة ولا منطقية خالصة مثل « كل العزاب رجال غير متزوجين » و« كل شىء فيزيائى ممتد » و« كل الكواكب تدور حول الشمس » ؛ وموضع الخلاف هو : إذا كانت هذه العبارات معروفة بشكل مستقل عن التجربة فإنها تشكل استثناء وخروجًا على مبدأ التجريبية وتفضى بالتالى إلى تفنيده ، وهناك موقفان تقليديان إزاء هذا الخلاف[٢] ؛ أحدهما هو المذهب العقلى الذى يقبل أنصاره وجود المعرفة الأولية وينكرون أن تكون المعرفة تجريبية برمتها ؛ ولقد وضح فلاسفة هذا الاتجاه من أفلاطون حتى رسل تلك المعرفة فى حدود أشكال غير تجريبية للإدراك ، فذهبوا إلى القول بأننا ندرك الحقائق الأولية عن طريق الحدس ؛ ويمثل جون

---

(١) - Ibid, P. 34.

(٢) - Orenstein, A., Willard Van Orman Quine, Boston : Twayne Publishers. A Division of G.K. Hall& Co., Boston 1977, PP. 75 - 76.

استيوات مل الموقف الآخر ، إذ انكر مل وجود معرفة أولية ، وحاول بعد ذلك تفسير الأمثلة المزعومة لهذه المعرفة تفسيرًا ينسجم مع مبدأ التجريبية ، فزعم أن جميع حقائق المنطق مثل « كل الطيور طيور » و حقائق الرياضيات مثل « ٢ + ٢= ٤ » هى تعميمات استقرائية من الخبرة ، ولا تختلف هذه الحقائق عن حقائق من قبيل « هناك على الأقل تسعة كواكب فى النظام الشمسى » إلا بمقتضى دليل قوى فى صالحها .

ولم يحظ الحلان السابقان بشىء من القبول عند فلاسفة التجريبية العلمية ، فلم ينكر هؤلاء الفلاسفة وجود معرفة غير تجريبية كما وصفها العقليون فحسب ، بل أنكروا أيضًا مغزى المذهب ، ومع ذلك سلموا بوجود معرفة أولية ، واضطروا إلى أن يقدموا لها تفسيرًا ، وكان موقف مل عرضة لانتقادات عديدة منها أنه أخفق فى تفسير الضرورة المزعومة للحقائق الأولية ، وهذا يعنى القول بأن حقائق المنطق والرياضيات لا يتصادف أن تكون صادقة فقط ، وليست احتمالية ليس غير ، بل لابد من أن تكون صادقة ، وحتى لو تعلم الإنسان أن كل شىء يكون مطابقًا لذاته عن طريق تعميمات استقرائية من الخبرة ، فلا يستطيع الإنسان أن يتعلم أنه من الضرورة أن يكون كل شىء مطابقًا لذاته بهذه الطريقة[1] ؛ وسوف نشير إلى انتقادات أخرى لموقف مل فى الفصل الخامس .

ولتوضيح المعرفة الأولية قدم الوضعيون المنطقيون تمييزين : الأول هو التحليلى — التركيبى ، والثانى هو الأولى — البعدى ، واستخدموا الأول لتوضيح الثانى ، فالمعرفة الأولية عندهم تحليلية ليس غير ؛ والفيلسوف العقلى الذى يزعم أنه يعرف معرفة غير تجريبية أن « ثلاثة زائد ثلاثة تساوى ستة » على صواب فى إنكاره أننا نتعلم هذا عن طريق ملاقاة ثلاثة موضوعات وثلاثة موضوعات ، ولكنه أخطأ فى تقديم ملكة الحدس ، فالعبارة المذكورة ليست تجريبية بل حقيقة لغوية ، ولا يمكن أن تكذب الخبرة مثل هذه العبارة ، لأننا إذا وضعنا ثلاثة موضوعات بالإضافة إلى ثلاثة موضوعات ووجدنا أننا أمام خمسة موضوعات فقط ، فسوف نرجح أننا قد جانبنا الصواب ، ولن نعد هذا دليلا ضد العبارة « ثلاثة زائد ثلاثة تساوى ستة » ، إذ أن هذه العبارة صادقة بالضرورة لأنها تعكس مواضعاتنا بالنسبة لمعانى الكلمات المستخدمة فيها ؛ وإذا كانت الحقائق التحليلية أولية ، فإن الحقائق التركيبية بعدية ، ويختلف فلاسفة الوضعية المنطقية عن

---

(١) - Ibid, P. 77.

كانط فى النقطة الأخيرة ، فعلى حين سعى كانط إلى توضيح إمكان الجمع بين كون القضية تركيبية وأولية ، ذهب الوضعيون المنطقيون إلى استحالة هذا الجمع ، فإذا كانت القضية تركيبية فهى ليست ضرورية الصدق ، إذ ربما تكون كاذبة « بعد » مراجعتها على الواقع ، ومن ثم فهى « بعدية » .

والتجريبية دعوى مؤداها أن معرفتنا تقوم على أساس الخبرة الحسية أو يتم تسويغها عن طريق هذه الخبرة ، ولكن التجريبية التقليدية تتحدث عن أفكار ذات محتوى تجريبى ، فنرى هيوم يتحدث عن الفكرة من أفكارنا بوصفها صورة لانطباعات حسية ؛ وهنا نلاحظ نقطتين ؛ الأولى هى أن التجريبية يتم تقديمها بوصفها دعوى تكوينية حول أصل المعرفة ودعوى منطقية حول تسويغ المعرفة على حد سواء ، والثانية هى أن وسيلة أو وحدة المغزى التجريبى هى الفكرة ؛ بيد أن التجريبية سلكت مسلكًا جديدًا فى الابستمولوجيا واختارت الكلام عن الكلمات أو التعبيرات اللغوية بدلاً من الأفكار ، وهذا هو المعلم الأول من معالم التجريبية كما يحددها كواين ، ثم خطت التجريبية المعاصرة خطوة أبعد من ذلك ، فلم تعد الوسيلة الأساسية للمعنى هى الكلمات بل الجميل ، وهذا هو المعلم الثانى من معالم التجريبية ؛ وتتضح وجهة النظر القائلة إن الجمل وليست الكلمات هى وحدات المحتوى التجريبى أو وسيلة المعنى التجريبى فى معيار القابلية للتحقق عند الوضعية المنطقية والذى فحواه أن معنى القضية أو العبارة هو منهج التحقق منها ، وهومعيار يتم على أساسه اختيار حالة المعنى للحديث المعرفى ، وتبعًا لهذا المعيار تكون العبارة ذات مغزى على نحو تجريبى .

وإذا لم تكن الجملة ذات نتائج قابلة للملاحظة ، وليست تحليلية يعتمد صدقها على معانى الكلمات المستخدمة فيها ، فإنها تكون خالية من المعنى ؛ والنقطة الهامة التى يجب أن لا يفوتنا الانتباه إليها هنا هى أن افتراض نظرية التحقيق فى المعنى يفضى بنا إلى القول بأننا نستطيع فحص الجمل وهى « فرادى منعزلة » فيما يتعلق بمحتواها التجريبى ، وهذه السمة — وهى عقيدة من اثنتين — هى التى رفضها كواين من التجريبية المعاصرة وأسماها عقيدة النزعة الردية ، وتنشأ من السؤال عن طبيعة العلاقة بين العبارات والخبرات التى تسهم فى إثباتها أو انكارها ؛ والفكرة البسيطة عن هذه العلاقة أنها علاقة تقرير مباشر ، وهذه هى النزعة الردية الجذرية radical reductionism التى توجد فى كتاب كارناب

« البنية المنطقية للعالم » ١٩٢٨ ، إذ اعتقد كارناب أن كل عبارة ذات معنى لابد من أن تكون قابلة للرد أو قابلة للترجمة إلى عبارة (صادقة أو كاذبة) حول خبرة مباشرة ؛ وإذا غضضنا النظر عن النزعة الردية في صورتها الجذرية ، والتي تخلى عنها كارناب في كتاباته المتأخرة مثل بحث « وحدة لغة العلم » سنة ١٩٣٥ ، فإن عقيدة النزعة الردية هي الاعتقاد الذي مؤداه أنه بالنسبة لكل عبارة تركيبية (س) هناك فئة وحيدة من الحوادث الحسية الممكنة التي سوف تثبت (س) وفئة وحيدة من الحوادث الحسية الممكنة التي لن تثبت (س) .

« ولكن عقيدة النزعة الردية واصلت ، بصورة بارعة إلى حد بعيد ، تأثيرها على تفكير الفلاسفة التجريبيين ، إذ تتختلف الفكرة القائلة إنه بالنسبة لكل عبارة ، أو كل عبارة تركيبية ، يوجد مجال وحيد مرتبط من الحوادث الحسية التي سيضيف ظهور أية حادثة منها ترجيحًا لصدق العبارة ، وهناك مجال وحيد أيضًا من الحوادث الحسية الممكنة التي سيقلل ظهورها من هذا الترجيح ، وهذه الفكرة متضمنة بطبيعة الحال في نظرية التحقق للمعنى .

وتواصل عقيدة النزعة الردية البقاء في الافتراض الذي مؤداه أن كل عبارة — مأخوذة بمعزل عن أترابها — يمكن أن تقبل الإثبات أو اللا إثبات على الإطلاق ، واقتراحي المضاد .. هو أن عباراتنا حول العالم الخارجي تواجه محكمة الخبرة الحسية ليس على انفراد بل فقط كجسم متحد »[1] .

وثمة علاقة أساسية بين عقيدة النزعة الردية وعقيدة التمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيبي ، والعقيدة الأولى تؤيد الثانية بالطريقة التالية : طالما أن الحديث عن إثبات العبارة وعدم إثباتها يعد أمرًا معقولاً ، فمن المعقول أيضًا الحديث عن نوع محدود من العبارات نثبته على نحو فارغ ، وبحكم طبيعته ، وهي العبارات التحليلية ، يقول كواين : « إن العقيدتين متطابقتان في الأصل بالفعل ، ولقد أظهرنا .. أن صدق العبارات بصفة عامة يعتمد اعتمادًا واضحا على اللغة وعلى حقيقة خارج نطاق اللغة على حد سواء ، ولا حظنا أن هذه الحالة الواضحة تحمل في ذيلها ، ليس بشكل منطقي وإنما بشكل طبيعي تمامًا ، شعورًا بأن صدق العبارة يقبل التحليل بطريقة أو بأخرى إلى عنصر لغوي وعنصر واقعي ؛

---

(١) - FL.P.V., PP. 40-41.

وإذا كنا تجريبيين ، فلابد من أن نختصر العنصر الواقعى إلى مجال الخبرات المثبتة ، وفى الحالة المتطرفة حيث يكون العنصر اللغوى هو كل شيء تكون العبارة الصادقة تحليلية .. واقتراحى الحالى هو أنه من اللغو ، وأصل لكثير من اللغو ، أن نتحدث عن عنصر لغوى وعنصر واقعى فى صدق أية عبارة مستقلة ، وعلى الجملة ، يتمتع العلم باعتماد ثنائى على اللغة والخبرة ، ولكن هذه الثنائية ليست قابلة لأن نقتفى أثرها على نحو ذى مغزى فى عبارات العلم مأخوذة واحدة بواحدة »[١] .

ويبدو أن هناك عنصرًا مشتركًا فى العقيدتين له أهمية خاصة هنا ، ويكمن فى الافتراض القائل بأن « العبارة هى وحدة المعنى » ، ويتضمن التصور الذى مفاده أن العبارة المفردة يمكن أن تكون بطريقة أو بأخرى ذات مغزى فى ذاتها ، وهذا ما يجوز تسميته « بنظرية العبارة » فى المعنى ؛ والقول بأن نظرية العبارة فى المعنى هى عنصر مشترك فى العقيدتين يتضح من الاعتبارات الآتية : (١) إذا حصل الإنسان على التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، فإنه يستطيع الحديث عن العبارات بحيث تكون مترادفة أو غير مترادفة ، ومن الواضح أن هذا يعالج العبارات بحيث تكون ذات معنى حتى لو تردد الإنسان ، مثلما يتردد كواين ، فى الانتقال إلى القول بأن « لها معانى » ؛ و(٢) تنزع عقيدة النزعة الردية التى تفترض أن المحتوى الواقعى للعبارة هو مجال الخبرات المثبتة ، إلى معالجة هذا المجال على أنه « المعنى التجريبى » للعبارة ، ولا تختلف عقيدة النزعة الردية فى هذا الجانب عن نظرية التحقق فى المعنى ، وهكذا تعالج العبارة مرة أخرى بحيث تكون ذات معنى ، وتكون بمثابة وحدة المعنى[٢] .

على أن تحول الاهتمام من الكلمة إلى العبارة يمثل – كما ألمحنا – المعلم الثانى من معالم التجريبية فى القرنين الأخيرين ، إذا جاءت « فكرة تعريف الرمز فى الاستعمال .. بمثابة تقدم على تجريبية الكلمة بالكلمة غير الممكنة عند لوك وهيوم ، وأدرك فريجه أن العبارة ، أحرى من الكلمة ، هى الوحدة التى تكون عرضة للنقد التجريبى »[٣] ؛ وكان من نتيجة هذه الصدارة الدلالية للعبارات أن أصبحت الابستمولوجيا فى القرن العشرين نقدًا ليس

---

(١) - Ibid, P. 41.

(٢) -Hofstadter, A., "The Myh of The Whole : A Consideration of Quine's View of Knowiedge", Journal of Philosophy, vol. LI, No. 14. July 8, 1954, PP. 399 - 400.

(٣) - F. L. P. V., P. 42.

للمفاهيم (أو التصورات) فى المقام الأول ، بل للحقائق والاعتقادات[١] ، وهذا يمكن أن نلمسه بوضوح فى نظرية التحقق فى المعنى عند الوضعية المنطقية ، تلك النظرية التى تحفل بمعنى العبارات أخرى مما تحفل بمعنى الكلمات ، ويمكن أن نقول الشىء نفسه عن فلسفة اللغة العادية التى صب فلاسفتها تحليلاتهم على العبارات أكثر من الكلمات .

لم يرد كواين أن يتوقف عند العبارات ، وإنما حاول أن يخطو إلى ما هو أبعد من ذلك ، أى أنساق العبارات ، ومن ثم أصبح الدليل التجريبى دليلاً على أنساق العبارات أو ضدها وليس لعبارات منفردة منعزلة ، وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن السمة التى يريد كواين أن يميز بها التجريبية هى النظر إلى الأنساق الكلية للعبارات ، دون العبارات الفرادى ، على أنها وحدات للمغزى التجريبى ، وبتحويل التركيز من الجمل إلى أنساق الجمل ، نصل إلى الاعتراف بأنه عادة ما تكون الجملة الكاملة فى نظرية علمية تمامًا نصا أقصر من أن يصلح كوسيلة مستقلة للمعنى التجريبى ، إذ أن الجملة الكاملة لن تملك مجموعة تقبل الانفصال من نتائج النظرية العلمية القابلة للملاحظة أو الاختبار ، وإنما الذى سوف يملك بالفعل هذه النتائج هو الجسم الشامل بشكل معقول للنظرية العلمية ، مأخوذة ككل[٢] ؛ ويسمى هذا المبدأ الذى يمثل المعلم الثالث من معالم التجريبية فى القرنين الأخيرين بنزعة الكليـة Holism وهى نزعة استمد كواين فكرتها من فلسفة بيير دوهم (١٨٦١ - ١٩١٦) ثم عرفت فى تاريخ الفلسفة « بدعوى دوهم - كواين » ، فما هى فكرة دوهم ، وما علاقتها بالمعرفة الأولية ؟ يقول دوهم : « لا يمكن أن يعرض الفيزيائى ابدًا الفرض المنعزل للاختبار التجريبى ، وإنما يعرض فقط مجموعة كاملة من الفروض لهذا الاختبار ، وعندما لا تجئ التجربة متفقة مع تنبؤاته ، فإن ما يعلمه هو أن فرضًا واحدًا على الأقل من الفروض التى تشكل هذه المجموعة غير مقبول ويجب تعديله ، ولكن التجربة لا تحدد الفرض الذى لابد من تغييره »[٣] .

ولقد توصل بعض الفلاسفة إلى نتائج مماثلة لنتائج دوهم - كواين مثل كارل

---

(١) -T. & T., P. 70.

(٢) -Ibid, P. 70

(٣) - Duhem, P., The Aim and Structure of Physical Theory, translated from The French by P. P. Wiener, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1954, P. 187, and See Vuillemin, J. "On Duhem's and Quine's Theses", in The Philosophy of W. V. Quine, PP. 595 - 601.

همبل(١) وتوماس كون(٢) ، وهاجمها بعضهم هجومًا صريحًا مثل Adohf Grunbaum(٣) وهجومًا ضمنيًا مثل كارل بوبر(٤) وبعبارة أخرى ، اعتقد بعض الفلاسفة أن هذه الدعوى تثير حالات من الارتباك بلا مسوغ ، على حين نظر إليها فلاسفة آخرون على أنها ذات أهمية بشكل مضاعف ، إذ ظن هؤلاء الفلاسفة أنها تقدم أساسا لنقد وجهة النظر الأساسية التى سيطرت على معظم الفكر الغربى منذ ديكارت ، وظنوا أنها تفتح الباب لطريقة جديدة ومثمرة لفهم التقدم العلمى بصفة خاصة ، وفهم طبيعة المعرفة وتطورها بصفة عامة (٥) .

وأيا ما كان الأمر فى هذا ، فلسنا نريد أن نقف طويلاً عند مناقشة محاولات تأييد هذه الدعوى أو رفضها ، وإنما حسبنا أن ندرك مغزاها وتأثيرها على مشكلة المعرفة الأولية ونقد التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ؛ وليس من شك فى أن هذه الدعوى عندما تقول بأن الفروض المنعزلة ليست قابلة للتحقيق على إنفراد عن طريق التجربة ، وإنما الذى يكون عرضة للاختبار هو النسق الكامل من القروض أو النظرية ككل ، فإنها تقدم بذلك تصورًا لمفهوم الاختبار يختلف عن التصور الذى يلزم عن نظرية إمكانية التحقق فى المعنى ؛ فإذا نظرنا إلى البنية المنطقية لاختبار الفرض والتى يمكن استنباطها من نظرية إمكانية التحقق ، وجدنا أنها تتألف من فرض نود اختباره ، وبعض الجمل التى تصف الشروط الابتدائية ، ونستنتج من ذلك بعض النتائج القابلة للملاحظة ، ويمكن تصوير هذه البنية على النحو الآتى :(٦)

فرض

---

(١) - Hempel, C. G., Aspects of Scientific Explantion, and Other Essays in The Philosophy of Science, New Yok : The Free Press, London : Collier - Macmillan, 1965, P. 112.

(٢) - Kuhn, T.S., The Structure of Scientific Revolutions, Chicago : University of Chicago Press, 2nd. ed., 1970, PP. 111 - 135. and See, Kitcher, P., The Naturalists Return, Philosophical Reveiw, vol. 1, No1. January 1992, PP. 69 - 74.

(٣) - Grunbaum, A. "The Duhemian Argument", in Harding, S.G., (ed.): Can Theories Be Refuted? Essays On The Duhem-Quine Thesis, Dordrecht-Holland Boston- U.S.A.: D. Reidel Publishing Company, 1976, PP. 116-131.

(٤) - Popper, K. R., Conjectures and Refutations, London : Routledge and Kegan Paul, New York : Basic Books, 1969. PP. 238 - 239.

(٥) - Harding. 2. G., (ed)., Op. Cit., Introduction. P.IX

(٦) - Orenstein, A., Op. Cit., P. 81.

شروط ابتدائية

إذن ، نتائج قابلة للملاحظة [(إذن) تمثل استعمال مبادئ المنطق والرياضيات لتحقيق الاستنتاج].

فإذا لم تظهر النتائج القابلة للملاحظة ، فإننا نعد هذا دليلا تجريبيا يدحض الفرض موضوع البحث ، ويتوقف نموذج الاختبار المفسر على هذا النحو على لزوم النتائج القابلة للملاحظة عن الفرض والشروط الابتدائية ، ويعد كذب النتيجة دليلاً على كذب المقدمة التى تعمل كفرض ؛ ولتوضيح ذلك تأمل مثال اختبار الفرض القائل بأن الأرض مسطحة .

الفرض : الأرض مسطحة .

الشروط الابتدائية : سفينة تبحر بعيدًا عن ميناء الإسكندرية فى اتجاه مستقيم .

إذن ، سوف تتوارى السفينة فجأة ، أو على الأقل يتوارى الجزء الأعلى منها أولاً ؛ ومع ذلك فإننا نلاحظ أن السفينة تتوارى شيئًا فشيئًا والطرف الأعلى هو آخر ما يتوارى منها ، ومن ثم يكذب فرض الأرض المسطحة(١) .

على أن هذا التصور لمنطق الاختبار لم يحظ بقبول عند دوهم وكواين ، لأننا لا نستطيع أن نختبر ، تبعًا لدعوى دوهم – كواين ، فرضًا منعزلاً اختبارًا تجريبيا ، ولننظر مرة أخرى فى المثال السابق ، هل ينطوى بالفعل على فرض واحد أم مجموعة فروض ؟ ألا نضيف ، مثلاً ، الفرض القائل بأن الضوء يسير فى خط مستقيم إلى فرض السطحية لكى نستنتج أن السفينة سوف تتوارى فجأة أو يكون الجزء الأعلى هو أول ما يتوارى منها ؛ إذا انتبهنا إلى استعمال هذا الفرض الإضافى ، ألا يجب أن نعترف بأنه هو ذاته جزء لا يتجزأ من نظرية أو نسق من الفروض حول الضوء ؛ ومن ثم ستكون الصورة الحقيقية لمنطق الاختبار هى(٢) :

فرض ١

فرض ٢

. . .

فرض ن

---

(١) - Ibid, P. 82.

(٢) - Ibid, P. 82.

الشروط الابتدائية (وأى فروض تخفيها)
إذن ، نتائج قابلة للملاحظة .

وهكذا نرى أننا إذا كنا بازاء نتيجة مرفوضة ، فلا يمكن أن نحدد على وجه الدقة ما هو الفرض الذى يجب أن نستبعده ، ويوسع كواين فكرة دوهم فى محاولة للتثبت من نتائجها ، ويأخذ كل البدائل التى يتركها موقف الاختبار مفتوحة ، وفيما يتعلق بالفروض فإننا نستطيع أن نعدل فرضًا أو أكثر عندما تواجهنا ملاحظة عنيدة ، ونختار رفض الفرض الذى نثق فيه ثقة أقل ، ويستعمل كواين مبدأ المحافظة للابقاء على الفروض الأقل تعارضا مع بقية مجموعة اعتقاداتنا وهو ما أسماه أيضًا « بقاعدة بتر الحد الأدنى »[(١)] ؛ وفيما يخص الشروط الابتدائية ، نستطيع أن نرفض تقرير هذه الشروط ، وفى تعليم العلم يرفض المعلم اكتشافات الطالب لأنه لم يقم بالتجربة على نحو ملائم ، ويجوز أن يقرر العالم الممارس أن هناك شيئًا ما خطأ فيما يتعلق بشروط وضع الاختبار ، ولطالما تتكرر هذه الحالة مع الاختبار فى العلوم الاجتماعية حيث لا يتيح الاستبيان المستخدم الضوابط الصحيحة للحالة التى يجرى اختبارها[(٢)] .

وإذت نظرنا إلى البديل الخاص بمبادئ الرياضيات والمنطق المستخدمة لاستخلاص النتائج القابلة للملاحظة ، وجدنا أن كواين يفسح المجال أمام الشك فى مبادئ المنطق والرياضيات ، ويسمح بتعديلها عندما نواجه نتائج سلبية ، كما هو الحال مع قانون الوسط المرفوع الذى أوصى بعض الفلاسفة والمناطقة باستبعاده كوسيلة لتبسيط ميكانيكا الكم ، وسوف نوضح ذلك فى الفصل الخامس .

وإذا كنا لا نستطيع أن نختبر العبارات وهى فرادى وإنما نختبرها من حيث هى أجزاء من أنساق العبارات ، وإذا كانت التجربة تكذب النسق ككل ، وتثبت أن هناك شيئًا ما خاطئ دون أن تحدد على وجه الدقة ما عساه أن يكون هذا الشىء ، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هى أن كل عبارة ذات علاقة بالاختبار تتعرض لخطر التفنيد التجريبى ، ولا توجد من حيث المبدأ عبارة معفاة من الاستبعاد التجريبى ؛ والمنطق والرياضيات وكل

---

(١) - P. of L., P. 100.

(٢) - Orenstein, A., Op. Cit., P. 83.

ما يقال عنه إنه يشكل معرفة أولية هى عرضة للتعديل ، وإذا كانت المعرفة الأولية هى المعرفة التى يتم تسويغها بشكل مستقل عن التجربة ، فإن كواين يرفض وجود أية معرفة من هذا القبيل ؛ وطالما أن أنصار التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى قد اقترحوا التمييز لتفسير المعرفة الأولية ، فإن رفض كواين لهذه المعرفة يعد اقتلاعًا جذريًا للتمييز .

ويذهب هيلارى بتنام إلى أن كواين عندما يناقش فى مقاله « عقيدتان للتجريبية » الفكرة القائلة بأن الجملة تكون تحليلية لو تم الحصول عليها من حقيقة فى المنطق عن طريق وضع مرادفات بدلاً من مرادفات ، والتى يسميها بتنام بالفكرة اللغوية عن التحليلية ، فإنه يناقش فكرة أخرى مختلفة تمامًا عن الحقيقة التحليلية بوصفها الحقيقة التى يتم إثباتها مهما يكن من أمر ، وهى الفكرة التى يرى بتنام أنها الفكرة التقليدية عن « الأولية » أو بالأحرى إحدى الأفكار التقليدية عن الأولية ، ويظن أن هجوم كواين على هذه الفكرة صحيح ، وأن حجة كواين ضد هذه الفكرة لا تتعلق على الإطلاق بدائرية التعريفات ، ويقول : لو كنت على صواب ، فإن كواين فيلسوف يظفر بأهمية تاريخية ، وهو يظفر بهذه الأهمية لأنه أول فيلسوف يرفض فكرة الأولية ويضع على الأقل مخططًا لتصور واضح لمناهج البحث دون فكرة الأولية ، أما لو جانبنى الصواب وكان هناك شىء من قبيل الحقيقة الأولية ، فإننى أبالغ بلا شك فى أهمية كواين فى تاريخ الفلسفة ، على أن هناك بعض الفلاسفة فى تاريخ الفلسفة لا تعتمد أهميتهم كثيرًا على كونهم على صواب ، ولكن أهمية كواين فيما أظن تعتمد بدرجة كبيرة على كونه على صواب فى دعوى محورية هى الدعوة التى عبر عنها بالقول إنه لا يوجد تمييز معقول بين الحقائق التحليلية والتركيبية ، ولكن كان يجب عليه أن يعبر عنها بالقول إنه لا يوجد تمييز معقول بين الحقائق الأولية والحقائق البعدية[1] .

ويتساءل بتنام : لماذا يعد مفهوم العبارة التى يتم إثباتها مهما يكن من أمر مفهومًا للتحليلية ؟ ويذهب إلى أن الإثبات بالمعنى الوضعى يتعلق باعتقاد عقلى ، فالعبارة التى يتم إثباتها كأقوى ما يكون الإثبات هى العبارة التى يعتقد بأنها عقلية أو التى يعتقد بأنها عقلية بدرجة عالية ؛ وإذا وجدت بالفعل العبارات التى لها درجة قصوى من الإثبات فى

---

(١) - Putnam, H., Realism and Reason, Philosophical Papers, vol. 3, Cambridge: Cambrdige University Press, 1985, pp. 87-88.

كل الظروف فهذه ببساطة هى الحقائق التى « يعتقد بأنها عقلية دائمًا » ، ليس هذا فحسب بل هى الحقائق التى تكون عقلية مطلقًا ؛ واعتقد كثير من الفلاسفة بوجود هذه الحقائق ، ولعل مثل هذا هو ما اعتقده أرسطو فى « المبدأ الأول » وما اعتقده ديكارت فى الأفكار الواضحة والمتميزة ؛ وتبعًا لظاهر الأمر إذن فإن مفهوم الحقيقة التى يتم إثباتها مهما يكن من أمر ليس مفهومًا للتحليلية بل « للأولية » ، ومع ذلك اعتبره كواين والوضعيون مفهومًا للتحليلية ؛ ويشير بتنام إلى أن حجة كواين ضد الحقيقة التى يتم إثباتها مهما يكن من أمر ليست حجة عن الدور فى التعريفات ، ويتساءل لماذا يعتقد كواين أن كون الشىء يتم إثباته مهما يكن من أمر يمثل فكرة التحليلية ؟ ومفاد الجواب عنده أن كواين اعتقد فى هذا لأن الوضعيين — الذين يهاجمهم — ذهبوا إلى أن تثبيت مجال خبرات الإثبات للعبارة هو تثبيت معناها ، وهذا التثبيت للمعنى يجئ عن طريق الاشتراط stipulationأو المواضعة ؛ واعتقد الوضعيون أن العبارات الأولية (أى العبارات ذات المجال الكلى للخبرات المثبتة) تكون « صادقة بمقتضى المعنى وحده » ، وطالما أن الصدق بمقتضى المعنى هو التحليلية ، فيلزم عن ذلك (فيما يرى الوضعيون) أن الأولية هى التحليلية ، ثم ينتهى إلى أن كواين خلط بين التحليلية والأولية بسبب افتراضات الوضعيين وهى الافتراضات التى يهاجمها ؛ ولكن ، من يمن الطالع ، هذا الخلط لا يبطل حجته ضد الأولية[1] . بيد أننا لا نتفق مع بتنام فى أن كواين خلط بين التحليلية والأولية ، إذ أن كواين حاول تفنيد فكرة التحليلية من خلال التعريفات المقترحة لها ، ثم حاول رفض فكرة الأولية من خلال مذهبه الإيجابى فى النزعة الكلية .

١ – ٣ اعتراضات وايت :

على الرغم من أن حجج كواين ضد التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى قد صيغت بوضوح ومهارة فائقين على حد تعبير من لا يشاركونه فى الرأى[2] فإنها ليست الحجج الوحيدة فى هذا المجال ، إذ تقف إلى جوارها حجج « جودمان »[3]

---

(١) - Ibid, pp. 90-92.

(٢) - Hofstadter, A., Op. Cit., p. 400.

(٣) - Goodman, N., "On Likeness of Meaning", Analysis, Vol. X, 1949, PP. 1-7, and "On Some Differences About Meaning", Analysis, Vol. XIII, 1953, pp. 90-96.

و « وايت » وغيرهما [(١)] ، وسوف نقتصر هنا على حجج وايت حيث أنه صاغ مشكلة التحليلية على نحو قريب إلى حد ما من صياغة كواين لها ، وذلك فى مقالته « التحليلى – التركيبى : ثنائية يتعذر الدفاع عنها » سنة ١٩٥٠ ، فنراه يميز ، كما يميز كواين ،بين نوعين من العبارات التحليلية ، العبارات التى تسمى حقائق منطقية مثل :

(ق أو ك) فى حالة واحدة فقط وهى (ك أو ق) .
ق أو لا ق .
إذا كانت ق ، إذن ليس لا ق .

ولا يشكل هذا النوع من العبارات التحليلية موضع اهتمام وايت ، وإنما ينصب اهتمامه على نوع آخر من قبيل « كل البشر حيوانات » و « كل أخ ذكر » و « كل البشر حيوانات عاقلة » وهلم جرا[(٢)] ويتساءل وايت ، مثلما تساءل كواين ، هل نفحص تحليلية النوع الثانى من العبارات التحليلية فى حدود استبدال المرادفات بمرادفات لكى نحولها إلى حقائق منطقية ونفترض بذلك مسبقًا أننا نفهم الترادف ؟ يشير وايت فى ملاحظات تمهيدية إلى أنه لا يطلب « مرادفًا » « لمرادف » ولا حتى معيارًا سلوكيًا « لما هو مترادف » وإنما يلتمس فحسب فهمًا واضحًا للترادف ؛ ويتفق وايت مع كواين فى القول بأن فكرة الترادف من الأفكار الغامضة ، « إننى أجد ، مثلما يجد كواين ، فكرة الترادف غامضة إلى حد بعيد »[(٣)]؛ ويذهب وايت إلى أنه على الرغم من إمكان اشتراط عبارات معينة على أنها تحليلية وفقًا لقواعد لغة اصطناعية معينة ، فمن الخطأ افتراض أن اللغة الاصطناعية هى إعادة البناء الصحيحة أو المعقولة للغة الطبيعية، فما يكون تحليليًا فى لغة

---

(١) - Rudner, R., "Formal and Non-Formal" Philosophy of Science, Vol. XVI, 1949, pp. 41-48, and Waisman, F., Op. Cit., pp. 122-207, and J. Wild and J.L. Coblitz "Concerning the Distinction Between The Analytic and the Synthetic", Philosophy and Phenomenological Research, Vol. VIII, 1947-1948, pp. 651-667, and J.M.E. Moravcsik, "the Analytic and the Non- Empirical", Journal of Philosophy, Vol. LXII, No. 16, 1965, pp. 415-429.

(٢) - White, M., "The Analytic and Synthetic: An Untenable Dualism", in Hook, S. (ed,): John Deway: Philosopher of Science and Freedom, New York: Barnes & Noble, 1967, pp. 317-318..

(٣) - White, M., "Mormative Ethics, Normative Epistemology and Quine's Holism", in The Philosophy of W.V. Quine, edited by L.E. Hahn and P.A. Schilpp, p.651.

اصطناعية ربما لا يكون كذلك فى لغة اصطناعية أخرى، ومن ثم فهذا أمر لا طائل من تحته.

ويعرج وايت على وجهة من النظر كثيرًا ما يرد بها أنصار التمييز التحليلى – التركيبى على المنكرين له ، ومفادها أن « العبارات التحليلية هى التى نقائضها متناقضة ذاتيًا » ، ويبدو لأول وهلة أن هذه الوجهة من النظر لا تجتنب « المعانى » فحسب بل تجتنب « الترادف » أيضًا فى تناولها للتحليلية ، إذ نقول إننا لكى نكشف عما إذا كانت العبارة مثل « كل البشر حيوانات عاقلة » تحليلية ، لا يتعين علينا أن نكشف عما إذا كانت هذه العبارة بمثابة نتيجة لوضع مرادفات بدلاً من مرادفات فى الحقيقة المنطقية ، وإنما بنا حاجة فحسب إلى إثبات أن نقيض « كل البشر حيوانات عاقلة » متناقض ذاتيًا ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا نستطيع أن نستنتج فى وقت واحد أن العبارة « كل البشر حيوانات عاقلة » تحليلية ، وأن « انسان » و « حيوان عاقل » مترادفان ؛ ولكن هل انكار عبارتنا التى يجرى الزعم بأنها تحليلية ، أعنى « ليست الحقيقة أن كل البشر حيوانات عاقلة » هو التناقض الذاتى ؟ الجواب عند وايت بالنفى ، إذ لا يكشف التبادل النظمى بشكل محض لفكرة التناقض عن جملة تشبه « أ ولا أ » ، فى الشكل ،ولا جملة تشبه « بعض أ ولا أ » وحتى لو حولنا العبارة المتناقضة ذاتيًا على نحو مزعوم إلى « بعض الناس ليسوا حيوانات عاقلة » ، فإننا لا نحصل على تناقض ذاتى فى صورة نظمية ، وإذا قيل إن هذه العبارة الأخيرة تدرك بحيث تكون متناقضة ذاتيًا حالما نتذكر المعنى الذى يمكن أن تستعمل به « إنسان » و « حيوان عاقل » ، فلابد من أن نشير إلى أن هذه الاستعانة بمعانى (أعنى مفاهيم Connotations) « إنسان » و« حيوان عاقل » وعلاقتهما هى على وجه الدقة ما تعهد هذا المعيار باجتنابه(١) .

وينتهى وايت إلى نفس النتيجة التى ينتهى إليها كواين وهى أن التمييز بين العبارات التحليلية والتركيبية هو تمييز فى الدرجة وليس فى النوع ، فنراه يقول إننى أُظن أن المشكلة واضحة ، وأن جميع الاعتبارات تشير إلى ضرورة التخلى عن اسطورة التمييز

---

(١) White, M., Toward Reunion in Philosophy, Cambridge: Harvard University Press, 1956, pp. 144-145.
ومناقشة وايت للتحليلية فى هذا الكتاب هى صورة معدلة لمناقشته لها فى مقالته « التحليلى – التركيبى : ثنائية يتعذر الدفاع عنها » والتى أشرنا إليها .

الصارم بين الصفة الجوهرية والعرضية (إذا استعملنا اللفظ الأرسطى القديم) وأيضًا صياغته المعاصرة ، أى التمييز الصارم بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ؛ إننى لم ابرهن أنه لا يمكن أبدًا تقديم معيار للتحليلية أو الترادف ، وإنما اثبت أنه لم يتم تقديم أى معيار ، وأن المعيار الملائم هو على الأرجح جعل التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى مسألة درجة[1] .

١- ٤ دفاع عن التمييز التحليلى - التركيبى :

١ - ٤ - ١ دفاع كاوفمان :

من بين الردود المبكرة على اعتراضات كواين ووايت رد كاوفمان فى مقالته « التحليلى - التركيبى ، ثنائية يمكن الدفاع عنها » (١٩٥٣) ، ويستهل كاوفمان رده بتقرير موجز عن حجج كواين ووايت ضد التحليلية ، ثم يتساءل : ما الذى تثبته الحجج التى قدمها كواين ووايت ؟ والجواب عنده : أظن أنها قد أثبتت بنجاح أننا إذا أردنا معيارًا أو مجموعة من المعايير التى ، لو طبقناها فى حالة أى تقرير له الصورة النحوية للجملة الإخبارية ، سوف تمكننا من تحديد ما إذا كانت هذه الجملة فى هذا السياق المحدد تحليلية أو تركيبية ، أقول إننا إذا أردنا معيارًا أو مجموعة من المعايير كهذه فإن بحثنا سيحكم عليه بالإخفاق ؛ ولكن إذا كانت المعايير المقترحة للتمييز غير كافية ، فهل ينتهى بنا الأمر إلى التخلى عنه ؟ يجيب كاوفمان على هذا السؤال بالنفى ، ويسلك تسويغه لهذا الرد مسلكين ؛ أولاً ، يسعى لأن يثبت أن الصعوبة فى إثبات المعايير لا تعد سببًا كافيًا للتخلى عن التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، تمامًا مثلما لا يتوقع أن يتخلى السائق عن تمييزه بين الجانب الأيسر والجانب الأيمن من الطريق لأن مكتب الطرق العامة أهمل الترخيص بالخطوط البيضاء على منتصف قلة من الطرق النائية ، والتمثيل ملائم لأنه ينقل الفكرة التى مفادها أن الناس قادرون على تثبيت التمييز كلما أصبح هامًا القيام بذلك ؛ أما المسلك الثانى من تسويغ كاوفمان لجوابه المشار إليه فهو محاولة إثبات أن العبارة التحليلية تكون صادقة بمقتضى معانى التعبيرات المكونة ، ويحاول كاوفمان من خلال هذا التسويغ الثانى

---

(١) - White, M., "The Analytic and Synthetic: An Untenable Dualism", p. 330.

الإجابة على سؤالين : (١) ما هى الوظيفة التى يقوم بها التمييز ؟ (٢) إذا كان التمييز مفيدًا ، فكيف نوضحه ؟[١] .

وفى الإجابة على السؤال الأول يقدم لنا كاوفمان شرحًا خياليًا تاريخيًا مفاده أنه فيما مضى من الزمان اشترك اثنان من علماء الأحياء المشهورين هما « محمد » و « أحمد » فى جدل طال أمده ، وكانت القضية هى وضع الحوت : هل هو من الثدييات أم من الأسماك ؟ وساق محمد حجته على النحو الآتى :

كل الثدييات برية
الحيتان ليست برية
الحيتان ليست ثدييات

بينما أصر « أحمد » على أن الحيتان ثدييات ، وأن إفتراض « محمد » الأساسى القائل بأن « كل الثدييات برية » قد وضع خطأ ، واحتدم الخلاف بينهما وطال زمنه ، وكان ورق البردى مليئًا بالحجج المؤيدة والمعارضة ، وانقسم علماء الأحياء إلى فريقين حول هذه القضية ، يذهب أحدهما إلى أن الحيتان من الثدييات ، ويرى الآخر أن الحيتان ليست من الثدييات[٢] .

وكان البلد الذى ظهر فيه الجدل غريبًا بالفعل ، إذ قرر ملكه – الحكيم النبيل – أن تمتد جميع المجالات العلمية على مدار عام تخضع فيه للفحص من قبل مناطقه قصره ، وكذلك الحكم الرسمى فيما يتعلق بالحل الملائم والمعقول إلى حد بعيد للخلاف المستمر ؛ وانقضى عام كامل ولم يتوصل « محمد » و « أحمد » إلى اتفاق ، وقد عين « عمر » ، رئيس المناطقة عند الملك ، لهذه الحالة ، فأدرك بسرعة أنه إذا استطعنا تبديد عدم الاتفاق على الافتراض الأولى ، أى « كل الثدييات برية » فسوف يتلاشى الجدل ، وقرر تحديد ما إذا كان هذا الافتراض – ولنطلق عليه اسم (س) – تحليليًا أم تركيبيًا بالنسبة لمحمد ؛ فإذا كان تحليليًا ، فإن المشكلة ستصبح مشكلة مواضعات لغوية ملائمة تقريبًا ، أما إذا كان تركيبيًا ، فإن الدليل سيكون هو الحكم الفصل ؛ وطرح « عمر » على « محمد »

---

(١) - Kaufman, A.S., "The Analyic and the Syntheice, A Tenable Dualism", Philosophical Review, Vol. LXII, 1953, p. 423.

(٢) - Ibid, p. 423.

سؤالاً مؤداه : هل الكائن الذى يشبه الكلب فى كل جانب فيما عدا أن أعضاءه التنفسية سمحت له أن يقيم فى قاع البحر ، هو كائن ثديى ؟ ورد « محمد » غير حاسم تمامًا ، ويستمر الاستجواب ، ويسلم « محمد » بأنه ربما كان مخطئًا بخصوص (س) ، غير أنه عاجز عن تصور أية حالة تدفعه إلى تبديل حكمه ، فما الذى يستنتجه « عمر » كنتيجة لفحصه ، هل يتخلى عن التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، لأنه عاجز عن الوصول إلى حسم فيما يتعلق بـ (س) ، وبقدر ما يرتبط الأمر بمحمد ؟ ويستنتج « عمر » أن اخفاق « محمد » فى أن يكون حاسمًا فيما يختص بـ (س) لم يظهر الافتقار الكامل الذى يعانى منه التمييز ، بل يظهر على وجه الدقة أن محمدًا لم يكن واضحًا ومحددًا حول معانى التعبيرات المكونة ؛ لقد كان « عمر » على وعى بأن التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى « يعمل بوصفه مثيرًا للوضوح ، وليس بالضرورة باعتباره وصفيًا لاستعمال فعلى »[1] .

هكذا يحاول كاوفمان الدفاع عن التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى بوصفه أداة للتوضيح ووسيلة لاستنباط الصيغ الواضحة فى اللغة ، ويمكن الاعتراض على كاوفمان بأن التوضيح ليس هو الهدف الوحيد أو الهدف الأسمى من وراء هذا التمييز ، إذ للتمييز عند أنصاره أهداف أخرى أسمى من ذلك وأبعد أثرًا ، فهو يقيم تفرقة فاصلة بين نوعين من المعرفة ؛ معرفة تدور مع اللغة ومعانيها فقط ، ومعرفة تخبرنا عن أمور الواقع ، المعرفة الأولى « أولية » ، والثانية « بعدية » ، والعبارات من هذين الضربين من المعرفة هى كل العبارات ذات المعنى ، وما عدا ذلك من عبارات فهى العبارات الخالية من المعنى وهى قضايا الميتافيزيقا ، وهنا نصل إلى أحد الأهداف الأساسية ، إن لم يكن الهدف الأساسى ، من وراء التمييز والذى فات كاوفمان أن يشير إليه ألا وهو استبعاد الميتافيزيقا باعتبارها لغوًا ؛ فلا هى قضايا تحليلية تكرر فى المحمول نفس ما قالته فى الموضوع ولا هى قضايا تركيبية تخبرنا بشىء عن أمور الواقع يمكن أن نحكم عليه بالصدق أو بالكذب عن طريق خبرة الحواس ، وإنما هى لغو فارغ لا يرقى حتى إلى مستوى الكذب .

وفيما يتعلق بالإجابة على السؤال الثانى يذهب كاوفمان إلى أن النقطة المحورية فى

(١) - Ibid, pp. 423-424.

مشكلة التحليلية بالنسبة لكواين ووايت هى الاستحالة العملية للكشف عن المعايير السلوكية التى بالرجوع إليها يجوز تحديد العبارة فى اللغة الطبيعية بوصفها تحليلية أو تركيبية ؛ والشىء الأساسى إلى حد بعيد هو الافتراض الضمنى القائل بأنه حتى بمقتضى أفضل الشروط تكون القواعد المتحكمة فى السلوك اللغوى غير محددة وغامضة بحيث نحكم بالاخفاق على أية محاولة لتوضيح هذه القواعد ، ولكن هذه الاعتبارات ليست وثيقة الصلة بالمشكلة الهامة ، فى نظر كاوفمان ، التى تظهر فى سياق البحث ، أى مشكلة تثبيت المعانى ، وبالتالى نحصل على وضوح فى المناقشة ؛ وعندما نثبت المعانى فى مناقشاتنا نستطيع أن نبدأ فى تحديد وضع التقريرات أو العبارات المتنوعة ، وليس من شك فى أن الشخص الذى يتابع كواين فى اعتراضاته على التحليلية سوف يعترض هو الآخر هنا بقوله : بأى حق يقدم كاوفمان هذه الكائنات الوسيطة الغامضة التى تدعى « المعانى » ؟ وإذا كان كاوفمان يقبل وجهة النظر القائلة إن العبارات التحليلية تكون صادقة بمقتضى المعانى فقط ، فكيف يواجه نقد كواين لفكرة المعانى ؟

يذهب كاوفمان إلى إمكان بيان عدم وجود مجال للمفارقات ، ولا الصعوبات الفلسفية المتضمنة فى تعريف العبارة التحليلية على أنها العبارة الصادقة بمقتضى معانى التعبيرات المكونة ، ويتساءل : ما الذى أثبته نقد كواين للمعنى ؟ لقد زعم كواين أنه أثبت عدم جدوى هذا المفهوم وأنه غير مثمر ، ويلاحظ بأننا نفى بأغراض نظرية المعنى من خلال صياغة التعبيرات المترادفة ، وبالتالى عندما نسأل « ماذا يعنى (س) » ، يأتى الرد فى صورة التعبير اللغوى (ص) ، ويكون (ص) هو المرادف لـ (س) ؛ ولكن مع التسليم بهذا يتساءل الإنسان هل استعمال المرادفات فى الإجابة على أسئلة تتعلق بالمعنى يجيز تحريم مفهوم « المعني » أو ابطاله ؟[1] .

على أن كاوفمان يذهب إلى أن غرضنا الأصلى ليس صياغة التعبير المترادف بل « التواصل » ؛ فصياغة التعبير المترادف ليس هو المنهج الوحيد ، فترانا نشير ونومئ ونرسم صورًا ، وكثيرًا ما يحدث أن نعد التعبير المترادف غير مفهوم من قبل الشخص الذى نتحدث معه ، ومع ذلك فنحن نعتمد على « الرصيد المشترك من المعانى » الذى

(١) -Ibid, p. 426

يكون سابقًا على أية محاولة محددة للتواصل ؛ ويجوز للإنسان أن يسأل : كيف نكون على يقين من أن هذه المعانى للتعبيرات ثابتة وواضحة واحادية المعنى ؟ والجواب بطبيعة الحال هو أننا لا يمكن أن نكون على يقين دائمًا من هذا ، وإنما نستطيع أن نفترض هذا فحسب بحيث يكون هو الحقيقة طالما يبدو أننا نتواصل ؛ ثم يختم كاوفمان دفاعه بقوله : « إن التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى يعمل كوسيلة لاستخراج الصيغ الواضحة ؛ ونحن نضع عبارات تحليلية أو تركيبية عن طريق « تثبيت معانى » التعبيرات المكونة ، وهكذا يبدو من المعقول تمامًا توضيح التمييز عن طريق التوكيد على أن الجمل التحليلية تكون صادقة بمقتضى المعانى ، والأحكام التركيبية تكون صادقة أو كاذبة بمقتضى الوقائع المناسبة أو ذات الصلة بالموضوع »[1] ؛ وهنا يعول كاوفمان على مفهوم المعنى دون أن يقدم حججًا كافية لتسويغه ، وإن كان يقدم بالفعل فكرة جيدة إلى حد ما هى فكرة « التواصل » .

١ - ٤ - ٢ دفاع فيتز

يركز فيتز دفاعه عن التحليلية على اعتراض واحد من اعتراضات كواين عليها ، وهو الاعتراض الذى ينصب على التعريف القائل بأن العبارة التحليلية هى العبارة التى إما أنها حقيقة منطقية أو يمكن تحويلها إلى حقيقة منطقية وذلك بوضع مرادفات بدلاً من مرادفات ، ويرى فيتز أن الافتراض الأساسى فى مناقشة الترادف وبالفعل فى مناقشة كواين للتمييز التحليلى - التركيبى هو أن العبارة ، التى ليست بحقيقة منطقية ، يمكن تصنيفها على نحو ممكن تسويغه بوصفها تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى أنه يمكن تحويلها إلى حقيقة منطقية .

ويتساءل فيتز : لماذا يجب أن نقبل هذا الافتراض ؟ ويذهب إلى أنه لا يوجد سبب كائنًا ما يكون لفرض قبولنا لهذا التفسير أو تزكيته ، وإنما هو افتراض تعسفى تمامًا ؛ « إننى أرفض هذا الافتراض ، ومعيار قابلية التحويل ، ليس لأنه تعسفى وغير ضرورى فحسب ، بل لأنه مضلل أيضًا بقدر ما يعوق إدراكنا لوجود كل أنواع الجمل التى هى

---

(١) - Ibid, p. 426.

تحليلية أو يجوز أن تكون كذلك والتى لا تتعلق سمتها التحليلية بقابليتها للرد إلى الحقائق المنطقية »[١] .

وإذا أخذنا المثال « ليس الأعزب بمتزوج » فهل يعد عبارة تحليلية ، ولماذا ؟ إن المفتاح الذى نكشف به وضع هذه العبارة هو أن ننظر هل تتعارض مع عبارات أخرى مثل« ليس الأعزب بلا موارد مالية » ، فنطق العبارة الأخيرة فى ظروف عادية سيحدث نوعًا من الدهشة والشك ، وتأتى الردود النموذجية عليه من قبيل « خطأ » و « أحقًا ما تقول ؟ » و « كم هو شائق ؟ » ولكن من غير الملائم تمامًا أن تجئ هذه الردود على قولنا ليس الأعزب بمتزوج » ؛ وهذا التعارض فى الرد يوحى بالفعل بأن الاختلاف أساسى ويشير إلى ملمح فى عبارة لا يوجد فى الأخرى ، ويشير على وجه الخصوص إلى الاختلاف بين العلاقة بين كونه أعزب وكونه غير متزوج ، وكونه أعزب وكونه بلا موارد مالية ، فماذا عساه أن يكون هذا الاختلاف ؟ إنه بإيجاز على النحو الآتى : إن المفاهيم ، فرد ، ومتزوج ، وأعزب ، وذكر ، وأنثى ، وعانس ، وهلم جرا ، لابد من وضعها لأسباب منوعة فى نسق مفهومى مركب إلى حد ما ، وعلى الأقل فى المجتمع الغربى ، ونضيف أن لكل مجتمع أنساقه المفهومية الخاصة به والتى قد تتفق فى جانب منها مع أنساق مجتمع آخر وقد تختلف عنها فى جانب آخر ، ويشمل هذا النسق سلسلة كاملة من نماذج الاستدلال ، وبالتالى لو قدمنا عبارة حول أحد المفاهيم فى النسق ، فإننا نستطيع أن نستدل استدلالاً صحيحًا عبارات أخرى معينة حول المفاهيم الأخرى ، على سبيل المثال ، هب أننا قدمنا عبارة مفادها أن شخصًا ما فى مجتمعنا هو عم (أو خال) Uncle ، فإننا نستطيع إذن أن نستدل من هذه العبارة ، بالإضافة إلى النسق المفهومى الفعلى فى الاستعمال فى مجتمعنا ، كون العم (أو الخال) هو الشخص الذى يكون أخًا لذكر معين أو أنثى[٢] .

ويحاول فيتز أن يربط هنا بين تعلم ماهية المفاهيم وتعلم استعمالها ، إذ أن تعلم أنساق مفهومية خاصة هو جزء من تربيتنا ، فترانا فى مقتبل العمر نتعلم الأنساق التى تتعلق بالألوان والأشياء والأشكال والمقادير وهلم جرا ، ونتعلم أيضًا كيف ترتبط مفاهيم النسق الواحد

---

(١) - Weitz, M., "Analytic Statemants", Mind, Vol. LXIII, 1954, p. 490.

(٢) - Ibid, p. 491

بمفاهيم النسق الآخر ، ونتعلم أيضًا ، عندما نتعلم كيف نتكلم ونفهم كلام غيرنا من الناس ، كيف أن هذه المفاهيم تدخل فى نسيج لغاتنا المختلفة بحيث لا تتجزأ منه ، وهذا يعنى القول إننا نتعلم ماذا عساه أن يكون الأعزب بتعلمنا كيف نستعمل المفهوم ، ونتعلم هذا بتعلمنا كيف نستعمل كلمة « أعزب » إذا تلقينا تربيتنا باللغة العربية مثلاً(١) .

وهكذا يسعى فيتز إلى إثبات أننا نتعلم أن ليس الأعزب بمتزوج عن طريق تعلم كيف نستعمل كلمة « أعزب » بمغزاها المألوف ، ولكن كيف نتعلم على الأقل ابتداء من الآن أن ليس الأعزب من له موارد مالية أو بلا موارد من دون أن نتعلم شيئًا آخر يتعلق بالعالم ، وبتعلم أن ليس الأعزب بمتزوج ، فإننا نتعلم جزءًا من النسق المفهومى الذى يدمج ، كما يستعمل ، كجزء منه النموذج العام للاستدلال « يكون أعزب » تستلزم « يكون غير متزوج » ، والذى بسبب هذا الادماج يفسح أمامنا المجال لكى ننتقل دون أن تتجاذبنا الشكوك انتقالاً صحيحًا من « أ أعزب » إلى « ومن ثم ، أ غير متزوج » ؛ ويقترح فيتز القول بأن العبارة « ليس الأعزب بمتزوج » تحليلية هو فى المقام الأول القول بأن هذه العبارة نموذج استدلال لنسق مفهومى فعلى ، وإن شئت أن تضع المسألة بعبارة أكثر إيلافًا قل إن القول بأن هذه العبارة تحليلية هو القول بأنها عبارة تعبر عن جانب من استعمالنا العادى لكلمة « أعزب » ، ولا تعد العبارة « ليس الأعزب بمتزوج » نموذجًا لجميع العبارات التحليلية غير المنطقية بل لعدد قليل منها بالتأكيد ، فالعبارات « ليست العانس متزوجة » و « ليس الأب بلا أولاد » و « كل شىء أحمر ملون » تعد كل واحدة منها حالة واضحة للعبارة التحليلية التى تتأسس بطرق منوعة فى مفاهيم معينة نصل إليها فى الواقع من نماذج معينة للاستدلال ، وتشكل هذه النماذج جزءًا لا يتجزأ من لغتنا(٢) .

تلك خلاصة التفسير الذى يقدمه فيتز للتمييز التحليلى – التركيبى ، والذى هو مشتق – كما يشير فيتز نفسه – على الأقل فى جانب ما من تصور شليك للنحو المنطقى والتعديلات التى أدخلها عليه فايزمان ورايل ؛ ولن هل يقبل كواين مثل هذا التفسير ؟ الجواب عند فيتز أن كواين ، تبعًا لما يقوله ، سوف يرفض هذا التفسير بلا شك ، وهناك سببان يتصلان برفضه اتصالاً وثيقًا هما :

---

(١) - Ibid, pp. 491- 492.

(٢) - Ibid, p. 492.

١ – يرتكز تفسير فيتز على فكرة المعنى ، وهى فكرة غامضة غموضًا لا أمل فيه .
٢ – إن تفسير المعنى على أنه استعمال يترك مشكلة التحليلية تجريبية بشكل ميئوس منه ، وعلى غير أساس .

ثم يقول فيتز : « والرد عندى على (١) أن مشكلة المعنى ليست بالضرورة مأزقًا لا أمل فى الخروج منه ، وأن الاقدام المعاصر نحو فهم المعنى فى حدود الاستعمال هو شىء مثمر شأنه فى ذلك شأن أى شىء ظهر فى الفلسفة فى عصرنا ، وردى على (٢) أن أسس التحليلية هى على وجه الدقة خطط مفهومية ولغوية متفق عليها والتى هى جزء من ارثنا اليومى ، فما هو المطلوب أو الذى يمكن أن يكون فى المتناول ؟ إن شعورى الخاص هو أننا إذا تخلينا عن المعيار غير الضرورى لقابلية التحويل ومعيار الترادف المرافق له ، وإذا أعدنا تفسير المعنى كما يجب فى حدود استعمالات المفاهيم واللغة ، فإن المشكلة المتعلقة بعبارات مثل « ليس الأعزب بمتزوج » من جانب لماذا هى تحليلية وما إذا كانت كذلك لن تكون مشكلة صعبة »(١) .

بيد أن فيتز يعود فيقرر أن كل العبارات التحليلية غير المنطقية ليست مثل « ليس الأعزب بمتزوج » ومثال فايزمان « إننى انظر بعينى » لا يبدو كذلك ، وإذا كانت تحليلية فلا يبدو أنها تحليلية بوضوح ، ويبدو أنها تستند على العالم والوقائع بقدر ما تستند على اللغة والمفاهيم ؛ وبالفعل فإن الأمثلة من هذا النوع غير المحدد فيما يبدو تشكل أمثلة عصيبة فى مشكلة التحليلى – التركيبى ، ويسوق فيتز المثال التالى : تأمل التعارض بين العبارتين الآتيتين حول شخص واحد « ماتت امه قبل مولده باسبوعين » و « مات أبوه قبل مولده باسبوعين » ، وتحدث هاتان العبارتان نوع الرد المتعارض الذى أحدثته العبارتان « ليس الأعزب بلا موارد مالية » و « وليس الأعزب بمتزوج » ؛ إذ سنرد على العبارة « مات أبوه قبل مولده باسبوعين » بشىء من قبيل « كم هو محزن » و « أحقًا ما تقول ؟ » و « ربما يفسر هذا تربيته » ، ولكننا سنرد على العبارة « ماتت امه قبل مولده باسبوعين » بشىء من الشك « ما الذى تقوله ؟ » أو بالرفض الصريح « محال » أو « مستحيل »(٢) .

والآن هل نقول إن العبارة التى تدور حول الأب هى حالة واضحة للعبارة التركيبية ،

(١) - Ibid, pp. 492-493.
(٢) - Ibid, p. 493.

الصادقة أو الكاذبة تجريبيًا والتى تعتمد على تاريخ وفاة الأب مع علاقة بتاريخ ميلاد ابنه ؟ الجواب نعم بوضوح ، ولكن هل نقول بعد ذلك إن العبارة التى تدور حول الام هى حالة واضحة للتناقض الذاتى ؟ وهل نقول أيضًا إن العبارة « لم تمت امه قبل أن يولد باسبوعين » هى حالة واضحة للعبارة التحليلية ؟ هنا يعترف فيتز بأننا فى حالة شك حقيقى ، إذ نميل إلى القول ، مثلاً ، عن العبارة الأخيرة إنها تحليلية وعلاوة على ذلك فهى تركيبية ؛ تحليلية لأنها تبدو مثل العبارة التى يمكن أن نقرأها فى نموذج الاستدلال الذى هو جزء من النسق المفهومى المتعلق بالأمومة ، أى أن العبارة « لم تمت أمه قبل أسبوعين من ولادته » يبدو أنها تلزم عن العبارتين « الأم هى الشخص الذى يضع طفلاً » و « الأم التى ماتت منذ اسبوعين لا يمكن أن تضع طفلاً » ؛ وتبدو المقدمة الأولى تحليلية مثل « ليس الأعزب بمتزوج » ولكن ماذا عن الثانية ، أى « الأم التى ماتت منذ اسبوعين لا يمكن أن تضع طفلاً » ؟ هل « لا يمكن » هنا هى لا يمكن بمعناها المنطقى ، أى « من غير المعقول القول ... » أم بمعناها الواقعى ، أى « لا يحدث فى الواقع »[1] .

ويعترف فيتز بأن الإجابة على هذا السؤال ليست يسيرة ، ويبدو أن هناك قوة ما فى القول بأن « الأم التى ماتت منذ اسبوعين لا يمكن أن تضع طفلاً » هى جزء من الخطة المفهومية المتعلقة بالامومة مثل « الأم هى الشخص التى تضع طفلها » ؟ ومع ذلك فنحن نعرف أنه فى حالة العبارة الأولى ، يتقيد صدقها بمجموعة ممكنة من الحقائق البيولوجية ، فإذا أخذنا فى الاعتبار طريقة لضمان نوع ما من الدوران بالنسبة للطفل فى الرحم ، فلماذا لا يمكن أن تضع الأم التى ماتت منذ اسبوعين طفلها » ؟ نحن نعرف أن المرأة التى تموت تضع وحتى المرأة التى ماتت منذ دقيقتين ، فلماذا يتطلب استبدال « اسبوعين » بـ « دقيقتين » إعادة تفسير جذرية للعبارة « المرأة التى ماتت منذ دقيقتين لا يمكن أن تضع طفلاً » ؟ هناك قوة ، إذن ، فى القول بأن المقدمة الثانية واقعية وتركيبية ، وهناك قوة فى القول بأنها مفهومية وتحليلية ، ويلزم عن هذا أن العبارة « لم تمت امه قبل مولده باسبوعين » ليست تحليلية أو تركيبية بوضوح ، وبالتالى ، فإن العبارة « ماتت امه قبل مولده باسبوعين » ليس متناقضة ذاتيًا ، أو تركيبية بوضوح ؛

(١) - Ibid, p. 493.

ويستنتج فيتز من هذا أنه على حين لا يوجد تسيوغ لزم كواين أن العبارة غير المنطقية ليست تحليلية أو تركيبية بوضوح ، فهناك مسوغ لزعمه إن بعض العبارات ليست تحليلية أو تركيبية بوضوح(١) .

١ – ٤ – ٣ دفاع جرايس وستراوسون

لعل من أكثر الردود على مقال كواين « عقيدتان للتجريبية » زيوعًا وأعظمها أثرًا مقال جرايس وستراوسون « فى الدفاع عن العقيدة » سنة ١٩٥٦ ، فيقول بتنام مثلاً : لقد حث مقال كواين على فيض من الردود ، غير أن الغالبية العظمى من تلكم الردود لم تضارع المقال الذى حث عليها فى الأصالة أو المغزى الفلسفى ، ويستثنى من ذلك مقال جرايس وستراوسون المشار إليه(٢) ؛ ويرتكز دفاع جرايس وستراوسون عن التمييز التحليلى – التركيبى على حجتين :

أولاً : إن الصعوبات التى تعترض وضع الحدود الفاصلة لا تستلزم عدم وجود تمييز حقيقى فى الواقع .

ثانيًا : يمكن أن نضفى مغزى مقنعًا بالفعل لعدد من عائلة الأفكار التى تنتمى إليها فكرة « تحليلى » وذلك على خلاف دعاوى كواين .

يستهل جرايس وستراوسون دفاعهما بالكشف عن بعض الطرائق التى يمكن نقد التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى من خلالها ، ثم تحديد الطريقة التى ينقد بها كواين هذا التمييز أو تعيين الموضع الذى يمكن أن تشغله انتقادات كواين بين الانتقادات الأخرى التى تعترض سبيل التمييز ؛ « هنالك طرائق كثيرة يمكن نقد التمييز بواسطتها ، وتوجد أكثر من طريقة يمكن رفض التمييز من خلالها ؛ فيمكن نقده بدعوى أنه ليس تمييزًا قاطعًا ، لأنه يسمح بحالات لا تقع بوضوح على أى جانب من جانبيه ؛ أو على أساس أن الألفاظ التى عادة ما يوضع بها التمييز تكون غامضة ، أى لها أكثر من معنى واحد ؛ أو على أساس أنه ملتبس ، أى تدمج فيه المعانى المختلفة على نحو مألوف ؛ وهذه الانتقادات وحدها تكاد لا تساوى رفض التمييز ، وإنما ستكون بالأحرى مقدمة للتوضيح ، وليس هذا هو نوع

---

(١) - Ibid, p. 494.

(٢) - Putnam, H, Mind, Language and Reality, Philosophical Papers, Vol. 2, Cambridge : Cambridge University Press, 1975, p. 34.

النقد الذى يقدمه كواين ، ويمكن نقد التمييز ، من ناحية ثانية ، على أساس أنه غير مفيد ، إذ يمكن القول بأنه عديم الجدوى بالنسبة لأغراض معينة ، أو عديم الجدوى على الجملة ... والشخص الذى يجئ نقده بهذه الطريقة ربما يقال حقًا إنه يرفض التمييز ، ولكن بالمغزى الذى يتطلب منه الاعتراف بوجوده ، وهو يعلن ببساطة أنه يستطيع أن يحقق تقدمًا من دون التمييز ؛ غير أن نقد كواين للتمييز يبدو جذريًا أكثر من هذا النقد ، لأنه سيقول بالتأكيد إنه يستطيع التقدم من دون هذا التمييز ، ولكن ليس بالمغزى الذى سيلزمه بالاعتراف بوجوده ؛ أو يستطيع المرء من ناحية أخرى أن ينقد الطريقة أو الطرق التى يتم بها شرح تمييز أو تفسيره بصورة عادية على أساس أن هذه التفسيرات لا تجعله واضحًا بالفعل ، وهذه الانتقادات يضعها كواين بالتأكيد فى حالة التمييز التحليلى – التركيبى ؛ بيد أن كواين يفعل ما هو أكثر من هذه الانتقادات ، أو يبدو أنه يفعل كذلك ؛ فهو لا يؤكد فحسب أنه تمييز عديم الجدوى أو أنه قد تم توضيحه توضيحًا ليس كافيًا ، بل يؤكد أيضا أنه وهمى على الجملة ، وأن الاعتقاد فى وجوده خطأ فلسفى »(١) .

وعلى هذا النحو يحدد جرايس وستراوسون أن وجود التمييز هو الشىء الذى يشك كواين فى حقيقته ، بمعنى أن رفض كواين للتمييز يبدو مساويًا لانكار وجوده ؛ ولكن ، ألا يجوز للمرء أن يسأل : هل يوجد افتراض سابق فى صالح وجود التمييز ؟ يجب أن نعترف بوجود مثل هذا الافتراض ، فقد افترض الفلاسفة – كما سبق أن أشرنا فى (١–١) – فى أوقات متباينة أزواجًا من الكلمات أو التعبيرات للتعبير عن هذا التمييز مثل « ضرورى » و « ممكن » و « حقيقة العقل » و « حقيقة الواقع » ، وبالتالى فإن رفض كواين للتمييز يدخله فى نزاع وخصام مع تقليد فلسفى طويل ليس كله موضع زراية أو احتقار ؛ ولكن ليست هناك ضرورة ، فيما يقول جرايس وستراوسون ، للاستعانة فقط بالارث الفلسفى للتمييز ، ذلك لأن هناك ممارسة حالية أيضًا له ، أى أننا نستطيع الاستعانة بالحقيقة القائلة إن الذين يستعملون المصطلحين « تحليلى » و « تركيبى » يتفقون اتفاقًا واسع النطاق على التطبيقات التى يضعونها لهما ؛ فنراهم يطبقون مصطلح « تحليلى » على حالات بعينها تقريبًا ، ويمنعونه عن حالات بعينها تقريبًا ، ويترددون إزاء حالات بعينها تقريبًا ، ولا يمتد

---

(١) Grice, H.P. and Strawson, P.F., "In Defense of A Dogma", Philosophical Review, Vol. LXV, 1956, pp. 141-142

هذا الاتفاق إلى الحالات التى « تعلموا » تمييزها على هذا النحو فحسب ، بل يمتد أيضًا إلى الحالات الجديدة التى لم يحددوا طبيعتها من قبل .

« وصفوة القول هى أن المصطلحين « تحليلى » و « تركيبى » لهما استعمال فلسفى معترف به تقريبًا ، ويبدو أن هذا يوحى بأنه من المحال ، وحتى من اللغو ، القول بعدم وجود هذا التمييز »[(١)] ؛ ويجوز الاعتراض على جرايس وستراوسون بأن استعمال التمييز وتمتعه بارث فلسفى لا يشكل دليلاً قاطعًا على صوابه ، فقد يركن الناس إلى فكرة ثم يتبين أنها خاطئة بعد أمد طويل .

على أن اعتراضات كواين على التمييز التحليلى - التركيبى تجئ على نحو أعمق من هذا بكثير ، فمن بين الأفكار التى تنتمى إلى مجموعة التحليلية تلك الفكرة التى يسميها كواين بالترادف المعرفى ، والتى يمكن تفسير التحليلية فى حدودها ، ولكن كواين يرى أن من سوء الطالع أن فكرة الترادف المعرفى غير واضحة شأنها فى ذلك شأن فكرة التحليلية ، والآن ، فإن القول بأن التعبيرين (س) و (ص) مترادفان معرفيًا يبدو منسجمًا مع ما نعبر عنه بصورة عادية بقولنا إن (س) و (ص) لهما المعنى نفسه أو أن (س) تعنى ما تعنيه (ص) ؛ ولو ظل كواين مخلصًا فى هجومه على التحليلية ، لتعين عليه أن لا يؤكد على عدم وجود التمييز الذى نفترض تحديده عن طريق استعمال المصطلحين « تحليلى » و « تركيبى » فحسب ، بل يؤكد أيضًا على عدم وجود التمييز الذى نفترض تحديده عن طريق استعمال التعبيرين « يعنى الشىء نفسه » و « لا يعنى الشىء نفسه » ؛ وعلى الأقل ،لابد من أن يؤكد هذا طالما أن فكرة « يعنى الشىء نفسه » - فى تطبيقها على تعبيرات المحمول - يفترض أنها تختلف عن فكرة « يكون صادقًا بالنسبة للموضوعات نفسها تمامًا » وتتجاوزها ، وهى فكرة الاشتراك فى الماصدق[(٢)] .

وإذا نظرنا إلى التعبير « يعنى الشىء نفسه » ، لوجدنا أنه ليس مصطلحًا فلسفيًا ، على خلاف « تحليلى » ، وإنما هو خاصية شائعة ؛ ومن ثم إذا كانت آراء كواين تجبرنا على القول بأنه لا يوجد تمييز بين « يعنى الشىء نفسه » و « لا يعنى الشىء نفسه » ،

---

(١) -Ibid, p. 143.

(٢) -Ibid, p. 145.

وهو التمييز الذى يكون مطلوبًا لفهم « الاختلاف » بين « أعزب » يعنى نفس ما يعنيه « رجل غير متزوج » ولكن « مخلوق بقلب » لا يعنى نفس ما يعنيه « مخلوق بكليتين » ، فإننا واقعون لا محالة فى مفارقة ؛ ولن يتعين علينا أن نتخلى عن فكرة ترادف المحمول فحسب ، بل ترادف الجملة أيضًا ، والتى سيكون من نتائجها أننا لن نستطيع الترجمة بين اللغات(١) ؛ ثم يحاول جرايس وستراوسون ربط فكرة الترادف بفكرة المعنى وبيان كيف أن التخلى عن الأولى سوف يفضى إلى التخلى عن الثانية ، إذ لو كان الحديث عن ترادف الجملة خاليًا من المعنى ، فيبدو أن الحديث عن جمل لها معنى على الإطلاق لابد من أن يكون خاليًا من المعنى أيضًا ، ذلك لأنه إذا كان من المعقول الحديث عن جملة لها معنى ، أو تعنى شيئًا ما ، فمن المحتمل أنه سيكون معقولاً أن نتساءل « ماذا تعنى » ؟ ، وإذا كان من المعقول أن نطرح السؤال « ماذا تعنى » ؟ بالنسبة للجملة ، فمن الممكن تحديد ترادف الجملة تقريبًا على النحو الآتى : تكون الجملتان مترادفتين فى حالة واحدة فقط وهى أن تكون أية إجابة صحيحة على السؤال « ماذا تعنى » ؟ المطروح بالنسبة لجملة منهما هى إجابة صحيحة على السؤال نفسه بالنسبة للجملة الأخرى ؛ ومن ثم يقول جرايس وستراوسون : « إذا تخلينا عن فكرة ترادف الجملة بوصفها لغوًا ، لابد من أن نتخلى عن فكرة مغزى الجملة (أو جملة لها مغزى) بوصفها لغوا أيضًا ؛ ولكن من الناحية الثانية ربما نتخلى أيضًا عن فكرة المعنى »(٢) .

إن ما يود أن يحدده جرايس وستراوسون على أنه مخفق فى حجة كواين هو أنه بدلاً من أن يسعى كواين لبحث الاستعمال الفعلى لفكرة « يعنمى الشيء نفسه » ، نراه يقيسها وفقًا لمعيار معين ويجد أنها ناقصة ولا ترقى إلى المستوى المطلوب ، وينظر جرايس وستراوسون إلى هذا الخطل فى الحجة على أنه « مثال نموذجى » لمفارقة يمكن أن ينحدر إليها فيلسوف ؛ ومن الواضح أن المعيار الذى يسعى إليه كواين فى هذه الحالة هو معيار القدرة على التوضيح ، والذى يمكننا ، إذا حصلنا عليه أو اكتسبناه ، من الزعم بأننا قد أضفينا « مغزى مقنعًا » على الفكرة التى نخضعها للبحث ، ويثبت كواين أن فكرة

---

(١) - Grayling, A.C., An Introduction to Philosophical Logic, Sussex: The Harvester Press, New Jersey: Barnes & Noble Books, 1982, p. 54.

(٢) - Grice, H.P. and Strawson, P.F., Op. Cit., P. 146 .

« يعنى الشىء نفسه » لم يتم توضيحها تبعًا لمعيار ، ومن ثم ينكر حقيقتها ، ويؤكد أنها وهمية ، ومفاد الرد عند جرايس وستراوسون هو القول بأن المعيار الذى يلتمسه كواين غير ملائم .

هكذا يحاول جرايس وستراوسون إثبات وجود افتراض قوى فى صالح وجود التمييز بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى والتمييز بين « يعنى الشىء نفسه » و « لا يعنى الشىء نفسه » ، ذلك الافتراض الذى يرتكز على الاستعمال الفلسفى والعادى ، وأن هذا الافتراض لا تزعزعه على الأقل الحقيقة ، إن كانت حقيقة ، القائلة إن التمييز موضوع البحث لم يتم توضيحه بصورة كافية ؛ وهنا يتوقف جرايس وستراوسون عند فكرة التوضيح الكافى ، حقًا لقد زعم كواين أن هناك دائرة معينة من التعبيرات التى تضم « تحليلى » و « متناقض ذاتيا » و « مترادف » وهلم جرا ، ولو اعتبرنا أى عضو فى هذه العائلة مفهومًا أو مفسرًا تفسيرًا مقنعًا ، فإننا نستطيع تفسير بقية الأعضاء فى حدوده ، غير أن كواين قد أثبت أن كل عضو فى العائلة به حاجة إلى التوضيح قدر حاجة العضو الآخر إليه ؛ ويبدو أن عملية اضفاء « المغزى المقنع » على أى تعبير من هذه التعبيرات سوف تستلزم أمرين :

١ – يبدو أنها تستلزم تقديم تفسير لا يضم أى تعبير ينتمى إلى عائلة التعبيرات .
٢ – يبدو أن التفسير المقدم لابد من أن تكون له نفس السمة العامة للتفسيرات المرفوضة التى تضم أعضاء العائلة (أى لابد من تخصيص ملمح ما مشترك ومميز لكل الحالات التى تنطبق عليها كلمة « تحليلى » مثلاً ، ولابد من أن تكون له الصورة العامة التى للتفسير الذى يبدأ بـ « تكون العبارة تحليلية فى حالة واحدة فقط وهى ... »[1] ؛ وخلاصة القول هى أن كواين يرغب فى تعريف دقيق ، ومما يزيد الأمر صعوبة هو أن كواين ، بالإضافة إلى رغبته فى التعريف الدقيق ، يعتبر أن الاخفاق فى تقديم التعريف الدقيق للفكرة (س) يستلزم أن (س) ليست بذات مغزى مقنع .

والرد على هذا عند جرايس وستراوسون أنه من غير المعقول الإصرار على أن اتاحة

---

(١) - Ibid, PP. 147-148.

تفسير مقنع بالمغزى الذى عرضناه آنفًا هى شرط ضرورى لكون التعبير له مغزى ، وربما من المشكوك فيه تقديم مثل هذه التفسيرات ، وحتى لو أمكن تقديمها فى بعض الحالات ، فسوف يكون مقبولاً بصفة عامة القول بأن هناك حالات أخرى لا يمكن تقديمها فيها ، يجوز للمرء أن يفكر ، مثلاً ، فى مجموعة من التعبيرات التى تتضمن « خاطئ على نحو أخلاقى » و« مستحق للوم » و« خرق للقواعد الأخلاقية » ، أو المجموعة التى تتضمن الروابط القضوية والكلمات « صادق » و « كاذب » و « حقيقة » و « رفض » و « توكيد » ، وتود قلة من الناس القول بأن التعبيرات التى تنتمى إلى أية مجموعة من هاتين المجموعتين هى تعبيرات خالية من المعنى وذلك على أساس أنه لا يتم تعريفها صوريا (أو حتى على أساس أنه من المتعذر تعريفها صوريا) اللهم إلا فى حدود أعضاء المجموعة نفسها ، والحقيقة ، إذا كانت حقيقة ، القائلة بأن التعبيرات لا يمكن تفسيرها على وجه الدقة بالطريقة التى تبدو أن كواين يحتاجها ، لا تعنى أنها لا يمكن تفسيرها على الاطلاق ، ولا توجد حاجة لمحاولة تقديمها بوصفها تعبر عن أفكار فطرية ، إذ يمكن تفسيرها ، وإن كان ذلك بطرق أخرى أقل صورية من الطرق التى يبحثها كواين (والحقيقة القائلة بأنه يتم تفسيرها هكذا متفقة مع الحقائق ، أولاً ، يوجد لها استعمال مقبول بصفة عامة ، ثانيا ، إن هذا الاستعمال فنى أو محدد تحديدًا خاصًا)[١] .

وهنا يحاول جرايس وستراوسون توضيح هذه النقطة لعضو واحد من عائلة التحليلية ، وهى فكرة الاستحالة المنطقية ؛ هب أننا نحاول أن نفسر لشخص معين هذه الفكرة ، ونختار تفسيرها عن طريق إظهار التعارض بين الاستحالة المنطقية والطبيعية (أو العلية) ، ويجوز أن نأخذ مثالاً للاستحالة المنطقية حالة طفل له من العمر ثلاث سنوات ويكون بالغًا سن الرشد ، ومثالاً للاستحالة الطبيعية حالة طفل له من العمر ثلاث سنوات ويفهم نظرية الأنماط عند رسل ، ولنتخيل أن شخصا ما (س) يضع دعوى مفادها :

١ – « أن جارى طفل له ثلاث سنوات ويفهم نظرية الأنماط عند رسل » ويجوز للإنسان أن يفسر تعليق (س) على أنه مبالغة ، ويرد الإنسان :

٢ – « أنت تعنى أن الطفل ذكى ذكاء خاصًا » .

ولو أصر (س) على ما قال وأردف قائلاً :

---

(١) - Ibid, p. 149.

٣ - « لا ، أنا أعنى ما أقول - إنه يفهمها بالفعل » .

فربما يميل الإنسان إلى الرد :

٤ - « أنا لا أصدقك لأن هذا شيء مستحيل » .

ولكن إذا ظهر الطفل وعرض النظرية عرضًا صحيحًا ، وأجاب على الأسئلة الخاصة بها ، ونقدها ، فإن الإنسان مضطر فى نهاية الأمر إلى الاعتراف بأن الدعوى صادقة حرفيا ، وأن الطفل معجزة .

ولنتخيل أن شخصا آخر (ص) يزعم زعمًا مفاده :

(أ) أن جارى طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات وبالغ سن الرشد » .

ويجوز أن يرد الإنسان على هذا بقوله :

(ب) « إنك تعنى أنه ذو حس بشكل غير مألوف أو متقدم جدًا بالنسبة لسنه » ،

ولو رد (ص) :

(جـ) « لا ، أنا أعنى ما أقول » .

فإنه يجوز للإنسان أن يرد :

(د) « لعلك تعنى أنه لن ينمو بعد الآن ، أو أنه صنف لشخص عجيب الخلقة ، وأنه قد نما تمامًا بالفعل » .

ويرد (ص) :

(هـ) « لا ، إنه ليس شخصًا عجيب الخلقة ، بل هو مجرد شخص بالغ سن الرشد » .

وسوف نميل فى هذه المرحلة إلى القول بأننا لم نفهم ما يقوله (ص) فهمًا دقيقًا ، ونشك فى أنه لم يعرف تمامًا معنى بعض الكلمات التى يستعملها ؛ لأنه ما لم يكن مستعدًا للاعتراف بأنه يستعمل الكلمات بمعنى مجازى أو غير مألوف فلن نقول بأننا لن نصدقه ، بل نقول إن كلماته ليس لها معنى ؛ وخلاصة الاختلاف فى الحالتين المتخيلتين هى أنه يجوز أن نقول فى الحالتين معًا إننا نميل إلى البدء بافتراض أن المتحدث الآخر يستعمل الكلمات استعمالاً مجازيًا أو بطريقة غير مألوفة ؛ ولكننا إزاء زعمه المكرر بأنه يتحدث حديثًا حرفيا أو يعنى ما يقول ، فمن الملائم أن نقول فى الحالة الأولى إننا لا نصدقه ، ونقول فى الحالة الثانية إننا لم نفهمه[1] .

---

(١) - Ibid, PP. 150 - 151.

هذا مثال لنوع واحد من التفسير غير الصورى الذى يستطيع الإنسان أن يقدم عن طريقه فهما لفكرة « الاستحالة المنطقية » ، وهو نوع واحد وليس « الوحيد » لأن هناك أنواعا أخرى من التفسير قد تتطلبها مفاهيم أخرى فى عائلة مفاهيم التحليلية ؛ وهو تفسير « غير صورة » بالمغزى الواضح الذى لا يعادل تخصيصا على نحو صورى للشروط الضرورية والكافية لتطبيق فكرة معينة ، والتى من نوع « تكون العبارة ... فى حالة واحدة فقط وهى ... » حيث تشغل « تحليلى » ، مثلاً ، الموضوع الخالى الأول ، ومن ثم فإنه لا يفى بشرط من الشرطين اللذين يتطلبهما كواين للتفسير المقنع ، ومع ذلك فإن هذا الصنف من التفسير يفى بالشرط الآخر عند كواين ، إذ أنه يهيئ عائلة المفاهيم للعمل ولا يستعين بأى مفهوم منها(١) .

ومع اتاحة هذا النمط غير الصورى من التفسير للأفكار والمفاهيم التى تشكل عائلة التحليلية ، فإن القول بأن هذه الأفكار لا تجد نمطًا آخر من التفسير يبدو أساسًا غير كاف تمامًا للنتيجة التى مؤداها أن تلك الأفكار زائفة ، وأن التعبيرات التى تدعى التعبير عنها ليس لها معنى ؛ ومع ذلك يعترف جرايس وستراوسون بأن دفاعهما السابق لا يعنى انكار الرغبة الفلسفية فى العثور على سمة تنويرية عامة لأفكار عائلة التحليلية أكثر مما تم تقديمه حتى الآن .

تلك هى أبرز الردود التى حاولت الدفاع عن التحليلية(٢) ، ويمكن أن نخلص منها إلى عدة ملاحظات :

أولا : إن عدم كفاية المعايير المقترحة للتمييز التحليلى – التركيبى لا تقضى فى النهاية إلى التخلى عنه .

ثانيا : إن التعويل على فكرة المعنى وبخاصة من زاوية علم الدلالة العقلى فى تحديد العبارة التحليلية باعتبارها العبارة التى تكون صادقة بمقتضى معانى كلماتها فقط ، نقول

(١) -Ibid, P. 151.

(٢) هناك محاولات أخرى للدفاع عن التحليلية من بينها :

-Perkins, M. and I. Singer, "Analyticity", Journal of Philosophy, Vol. XL VIII, No. 16, 1951, PP. 485 - 497, J.J. Katz, "Some Remarks on Quine on Analyticity", Journal of Philosophy, Vol. LXIV, No. 1, 1967, and See W.V. Quine "On Suggestion of Katz", Journal of Philosophy, Vol. LXIV, No. 1, 1967, PP. 52 - 54, L. Shih - Chao, "On the Analytic and the Synthetic", Philosophical Review, Vol. LXV, 1956, PP. 218 - 228.

إن التعويل على هذه الفكرة لا يقدم حلاً لمشكلة التحليلية ، لأن فكرة المعنى من الزاوية المشار إليها هى ذاتها غامضة واشكالية وعرضة لانتقادات كثيرة .

ثالثًا : إن ربط ما هية المفاهيم ومعناها بكيفية استعمالنا لها فى اللغة يفسح المجال أمام وصف بعض العبارات بأنها تحليلية ، فنحن نتعلم أن (الأرملة امرأة مات زوجها) عن طريق تعملنا لكيفية استعمال كلمة (أرملة) ، ومن ثم ترانا ننتقل انتقالاً طبيعيا من (س أرملة) إلى (وبالتالى ، س امرأة مات زوجها) ، وعلى هذا النحو تعد العبارة التحليلية (الأرملة امرأة مات زوجها) نموذج استدلال لنسق مفهومى نمارسه فى حياتنا العادية ، ولكن هذا لا يعنى أننا نملك معيارًا محددًا صارمًا يمكن أن نفصل عن طريقه جميع العبارات بحيث نضع بعضها فى فئة العبارات التحليلية وبعضها الآخر فى فئة العبارات التركيبية .

١ -- ٥ عودة كواين إلى التحليلية

يبدو أن الردود السابقة وغيرها كانت قوية وعميقة إلى حد أنها لم تكن لتمر دون أن تحدث أثرًا فى تفكير كواين إزاء مسألة التمييز التخليلي -- التركيبى ، إذ نجد أن كواين الذى رفض التمييز السابق فى كتاباته المبكرة يعود فينظر فيه مرة أخرى فى كتابه « الكلمة والموضوع » ١٩٦٠ وذلك من منظور سلوكى ، فنراه يقدم ماأسماه بالترادف المثير stimulus synonmy وتحليلية المثير stimulus -analytic ويحسن بنا أن نشير إلى المعنى المثير لأن فهمه يعيننا على فهم تعريف الترادف المثير ، ويعرف كواين المعنى المثير الإيجابى affirmative stimulus meaning لجملة معينة ولتكن (س) بالنسبة لمتكلم معين بأنه مجموعة الاثارات التى سوف تحث المتكلم على الموافقة عليها عندما يسأل « س » ؟ ، وباستبدال الاعتراض بالموافقة نحصل على المعنى المثير السلبى negative stimulus meaning فالمعنى المثير السلبى للجملة (س) هو مجموعة الاثارات التى سوف تحث المتكلم على الاعتراض عليها عندما يسأل « س » ؟ ، ثم يعرف المعنى المثير على أنه زوج تتابعى من الأثنين[١] ، أى أن كواين يعرف المعنى المثير فى حدود فئة الاثارات التى سوف تحث موافقة المتكلم على جملة معينة أو الاعتراض عليها فى وقت معين ؛ ويمكننا المعنى المثير بدوره من تعريف الترادف المثير على النحو الآتى : تكون الجملتان مترادفتى المثير بالنسبة لكل شخص يتكلم اللغة فى حالة امتلاكهما لمعنى المثير نفسه .

---

(١) - W. & O., PP. 32 - 33.

أما بالنسبة للتحليلية فإن كواين يقر استعمال « تحليلية المثير » فيما يتعلق بالجمل التى سوف يميل كل متكلم فى لغة معينة إلى الموافقة عليها ، وبالتالى يعرف كواين الجملة تحليلية المثير على أنها الجملة التى يميل كل متكلم إلى الموافقة عليها بعد كل إثارة(١) .

ولقد جرت عادة الفلاسفة على الإشارة إلى ثلاثة أنواع متداخلة من الحقائق هى التحليلى والأولى والضرورى ، والخلاف حول ما إذا كان النوع الأول يستوعب الثانى والثانى يستوعب الثالث هو خلاف تقليدى ، ومع ذلك لم يتم تعريف أية حقيقة من هذه الحقائق الثلاث فى حدود ملامح قابلة للملاحظة فى سلوك لفظى ، ويشكل هذا مطلبًا جديرًا بالنظر عند كواين ، والرد على هذا عند الفلاسفة الذين يعتبرون الحقائق الثلاث متطابقة يجئ على النحو الآتى : الجمل التحليلية هى الجمل التى نكون على استعداد لإثباتها مهما يكن من أمر ؛ ويجوز للمرء أن ينظر إلى التعبير « مهما يكن من إثارة » وهذا يقدم بالفعل تعريفا لتحليلية المثير .

والحق أن المغزى الذى يخلعه كواين على الترادف المثير وتحليلية المثير لا ينسجم مع المغزى المألوف للترادف والتحليلية ، ولعل هذا هو ما أدركه كواين عندما ذهب إلى أن ترادف المثير وتحليلية المثير المشترك فيهما اجتماعيا لا يعد كل واحد منهما عملية إعادة بناء سلوكية لعلم الدلالة الحدسى ، بل بديل سلوكى فقط(٢) .

على أن كواين قد عاد فى كتاب « جذور الإشارة » سنة ١٩٧٤ وعالج مشكلة التحليلية من منظور عملية التعلم ، وهى معالجة وإن كانت موجزة للغاية إلا أنها تتمتع بقدر كبير من التسامح إزاء هذه المشكلة إذا ما قورنت بمحاولاته السابقة فى بحثها ، فنرى كواين يفسح المجال أمام الجملة بحيث تسمى تحليلية ، ولتوضيح ذلك يذهب كواين إلى أننا نتعلم فهم الجمل الإخبارية واستعمالها عن طريق تعلم شروط الصدق لهذه الجمل ، وهذا واضح بصورة كافية فى تعلم اللغة المبكرة ، أى تعلم جمل الملاحظة ، طالما أن هذا التعلم هو ببساطة مسألة تعلم الظروف التى تعد فيها هذه الجمل صادقة ، وليس الحال هكذا مع الجمل الثابتة مثل « الثلج أبيض » طالما أن قيمة صدق الجملة الثابتة لا تتغير بتغير الظروف ؛ ومع ذلك فإن تعلم الجملة « الكلب حيوان » يكمن فى تعلم الموافقة عليها ، ويتوقف هذا على صدق

---

(١) -Ibid, P.55

(٢) - Ibid, P. 66.

الجملة ، إنه يتوقف على تعلمنا الموافقة على « كلب » فقط فى الظروف التى تعلمنا فيها الموافقة على « حيوان » ، وإذا تعلمنا استعمال الجملة « الكلب حيوان » وفهمها ، فقد تعلمنا فى الوقت نفسه الموافقة عليها أو اعتبارها صادقة ؛ ويرى كواين أنه من المعقول ، عندما نستحضر الفكرة الخلافية عن التحليلية ، القول بأن الجملة « الكلب حيوان » تحليلية عن طريق هذا التقرير ، لأن تعلم فهمها هو تعلم أنها صادقة ، ومن خلال عملية التعلم هذه يمكن تقديم تصور للتحليلية على النحو الآتى : « اللغة اجتماعية ، والتحليلية ، بكونها الصدق المؤسس فى اللغة ، يجب أن تكون اجتماعية أيضًا ؛ وهنا إذن ربما نملك على الأقل اتجاهًا فى مفهوم التحليلية : تكون الجملة تحليلية لو تعلم كل شخص أنها صادقة عن طريق تعلم كلماتها »(١) ؛ بيد أن كواين يرى أن هذه الصياغة تحتاج إلى تهذيب مؤداه أننا يجب أن نقصر الناس على أولئك الذين يستعملون اللغة بوصفها لغة أم أو لغة أولى ، ومن ثم يمكن أن نعيد تعريف كواين على ضوء هذا التهذيب : تكون الجملة تحليلية لو تعلم « كل شخص » فى لغته الأم أنها صادقة عن طريق تعلم كلماتها .

ولكن ، هل هذه الرؤية المعدلة للتحليلية تعنى أن كواين قد تنازل عن أفكاره السابقة إلى الحد الذى يسمح معه بالتمييز الصارم بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ؟ الجواب لا ، لأن أقصى ما يطمح إليه كواين من خلال هذه النظرة المعدلة هو وضع « تمييز تقريبى » وليس انقسامًا جذريا مثل الذى دعا إليه أنصار التمييز ؛ وعلى هذا النحو توجد وشائج قربى بين وجهة نظر كواين هذه ورأى فيتز الذى أسلفنا الإشارة إليه ، على حين تظل المسافة بعيدة بين رأى كواين وآراء جرايس وستراوسون ، والقاسم المشترك بين آراء فيتز وآراء كواين هو نظرية الاستعمال فى المعنى ، وإن كان كواين ينظر إليها من طرف خفى من زاوية نظرية التعليم ؛ وخلاصة القول هى أن اعتبار عبارة ما تحليلية هو اعتبار نسبى بالنظر إلى كيفية تعلمنا لألفاظها وكيفية استعمالنا لهذه الألفاظ .

---

(١) R. of R., P. 79.

الفصل الثانى

النظرية التجريبية – السلوكية
فى تعلم اللغة وجذور الإشارة

٢ – ١ تمهيد للنزعة السلوكية فى دراسة اللغة

إن المتأمل فى كتاب كواين المحورى فى فلسفة اللغة وهو « الكلمة والموضوع » ١٩٦٠ ، والذى حوى بين دفتيه كثيرًا من النظريات التى طورها كواين فيما بعد فى كتبه وأبحاثه الأخرى ، يلاحظ أن كواين قد استهل هذا الكتاب بعبارة جاءت بمثابة الأساس الذى بنى عليه مذهبه الفلسفى فى اللغة ، وهاك ما يقوله فيها : « اللغة فن اجتماعى ، ونحن نعتمد فى اكتسابها اعتمادًا تامًا على العلامات المتاحة بشكل بين ذاتى فيما يتعلق بما يقال ومتى يقال ، ومن ثم لا يوجد مسوغ لفحص المعانى اللغوية اللهم إلا فى حدود ميول الناس للاستجابة علانية لاثارات قابلة للملاحظة اجتماعيًا »[١] ؛ وتكشف هذه العبارة عن ثلاثة محاور أساسية : الأول هو السمة الاجتماعية للغة ، والثانى هو اكتساب اللغة وتعلمها ، والثالث هو التناول السلوكى للمعنى ؛ وسوف نتناول فى هذا الفصل المحورين الأول والثانى ، ونرجئ البحث فى الثالث إلى الفصل الثالث .

والحق أن كواين يجتنب المذهب العقلى Mentalism بقدر ما يتمثل فى التجريبية الكلاسيكية على وجه الخصوص ، ذلك المذهب الذى يرتكز بصورة أساسية على الأفكار ، وقد أعلنت طريقة الأفكار إفلاسها بقدر ما ظهرت بصور منوعة فى نزعة هيوم الشكية ، ومثالية باركلى ، وواقعية لوك ؛ ولذلك يرفض كواين الابستمولوجيا التى تقدمها التجريبية الكلاسيكية ، ويتبنى طريقة جديدة تسلم بأحكام العلم الحديث وتأخذ نتائجه بعين الاعتبار ؛ وإذا سلمنا بالعلم ، فإن السؤال الذى يجب أن نطرحه على أنفسنا هو : كيف نكتسب المعرفة العلمية ؟ وطالما أن اللغة أساسية لاكتساب مثل هذه المعرفة ، وأن الإشارة أساسية للغة ، فإن مهمتنا تتحول فى نهاية المطاف إلى بحث فى جذور الإشارة ؛ وإذا كانت نزعة كواين التجريبية فى فلسفة اللغة تتوافق مع نزعته السلوكية ، فإن المهمة تتحول أيضًا إلى إعادة بناء سلوكية لاكتساب اللغة وبخاصة إعادة بناء سيكولوجيا التعلم المنطبقة على الإشارة .

وقبل أن نتناول نزعة كواين التجريبية السلوكية فى اكتساب اللغة واجتناب المذهب

---

(١) - W. & O., P. IX.

العقلى ، يحسن بنا أن نقدم لمحة سريعة عن المبادئ التى تقوم عليها السلوكية ، إذ أن تقلي مثل هذه المبادئ سوف يساعدنا بلا شك على فهم موقف كواين .

يمكن أن نميز، فيمايرى ليونز، بين السلوكية بوصفها موقفًا عامًا من ناحية ، والسلوكي بوصفها نظرية سيكولوجية من ناحية أخرى ، فإذا نظرنا إلى السلوكية باعتبارها موقفًا عامًا، وجدنا أنها ترتكز على أربعة مبادئ تكسبها قوتها الخاصة وتضفى عليها سمتها المميزة:

١ – الارتياب فى جميع المصطلحات العقلية مثل « العقل » Mind و « التصور » Concept و « الفكرة » Idea وهلم جرا ، ورفض الاستبطان كوسيلة للحصول على بيانات صحيحة فى علم النفس ، فأفكار المرء وخبرته الشخصية من الأمور الخاصة بالنسبة له، وما سيقوله للآخرين عنها ليس جديرًا بالثقة ، وطالما أن الأمر كذلك ، فالقول بأنه يجوز أن يوجد اتفاق واسع بين عدد من الأشخاص يقررون نتائج استبطانهم ليس ضمانًا كافيًا لأن تكون هذه التقريرات جديرة بالثقة ؛ وما لم يتفق الدليل الاستبطانى مع دليل يستمد من فحص « أفعال » هؤلاء الأشخاص والتى هى بمثابة براهين سلوكية ، فهو دليل لا طائل من تحته ، وإذا لم يتفق هذا الدليل الاستبطانى مع دليل من الملاحظة موثوق به إلى حد كبير ومتاح علانية فهو دليل غير ضرورى وزائد عن الحاجة[1] ؛ ومن ثم إذا أراد علم النفس أن يكون علمًا طبيعيًا كالفيزياء والكيمياء وغيرهما ، فلابد من أن ينهج منهاج العلوم ويحذو حذوها ، أى إذا كانت هذه العلوم تبنى نظرياتها على تجارب وملاحظات يمكن إدراكها جهارًا ، فلابد من أن يحفل علم النفس بالسلوك العلنى ، ويصرف النظر عن الحالات العقلية والعمليات الشعورية التى لا سبيل إلى ملاحظتها والتحكم فيها .

٢ – الاعتقاد بأنه لايوجد اختلاف أساسى بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان ، وأن التفكير–أومايوصف عادة على أنه وعى– يمكن معالجته من حيث المبدأ باعتباره سلوكًا لغويًا شبه صوتى ؛ ويمكن تفسير السلوك اللغوى بالطريقة التى تفسر بها أنواع السلوك الأخرى لدى الإنسان والحيوان ، والاعتقاد بعدم وجود اختلافات أساسية فى المبادئ التى تحدد السلوك الحيوانى والإنسانى يربط علم النفس السلوكى بعلمى الأحياء والحيوان التطوريين ، ويدعم محاولات بعض الفلاسفة مثل تشارلز

(١) Lyons, J., Semantics, Vol. 1, London, New York: Cambridge University Press, 1979, pp. 120 - 122.

موريس[١] لبناء نظرية عامة فى علم الرمز (السيميوطيقا) Semiotics تقبل التطبيق على كل النظم الإشارية الطبيعية[٢] .

٣ – تقليل دور الموهبة والدوافع أو القدرات الفطرية الأخرى والتوكيد على الجانب الذى يقوم به التعلم فى تفسير السلوكية لكيفية اكتساب الكائنات البشرية والحيوانات لأنماط سلوكهم ، إذ أنها تؤكد على التربية أكثر من الطبيعة ، وتعزو أكثر المؤثرات إلى البيئة وأقلها إلى الوراثة ، والسلوكية من هذه الناحية هى الحليف الطبيعى للتجريبية فى موقفها من العقلانية ، لأن التجريبية تزعم أن التجربة هى المصدر الأساسى للمعرفة ، على حين تؤكد العقلانية على دور العقل فى اكتساب المعرفة ، وتؤكد أيضًا على قدرة العقل على الاستدلال من المبادئ الأولية[٣] .

٤ – النزعة الآلية أو الحتمية التى تفهم على أنها إشارة إلى وجهة النظر القائلة بأن كل شىء يحدث فى الكون يتحدد بشكل علّى وفقًا لنفس القوانين الفيزيائية ، وصحة هذا الرأى بالنسبة لأفعال الإنسان ليست بأقل من صحته بالنسبة لحركات المادة غير الحية وتحولاتها ، وإذا تمسك السلوكى بهذه الوجهة من النظر ، فسوف يضع توكيدًا عظيمًا على قابلية التنبؤ باعتبارها المعيار الأساسى لتقويم أية نظرية فى السلوك الإنسانى ربما يقدمها ، ولعله من الطبيعى أيضًا أن يستهل تقريره لطريقة السلوك اللغوى بضرورة اهتمامه بالبنية الخارجية ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والبحث عن العنصر العلّى فى إنتاج المنطوقات[٤] .

وإلى جانب هذه المبادئ العامة للسلوكية هناك ملمح آخر مؤداه أن سلوك أى كائن حى يمكن وصفه فى حدود الاستجابات التى يقوم بها الكائن الحى لمثيرات تقدمها له البيئة ، والصيغة التى تستعمل عادة للرمز إلى هذه العلاقة بين المثير والاستجابة هى :

م ⟵⟶ س

(حيث م = مثير ، س = استجابة)

ويمثل السهم هنا علاقة سببية ، أى أن المثير سبب والاستجابة نتيجته[٥]

---

(١) See Morris, C. W., Signs, Language and Behaviour, Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1946,- and for the same outhor, Writings On The General Theory Of Signs, The Hague: Mouton, 1971.

(٢) -Lyons, J., OP. Cit, P. 121.

(٣) - Ibid, P. 122.

(٤) - Ibid, p. 123.

(٥) - Ibid, P. 122.

ويقبل كواين هذه المبادئ العامة للسلوكية إلى حد كبير ، مع أنه يكيفها لأغراض فلسفية كما هو الحال فى قبوله للمبدأ الأول ، إذ نراه يشك فى المصطلحات العقلية شكًا يهدف من ورائه فى المقام الأول إلى تطوير الفلسفة التجريبية التى ينتمى إليها ؛ وهو فى قبوله لهذه المبادئ العامة يقدم صورة تفصيلية تشترك فى بعض جوانبها مع الصور التى يقدمها أنصار السلوكية فى علمى النفس واللغة من ناحية ، وتتميز عنها فى بعض الجوانب الأخرى من ناحية ثانية .

وإذا نظرنا إلى دراسة اللغة من خلال هذه المنظور السلوكى ، وجدنا أن رفض مفاهيم المذهب العقلى واستبعاد منهج الاستبطان يفضى إلى التوكيد على المنطوقات القابلة للملاحظة ، والتركيز على الموقف الذى حدثت فيه ، وهذا ما نلاحظه فى دراسة بلومفيلد L. Bloomfield (١٨٨٧ — ١٩٤٩) للغة ، ومعالجته للحدث الكلامى .

يعد بلومفيلد واحدًا من أعظم اللغويين الذين ساهموا فى دراسة اللغة دراسة علمية ، وكان أول من قدم السلوكية إلى علم اللغة ، تلك السلوكية التى تمثلت فى آراء واطسون J. B. Watson (١٨٧٨ — ١٩٥٨) الذى رفض التسليم بالمصطلحات العقلية من قبيل العقل والوعى والشعور وما دار مدارها من مصطلحات لا يمكن تناولها علميًا عن طريق الملاحظة أو القياس ، وسعى بدلاً من ذلك إلى دراسة سلوك الكائنات الحية من خلال « استجابتها » « لمثيرات » تقدمها البيئة المحيطة بها .

وعلى ضوء هذا كانت الصياغة المبكرة للتصور السلوكى للمعنى هى صياغة واطسون القائلة : « تعمل الكلمات فيما يتعلق باستدعاء الاستجابات تمامًا مثلما تفعل الأشياء التى تصلح الكلمات كبدائل لها »[1] .

لقد أعلن بلومفيلد عن مشايعته للتناول العقلى لسيكلولوجية اللغة فى كتاب « مقدمة فى دراسة اللغة » ١٩١٤ ، غير أنه تخلى عن هذا التناول فى سنة ١٩٢٦ وأعلن الولاء للسلوكية فى بحثه « مجموعة مسلمات لعلم اللغة » ،والذى قدم فيه وجهة النظر التى مفادها أن المعنى يكمن فى ملامح المثير ورد الفعل القابلة للملاحظة فى المنطوقات ، ووضع فى كتابه « اللغة » ١٩٣٣ تعارضًا بين ما وصفه بالنظرية العقلية التقليدية والنظرية

---

(١) - Quoted in B. F. Skinner, Verbal Behavior, New York: Appleton-Century-Crofts, 1957, p. 86.

المادية أو الآلية كما يفضلها ، وتبعًا للنظرية الآلية فإن « الأفعال الإنسانية .. هى جزء من سلاسل السبب والنتيجة تمامًا كالسلاسل التى نلاحظها فى دراسة الفيزياء أو الكيمياء مثلاً » ،ثم واصل الاقتراح بأننا نستطيع من حيث المبدأ أن نتنبأ بأن مثيرًا معينًا سوف يدفع شخصًا ما إلى التكلم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا نستطيع أن نتنبأ عمليًا بالكلام إذا عرفنا الوضع الدقيق الذى كان عليه جسم الشخص فى لحظة الحدث ؛ يقتسم بلومفيلد ، إذن ، موقفين عامين يميزان السلوكية ألا وهما الارتياب فى المذهب العقلى ، والاعتقاد فى الحتمية ؛ زد على ذلك أنه يقبل صورة قوية من الحتمية التى كثيرًا ما تنطبق عليها أسماء « الوضعية » و « الفيزيائية » ، وهذا يعنى القول بأنه يعتقد فى أن العلم برمته لابد من أن يصاغ على غرار ما يسمى بالعلوم الدقيقة ، وأن المعرفة العلمية بأسرها يجب أن تكون قابلة للرد فى نهاية المطاف إلى عبارات تمت صياغتها حول خصائص العالم الفيزيائى كالتى تصفها الفيزياء والكيمياء ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن بلومفيلد قد أسهم مع نيورات وكارناب وموريس فى اصدار موسوعة العلم الموحد سنة ١٩٣٩[(١)] .

ويشير بلومفيلد إلى انسجام وجهة نظره مع وجهة نظر الوضعية المنطقية فى صورتها المبكرة ، فنراه يقول : « لقد توصلت مجموعة من الفلاسفة فى السنوات الأخيرة ، تعرف باسم دائرة فينا ، إلى نفس النتيجة فيما يتعلق باللغة ؛ فعندما أخضع كارناب واوتو نيورات فروع العلم المنوعة للفحص المنطقى ، وجدا أن جميع العبارات ذوات المعنى على نحو علمى قابلة للترجمة إلى حدود فيزيائية »[(٢)] ؛ غير أننا يجب أن نميز بين الوضعية أو النزعة الفيزيائية من جهة ، والسلوكية من جهة أخرى ، فقد اقترح كثير من الفلاسفة نظريات فى المعنى قامت على أساس الوضعية دون أن يكونوا سلوكيين ، ومما يمكن تصوره تمامًا أن يروم المرء تعريف المعنى فى حدود المثير – الاستجابة للسلوك دون أن يكون ملتزمًا بذلك بوجهة النظر القائلة إن الوصف العلمى الوحيد للمثيرات يأتى عن طريق التحليل الردى للتركيبات النظرية فى العلوم الفيزيائية[(٣)] .

تلك هى الأسس النظرية التى بنى عليها بلومفيلد وجهة نظره فى دراسة اللغة والمعنى ،

---

(١) - Lyons, J., Op. Cit., pp. 125-126.

(٢) - Bloomfield, L. "Language Or Ideas?", in J. J. Katz (ed), The Philosophy of Linguistics, Oxford University Press, p. 20.

(٣) - Lyons, J., Op. Cit., p. 128.

فإذا شئنا أن ندرس اللغة دراسة حقيقية ، فيجب أن نتخذ نقطة انطلاقنا من ملاحظة الكلام العادى ، لأننا بذلك نستطيع أن نجتنب الوقوع فى الكثير من المآزق التى تسببها لنا الطرق الأخرى ، وبخاصة الطرق التى يسلكها أصحاب المذهب العقلى . ويتفق كواين مع بلومفيلد على ضرورة التوكيد على دراسة اللغة دراسة علمية ، أى البدء بدراسة السلوك اللفظى العلنى القابل للملاحظة ، وجعل دراسة اللغة تقف على قدم المساواة مع العلوم الأخرى عن طريق اشتراط أن البناء النظرى عند عالم اللغة لابد من تسويغه على أساس دليل موضوعى فى صورة سلوك علنى للمتكلمين ؛ وإذا جرت دراسة اللغة هكذا ، فلا مجال إذن للبحث عما يدور فى عقل المتكلم من أفكار وصور ذهنية وغيرها من مفاهيم المذهب العقلى ، لأن البحث فى هذه المفاهيم لا طائل من تحته ، وسوف يتضح فيما يلى إلى أى حد تنسجم وجهة نظر كواين مع رأى بلومفيلد فى دراسة اللغة ، أما تأثر كواين برفض بلومفيلد لمفاهيم المذهب العقلى عند دراسة المعنى ، فسوف نشير إليه فى الفصل الثالث .

٢ — ٢ استبعاد التناول العقلى للغة

الحق أنه لا سبيل إلى فهم نزعة كواين التجريبية السلوكية فى دراسة اللغة على حقيقتها ، إلا إذا عمدنا أولاً إلى تحديد موقفه من المذهب العقلى Mentalism ، ذلك المذهب القائل بأن المعانى هى الأفكار Ideas ، وفى هذه الوجهة من النظر نجد أن كلمة « أرملة » ، مثلاً ، تملك معنى يتمثل فى فكرة حاضرة فى عقل من يستعمل هذه الكلمة ، ومن ثم فإن الأفكار كائنات عقلية ، وهى خاصة بكل فرد ، وإن شئت قل سرية من حيث هى كذلك ، ولا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق أن يستبطن كل من يملكها ذاته .

وتتجلى خطورة هذا المذهب فى لجوء المرء إلى الأفكار عندما يحاول التنظير حول اللغة ، إذ يسعى إلى تفسير الظاهرة الفيزيائية للكلام عن طريق الاستعانة بالعقل والفاعلية العقلية والكائنات العقلية ، ويتخذ هذا التفسير الصورة التالية : « نحن نعلم أن اللغة تصلح لنقل الأفكار ، ونتعلم اللغة من أكبرنا سنًا عن طريق تعلم ربط الكلمات بنفس الأفكار التى تعلم أكبرنا سنًا أن يربط الكلمات بها ، وبالتالى ربما نعلم أن التجانس التقريبى لربط الكلمات بالأفكار يتم انجازه والحفاظ عليه من خلال الجماعة »[1] ؛ ولكننا إذا

(١) - M. & V. D., p. 83.

أمعنا النظر فى عملية تعلم اللغة والمراحل التى تمر بها ، فسرعان ما يتضح لنا خطأ مثل هذا التفسير .

إن سهولة الكلام العقلى وايلاف الناس له يحول الأسئلة الخاصة بعملية التعلم إلى أسئلة لا طائل من تحتها عن العلاقات العلية للأفكار ، ولا يقف عند هذا الحد فحسب ، بل يثير بعض المشكلات الزائفة حول هذه العملية ؛ كما أن ألفة هذا الكلام تغوينا بعالم جميل من الاستبطان ، « إن الفلاسفة وعلماء النفس على شاكله إدوارد . بى . تيتشنر Titchener قد أصابهم القلق عما إذا كانت الصورة الذهنية Image للمثلث عند المرء متساوية الأضلاع أو مختلفة الأضلاع أو متذبذبة بين زوايا متنوعة ، وتساءل بعضهم هل الصورة الذهنية للدجاجة المنقطة عند المرء ذات عدد وترى من النقاط أم عدد شفع ، أم ربما لا هذا ولا ذاك ، وإذا كانت لا هذا ولا ذاك فكيف للعدد أن يكون لا وتريًا ولا شفعيًا ؛ ولو أننا فكرنا فى الصور الذهنية على نحو مطهّر بوصفها حالات عصبية افتراضية ، فلن تثار هذه المشكلات الزائفة »[1] ؛ ومن ثم فإن الاستعانة بالصور الذهنية أو الأفكار بصفة عامة لا يقدم فهمًا واضحًا لكيفية عمل اللغة وتعلمها ، بل يدفع المشكلات الخاصة بهذه المسألة إلى عالم أكثر غموضًا وابهامًا بحيث قد يجعل منها مشكلات زائفة فى نهاية المطاف .

ومن هنا ظهرت نزعة فى علم النفس وعلم اللغة والفلسفة فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين استبعدت الكلام عن الأفكار ، وتناولت بدلاً من ذلك الظواهر القابلة للملاحظة ، فنجد المدرسة السلوكية فى علم النفس تقصر علم النفس على دراسة السلوك ، وأكد واطسون ، مؤسس هذه المدرسة ومن سار على دربه ، على أهمية السلوك وغض النظر عن المصطلحات العقلية مثل « الوعى » و« العقل » و« الفكرة » وما جرى مجراها ، ورفض منهج الاستبطان ، واعتمد على المنهج التجريبى الذى ينصب على السلوك الخارجى والظواهر القابلة للملاحظة علانية ؛ وجاء بلومفيلد فى علم اللغة وحاول ، كما ألمحنا من قبل ، دراسة اللغة دراسة علمية وأدخل مبادئ السلوكية فى علم اللغة ، ومن ثم نظر إلى مصطلحات المذهب العقلى على أنها غير علمية ، وذهب إلى أن الصور الذهنية والمشاعر والأفكار ومالف لفها هى مجرد ألفاظ عامة لحركات جسدية .

أما فى الفلسفة فقد وجد البراجماتيون وفتجنشتين المتأخر أن الإشارة إلى الأفكار

---

(١) - R. of R., p. 34.

تشكل مصدر صعوبة كبيرة فى فلسفة اللغة ؛ فذهب ديوى ، مثلاً ، إلى أن المعنى هو فى المقام الأول خاصية للسلوك ، ورأى أن القول بوجود اللغة الخاصة يعد ضربًا من الاستحالة ، وتوصل فتجنشتين بعد ذلك إلى مثل هذه الأفكار ، ثم سار جلبرت رايل على هذا الدرب حيث نظر إلى العقل على أنه استعداد للسلوك ، وفسر الدوافع والإرادة وغيرهما من العمليات العقلية تفسيرًا سلوكيًا[١] .

وورث كواين كل هذا الأرث ، وهاجم علم الدلالة العقلى هجومًا عنيفًا ، وذهب إلى أن السلوكيين على صواب فى اعتقادهم بأن الكلام عن أفكار يعد من الأعمال السيئة فى علم النفس ، كما نظر إلى الأفكار على أنها من الأمور الضارة التى يجب اجتنابها عند دراسة اللغة ، وألح بدلاً من ذلك على دراسة السلوك اللغوى القابل للملاحظة جهارًا ، فنراه يقول : « ولكن حتى أولئك الذين لم يعتنقوا السلوكية كفلسفة تراهم مجبرين على مشايعة المنهج السلوكى داخل ممارسات علمية معينة ، ونظرية اللغة هى هذه الممارسة ، وعالم اللغة عند هذا الحد سلوكى بحكم المنصب ؛ وأيًا ما تكون أفضل نظرية نهائية فيما يتعلق بالآلية الداخلية للغة ، فإنها ملزمة بأن تعمل وفقًا للسمة السلوكية لتعلم اللغة ، أى الاعتماد على السلوك اللفظى عند ملاحظة السلوك اللفظى ، وتفهم اللغة فهمًا كاملاً من خلال المحاكاة الاجتماعية والمردود الاجتماعى ، وتتجاهل هذه الضوابط أية خاصية فى تخيلات الشخص أو عمليات تداعى المعانى التى لم تكتشف فى سلوكه ، فالعقول ليست هامة بالنسبة للغة بقدر ما تختلف اختلافًا خاصًا من شخص إلى آخر ، أعنى بقدر ما تكون مبهمة سلوكيًا ؛ وهكذا على الرغم من أن عالم اللغة ربما يظل يجل الكائنات العقلية بصورة فلسفية ، فإنها عديمة الجدوى أو ضارة فى نظرية اللغة ، ولقد أكد ديوى على هذه النقطة فى عشرينات هذا القرن وذلك عندما أثبت أنه لا يمكن أن تكون هناك لغة خاصة بأى مغزى ، وتوصل فتجنشتين أيضًا بعد ذلك بسنوات إلى إدراك هذه النقطة ، وكان علماء اللغة على وعى بها بدرجة متزايدة ، إذ أدركها بلومفيلد بدرجة كبيرة ، ثم أدركها هاريس Harris إدراكًا كاملاً ؛ لقد عملت النظرية اللغوية المبكرة فى المذهب العقلى غير النقدى (يقصد كواين المذهب العقلى الذى يسلم بمفاهيمه المحورية دون تمحيص أو شك) ، وساد علم الدلالة الذى تعوزه المسئولية ، والذى ترتبط فيه

---

(١) O. R.& O.E., p. 27, and See Ryle, G., The Concept of Mind, Penguin Books, 1970, p. 61 ff.

الكلمات بالأفكار بقدر ما ترتبط اللافتات بالصور فى المتحف ، وتغيير اللغات هو تغيير للافتات ، وكان المذهب العقلى غير النقدى وعلم الدلالة الذى تعوزه المسئولية فلسفيين أيضًا بطبيعة الحال »[١] .

وهكذا لا يذهب كواين إلى ضرورة الأخذ بالمنهج السلوكى فى علم اللغة فحسب ، بل يذهب إلى أن الأخذ بهذا المنهج يعد مسألة إجبارية ليس لعالم اللغة فيها خيار ، إذ يقول : « وعالم اللغة لديه اختيار ضئيل ، ولكن لابد أن يكون سلوكيًا على الأقل بوصفه عالم لغة »[٢] ، ثم يؤكد على هذا المعنى بقوله : « اعتقد ... أن التناول السلوكى أمر ملزم ؛ وفى علم النفس يجوز للمرء أن يكون سلوكيًا أو لا يكون ، ولكن فى علم اللغة ليس للمرء خيار ، فكل منا يتعلم لغته عن طريق ملاحظة السلوك اللفظى للآخرين وله سلوكه اللفظى المتعلثم الذى يلاحظه الآخرون ويدعمونه أو يصححونه ، ونحن نعتمد اعتمادًا تامًا على السلوك العلنى فى مواقف قابلة للملاحظة ... وليس هناك شىء فى المعنى اللغوى ، إذن ، سوى ما لابد من إدراكه من السلوك العلنى فى ظروف قابلة للملاحظة »[٣] .

وعلى الرغم من أن الكلام عن « الأفكار » فى الفلسفة قد فقد جانبًا كبيرًا من قوته ، فإنه لا يزال يتخفى تحت مفاهيم أخرى مثل القضية ؛ « لقد وجد الشك الصحى أن فكرة الفكرة ليست جديرة بالاحترام تمامًا ولهذا السبب فإنها تنزع إلى ممارسة قوتها بصورة أقل مما كانت تفعل فى عهد لوك وهيوم وكانط ، ولا تزال مختفية على نحو سئ بالتأكيد تحت اسم القضية ، لأن القضية عندما تؤخذ على أنها مجرد جملة ، تكون بمثابة الفكرة التى تعبر عنها الجملة ، ومما يبشر بخير أن هناك نزعة متزايدة لأخذ الحذر فى كلام المرء عن القضايا »[٤] ؛ ولا يقف كواين عند حد تحذيرنا من أن الفكرة تتخفى تحت مفاهيم فلسفية أخرى مثل القضية ، وإنما يخطو خطوة أبعد من ذلك ويستبعد مفهوم القضية برمته من فلسفة اللغة والمنطق على أساس أن القضايا تحجب الحقائق التى

---

(١) -P. P. in L. T., pp. 4-5.

(٢) -R. in W. & O. p. 306.

(٣) - P. of T., PP. 37 -38, and I. Of T. A., P. 5.

(٤) -R. of R., P. 36.

افترضت لتوضيحها من ناحية ، أو أن هذه الحقائق يمكن تفسيرها دون التسليم بالقضايا من ناحية أخرى .

غير أن الكلام عن الأفكار يحتجب أيضًا فى موضوع الترجمة ، لأن الفيلسوف الذى يأخذ حذره فى الكلام عن الأفكار والقضايا « لا يزال يميل إلى الكلام فى موضوع الترجمة على نحو مرح شأنه فى ذلك شأن الرجل العادى ، فنراه يميل بصورة غير نقدية إلى قبول علاقة الجملة بترجمتها بوصفها علاقة واضحة وضوحًا تمامًا ، وهو يظن أنه من المعقول البحث عن ترجمة انجليزية لأية جملة فى أية لغة ، وعندما أحاول أن اصور قبوله غير النقدى لهذه العلاقة ، فلا أستطيع أن أصوره إلا على أنه قبول لا شعورى عفا عليه الزمن لفكرة الفكرة ، أى أن الجملة تكون ترجمة لجملة أخرى لو عبرت عن الفكرة نفسها .. والمعنى نفسه ، والقضية نفسها »[1] ؛ ويقدم كواين دعوى اللا تحديد فى الترجمة التى قصد بها تقويض وجهة النظر التقليدية القائلة بتماثل الفكرة وتماثل المعنى وتماثل القضية ، ومناقشة هذه الدعوى هى موضع اهتمامنا فى الفصل الرابع .

وإذا كان التجريبيون الرواد مثل هوبز وجاسندى ولوك ومن سار على دربهم قد اضطروا إلى صياغة معيارهم التجريبى بالرجوع إلى « الأفكار » ، وفعلوا ذلك بأن رفعوا من شأن الانطباعات الحسية واستخفوا بالأفكار الفطرية ، فإن التجريبية بمعناها المعاصر جعلت من بين معالمها الأساسية تحول التركيز من الأفكار التى هى ذاتية إلى اللغة التى هى بين ذاتية ، وهذا هو المعلم الأول من معالم التجريبية كما حددها كواين فى مقالته « خمسة معالم للتجريبية » والتى أشرنا إليها فى المدخل ، ويدل التحول من الأفكار إلى الكلمات على التحول من الداخل الذى هو خاص إلى الخارج الذى هو عام ومشترك ، وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إنه تحويل للاهتمام بما يدور فى عقول الناس إلى السلوك اللفظى القابل للملاحظة بشكل علنى .

وبعد التحول من الأفكار إلى الكلمات من جانب الابستمولوجيا التجريبية بمغزاها المعاصر انفصالاً عن الابستمولوجيا التجريبية الكلاسيكية واقترابًا من العلم ، يقول كواين : « إن انفصالنا عن الابستمولوجيين الرواد قدم حرية ومسئولية على حد سواء ، إذ نزداد

---

(١) Ibid, P. 36

اقترابًا من موارد العلم الطبيعي ونقبل القيود المنهجية التي يضعها هذا العلم »[1] ؛ وعندما نسعى إلى بيان إلى أى حد يجوز اكتساب العلم ، لا نحاول تسويغ العلم عن طريق فلسفة معينة سابقة أو راسخة ، بل يجب أن نلتمس الدليل بشكل مطرد فى الموضوعات الخارجية ، وفى الخارج حيث يستطيع المشاهدون ملاحظته معًا ؛ والنظر speculation أمر جائز شريطة أن ندرك لأى شىء يكون وأن نقوم به ابتغاء وسيلة ممكنة للوصول إلى الدليل فى مرحلة ما مقبلة ، ولقد قرر بيرس بصورة جيدة أن الطريقة الوحيدة لفحص السؤال السيكولوجى تكون بواسطة الاستدلال من الوقائع الخارجية ؛ وإذا شئنا أن نعرف كيف يستطيع الناس أن يكسبوا التخمينات والتجريدات التى تدخل فى النظرية العلمية ، وكيف يمكن أن نمارس هذا البحث على حين نتكلم عن الأشياء الخارجية بالقياس إلى استبعاد الكلام عن الأفكار والصور الذهنية ، فهناك سبيل مأمون وهو أن نتكلم عن اللغة ، إذ نستطيع أن نتكلم عن بشر لهم وجود عينى وعن أصواتهم العينية ، فالكلمات فى الخارج حيث نستطيع رؤيتها وسماعها ، ولتكن الأفكار ما تكون[2] ؛ وهذا يعنى أننا إذا أردنا أن نفسر كيف يكتسب الإنسان النظرية العلمية ، فلابد من أن نبدأ من كيفية اكتسابه للكلام ، ولا يكون سبيلنا إلى ذلك أن ننظر أو نتأمل فيما يدور فى عقله من أفكار ، لأن ذلك أمر هيهات لنا أن نبلغه حتى لو رغبنا فيه ، وإنما يجب أن نركز جل اهتمامنا على الكلمات القابلة للملاحظة .

وليس أدل على ضرورة تركيز الاهتمام على ما هو قابل للملاحظة من أن تعلم اللغة فى مراحله الأولى لا يعتمد على شىء سوى ذلك ، ويعتمد تعليم اللغة فى مراحله الأولى على ما هو قابل للملاحظة من جانب الطفل والأبوين (أو المعلم) على حد سواء ؛ فإذا نظرنا إلى معرفة الإنسان للكلمة ، وجدنا أن هناك جانبين ؛ الأول هو أن يكون الإنسان على ألفة بصوت الكلمة ويكون قادرًا على إخراجها مرة أخرى ، ويتم اكتساب هذا الجانب ، وهو الجانب الصوتى ، عن طريق ملاحظة سلوك الناس الآخرين ومحاكاة هذا السلوك ، ولا توجد أوهام تتعلق بهذه العملية وتحول دون فهمنا الصحيح لها ؛ أما الجانب الثانى فيتمثل فى معرفة كيفية استعمال الكلمة ، وهو الجانب الدلالى ، وهذا الجانب ،

---

(١) -R. of R., P. 34.

(٢) -Ibid, PP. 34 - 35..

حتى فى الحالة النموذجية ، أكثر تعقيدًا من الجانب الصوتى ، إذ تشير الكلمة ، فى الحالة النموذجية ، إلى شىء مرئى ، ولا يجب على المتكلم أن يتعلم الكلمة من الناحية الصوتية فحسب ، وذلك بأن يسمعها من متكلم آخر ، وإنما يجب عليه أيضًا أن يرى الشىء ، زد على ذلك أنه لكى يفوز بالصلة الوثيقة التى تربط الكلمة بالشىء ، لابد من أن يرى أن المتكلم يرى الشىء أيضًا ، ولقد لخص ديوى هذه النقطة ، فيما يقول كواين ، على هذا النحو : « إن النظرية المميزة حول فهم (ب) لأصوات (أ) هى أن يستجيب للشىء من نقطة نظر (أ) »[١] ، وهذا يعنى أن الطفل يعتمد فى تعلمه لكلماته وجمله الأولى على جانبين : الجانب الصوتى والجانب الدلالى ، ويدور التعلم فى الجانبين على مثيرات خارجية قابلة للملاحظة تترك أثرًا على الطفل ومن يتعلم الطفل منه سواء بسواء ؛ وربما يعترض المرء على كواين هنا بأن ليست كل ألفاظ اللغة شيئية بحيث تشير الكلمة إلى شىء لابد من أن يكون حاضرًا أمام المعلم والمتعلم معًا لكى تتم عملية التعلم على أفضل وجه ، وإنما تنطوى اللغة على كلمات مجردة وروابط وغير ذلك من ألفاظ ليس لها مقابل فى عالم الأشياء ، والرد يمكن أن يقدمه كواين على هذا هو أن تعلم اللغة يبدأ أول ما يبدأ بألفاظ الملاحظة التى يتم تعلمها على نحو إرشارى[٢] .

إن تعلم الطفل مجال مشرق يزهر فيه علم النفس السلوكى ، وتكتسب بدايات اللغة بصورة إشارية ، فتأتى المثيرات المطلوبة فى المقدمة باعتبارها الشىء الأساسى فى عملية التعلم ، ويترك الكلام القديم عن الأفكار دون أسى شديد ؛ ومع ذلك فإن الأشياء الدقيقة والغامضة تحتشد عندما نواصل الصعود إلى المستويات الأقل بداية فى تعلم اللغة ، فيتعلم الطفل إعادة ضم مفرداته اللغوية النامية فى جمل جديدة خاصة به ويستعملها استعمالاً ملائمًا ، وهذه العملية مقبولة إلى حد ما ؛ إذ يتعلم الطفل بعض الجمل الموجزة ككل بطريقة واضحة مفادها أنه يسمعها من البالغين فى ظروف ملائمة قابلة للملاحظة ، ثم يضع الجمل الجديدة عن طريق الاستبدال التمثيلى analogical substitution ، ومع ذلك بأن تحل كلمة مكونة فى جملة مكتسبة محل كلمة أخرى من مفرداته المكتسبة ؛ ولكن سرعان ما تصبح عملية تعلم الطفل صعبة على الوصف والتخمين حولها ، وذلك

---

(١) -O. R. & O. E., PP. 27 - 28.

(٢) -R. of R, PP. 41 - 42.

لأنه يتوصل إلى انتاج جمل لا تتعلق بعلاقة هامة بظروف متزامنة قابلة للملاحظة على الإطلاق ، فنراه ينطق الجمل المتعلقة بالماضى والمستقبل وهى الجمل التى لا علاقة لها بالظروف الحالية سوى أنها الجمل التى أحدثها تعليق حالى لشخص معين ؛ وباكتمال الوقت يتوصل الطفل إلى انتاج جمل لا تحمل علاقة واضحة تمامًا بالظروف القابلة للملاحظة فى الماضى أو المستقبل ، ومع ذلك تتمتع هذه الجمل بنوع معين من العلاقة مع الملاحظة[1] ، ويعد الكشف عن مثل هذه العلاقة من بين المهام التى تقع على عاتق الفلاسفة الذين يشغلهم منطق العلم ومناهج البحث فيه .

وعندما يعجز الإنسان عن مواصلة التفسير العلمى لبعض الظواهر ، ربما يلجأ إلى تفسيرات غير علمية ، ولجوء المرء إلى المذهب العقلى عند تحليله لكيفية اكتساب اللغة ودراستها يعد ضربًا من الاستعانة بالتفسيرات غير العلمية ، يقول كواين : « إنه لأمر مشهور ، أو كان مشهورًا من قبل ، أن الإنسان فى دراسته للطبيعة يلجأ إلى دين قديم ليتزود بمعلومات حيث يكف عن تفسيراته العلمية ، ومن الصواب بصورة متساوية على الأقل القول بأن الإنسان فى دراسته للغة يرتد إلى علم الدلالة العقلى القديم ليتزود بمعلومات معينة حيث يكف عن تفسيراته العلمية ، ويزدهر المذهب العقلى وما هو خارق للطبيعة والثقافات الضارة الأخرى فى الأماكن المظلمة »[2] ؛ وأظن أن استعمال كواين لتعبير « دين قديم » فى هذه العبارة غير ملائم ، لأن عبارته توحى بأنه يفاضل بين الدين والعلم ويرفع من شأن الأخير ، ثم يضع الدين فى منزلة واحدة مع علم الدلالة العقلى باعتبارهما من الأشياء الضارة ! ولو أراد كواين أن يستعمل كلمة مناسبة ، لكان فى وسعه أن يستعمل كلمة « اسطورة » ؛ ومهما يكن من أمر ، فإننا إذا أردنا فهمًا أفضل لدراسة اللغة ومعرفة كيفية تعلمها فلا مندوحة لنا عن مواصلة الاخلاص لما هو خارجى ، وإذا نحن عولنا فقط على الأفكار والصور الذهنية والحالات العقلية ، ضاعت علينا عملية تعلم اللغة بقضها وقضيضها .

٢ - ٣ تعلم اللغة

هناك عدة نظريات تحاول تفسير تعلم اللغة ، لعل أهمها ثلاث نظريات هى :

---

(١) Ibid, PP. 35 - 36.

(٢) Ibid, P. 36.

١ – النظرية السلوكية كما وضعها السلوكيون أمثال « واطسون » و« سكنر » وغيرهما .
٢ – النظرية العقلية كما يمثلها تشومسكى » وأتباعه .
٣ – النظرية المعرفية عند « جان بياجيه » .

وسوف نتناول كل نظرية من هذه النظريات بشىء من الإيجاز فيما يلى .

لقد ذهب واطسون إلى أن علماء النفس لا يحتاجون إلى التسليم بوجود العقل من أجل تحليل الفاعليات الإنسانية التى يشار إليها فى الفكر الإنسانى على أنها عقلية ، ولقد وضع عنوانًا فرعيًا لفصل « اللغة والفكر » فى كتابه « السلوكية » يقول فيه : « فصل يقضى ، بصورة نهائية ، على الوهم الذى ينص على وجود شىء من قبيل الحياة العقلية » ، ويشير فى هذا الفصل إلى أن ما يسميه علم النفس بالفكر ليس سوى تكلم المرء مع نفسه ؛ وإذا كان واطسون يستبعد الجانب العقلى عند دراسة السلوك بعامة والسلوك الكلامى بخاصة ، فإنه يعول على الارتباط بين المثير stimulus والاستجابة response، والكلام تبعًا لهذا هو استجابة يصدرها المتكلم ردًا على مثير .

وبيّن سكنر أن السلوك اللغوى ، شأنه فى ذلك شأن أى سلوك آخر ، يعد نتيجة التدعيم reinforcement ؛ إذ يؤسس تحليله لهذا السلوك على تصور ضبط المثير ، ويتضمن ثلاثة عوامل هى المثير والاستجابة والتدعيم ، ويعتمد التدعيم على احتمالات الحدوث فى البيئة التى يظهر فيها المثير ، ولو تم تدعيم استجابة عشوائية لمثير معين ، فإن الكائن الحى سوف يربط الاستجابة بالمثير السابق ، ويصدر على الأرجح الاستجابة نفسها للمثير نفسه فى مناسبات مقبلة ؛ فكلمة « ثعلب » ، مثلاً ، ليست مثيرًا بديلاً يمثل نوعًا معينًا من الحيوان ، وإنما هى كلمة يتأسس ارتباطها بالحيوان الذى نتكلم عنه عن طريق ظهورها فى منطوقات تدعمت ومن المحتمل أن تتدعم برؤية ثعلب(١) ، وعلى هذا النحو ، فكل جملة ، كلمة ينطقها الطفل أو المتعلم ، على الأقل فى المرحلة المبكرة من التعلم ، تأتى نتيجة لوجود مثير معين ، ولكى يتعلم الطفل لابد من تدعيم استجاباته ، ويتخذ التدعيم صورًا متباينة مثل احتضان الوالدين للطفل أو ابتسامهما له .

وفى محاولة لاجتناب الصعوبات التى تعترض سبيل النظرية السلوكية ، جاءت النظرية العقلية عند تشومسكى الذى حاول إثبات أن المفاهيم المحورية فى النظرية السلوكية مثل

---

(١) - Lyons, J., Semantics, Vol. 1, PP. 129 - 130.

المثير والاستجابة والتدعيم إن كانت تتمتع ببعض المسوغات من خلال التجارب التى تجرى على الحيوان ، فإنها تفقد هذه المسوغات عند دراسة اللغة الإنسانية ، وسر ذلك أن الإنسان يتمتع بخصائص عقلية يتعذر إنكارها عند دراسة اللغة .

ولو قارنا بين اللغة الإنسانية وأنظمة العلامات الأخرى عند الحيوان ، لوجدنا أن الخاصية الأكثر أولية فى اللغة البشرية تدور حول لا نهائية التعبيرات المتميزة وظيفيا ، وذلك على عكس الأنظمة التى تتميز بالاستمرارية والتواصل (كما فى رقص النحل) أو التى تتميز بمحدودية شديدة الوضوح (كما فى مناداة القرود) [1] ؛ وتؤكد الدراسات الحديثة الفرض التقليدى المألوف القائل بأن اللغة البشرية التى تتطور حتى فى أدنى درجات الذكاء البشرى وتحت أشد أنواع المعوقات الفيزيائية والاجتماعية ، تظل فوق قدرات الأجناس الأخرى[2] ، وذلك لأن اللغة الإنسانية لا تختلف عن أنظمة العلامات الأخرى فى الكم فحسب ، بل فى النوع أيضًا ، وفى محاولة لتفسير الجانب الإبداعى فى اللغة يميز تشومسكى بين ما يسميه القدرة اللغوية linguistic competence والأداء اللغوى perforormance ، فالقدرة هى المعرفة الضمنية بقواعد اللغة والتى تكون قائمة فى عقل المتكلم ، أما الأداء فهو استخدام هذه المعرفة فى الكلام[3] .

أما النظرية المعرفية عند بياجيه وأنصاره فترتكز على قضية أساسية مؤادها أن نمو القدرة اللغوية يأتى نتيجة للتفاعل بين الطفل وبيئته ؛ وعلى الرغم من أن النظرية المعرفية تعارض فكرة تشومسكى فى وجود تنظيمات موروثة تساعد على تعلم اللغة ، فإنها لا تتفق فى الوقت نفسه مع النظرية السلوكية فى القول بأن اللغة تكتسب عن طريق التقليد والتدعيم لكلمات وجمل معينة ينطق بها الطفل فى سياقات معينة ، فاكتساب اللغة فى رأى بياجيه ليس عملية إشراطية بقدر ما هو وظيفة إبداعية ، حقًا إن اكتساب التسمية المبكرة للأشياء والأفعال قد يكون نتيجة للتقليد والتدعيم ، ولكن بياجيه يفرق بين القدرة والأداء ، كما يفرق تشومسكى ، فالأداء فى صورة « التركيبات » التى لم

---

(١) نعوم تشومسكى ، « اللغة البشرية وأنظمة سيميوطيقية أخرى » ترجمة كاظم نعمة الحلفى ، فى كتاب : أنظمة العلامات فى اللغة والأدب والثقافة ، مدخل إلى السيميوطيقا ، إشراف سيزا قاسم ، نصر حامد أبو زيد ، دار الياس العصرية ، القاهرة ، ١٩٨٦ ص ١٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) - Chamsky, N., Aspects of The Theory of Syntax, Cambridge, Mass : MIT Press, 1965 P. 10.

تستقر بعد فى حصيلة الطفل اللغوية ، وقبل أن يسيطر عليها نهائيا ، يمكن أن تنشأ نتيجة للتقليد ، أما القدرة فلا تكتسب إلا بناء على تنظيمات داخلية ، تبدأ أولية ثم يعاد تنظيمها بناء على تفاعل الطفل مع البيئة الخارجية ؛ ولكن عندما يتحدث بياجيه عن تنظيمات داخلية ، فإنه لا يعنى ما يقصده تشومسكى من وجود نماذج للتركيب اللغوى أو القواعد اللغوية بقدر ما يعنى وجود استعداد للتعامل مع الرموز اللغوية التى تعبر عن مفاهيم تنشأ من خلال تفاعل الطفل مع البيئة منذ المرحلة الأولى وهى المرحلة الحسية الحركية[١] .

تلك هى أهم النظريات التى حاولت تفسير عملية تعلم اللغة ، وسوف نحاول فيما يلى عرض نظرية كواين التجريبية السلوكية فى تعلم اللغة بصفة عامة ، وتعلم الجانب الإشارى من اللغة بصفة خاصة ، وننظر إلى أى حد تتفق مع النظريات المشار إليها وإلى أى حد تختلف عنها .

يذهب كواين إلى أن هناك خطوتين فى تعلم الطفل للغة : الخطوة الأولى هى إشراط conditioning استجابات الطفل اللفظية verbal responses لمثيرات غير لفظية non - verbal stimuli والثانية هى إشراط استجابات الطفل اللفظية لمثيرات لفظية ؛ فالطفل الذى لم يكتسب لغته بعد يأبأ دون إشارة من والديه أو من غيرهما من الناس ، ويسمى كواين هذه البأبأة ، يحذو فى ذلك حذو سكنر ، بالسلوك الإجرائى operant behavior وهو السلوك الطبيعى للطفل الذى لم يتم إشراطه وتحديده وتشكيله عن طريق التدريب والخبرة ؛ يقول كواين : « إن الشىء الغريب فى جنسنا البشرى الثرثار هو مرحلة البأبأة فى الطفولة المتأخرة ، فهذا السلوك الصوتى العشوائى يتيح للأبوين مناسبات متواصلة لتدعيم المنطوقات التى تحدث مصادفة والتى يرونها ملائمة ، وهكذا تكون الحالات الأولية للكلام فى المتناول ؛ والبأبأة حالة لما يسميه سكنر السلوك الإجرائى »[٢].

على أن هذه البأبأة العشوائية عند الطفل يتم إشراطها وتحديدها فى كلام يشبه كلام والديه فى المقام الأول ، « ويمكن تدعيم السلوك الإجرائى بشكل انتقائى ، فى البشر

---

(١) د . محمد عماد الدين إسماعيل ، الأطفال مرآة المجتمع ، النمو النفسى والاجتماعى للطفل فى سنواته التكوينية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والآداب ، الكويت ، العدد ٩٩ ، ١٩٨٦ ، ص١١٧-١١٨ .

(٢) W. & O., P. 80.

والحيوانات الأخرى ، عن طريق المكافأة السريعة ؛ فالكائن الحى يميل إلى تكرار الفعل الذى نال المكافأة عندما تتكرر المثيرات التى تصادف أن كانت موجودة عند الأداء الأصلى ، وتتحول الإثارة التى لازمت الفعل مصادفة إلى مثير للفعل وذلك عن طريق المكافأة ؛ ويجوز أن يكون الفعل الإجرائى بأبأة عشوائية لشىء ما مثل « ماما » فى لحظة ما عندما يلوح وجه الأم مصادفة ، وتكافئ الأم التى سرتها التسمية ذلك الفعل العشوائى ، وكذلك تنجح فة المستقبل طريقة وجه الأم بوصفها مثيرًا لعمليات نطق أخرى (لماما) »[١] .

ومما أسلفناه يتبين أن كواين يقدم لنا الصورة الكلاسيكية للإشراط الإجرائى ، فالطفل يبأبأ « ماما » ، أى أنه يصدر استجابة إجرائية فى حضور أمه التى تدعم هذا السلوك الإجرائى بمكافأة تأتى على هيئة ابتسامة أو تقوم باحتضانه مثلاً ، ويسمى هذا التدعيم « بالمثير المدعم » reinforcing stimulus ؛ وهذا التدعيم المتكرر لاستجابة الطفل فى حضور الأم لا يؤدى إلى زيادة احتمال استجابته فقط ، بل يقدمها عند التحكيم فى حضور الأم ، وهذا يعنى أن الأم تمثل فى هذه الحالة ما يسمى بالمثير المميِّز الذى سوف يميل الطفل عند وجوده إلى نطق « ماما » ؛ وإذا تم تثبيت التحكم فى المثير المميِّز بصورة كافية ، فإن الطفل يستمر فى نطق « ماما » فى حضور الأم مع أن نطقه هذا قد لا يتدعم لفترة طويلة ، وهذا ما تدل عليه عبارة كواين المذكورة فى الفقرة السابقة والقائلة : « وكذلك تنجح طريقة وجه الأم بوصفها مثيرًا لعمليات نطق أخرى (لماما) » ؛ والحق أن تعلم اللغة ، فيما يرى كواين ، لا ينشأ عن عملية إشراط الإجراءات أو تدعيم البأبأة العشوائية فحسب ، بل ينشأ عن عملية أخرى هى « المحاكاة » ، إذ يقوم الميل الطبيعى عند الطفل إلى المحاكاة بدور هام فى تعلم اللغة .

وتتجلى الارهاصات الأولى للمحاكاة داخل آلية السلوك الإجرائى المدعم ، لأن النطق الأصلى « لماما » يحدث وسط أثارات متعددة بالتأكيد ، ولن يمثل وجه الأم كل شىء ، فيجوز أن نتخيل أن هناك همسة مفاجئة ، وهناك أيضًا الصوت « ماما » ذاته الذى يسمعه الطفل من نفسه ، ومن ثم فإن نتيجة المكافأة سوف تجعل الطفل يميل إلى أن يقول « ماما » فى المستقبل ليس عند رؤية الوجه القريب فقط ، بل عند الاحساس بالهمسة

---

(١) -Ibib, PP. 80 -81.

أو سماع « ماما » ؛ وسوف يتلاشى الميل إلى الاستجابة للهمسات التالية نظرًا للافتقار إلى مكافأة أخرى فى مناسبات متأخرة ، ومع ذلك فإن الميل إلى الاستجابة للكلمة المسموعة « ماما » سوف يستمر ليحظى بالمكافأة ، لأن كل إنسان سوف يستحسن محاكاة الطفل الظاهرية ، وهكذا نجد بالفعل أن المثيرات لقول « ماما » التى تستمر لتنال المكافأة من نوعين مختلفين تمامًا : الوجه المرئى والكلمة المسموعة ، وبدايات المحاكاة تكون بالتالى فى البدايات الفعلية لتعلم الكلمة(١) .

بيد أن هذه الارهاصات للمحاكاة التى تجلت فى السلوك الإجرائى المدعم سرعان ما تتخذ شكلاً مستقلاً ، « وتطور المحاكاة ... النقطة حيث يصبح أى منطوق جديد من شخص آخر مثيرًا مباشرًا لمنطوق يطابق الأصل ، وحالما يصل الطفل إلى هذه المرحلة ، يصبح تعلمه الإضافى للغة مستقلاً عن السلوك الإجرائى »(٢) .

ولا تتخذ طريقة المحاكاة صورة مستقلة عن طريق تدعيم السلوك الإجرائى فحسب ، بل إنها تتخذ صورة عكسية إلى حد ما ؛ فى حالة البأبأة كان الشخص البالغ هو الذى شاهد ما واجه الطفل عندما تصادف أن يأبأ الطفل بالكلمة الملائمة ، أما فى حالة المحاكاة فإن الطفل ، على العكس ، هو الذى شاهد ما واجه الشخص البالغ عندما تطوع هذا الشخص بالكلمة ، ثم يتطوع الطفل بالكلمة عندما يواجه بصورة مماثلة ، ومن ثم يتقدم البالغ لتدعيم سلوك الطفل كما هو الحال فى حالة البأبأة ؛ إن منهج المحاكاة أكثر تعقيدًا من منهج البأبأة ، ومع ذلك يمكن تفسيره مباشرة فى حدود المثير والاستجابة المدعمة reinforced response(٣) .

ولكن الطفل عندما تنشأ استجابته اللفظية عن المحاكاة ، فإنه يتعلم الاستجابة لأنه نال تدعيمًا ليفعل كذلك ، يقول كواين : « ويظل واضحًا فى كل حادثة أن تعلم الطفل فى وقت مبكر للاستجابة اللفظية يعتمد على تدعيم المجتمع للاستجابة بالربط مع الاثارات التى تستحق الاستجابة من وجهة نظر المجتمع ، وتثبيط المجتمع لها من ناحية أخرى »(٤) ؛

---

(١) Ibid, p. 81.

(٢) - Ibid, p. 82.

(٣) - M. & V.D., p. 84.

(٤) - W. & O., p. 82.

ويمكن أن نخلص من هذا إلى نتيجة مفادها أن كواين يعتقد أن تعلم الطفل للاستجابة ينشأ من التدعيم ، سواء كانت استجابته ناشئة عن البأبأة أو المحاكاة .

لقد أسلفنا القول بأن هناك خطوتين فى تعلم الطفل اللغة ، الأولى هى إشراط استجابات الطفل اللفظية لمثيرات غير لفظية ، والثانية هى إشراط استجابات الطفل اللفظية لمثيرات لفظية ؛ وإذا ما انتقلنا الآن من الخطوة الأولى ، التى عالجناها آنفًا ، إلى الخطوة الثانية ، وجدنا أن كواين يرى أن الطفل يتجاوز بعد وقت ليس بطويل تعلم لغته عن طريق خضوعه للإشراط للاثارات غير اللفظية ، وينتقل من الاستجابة لاثارات مع جمل ذات كلمة واحدة إلى المشاركة فى محادثة محدودة النطاق ؛ وفى محاولة لتفسير هذا ، يفترض كواين أن الطفل يكون مشروطًا لربط جمل بجمل ، فنراه يقول : « إن ربط الجمل يكون مرغوبًا فيه ليس بالإثارة غير اللفظية فحسب ، بل بالجمل الأخرى ... وأوضح حالة للإثارة اللفظية لاستجابة لفظية هى الاستفهام ... و« أحمر » باعتبارها جملة ذات كلمة واحدة تحتاج عادة إلى سؤال لاستنطاقها ؛ ربما يكون السؤال ببساطة « ما هذا اللون ؟ » والمثير الذى يستنطق « أحمر » فى هذه الحالة هو مثير مركب ، إذ يهجم الضوء الأحمر على العين ويهجم السؤال على الأذن ، أو ربما يكون السؤال « ما اللون الذى سوف تأخذه ؟ » أو « ما اللون الذى لابد من استعماله ؟ » والمثير الذى يستنطق « أحمر » فى مثل هذه الحالة هو مثير لفظى لا يكون مصحوبًا بضوء أحمر ، على الرغم من أن قوته فى استنطاق « أحمر » تعتمد بطبيعة الحال على ربط مبكر لـ « أحمر » بضوء أحمر »(١) .

وإذا تساءلنا كيف ترتبط جملة بأخرى ؟ فالجواب عند كواين : « لابد من أن تنشأ أية علاقة من هذه العلاقات المتبادلة للجمل فى آخر الأمر عن إشراط جمل بوصفها استجابات لجمل بوصفها مثيرات » (٢) ؛ ويمكن القول ، إذا اعتمدنا على أمثلة كواين المشار إليها ، إن الجملة « ما اللون الذى لابد من استعماله ؟ » تحدث استجابة لفظية هى الجملة « أحمر » ، ومن ثم لابد من أن نربط الجملتين بالطريقة التى ألمح إليها كواين ، أى إشراط جملة بوصفها استجابة لجملة بوصفها مثيرًا ، والشخص الذى يطرح عليه

---

(١) -Ibid,P.10.

(٢) - Ibid, p. 11.

السؤال السابق لابد من أن يكون قد سمع هذا السؤال من قبل ، واستجاب له « بأحمر » ، ونال تدعيمًا على استجابته تلك .

ولكن ، هل يمكن أن تحدث عملية ربط الجمل بعضها ببعض مع جميع الجمل فى لغة معينة ؟ الجواب لا ، لأن معظم الجمل التى نتحدث بها هى جمل لم نسمعها ول ننطقها من قبل ، ومن ثم فإن الفكرة القائلة بأن المتكلمين يتعلمون كثيرًا جدًا من الجمل فى لغتهم عن طريق كونهم مشروطين للجمل الأخرى تفقد جانبًا كبيرًا من قوتها عند مقابلتها بالفكرة التى يسميها تشومسكى « الجانب الإبداعى فى اللغة » ‎:eative aspect of language‎، « أى قدرة كل الأشخاص الأسوياء على انتاج كلام بملائم للمواقف مع أنه قد يكون جديدًا تمامًا ، وفهمه عندما ينطقه الآخرون كذلك »[١] ؛ وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى ، قل إن الإبداع اللغوى creativity يعنى الطاقة أو القدرة التى تجعل أبناء اللغة الواحدة قادرين على انتاج وفهم عدد كبير بل غير محدود من الجمل التى لم يسمعوها قط ولم ينطق بها أحد من قبل[٢] ؛ وهذا يدل على أن مفهوم الإشراط الإجرائى يواجه مأزقًا حرجًا أمام مفهوم الإبداع اللغوى طالما أننا نتمتع بقدرات تمكنن من أن نتجاوز خبراتنا اللغوية الماضية ونضع عددًا لا متناهيًا من الجمل الجديدة التى لا نعتمد فى إبداعها على تلك الخبرات ، وسوف نعرض فى نهاية هذا الفصل محاولة كواين للخروج من هذا المأزق .

٢ - ٤ جمل الملاحظة

إذا كان كواين قد حاول بناء نظرية تجريبية سلوكية فى تعلم اللغة بصفة عامة ، فقد عالج كيفية تعلم الجانب الإشارى من اللغة على وجه الخصوص ، وتناول ذلك فى مواضع عديدة من كتاباته ، يأتى فى مقدمتها مقاله « الحديث عن الموضوعات » ١٩٥٧ (وقد اعيد نشره فى كتابه « النسبية الانطولوجية ومقالات أخرى » ١٩٦٩) ثم توسع فى مناقشة هذا الجانب فى كتابه « الكلمة والموضوع » ١٩٦٠ ، ثم خصه بكتاب كامل هو « جذور الإشارة » ١٩٧٣ .

---

(١) Chomsky, N., Rules and Representations, New York: Columbia University Press, 1980, pp. 76-77.

(٢) جون ليونز ، نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة د . حلمى خليل ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٥٧ .

وعندما نمعن النظر فى وصف كواين للطريقة التى يتعلم بها الطفل الإشارة إلى الأشياء نجد أن هناك ثلاث مراحل تهيئنا لاكتساب مهارات إشارية :

١ - مرحلة ما قبل التعلم اللغوى .

٢ - مرحلة ما قبل تعلم اللغة الإشارية .

٣ - تعلم الإشارة .

وسوف نناقش هذه المراحل فيما يلى .

تؤثر الأحداث الخارجية على حواس الأطفال والحيوانات باعتبارها قابلة للتعلم شأنها فى ذلك شأن الأطفال ، ثم تأتى الاستجابة بعد ذلك لهذه الأحداث ؛ ويذهب كواين إلى أن العامل الأساسى فى استجابة الأطفال أو الحيوانات هو القدرة على إدراك التشابهات ، يقول كواين : « إن الاستجابة للدائرة الحمراء ، إذا نالت مكافأة ، سوف يحدثها القطع القرنفلى الناقص مرة أخرى بسرعة أكثر مما يحدثها المثلث الأزرق ، وذلك لأن الدائرة الحمراء تشبه القطع القرنفلى الناقص أكثر مما تشبه المثلث الأزرق ، ولا نستطيع أن نكتسب عادة من دون مثل هذه المساحة السابقة للكيفيات أو (للصفات) ، إذ أن جميع المثيرات سوف تكون متشابهة بصورة متساوية ومختلفة بصورة متساوية ، ويمكن استكشاف هذه المساحات للكيفيات ، من جانب البشر والحيوانات الأخرى سواء بسواء ، وتنظيمها فى المعمل عن طريق التجارب فى الإشراط والإنطفاء extinction[1] ، وبالرغم من أنها مطلوبة كلية للتعلم ، فإن هذه المساحات المميزة لا يمكن تعلمها جميعًا ، لأن بعضها لابد من أن يكون فطريًا innate ؛ فإذا قلت بعد ذلك إن هناك معيارًا فطريًا للتشابه ، فإننى أضع عبارة موجزة يمكن تفسيرها فى الواقع بألفاظ سلوكية ، زد على ذلك أنه بهذا المغزى السلوكى يمكن أن يقال عن الحيوانات الأخرى بصورة متساوية إنها تملك معيارًا فطريًا للتشابه كذلك »[2] .

وكما أن القدرة على إدراك التشابهات تقع فى مرحلة ما قبل التعلم اللغوى ، فكذلك تقع فى مراحل أخرى من التعلم كما هو الحال عندما يتعلم الطفل كلمة تدل على اللون

---

(١) الانطفاء يعنى ببساطة أنه عندما يتم تقديم المثير الشرطى (مثل الجرس فى تجارب بافلوف) بصورة متكررة ولا يعقبه المثير غير الشرطى (مثل قطعة اللحم) ، فإن الاستجابة لهذا المثير الشرطى تتوقف فى نهاية الأمر .

(٢) - O.R. & O.E., p. 123, see also W. & O., p. 83.

مثل « أحمر » ، فيتعلم الطفل الاستجابة لإثارة حمراء معينة تتمثل فى شىء معين ولاثارة لفظية محددة تصاحب تقديم هذا الشىء ، ويكتشف الطفل أن عمليات التقديم تكون متشابهة إلى حد يكفى لأن يجعله يدرك كلمة « أحمر » فى اللغة .

ويعتمد نجاح الطفل فى تعلمه لكلمة « أحمر » مثلاً على اتفاق حقيقى بين معايير التشابه عنده ومعايير التشابه عند المعلم البالغ ، ويحدث الاتفاق بالفعل ، ولا غرو فى ذلك ، طالما أن معاييرنا للتشابه هى إلى حد ما مسألة انتخاب طبيعى وإلى حد ما مسألة خبرة لاحقة فى بيئة مشتركة ، وإذا لم يوجد اتفاق حقيقى فى معايير التشابه ، فإن الخطوة الأولى فى اكتساب اللغة سوف تقوم أمامها العقبات »[١] .

لقد ألمحنا فى مستهل هذا الفصل إلى أننا إذا شئنا أن نفسر تمكن الإنسان من النظرية العلمية ، فلابد أن ندرك كيف يكتسب اللغة النظرية ، وكان السبب وراء ذلك هو أننا نستطيع دراسة الكلمات على نحو موثوق به أكثر من دراسة الأفكار ، ويضيف كواين سببًا آخر يرتبط بالعلاقة بين النظرية العلمية والملاحظات التى تؤيدها ، لأن هذه العلاقة لها جانب دلالى بالإضافة إلى جانبها الابستمولوجى ؛ إذ بالإضافة إلى كونها علاقة من خلالها تكتسب الجمل المثبتة فى النظرية تأييدها ، فإنها علاقة من خلالها تكتسب هذه الجمل معناها ، نظرًا لأننا نتعلم اللغة عن طريق ربط ألفاظها بالملاحظات التى تستنطق هذه الألفاظ أو تحدثها ؛ وطالما أننا نهتم بدراسة الكلمات دون الأفكار ، ونربط الكلمات التى نستطيع رؤيتها وسماعها فى المحيط الخارجى بالملاحظات التى تحدثها ، فمن الطبيعى أن تكون عملية تعلم اللغة « مسألة واقعية ، وسهلة المنال بالنسبة للعلم التجريبى ، وباستكشافها يستطيع العلم فى الواقع استكشاف العلاقة البرهانية (أى علاقة الدليل) بين العلم ذاته وملاحظاته المؤيدة »[٢] .

أما السبب فى أن الملاحظات تقوم بدور أساسى فى تأييد النظرية العلمية وفى تعلم اللغة على السواء فيرجع إلى كون الملاحظات مباشرة ومتاحة على نحو بين ذاتى ، فإذا ظهر بيننا خلاف على أمر من أمور الواقع ، فإن الملاحظات هى الأساس المشترك الذى نلتقى عليه لحسم هذا الخلاف ، ومن ثم يجئ دورها المحورى فى تأييد النظرية العلمية ؛ والملاحظات

---

(١) - N. of N. K., p. 73.

(٢) - R. of R., p. 37.

أساسية أيضًا لعملية تعلم اللغة ، لأن كل واحد منا يتعلم لغته من غيره من الناس فى ظروف مباشرة بين ذاتية ، وفى مستهل عملية التعلم لابد من أن توجد أشياء يمكن رؤيتها بوضوح فى الخارج ، وتكون قريبة من الحواس إلى حد يكفى لتحديد هويتها وتعلمها عن طريق الإشارة والتسمية ، فالتعلم الإشارى يعد مرحلة أساسية فى عملية التعلم ويتطلب القابلية للملاحظة ، فإذا أرد الأب أن يعلم طفله كلمة « أحمر » فلابد من أن يرى الأب والطفل معًا وفى وقت واحد شيئًا أحمر مثل حبة الطماطم الناضجة ، ولابد من أن يرى الواحد منهما أن الآخر يرى حبة الطماطم هذه فى الوقت نفسه .

ويرى كواين أن الدورين اللذين تقوم بهما الملاحظات ، أى دورها فى تأييد النظرية العلمية ودورها فى تعلم اللغة متلازمان ؛ فالملاحظات تكون ملائمة كدليل على تأييد النظرية العلمية بسبب هذه الارتباطات الفعلية بين الأحداث القابلة للملاحظة والمفردات اللغوية النظرية ، تلك الارتباطات التى نتعلم عن طريقها المفردات اللغوية النظرية فى المقام الأول ، وهنا تظهر نظرية التحقق فى المعنى بطبيعة الحال ، إذ أن معنى الجملة يكمن فى الملاحظات التى سوف تؤيدها أو تفندها ، وتعلم اللغة هو تعلم معنى جملها ، ومن ثم تعلم الملاحظات التى تعد دليلاً عليها أو ضدها ، فعلاقة الدليل والعلاقة الدلالية للملاحظة بالنظرية العلمية متواجدتان معًا(١) .

ولكن كواين يعتقد ، تبعًا لتمسكه بنزعة الكلية ، أن الأنصار الرواد لنظرية التحقيق فى المعنى قد جانبوا الصواب عندما تحدثوا عن معنى الجمل « الفرادى » لأن معظم الجمل لا تقبل « بشكل منفصل » دليل الملاحظة ، إذ الجمل تتشابك ، وقد سبق أن أطلق كواين على هذا التشابك اسم « الحياة المتبادلة بين الجمل » ؛ وربما تفند الملاحظة جانبًا من نظرية تشتمل على مجموعة من الجمل ، ومع ذلك تتركنا أحرارًا فى اختيار الجمل المكونة التى تستمر لتكون صادقة والجمل التى نتخلى عنها ؛ وهكذا فإن علاقة الدليل معقدة وغير مباشرة ، وقل شيئًا كهذا عن العلاقات الدلالية ، فالعلاقة الدلالية للملاحظة باللغة النظرية تكون معقدة وغير مباشرة كما هو الحال مع علاقة الدليل ، طالما أننا نتعلم اللغة جزئيًا عن طريق ربط الألفاظ أو الجمل ربطًا مباشرًا بالملاحظة ، ونتعلمها جزئيًا عن طريق ربط الواحدة منها بالأخرى ، فعلاقة الدليل بكل تعقيدها والعلاقة الدلالية بكل تعقيدها متواجدتان معًا(٢) .

---

(١) - Ibid, p. 38.

(٢) - Ibid, p. 38.

وإذا نظرنا إلى الملاحظات ذاتها ، وجدنا أنها بصرية وسمعية ولمسية وشمية ، فهى حسية بوضوح وبالتالى ذاتية ، ومع ذلك فإن الأمر الحاسم بالنسبة لاستعمال الملاحظات ، باعتبارها دليلاً وبوصفها نقاط الإشارة الدلالية على حد سواء ، هو أنها مشتركة اجتماعيًا ؛ فهل يجب أن نقول إذن إن الملاحظة ليست هى الاحساس ، وإنما هى الظروف البيئية المشتركة ؟ الجواب عند كواين بالنفى ، لأنه لا يوجد افتراض مسبق باتفاق بين ذاتى حول الموقف البيئى أيضًا ، فربما يختلف شخصان حول تحديد هذا الموقف ، وذلك لملاحظة أحدهما جوانب من الموقف تختلف عن الجوانب التى يلاحظها الآخر ، وقد يرجع هذا الاختلاف إلى وجهات النظر التى يعتقد بها كل واحد منهما[١] . وهذا يعنى أن هناك صعوبة تعترض سبيل فكرة الملاحظة ، طالما أن الملاحظة إذا فهمت على أنها الموقف البيئى المشترك ، فإن هذا الفهم أيضًا لا يضمن إتفاقًا بين الأشخاص الذين يلاحظون الموقف ، فهل ثمة طريقة يمكن أن نتفادى بها هذه الصعوبة ؟ .

هنا يقترح كواين طريقة لا تكمن فى الكلام عن الإحساس ولا عن الموقف البيئى ، بل تكمن فى الكلام عن اللغة ، أى أن كواين يقترح أن نتخلى عن الملاحظة ونتكلم بدلاً من ذلك عن « جمل الملاحظة observation sentences »؛ فماذا عسى أن تكون هذه الجمل ؟ وما الدور الذى تقوم به ؟ .

هناك محاولات عديدة فى كتابات كواين لتحديد جمل الملاحظة [٢] . ولعل أكثرها دقة فى رأينا ما ورد فى كتابه « جذور الإشارة » ١٩٧٤ ، ومقال « طبيعة المعرفة الطبيعية » ١٩٧٥ ، وإذا كان كواين قد اقترح محاولة لاجتناب تعريف الملاحظة عن طريق الحديث بدلاً من ذلك عن جمل الملاحظة ، فمن غير الملائم بالنسبه له أن يعرف جملة الملاحظة بأنها الجملة التى تقرر الملاحظة ، ومن ثم نراه يلجأ إلى شرط الاتفاق بين الذاتى الذى يقدم التعريف المروم ؛ ويعرف كواين جملة الملاحظة فى حدود هذا الشرط الأساسى بقوله : « تكون الجملة جملة ملاحظة بقدر ما يوافق على قيمة صدقها فى أية مناسبة أى عضو تقريبًا فى المجتمع الكلامى يشهد المناسبة »[٣] ؛ ويعبر كواين

---

(١) - Ibid, p. 38.

(٢) - See W. & O., p.42 ff, O.R. & O.E., pp. 85-89, T, & T., pp. 25-26., S. of M., p.7,and P.of T., pp. 2-6.

(٣) - R. of R., p. 39.

عن هذا التعريف بصورة أخرى قائلاً : « على خلاف التقرير عن العاطفة ، يجب أن تنال الجملة (أى جملة الملاحظة) نفس الحكم من كل شهود المناسبة الذين يتمتعون بأهلية من الناحية اللغوية »[1] ، ولعلنا نلاحظ أن هذا التعريف يعتمد على فكرة العضوية ، ولا يمثل ذلك مشكلة طالما أننا نستطيع أن نتعرف على كون الشخص عضوًا فى المجتمع الكلامى عن طريق طلاقة حواره مع غيره من الأعضاء[2] .

ولكن كواين يرى أن هذا التعريف يفتقر إلى قليل من التحديد ، لأنه قد تدخل ضمن جمل الملاحظة ، تبعًا لهذا التعريف ، الجمل التافهة التى سوف يوافق عليها كل الأعضاء فى المجتمع الكلامى كائنًا ما يكون الأمر ، مثل « الكلب حيوان » ، « وهذه الجمل التى اسميها تحليلية المثير stimulus-analytic يمكن استبعادها عن طريق اشتراط أن تكون جملة الملاحظة جملة مناسبة occasion sentence، أعنى الجملة التى لا تستحق الموافقة أو الاعتراض عليها مرة وإلى الأبد ، بل تستحق ذلك على نحو متغير فقط من مناسبة إلى أخرى »[3] ؛ وجمل المناسبة تكون صادقة فى بعض المناسبات وكاذبة فى بعضها الآخر ، فإذا قلنا « السماء تمطر » نجد أنها جملة صادقة أحيانًا وكاذبة أحيانًا أخرى ، وهى تعتمد على صدقها وكذبها على المناسبة التى تقال فيها .

والشئ الجدير بالنظر هنا هو أن هذا التعريف يقدم معيارًا سلوكيًا لجملة الملاحظة ، ويرجع ذلك إلى أنه يقدم طريقة لمعالجة جملة الملاحظة فى نطاق الماصدق ، وبالتالى يجتنب الاستعانة بالكائنات العقلية التى تدعى المعانى أو « المعطيات الحسية أو أية تصورات ابستمولوجية مسبقة أخرى »[4]؛ والحق أن كواين قد عرف جملة الملاحظة تعريفًا سلوكيًا يعتمد على فكرة « المعنى المثير » ، ولذلك نراه يحدد أولاً التعريف السلوكى للمعنى المثير ثم يؤسس عليه التعريف السلوكى لجملة الملاحظة عندما يكتب قائلاً : « التعريف السلوكى للمعنى المثير على النحو الآتى ، وبصورة كافية تقريبًا : المعنى المثير لجملة ، بالنسبة لمتكلم معين ، هو فئة جميع المواقف المثيرة التى فى وجودها سوف يوافق على الجملة إذا وضعت موضع التساؤل ؛ والمعنى المثير يكون أفضل ما يكون بين جمل

---

(١) - P. of T. P. 3, and R. to C. in P. of Q., p. 664.

(٢) - R. of R., p. 39.

(٣) - Ibid, p. 39. O.S., p. 109.

(٤) - Ibid, p.39, S. & N., p.7.

الملاحظة ؛ والتعريف السلوكى لجملة الملاحظة كمايلى : جملة الملاحظة هى الجملة التى يكون المعنى المثير لها واحدًا بالنسبة لجميع المتكلمين للغة تقريبًا ، وأمثلتها من قبيل (إنها تمطر) و (هذا أحمر) و (هذا أرنب) »[١] .

ويحاول كواين مرة أخرى أن يقدم لنا تعريفًا لجملة الملاحظة يقول فيه : « السمة المميزة لهذه الجملة هو أن قيمة صدقها تختلف باختلاف الظروف السائدة فى وقت النطق ، وهى جملة من قبيل « هذا أحمر » و « إنها تمطر » ، والتى تكون صادقة فى مناسبة وكاذبة فى مناسبة أخرى ، وذلك على خلاف جملة مثل « السكر حلو » التى تبقى قيمة صدقها بصرف النظر عن مناسبة النطق ؛ وزبدة القول هى أن جمل الملاحظة هى جمل مناسبة وليست بجمل دائمة standing sentences »[٢] .

بيد أن كون جملة الملاحظة جملة مناسبة لا يمثل السمة الوحيدة المميزة لجملة الملاحظة عن غيرها من الجمل ، إذ لا يجب أن تعتمد قيمة صدق جملة الملاحظة على ظروف نطقها فحسب ، وإنما يجب أن تعتمد أيضًا على ظروف قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتى .

ويسوق كواين مثالاً لتوضيح شرط قابلية الملاحظة بين الذاتية ، فيقول : « ليس من شك فى أن الجملة التى يقولها صياد السمك : « لقد لمست جزءًا صغيرًا جدًا » تكون صادقة أو كاذبة بالاعتماد على ظروف نطقها ، ولكن الظروف الملائمة هى ظروف شخصية أو خاصة بالمتكلم أحرى من أن تكون مكشوفة للعيان يشترك فيها المشاهدون جميعًا ، فالجملة « لقد لمست جزءًا صغيرًا جدًا » هى جملة مناسبة وليست جملة ملاحظة بالمغزى الذى أريده من هذا المصطلح »[٣] .

هكذا اشترط كواين شرطين لابد من توافرهما فى جملة الملاحظة : أولاً ، أن تكون جملة مناسبة ، وثانيًا ، أن تكون مناسباتها قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتى ، ولكن هل يكفى هذان الشرطان لتحديد جملة الملاحظة ؟ يجيب كواين على هذا السؤال بالنفى ، ويقدم مثالاً لجملة تستوفى الشرطين السابقين ومع ذلك لا تعد جملة ملاحظة بالمعنى الدقيق ، يقول كواين : « إن الجملة (يسير هناك معلم محمد الخصوصى العجوز) تستوفى هذين الشرطين ، فهى جملة مناسبة ويمكن أن يرى المشاهدون المعلم الخصوصى يتهادى

---

(١) - M. R. on C.L.T., p. 450.

(٢) -N. of N.K., p. 72.

(٣) - Ibid, p. 72.

فى سيره ، ولكن الجملة تعجز عن الوفاء بشرط ثالث ، أى لابد من أن يكون المشاهدون قادرين بصفة عامة على إدراك أن الملاحظة التى يشتركون فيها هى الملاحظة التى تثبت الجملة ، ويجب أن يكونوا فى وضع يستوى مع وضع المتكلم لكى يوافقوا على الجملة دون مساعدة فى المناسبات ، وهم يتمتعون بهذا الوضع فى حالة الجمل « هذا أحمر » و « إنها تمطر » و « يسير هناك رجل عجوز » ، ولكن ليس فى حالة الجملة « يسير هناك معلم محمد الخصوصى العجوز »[(1)] ؛ وهذا يعنى أن كواين يقترح ثلاثة شروط يجب أن تستوفيها الجملة لكى تكون جملة ملاحظة وهى :

١ – أن جملة الملاحظة هى جملة مناسبة وليست جملة دائمة .

٢ – أن تكون قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتى .

٣ – أن تحظى بالموافقة من جميع المشاهدين الذين ينتمون إلى المجتمع الكلامى الذى تقال فيه الجملة ، ولكى تحظى الجملة بذلك يجب أن لا تقرر أشياء تخص متكلمًا بعينه أو تتعلق بمسائل خاصة ، وإنما لابد من أن تنطوى على إشارات إلى موضوعات لا تتجاوز الموضوعات الفيزيائية فى الواقع .

وفضلاً عن الشروط السابقة لجملة الملاحظة ، هناك سمة مميزة لها ألا وهى كفاية التأثيرات الحالية ، ولكى ندرك المغزى الذى ربما نقول به إن التأثيرات الحالية تكفى لجمل الملاحظة يمكن أن نتأمل نوعًا آخر من الجمل من قبيل تعليق حول مصر القديمة أو نواة الذرة أو قدر الإنسان ، ويجب أن نسلم بأن هذه الجمل الأخيرة تحدثها أيضًا تأثيرات حالية ، ربما عن طريق النظر فى ورقة أو نقش ضئيل البروز أو لوحة فوتوغرافية أو سؤال شخص ما ؛ وعلى عكس ذلك يجب أن نسلم بأن سرعة المرء فى إثبات جملة الملاحظة أو الموافقة عليها لا تزال متوقفة على التدريب المبكر للمرء ، وتعلمه للغته الأولى ، ولكننا نعرف المعيار الاجتماعى الذى يميز النوعين من الجمل ؛ فإذا وضعت تعليقًا حول مصر القديمة باعتباره سؤالاً مطروحًا على متكلمين فصحاء فى حضور تأثيرات متشابهة تقريبًا ، فربما يوافق متكلم وربما لا يوافق الآخر ، ولكنك سوف تحصل على أحكام متماثلة ، إذا وضعت جملة الملاحظة موضع التساؤل فى حضور تأثيرات بعينها[(2)] .

---

(١) - Ibid, pp. 72 - 73.

(٢) - R. of R., p. 40.

وربما تتألف جملة الملاحظة من اسم أو صفة ، وذلك عندما نفكر فيهما باعتبارهما جملة مثل « مطر » و « بارد » و « أرنب » بالقياس إلى الجمل « إنها تمطر » و « إنه بارد » و « إنه أرنب » ، وربما يتم تركيب جمل الملاحظة أيضًا لتأليف جمل ملاحظة جديدة ، وينتج ذلك عن طريق العطف البسيط : « الشمس طالعة والطيور تغرد » ، والطريقة الأخرى لتأليفها هي الحمل مثل الجملة « هذه الحصاة زرقاء » المؤلفة من « انظر حصاة » و « انظر زرقاء »[١] .

فإذا ما انتقلنا الآن من تعريف جملة الملاحظة وتحديد مجالها إلى الدور الذى تقوم به ، وجدنا أن هذه الجمل تقوم بدورين أساسيين ، الأول دلالى ، والثانى برهانى ؛ مفاد الأول أن جمل الملاحظة هى المدخل إلى اللغة ، وفحوى الثانى أن جمل الملاحظة هى المدخل إلى العلم .

إن جمل الملاحظة هى المدخل إلى اللغة لأنها أول ما نتعلمه من اللغة ، وجملة الملاحظة فى المستوى البدائى تأتى فى صيغة الكلمة المفردة مثل « أحمر » أو « لبن » أو « كرة » ، إذ يتعلم الطفل الموافقة على السؤال « أحمر ؟ » فى حضور واضح وبارز للأشياء الحمراء ؛ و « نحن نستطيع أن نتعلمها أولاً لأننا يتعين علينا فقط أن نعدلها وفقًا للأحداث الجارية ، فلا يوجد باعث خفى ، وليست هنالك حاجة إلى استنباط أو نظر ، ولا بحث فى الذاكرة »[٢] ؛ أما الشىء الذى يجعل عملية تعلم جمل الملاحظة عملية سهلة فهو قابلية الملاحظة بين الذاتية للظروف الملائمة فى وقت النطق ، فلا توجد صعوبة فى أن يتحقق الأب من أن الطفل يرى كرة فى وقت النطق ، وبالتالى يستطيع أن يكافئ موافقة الطفل على التساؤل « كرة » ؟ ، وكذلك يستطيع الطفل أن يتحقق من أن الأب يرى الكرة عندما يوافق الأب على هذا التساؤل ؛ وهنا نجد أن جملة الملاخظة « كرة » تتوافر فيها الشروط الثلاثة المشار إليها لتحديد جملة الملاحظة .

على أن هذا لا يعنى أن يتعلم كل منا جمل الملاحظة عن طريق إشراط مباشر ، وإنما قد يحدث أن نتعلم جمل ملاحظة كثيرة بطرق غير مباشرة ، فقد نتعلمها عن طريق التفسير اللفظى أو عن طريق السياق اللفظى أو عن طريق التركيب المتماثل من كلمات

---

(١) - P. of T., p. 4.

(٢) - R. of R., pp. 41 - 42.

مكونة تم تعلمها من قبل ، ويتمكن بعضنا من جملة ملاحظة معينة بطريقة ما ، ويتمكن بعضنا الآخر منها بطريقة أخرى ؛ ومع ذلك فإن جملة الملاحظة هى التى « يمكن » تعلمها عن طريق إشراط مباشر ، ويقع تعلمها ضمن مجال التدريب الحيوانى النموذجى(١) .

وكما أن جمل الملاحظة هى المدخل إلى اللغة ، فكذلك هى المدخل إلى العلم ، وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن جمل الملاحظة هى نقاط البدء فى تعلم اللغة ، وهى أيضًا نقاط البدء ونقاط الفحص فى النظرية العلمية ؛ وهى تؤدى الغرضين لسبب واحد ألا وهو قابلية الملاحظة بين الذاتية للظروف الملائمة فى وقت النطق ، فقابلية الملاحظة بين الذاتية هذه فى وقت النطق هى التى تمكن الطفل من أن يتعلم متى يوافق على جملة الملاحظة ، وهى أيضًا ، أى قابلية الملاحظة بين الذاتية ، التى تحدد جمل الملاحظة بوصفها نقاط فحص للنظرية العلمية ، فجمل الملاحظة تعين الدليل الذى لابد من أن يوافق عليه المشاهدون(٢) ، أى أنها تقدم أساسًا مشتركًا يلتقى عليه العلماء عندما ينشأ بينهم خلاف حول نظرية من النظريات ، وبعبارة أخرى إن جمل الملاحظة هى الجمل التى يمكن عن طريقها أن يتوصل العلماء إلى اتفاق عندما تتعارض نظرياتهم ، وهى بذلك تعد مدخلاً إلى العلم .

على أننا قد نجد أنفسنا مدفوعين إلى التساؤل : ألا تذكرنا جمل الملاحظة عند كواين بالعبارات الأساسية (أو عبارات البروتوكول) protocal statements فى فلسفة جماعة فينا ؟ إذا كان الجواب بالإيجاب ، فسرعان ما يظهر السؤال التالى : ما هى الصلة بينهما ، وما هو الجديد الذى أضافه كواين فى هذا المجال ؟

لقد أدى تطور العلم إلى زيادة كبيرة فى العبارات والقوانين التجريبية ، وكان لزامًا على التحليل المنطقى للمعرفة أن يسعى إلى فهم الأسس التى ترتكز عليها مفاهيم وعبارات العلوم التجريبية ، وقدم بعض أعضاء جماعة فينا ، على رأسهم كارناب (١٨٩١–١٩٧٠) ونيورات (١٨٨٢ – ١٩٤٥) وشليك (١٨٨٢ – ١٩٣٦) ، مفهوم العبارات الأساسية بغية تفسير المعرفة العلمية ، وذلك لاعتقادهم بأن جميع العبارات العلمية ترتد فى نهاية

(١) Ibid, pp. 41 - 42, and P. of T., p. 5.

(٢) N. of N. K., pp. 73 - 74. O. S., p. 112.

المطاف إلى عبارات ذات صلة مباشرة بالخبرة الحسية[1] ؛ ولكن ما إن طرح مفهوم العبارة الأساسية ، حتى دار حوله النقاش والجدل بين هؤلاء الأعضاء ، وانصب النقاش فى جانبه الأكبر على طبيعة هذه العبارة ومجالها ؛ وبعبارة أخرى ، كان السؤال الذى تطلب جواب الأعضاء هو : ما هى العبارة الأساسية ، وكيف نحدد ما إذا كانت عبارة معينة تندرج تحت نمط العبارة الأساسية ؟

وكانت من بين الاجابات المبكرة على السؤال السابق إجابة كارناب فى كتابه « وحدة العلم » التى عرف فيها العبارات الأساسية على أنها « العبارات التى تشير إلى المعطى ، وتصف مباشرة خبرة متاحة أو ظواهر ، أو هى العبارات التى لا تحتاج إلى تسويغ وتصلح كأساس لبقية عبارات العلم »[2] ؛ موضوع العبارة الأساسية ، إذن ، هو الخبرة الحسية المباشرة ، وهى تمثل نقطة البدء فى النسق العلمى ، فهى المقياس الذى تقد عليه بقية عبارات النسق ، وإذا كانت هناك عبارات هذا شأنها ، فإن التعديل أو التصحيح لا يجد سبيلاً إليها .

ولكن كارناب أقر بأنه متردد حول الصيغة التى يجب أن تتخذها العبارات الأساسية ؛ إذ اعتقد بأنها يجوز أن تتألف من تعبيرات من قبيل « سعيد الآن » و « هنا كتيب الآن » أو ربما تدور حول مجالات حسية كاملة ، أو من ناحية ثانية ربما تشبه إلى حد بعيد الجمل العادية مثل « يوجد مكعب أحمر على المائدة »[3] . واعترض نيورات على هذه الصيغ التى قدمها كارناب للعبارات الأساسية اعتراضًا عامًا مؤداة أن أية صيغة من تلكم الصيغ لا يمكن أن تكون ملائمة للنسق بين الذاتى intersubjective فى العلم اللهم إلا إذا عرفت الإشارة إلى تعبيرات مثل « الآن » و « هنا » ، وعرفت هوية المتكلم ؛ وفى محاولة لاجتناب نقائص صيغ كارناب السابقة ، يقدم نيورات المثال التالى للعبارة الأساسية الكاملة : « بروتوكول أوتو Otto فى الساعة ١٧ : ٣ : (فى الساعة ١٦ : ٣ قال أوتو لنفسه : « فى الساعة ١٥ : ٣ هناك مائدة فى الحجرة مدركة من جانب أوتو »)[4] .

إذا أمعنا النظر فى مثال نيورات السابق ، ونظرنا فى مكونات العبارة القائلة : « يرى

(١) د . ياسين خليل ، مقدمة فى الفلسفة المعاصرة ، الطبعة الأولى ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، ١٩٧٠ ، ص ٣٤١ .

(٢) - Passmore, J., A Hundred Years of Philosophy, London: Penguin Books, 1984, pp. 376 - 377.

(٣) - Hanfling, O., Logical Positivism, p. 80.

(٤) - Neurath, O., "Protocal Sentences", translated by G. Schick, in Logical Positivism, edited by A. J. Ayer, p. 202.

محمد الآن كتابًا صغيرًا على المكتب » ، لكان بوسعنا القول بأنه لكى تكون العبارة أساسية يجب أن تتوافر فيها العناصر الآتية :

١ - الشخص الملاحظ (وهو فى مثالنا « محمد ») .

٢ - زمن الملاحظة (الآن) .

٣ - الشيء الذى هو موضوع الملاحظة (الكتاب الصغير) .

٤ - المكان الذى يشير إليه الشخص فى ملاحظته (على المكتب) .

وبالإضافة إلى الخلاف السابق بين نيورات وكارناب حول بنية العبارات الأساسية ، هناك خلاف آخر حول زعم كارناب فى تعريفه للعبارة الأساسية الذى أسلفناه ، والذى يدعى فيه أنها لا تحتاج إلى تسويغ مما يجعلها لا تقبل التعديل ، أى أن كارناب قد أضفى على هذه العبارات نوعًا خاصًا من اليقين وبالتالى فإنها تقدم الأساس الصحيح المكين للمعرفة .

ويوضح اير هذا اليقين الخاص بالعبارات الأساسية عندما يقرر أن المرء يمكن أن يقع فى خطأ حقًا حول خبرات سيحصل عليها فى المستقبل ، أو حتى التى حصل عليها فى الماضى ، ولكن لو أعلن المرء فحسب أنه يسجل خبرة يحصل عليها بالفعل ، فلا توجد إمكانية للخطأ ؛ وطالما أن المرء يستطيع أن يكذب ، فربما تكون عبارته كاذبة ، ولكن المرء لا يستطيع أن يكون شاكًا أو مخطئًا حول صدقها ؛ فإذا كانت كاذبة ، يعرف المرء أنها لابد من أن تكون كذلك ؛ والطريقة التى توضع بها هذه الفكرة أحيانًا هى القول بأن العبارات من هذا النمط لا تقبل التعديل(١) ؛ وإلى جانب رأى كارناب فى يقين العبارات الأساسية ، ذهب شليك إلى أن العبارات الأساسية هى العبارات التى حازت يقينًا مطلقًا ليس موضعًا لشك ، وذلك لأن النظرية والواقع يصبحان فى اتصال مباشر أحدهما بالآخر فى هذه العبارات(٢) .

ولكن نيورات لا يقبل القول باليقين المطلق للعبارات الأساسية كاشفًا بذلك عن الخلاف الثانى ، الذى ألمحنا إليه ، بينه وبين كارناب ، كما يقيم خلافًا كذلك بينه وبين شليك الذى أيد رأى كارناب ، يقول نيورات : « لا توجد عبارة تتمتع بالحصانة noli

---

(١) - Ayer, A. J., "Introduction" to Logical Positivism, edited by A. J. Ayer, p. 18.

(٢) Delfgaauw, B., Twentieth - Century Philosop hy, translated into English by N. D. Smith, Dublin: Gill and Macmillan, 1969, p. 147.

me tanger التى أمر بها كارناب للجمل الأساسية »[1] ؛ وهكذا يرفض نيورات رأى كارناب وشليك لأنه اعتقد أن رأى كارناب يمثل محاولة للوصول إلى المطلق الثابت ، وهى محاولة ميتافيزيقية مرفوضة من جانب نيورات ، كما أن رأى شليك ينطوى على تعبيرات مثل « اليقين المطلق » و « اليقين الذى لا يخالطه شك » التى تكشف عن جانب ميتافيزيقى لابد من رفضه أيضًا .

وأشار كواين إلى الخلاف بين أعضاء جماعة فينا على العبارات الأساسية قائلاً : « فى سنة ١٩٣٢ تقريبًا كان هناك جدل فى دائرة فينا حول ما يعد جمل ملاحظة أو جمل أساسية ؛ كانت هنالك وجهة نظر تقول بأن لها صيغة تقريرات عن الانطباعات الحسية ، وهناك وجهة نظر تقول بأنها عبارات من نوع عنصرى elementary حول العالم الخارجى مثل « يوجد مكعب أحمر على المائدة » ، وهناك وجهة نظر تقول – وهى وجهة نظر اوتو نيورات – إن هذه الجمل لها صيغة تقريرات عن علاقات بين الذوات المدركة والأشياء الخارجية مثل « يرى محمد الآن مكعبًا أحمر على المائدة » ، وأسوأ ما فى هذا الجدل هو أنه لا توجد طريقة موضوعية لحسم المسألة »[2] .

لقد تنبه بعض الباحثين حقًا إلى الصلة بين العبارات الأساسية عند جماعة فينا وجمل الملاحظة عند كواين ، يقول « هوكوى » إن الجمل الأساسية تناظر تقريبًا جمل الملاحظة عن كواين[3] ، ويقول « لى » : « تقوم جمل الملاحظة فى نظرية كواين بالدور الذى قامت به الجمل الأساسية فى الوضعية المنطقية المبكرة ، ولكنها مبسوطة فى شكل أقل دوجماطيقية ووضعية إلى حد كبير ، ومعرفة بوضوح إلى حد بعيد »[4] ؛ والحق أن عبارة « لى » أكثر دقة فى رأينا لأنه ألمح إلى جانبين هامين : الأول ، أن صياغة كواين لجمل الملاحظة أقل دوجماطيقية ووضعية من صياغة فلاسفة الوضعية المنطقية المبكرة (أى جماعة فينا) للعبارات الأساسية ؛ والثانى ، أن تعريف كواين لهذه الجمل أكثر وضوحًا وتحديدا من تعريف هؤلاء الفلاسفة للعبارات الأساسية ؛ وإذا تناولنا الأمر الأول ، وجدنا أن كواين يرفض القول باليقين المطلق للعبارات الأساسية ، ويرى أنه « لا توجد

---

(١) - Neurath, O., "Protocol Sentence", p. 203.

(٢) - O. R. & O. E., p. 85.

(٣) - Hookway, C., Quine: Language, Experience and Reality, p. 189.

(٤) - Lee, H. N., "Discourse and Event: The Logician and Reality", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 301.

عبارة مستثناة من التعديل »[1] . وهو بذلك يمثل اتجاهًا « أقل قطعية » من اتجاه جماعة فينا فيما عدا نيورات ، وبالإضافة إلى ذلك فعندما نقابل جمل الملاحظة بالعبارات الأساسية نجد أن العبارات الأساسية يمكن التحقق منها فرادى فى إطار مبدأ التحقق ، أما جمل الملاحظة فلا يجرى التحقق منها إلا فى نسق وذلك تبعًا لنزعة الكلية عند كواين ، وعلى هذا النحو ينظر كواين إلى جمل الملاحظة نظرة « أقل وضعية » من نظرة جماعة فينا إلى العبارات الأساسية .

وفيما يختص بالجانب الثانى الذى ألمح إليه « لى » فى تقريره عن صلة جمل الملاحظة بالعبارات الأساسية ، نجد أن جمل الملاحظة قد حظيت بتحديد واضح وتعريف أكثر دقة مما حظيت به العبارات الأساسية ، وسبق أن عرضنا بشىء من التفصيل محاولة كواين لتحديد جملة الملاحظة ، تلك المحاولة التى أفضت إلى وضع ثلاثة شروط يجب أن تتوافر فى الجملة لكى تكون جملة ملاحظة وهى : (١) أن جملة الملاحظة هى جملة مناسبة وليست جملة دائمة ، (٢) أن تكون قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتى ، (٣) أن تحظى بالموافقة من جميع المشاهدين فى المجتمع الكلامى الذى تقال فيه الجملة ؛ وإذا كان أعضاء جماعة فينا قد نظروا إلى العبارات الأساسية من الجانب المعرفى البرهانى باعتبار أنها الأساس الذى تقوم عليه بقية عبارات النسق العلمى ، فإن كواين قد قرر هذا وزاد عليه جانبًا آخر هو الجانب الدلالى ؛ إذ أنه يرى أن جمل الملاحظة تؤدى دورين أساسيين : أحدهما دلالى مؤداه أن هذه الجمل تمثل المدخل ونقطة البدء فى اكتساب اللغة ، والآخر برهانى مفاده أن هذه الجمل هى المدخل ونقطة البدء فى النظرية العلمية ؛ وهكذا نجد أن معالجة كواين لطبيعة جمل الملاحظة ووظيفتها أكثر تحديدًا ووضوحًا إذا ما قورنت بمعالجة جماعة فينا للعبارات الأساسية ، وأغلب الظن عندى أن كواين قدم بذلك طريقة موضوعية لحسم ما يمكن أن يظهر من خلاف حول جمل الملاحظة .

٢ - ٥ جذور الإشارة

إن الخطوة الحاسمة فى التطور والانتقال من تعلم الألفاظ البسيطة إلى تعلم العلم هى الإشارة إلى الموضوعات أو الوصول إليها ، ولكن متى تظهر الإشارة الموضوعية objective

---

(١) F.L. & P.V., p.43 -

عن predication يعتقد كواين أنها تحدث عندما يتمكن المتعلم من الحمل reference ؟ عن طريق التسوير quantification، أى أنها تقوم فى صورتها الواضحة فى جهاز للتسوير والمتغيرات ، ويقترح كواين أيضًا أننا نستطيع تقريب « أصول النشوء النفسى الحقيقى للإشارة » real psychogenesis of reference . عن طريق تقرير معقول عن الخطوات التى يمكن أن تقود الطفل الصغير أو الإنسان البدائى إلى التسوير[1] .

وإذا تساءلنا ما هو الطريق إلى الحمل ؟ لجاء رد كواين أن هناك موقفًا يسبق الموقف الحملى فى تعلم اللغة ، وفى هذا الموقف الأول نجد أن جميع الجمل هى جمل مناسبة وجميع الألفاظ هى « ألفاظ ملاحظة » observation terms ، وهذا يعنى أن الطريق إلى الحمل يمر بمراحل عديدة من استعمال اللغة ، ويقسم كواين ألفاظ الملاحظة إلى ثلاث فئات ، وأمثلتها هى :

١ - « أحمر » و « ماء » و « ثلج » و « سكر » .

٢ - « فيدو » و « ماما » .

٣ - « كلب » و « تفاحة » و « امرأة » .

وكل هذه الألفاظ متشابهة بالنسبة للطفل المتعلم طالما أن تكرار ظرف معين قابل للإدراك هو الذى يحث على نطق أى لفظ منها ، ومع ذلك فإن الفئات الثلاث تختلف اختلافًا هامًا بالنسبة لأسس إدراك الطفل ؛ ويوضح كواين التشابه بين الفئتين الأولى والثانية ، ويرجئ النظر فى الثالثة قليلاً ، إذ يقول : « وكثير مما قلته عن « أحمر » يمكن أن يقال أيضًا عن ألفاظ الجنس الإفرادى (ألفاظ المادة)[2] mass terms مثل « سكر » و « ماء » ، والشيء الهام المتعلق بلفظ الجنس الإفرادى أنه محصور من جهة المجموع ؛ فلا يؤلف القالبان معًا قالبًا ولا التفاحتان تفاحة ، ولكن عندما نضيف السكر إلى السكر فإن المجموع الكلى لا يزال هو السكر ، ومن هذه الناحية تسلك كلمات الألوان من قبيل « أحمر » مثلما تسلك ألفاظ الجنس الإفرادى ، زد على ذلك من وجهة نظر التعلم ، أن هذه الألفاظ متشابهة جميعًا بالفعل وتشبه ماما وفيدو أيضًا ، فهى جميعًا ألفاظ

---

(١) - R. of R., p. 100.

(٢) لفظ أو اسم يدل على مادة لا جمع له ولا يقبل العد .

ملاحظة ، وقابلة للتعلم على نحو إشارى ، وتعلم اللفظ فى كل حالة هو تعلمه عندما تتم الموافقة أو الاعتراض عليه باعتباره جملة مناسبة »(١) .

ولكن تباينًا يظهر بين الألفاظ فى الفئة الأولى والألفاظ فى الفئة الثانية ، إذ توجد اختلافات بالفعل بين (ماما) من ناحية ، و (ماء) أو (سكر) أو (أحمر) من ناحية أخرى ، وهى اختلافات هامة حتى على مستوى التعلم الإشارى ؛ فيمكن تقديم السكر بمقادير منفصلة متزامنة ، ويمكن تقديم الماء وأحمر كذلك ، ومن ناحية ثانية فإن ماما عندما تظهر بصورة تامة فإنها تكون منفصلة بوضوح ، أى أنها تشكل كيانًا قائمًا بذاته ما لم تحجبها بصورة جزئية أجسام أخرى مثل أية أداة من الأدوات المنزلية ؛ والاختلاف الآخر بين ماما وألفاظ الجنس الإفرادى هو أن ألفاظ الجنس الإفرادى بلا شكل ، فأساس التشابه لألفاظ الجنس الافرادى « سكر » أو « ماء » أو « أحمر » لا يملك شيئًا يتعلق بالشكل ، ومن ناحية ثانية فإن التشابه الذى يربط حالات الحضور المنوعة لماما هو مسألة شكل إلى حد كبير جدًا ؛ ومفاد هذا أن الألفاظ فى الفئة الأولى يمكن أن تظهر فى مقادير أو أجزاء متفرقة فى وقت واحد ، على حين يكون الشكل هامًا بالنسبة للألفاظ فى الفئة الثانية ، إذ أن ماما لا هى متفرقة ولا هى عديمة الشكل ، وإنما هى جسم .

وعلى الرغم من الاختلاف بين الألفاظ فى الفئتين الأولى والثانية ، فإن الألفاظ الواردة فيهما تتمتع ببساطة دلالية إذا ما قورنت بالألفاظ فى الفئة الثالثة ، وهذا يدل على أن الألفاظ التى تنطوى عليها الفئة الثالثة هى أكثر تعقيدًا بالنسبة لعملية التعلم ، وسوف نوضح هذه الفكرة فيما يلى .

تأتى البساطة الدلالية للألفاظ فى الفئتين (١) و (٢) من أن المتعلم يربط هذه الألفاظ بموقف ملاحظة قابل للإدراك والتمييز ولا يربطها بموضوع فيزيائى متشخص ، وهذا ما يقرره كواين فى مقال « الكلام عن الموضوعات » بقوله : « عندما نبلغ سن الرشد ننظر إلى أم الطفل بوصفها جسمًا تامًا يكرر زيارة الطفل ، فى مدار شاذ مغلق ، من وقت لآخر ؛ وننظر إلى اللون الأحمر بطريقة مختلفة بصورة جذرية ، أى باعتباره متفرقًا

---

(١) -R. of R., p. 52.

هنا وهناك ، والماء بالنسبة لنا يشبه اللون الأحمر إلى حد ما ، ولكنه لا يشبهه تمامًا ... ولكن الأم واللون الأحمر والماء هى جميعًا بالنسبة للطفل من نوع واحد ، فكل منها هو مجرد تاريخ للقاء متقطع وجزء متفرق مما يحدث ، وتعلمه الأول لهذه الكلمات الثلاث هو على نحو متسق مسألة تعلم إلى أى حد تعد الأشياء التى تجرى حوله أماً أو لونًا أحمر أو ماءً ، إن الطفل لا يقول فى الحالة الأولى : « أهلاً ، ماما مرة أخرى » وفى الحالة الثانية : « أهلاً ، شىء أحمر آخر » وفى الحالة الثالثة : « أهلاً ، ماء أكثر » ؛ وإنما هى جميعًا حالات متكافئة : أهلاً ، ماما أكثر ، وأحمر أكثر ، وماء أكثر »[1] ؛ وهكذا عندما ينطق الطفل لفظ « ماما » فى بداية تعلمه فى مناسبة معينة ، فإن نطقه له لا يدل فى مناسبة تالية على « ماما مرة أخرى » وإنما يدل فقط على « ماما أكثر » لأن لفظ « ماما » إذا كان يختلف عن « ماء » فى بعض الجوانب التى أشرنا إليها آنفًا ؛ فإنه يقتسم معه بساطة دلالية فى تعلمه عندما نقابله بأى لفظ من ألفاظ الفئة (٣) التى تعتمد فى تعلمها على مفهوم جديد هو التشخص individuation .

وعلى الرغم من اختلاف « ماما » و « أحمر » و « ماء » ، فإن جميع الألفاظ الثلاثة تشترك فى بساطة دلالية معينة عند مقابلتها بألفاظ من قبيل « كلب » ؛ ولقد تعلمنا هذه الألفاظ الثلاثة بقدر ما كنا قادرين فحسب على معرفة ما إذا كانت ماما وأحمر وماء (أشياء) حاضرة فقط أو بارزة فى المشهد ، ولكى نتعلم « كلب » يجب أن نتعلم شيئًا أكثر من الحضور ، إذ يتعين علينا أن نتعلم أيضًا القوة التشخصية individuative force، وقسمة الإشارة division of reference[2] .

وهكذا إذا أردنا أن يتعلم الطفل ألفاظ « كلب » و « تفاحة » و « حلية » وما جرى مجراها ، فلا يكفى أن يتعلم استعمال لفظ « كلب » مثلاً لتمييز حالات الحضور البارزة للكلاب عن حالات الحضور لأشياء أخرى ، وإنما لابد من أن يتمكن من قوة تشخص هذا اللفظ ، إذ يمكن أن تواجه الطفل مجموعة كثيرة من الكلاب فى وقت واحد ، وعليه أن يتعلم ما يعد كلبًا معينًا وما يعد كلبًا آخر .

---

(١) -O. R. & O. E., p. 7.

(٢) -R. of R., p. 55.

إن تعلم ألفاظ الفئة الثالثة يقدم الطفل خطوة أقرب إلى الإشارة الموضوعية بسبب التشخص ، ولكن نظرًا لأن الطفل المتعلم يستعمل الألفاظ فى هذه المرحلة بوصفها جمل مناسبة ذات كلمة واحدة ، فإنها لا تنطوى على حمل ؛ ويظل موقف المتعلم بعيدًا عن الحمل والإشارة الموضوعية حتى عندما يتعلم ما يطلق عليه كواين اسم مركبات الملاحظة observational compounds[١] ، فالطفل الذى تعلم « أصفر » و « ورقة » باعتبارهما من ألفاظ الملاحظة ، أى تعلم نطق أى لفظ منهما أو الموافقة عليه باعتباره جملة ملاحظة ذات كلمة واحدة ، يستطيع الآن أن يتعلم مركب الملاحظة « ورقة صفراء » .

ويذهب كواين إلى أن كل ما يفعله معلمنا لتحسين تدريبنا فى المركب « ورقة صفراء » هو إعاقة الموافقة فى تلك الحالات الأقل لفتًا للنظر حيث يكون الأصفر والورقة منفصلين[٢] و ويضيف ستراوسون : وتشجيع الموافقة عندما يتوافق أو يتزامن الأصفر والورقة[٣] ؛ ويجوز أن يكتسب الطفل مركبات وصفية أخرى من قبيل « كرة حمراء » و « أرنب أبيض » و « ابهام متقرح » ولكن الطفل يحتاج إلى تعلم شىء عام ألا وهو فن وضع مركبات وصفية خاصة به والاستجابة على نحو ملائم لمركبات وصفية جديدة[٤] .

على أن التكوين الوصفى كما فى « ورقة صفراء » إن يكن هو الطريق البارز لتكوين ألفاظ ملاحظة من ألفاظ ملاحظة فليس هو بالطريق الوحيد الذى يفضى إلى ذلك ،بل هنالك طرائق أخرى يشير إليها كواين مثل التركيب « ... فى ... » ،ولتوضيحه نفترض مثلاً أننا قد تعلمنا لفظ الحديقة فى بادئ الأمر بوصفه اسمًا مستقلاً لحديقتنا الخاصة ، تعلمناه بصورة متكافئة مع « أحمر » و « ماما » ثم نتعلم بعد ذلك المركب « ماما فى الحديقة » ؛ وبالإضافة إلى التركيب « ... فى ... » ، هناك تركيب آخر هو « شبه ... » الذى ينتج « شبه كلب » و « شبه شجرة » و « شبه تفاحة » بوصفها ألفاظ ملاحظة[٥] .

---

(١) - Ibid, p. 59.

(٢) - Ibid, p. 60.

(٣) - Strawson, P. F., "Reference and Its Roots", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hann and P. A. Schilpp, p. 524.

(٤) - R. of R., p. 60.

(٥) - Ibid, pp., 61-63.

وها هنا ينشأ السؤال الآتى : لماذا لا يبلغ الطفل مرحلة الحمل والإشارة الموضوعية عندما يتعلم « مركبات الملاحظة » ؟ والجواب عند كواين أن مركبات الملاحظة مثل « ورقة صفراء » ، والمكونة من ألفاظ ملاحظة ، هى بدورها ألفاظ ملاحظة بوضوح ، وربما ينظر إلى ألفاظ الملاحظة على أنها جمل ملاحظة ، ولقد نظرنا إلى « أحمر » و« ماما » وهلم جرا على أنها جمل ، ويجوز التعبير عنها أيضًا على نحو مسهب بالطريقة التالية : « هنا أحمر » و « هنا ماما » ؛ وقل مثل ذلك عن لفظ الملاحظة المركبة « ورقة صفراء » ، إنه يؤدى عمل جملة المناسبة « هنا ورقة صفراء » و « هذه ورقة صفراء »[1] ؛ فمركب الملاحظة إذن هو لفظ ملاحظة ، ويمكن أن يصلح بوصفه جملة ملاحظة ، ولكن هذه المرحلة لا تنطوى على حمل ، لأن الموافقة على « ورقة صفراء » تظل تتطلب حضور المثيرات الملائمة التى تعتمد على المناسبة ؛ ولا تبلغ مرحلة مركبات الملاحظة مستوى الحمل والإشارة الموضوعية حتى عندما يكون أحد الألفاظ الداخلة فى التكوين الوصفى متشخصًا ، كما هو الحال فى « كلب أسمر » أو يكون اسمًا كما هو الحال فى « فيدو مبتل » لأن الطفل لم يتعلم ربط اللفظين ربطًا حمليًا لكى يضع جملة ، وإنما تعلم فحسب ربط ألفاظ لوضع لفظ ملاحظة .

لو أننا تأملنا فى المرحلة التالية وهى مرحلة الحمل والإشارة الموضوعية ، لألفينا أن كواين يذهب إلى أن الطفل المتعلم لكى يصل إلى هذه المرحلة يجب أن يعبر هوة تفصل بين كل ما تعلمه حتى الآن – وما تعلمه هو جمل المناسبة وألفاظ الملاحظة – عن تعلم التركيب الحملى الثابت[2] eternalpredicationalconstruction الذى يتمثل فى الجمل الدائمة standing sentences أو الجمل الثابتة eternal sentences ؛ ولكى يعبر الطفل هذه الهوة يقترح كواين إقامة جسر عليها عن طريق آلية للتعلم تختلف عن الآليات التى عرضها فى المراحل السابقة .

ويميز كواين بين جمل المناسبة والجمل الدائمة حيث تعد الجمل الأولى معارضة للثانية ، والموافقة على جملة المناسبة لابد من أن يحث عليها من جديد – كلما وضعت الجملة موضع التساؤل – ما هو قابل للملاحظة الآن ، وبالتالى لا تملك الجملة ببساطة قيمة صدق بمعزل عن المناسبة ؛ أما الجمل الدائمة فتبقى حالما تتم الموافقة عليها ،

---

(١) - Ibid, p. 60.

(٢) - Ibid, p. 65.

بوصفها التزامًا دائمًا لفترة على الأقل ؛ ومن بين الجمل الدائمة ، هناك فى الدرجة القصوى ، الجمل الثابتة التى تكون قيمة صدقها ثابتة إلى الأبد بصرف النظر عن المتكلم أو المناسبة ، وربما تكون الجملة الثابتة عامة فى المضمون أو ربما تقرر حادثة محلية محددة ، وفى الحالة الأخيرة تكتسب الجملة تحديدها عن طريق استعمال واضح للأسماء ، والتواريخ أو العناوين ، والجمل الثابتة المميزة إلى أبعد الحدود للنظرية العلمية تكون عامة بطبيعة الحال(١) .

وإذا كان هناك اختلاف بين الموافقة على جمل المناسبة والموافقة على الجمل الدائمة أو الثابتة ، وهو اختلاف يترتب عليه تباين فى قيمة صدق كل منهما ، فإن آلية التعلم يجب أن تختلف أيضًا ؛ فماذا عسى أن تكون هذه الآلية الجديدة ؟

لقد تعلم الطفل بالفعل في حضور واضح للثلج الموافقة المتعلقة بالمناسبة ليس على « ثلج » فحسب ، بل على « أبيض » أيضًا ، وتعلم فى حضور فيدو الموافقة ليس على « فيدو » فحسب ، بل على « كلب » كذلك ، والآلية الجديدة للتعلم التى يقدمها كواين هى « تحويل الإشراط » transfar of conditioning، فنراه يقول : « والآلية التى اقترحها هى ، باصطلاح مألوف ، تحويل الإشراط ، لقد حدث إشراط الطفل للموافقة على التساؤل « أبيض » ؟ عندما تم تقديم الثلج ، ثم تتحول هذه الاستجابة من مثير الثلج إلى المثير اللفظى المرتبط به ، أى كلمة (ثلج) »(٢) ؛ مفاد الآلية الجديدة إذن هو التحول من « مثيرات الملاحظة » observational stimuli إلى « المثيرات اللفظية » verbal stimuli(٣) ؛ إذ ينتقل الطفل من الحالة التى يكون فيها حضور الثلج كافيًا لأن يحدث الموافقة على كلمة « أبيض » إلى الحالة التى يكون فيها تقديم كلمة « ثلج » كافيًا لأن يحدث موافقة على كلمة « أبيض » بصرف النظر عن حضور الثلج أو غيابه ، وهكذا يتعلم الطفل الموافقة على الجملة الثابتة « الثلج أبيض » ، وقل شيئًا كهذا عن تعلم الطفل الاستجابة للجمل الثابتة الأخرى مثل « فيدو كلب » ، فهو ينتقل من الموافقة على « كلب » فى حضور فيدو أو عند رؤيته إلى الموافقة على « كلب » عند سماع كلمة « فيدو » .

---

(١) - Ibid, p. 63.

(٢) - Ibid, p. 65.

(٣) - Grayling, A. C., An Introduction to Philosophical Logic, p. 197.

وهناك مثال آخر أكثر تعقيدًا للتركيب الحملى الكلى وهو « الكلب حيوان » ،وصورته (أ هو ب) أو (كل أ هو ب) ، فالموضوع هنا يشبه المحمول فى كونه لفظًا عامًا ، ومع ذلك فإن نموذج التعلم الذى يفرض نفسه هنا هو نفس نموذج التعلم فى الحالات السابقة ؛ لقد تعلم الطفل الموافقة على لفظ الملاحظة « كلب » عندما وضع السؤال فى حضور بارز للكلاب ، وتعلم الموافقة على « حيوان » بطريقة مماثلة عندما وضع موضع السؤال فى حضور بارز للكلاب (وإن كان ليس الكلاب فقط) ثم ينتقل الطفل عن طريق آلية تحويل الإشراط من الموافقة على « حيوان » فى حضور الكلاب إلى الموافقة على « حيوان » عند سماع كلمة « كلب »[1] .

ويذهب كواين إلى أننا نعتمد ، فى تعلمنا لفهم جمل الملاحظة واستعمالها ، بصورة مباشرة تمامًا على اعتبارات قيمة الصدق ، لأن هذا التعلم يكمن ببساطة فى تعلم الظروف التى تتم فيها الموافقة على الجمل أو الاعتراض عليها ؛ وعندما وصلنا إلى الجمل الثابتة لاحظنا مع بعض الشكوك أن هذه المعالجة ليست ملائمة طويلاً وذلك بسبب ثبات قيمة الصدق ؛ ولكننا نرى الآن أن تغير قيمة الصدق ارتد فحسب إلى مستوى رفيع من التجريد ، وربما يتحمل الحمل مسئولية قيمة صدق واحدة بالنسبة لكل ثبات ، ومع ذلك تضطلع الطريقة الحملية للتكوين بتغيير قيم الصدق ، فتنتج صدقًا لبعض الأزواج من الألفاظ وكذبًا للأزواج الأخرى ، وعلى الجملة عندما نتعلم اللغة فإننا نتعلم كيفية توزيع قيم الصدق ؛ ونحن نتعلم شروط الصدق ، فعندما نتعلم جملة المناسبة نتعلم فى أى الظروف تعد صادقة ، وفى أى الظروف تعد كاذبة ، ومتى نتعلم التركيب الحملى الثابت نتعلم كيفية الحكم بما إذا كان زوجان محددان من الألفاظ ينتجان حملاً صادقًا وصادقًا إلى الأبد أو ينتجان حملاً كاذبًا وكاذبًا إلى الأبد[2] .

على أننا لابد من أن نميز الجمل المفردة من قبيل « فيدو كلب » بوصفها جمل ثابتة عن الجمل المفردة الأخرى مثل « فيدو مبتل » التى هى جمل مناسبة ، والجملة « فيدو مبتل » تشبه الحمل الدائم « فيدو كلب » من ناحية صورتها النحوية ، ولكنها تنتمى

---

(١) R. of R., p. 65, N. of N.K., p. 76.

(٢) R. of R., p. 65.

من ناحية سيكولوجية تعلم الإشارة إلى المركبات الوصفية مثل « كرة حمراء » و « أرنب أبيض »[١] .

إذا كان الطفل قد تعلم الحمل الذى صورته (أ هو ب) أو (كل أ هو ب) ، فإننا نستطيع أن نتخيل بسهولة كيف يتعلم الطفل دوال الصدق truth function من قبيل النفى والعطف والانفصال ؛ فإذا أخذنا النفى ، لوجدنا أن الطفل يتعلم أن النفى (ليس أ) يكون ملائمًا حيث يكون الاعتراض على (أ) ملائمًا ؛ وإذا تناولنا العطف لألفينا أن الطفل يلاحظ شيئًا فشيئًا أن البالغ لا يثبت (أ و ب) إلا فى ظروف حيث يكون مستعدًا ، إذا سئل ، للموافقة على (أ) وعلى (ب) أيضًا ، أى أن الطفل يتعلم أن العطف يكون ملائمًا حيث يكون كل من المكونين ملائمًا ، ويتعلم أن الانفصال (أ أو ب) يكون ملائمًا إذا كان أى مكون من المكونين ملائمًا[٢] .

وهناك خطوة أخرى نحو الإشارة الموضوعية تظهر عندما يتعلم الطفل عبارة الصلة relative clause، والشىء الواضح بخصوص عبارة الصلة هو دورها فى الجمل ، ولنأخذ عبارة الصلة « الشىء الذى يتعقب ذيله » ونحملها على قط : « القط هو الشىء الذى يتعقب ذيله » ، وهذا مكافئ للجملة البسيطة « القط يتعقب ذيله » ، وعندما نحمل عبارة الصلة تكون نتيجة ذلك هى نفس نتيجة استبدال موضوع الحمل بالضمير « الذى » فى عبارة الصلة ؛ والاقتراح الذى يقدمه كواين فيما يتعلق بتعلم عبارة الصلة هو أن يتعلم الطفل عملية تحويل الاستبدال ، ويكتشف أن البالغ يكون على استعداد للموافقة على جمل عبارة الصلة فى ظروف حيث يكون مستعدًا للموافقة على الجملة البسيطة التى يتم الحصول عليها عن طريق الاستبدال[٣] . وعندما يصل المتعلم إلى الحمل الكلى وعبارة الصلة ، ودوال الصدق ، فإن القوة الكاملة للتسوير المنطقى تكون متاحة ، ويتقدم إلى المرحلة الأخيرة وهى إمكانية الإشارة إلى موضوعات مجردة ، وهذا هو ما تنجزه الألفاظ المجردة مثل « الأحمرار » .

وعلى الرغم من أن معالجة كواين لجذور الإشارة تكشف عن معقولية فى جانب كبير منها إلى الحد الذى يجوز معه القول بأن أى بحث فى الإشارة لا يمكن أن يغفل

---

(١) - Ibid, p. 67

(٢) - Ibid, pp. 75-78, N. of N. K., p. 77.

(٣) - N. of N. K., pp. 76-77, R. of R., p. 89.

بحث كواين فيها ، إذ « من المتعذر الكتابة عن الإشارة دون الإشارة إلى كواين ، فمن يفعل الأولى يفعل الثانية »[1] ، نقول على الرغم من ذلك ، فإن ستراوسون قائل العبارة السابقة يوجه بعض الانتقادات لبحث كواين فى الإشارة .

ذهب كواين إلى أن ألفاظ الفئة الثانية « فيدو » و « ماما » ، وهما من الألفاظ المفردة ، تتسم بالبساطة الدلالية إذا ما قورنت بألفاظ الفئة الثالثة « كلب » و « امرأة » وهما من الألفاظ العامة ، وترجع هذه البساطة الدلالية إلى أن تعلم ألفاظ الفئة الثالثة يتطلب من المتكلم فهمًا لمبادئ التشخص إذا أراد التمكن من هذه الألفاظ ؛ ولكن ستراوسون يعترض على هذا الترتيب للبساطة ؛ فإذا كان « فيدو » لفظًا مفردًا ، فليس كافيًا أن الطفل لن يلاقى أو يواجه بعدد من عمليات الحضور المتزامنة ولكنها منفصلة على نحو مكانى ومتشابة إلى حد كاف لكى تعد بالنسبة له عمليات حضور لفيدو ، وإنما يجب أن يمثل جانبًا من تمكنه أو فهمه لفيدو أن يكون فيدو فريدًا ؛ وفهم الطفل للفظ « فيدو » لابد من أن يستبعد تعدد الكلاب من فيدو ، أى يستبعد ذلك على نحو دلالى ، وإذا لم يستبعده ، فإن لفظ « فيدو » يكون متكافئًا دلاليًا مع لفظ « كلب » ، ويستحق أن يسمى لفظًا عامًا مثلما يستحق « كلب » تمامًا ، وإن كان محددًا بدرجة كبيرة بلا شك ؛ ولكن إذا استبعده ، فماذا نحن صانعون بالزعم القائل بأن « فيدو » أبسط دلاليًا من « كلب » ؟ يرى ستراوسون أن الإجابة بسيطة ومفادها أن نعكس العبارة فحسب ؛ إذ أن فيدو ليس فقط « أى » مخلوق يشبه فيدو ، وإنما هو فيدو الوحيد ؛ و « فيدو » أكثر تعقيدًا فى الاكتساب من كلب وليس بأقل منه ، « كلب » له تشخص و « فيدو » له تشخص أكثر[2] ؛ وخلاصة القول هى أن لفظ « فيدو » أكثر تعقيدًا فى التعلم من لفظ « كلب » لأنه يستلزم التشخص والتفرد معًا ، وتبعًا لذلك فإن ترتيب البساطة بين الفئة الثانية والثالثة لابد من عكسه إذا شئنا الإصرار عليه .

وينتقل ستراوسون من النقطة السابقة إلى نقطة أخرى فحواها أنه حتى لو كان كواين على صواب فى الاعتقاد بأن المتعلم لم يكتسب « كل » جهاز الإشارة الموضوعية عن

---

(١) - Strawson, P. F., "Reference and Its Roots". in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hann and P. A. Schilpp, p. 519.

(٢) - Ibid, p. 523.

طريق تمكنه من الألفاظ الواردة فى الفئات الثلاث السابقة ، ويمكن أن يستعمل تلك الألفاظ بوصفها جمل مناسبة ، فلا يلزم عن ذلك أنه قد أخفق فى التمكن من « بعض » هذا الجهاز ؛ ويرى ستراوسون أن جمل المناسبة ذات الكلمة الواحدة لها ثنائية معينة تمثل الحمل مسبقًا ، لأن هذه الجمل لن تكون قابلة لقيمة الصدق ما لم يوجد – بالإضافة إلى الجملة المنطوقة نفسها ذات الكلمة الواحدة – العنصر الضمنى « هنا – الآن » ؛ وبالتالى عندما يقول المتعلم « كلب » ، فإنه يقول فى الواقع « كلب هنا الآن » أى أنه يعبر تعبيرًا حقيقيًا عن « حكم » ملاحظة حول بروز فى محيطه الحسى ، ذلك الحكم الذى يكون قابلاً للموافقة عليه أو إنكاره من قبل الذين يشاركون المتعلم فى الحوار ؛ وبهذه الطريقة تتمتع جمل المناسبة على الأقل بخاصية حمل أولى ، والتى تقترب ، أو بالأحرى تمضى فى طريق طويل للاقتراب ، من الهوة الغامضة القائمة بين المستويات الممهدة للحمل والمستويات الحملية من الفهم الكامل للغة عند كواين(١) .

ومن السهل ابتكار تفسيرات لتعلم اللغة تكون نظرية أكثر من تفسير كواين ، فيجوز أن نفترض ، على سبيل المثال ، أن الطفل يستدل على نحو عقلى من معطيات الإدراك الحسى على ضوء نظرية فطرية عن العالم ونظرية فطرية عن اللغة ، وهذا النوع من التفكير ، الذى يجسده الاتجاه العقلانى عند تشومسكى ، ليس خلفًا محالاً ، وإنما هو مجرد تفكير أو نظر لا يقبل الاختبار الآن أو عما قريب ، أما تقرير كواين فهو أكثر حذرًا وبالتالى ينجو على الأرجح من التغييرات فى الشكل النظرى(٢) .

والحق أن رأى هارمان هذا ينطوى على قدر كبير من الصواب ، لأن نظرة فاحصة للتحولات والتغيرات ، ولا نقول التطورات ، التى يخضع لها المذهبين العقلى والتجريبى فى دراسة اللغة ، قمينة أن تنتهى بنا إلى نتيجة مفادها أن التغيرات فى المذهب الأول كثيرة للغاية إذا قورنت بنظائرها فى المذهب الثانى ، ولعل ذلك يرجع إلى أن أصحاب المذهب العقلى لطالما يطرحون نظريات فى دور الحدس والاستبطان فى معرفة المتعلم للغة ، ثم يعودون إلى رفضها وطرح بدائل أخرى ، وقل شيئًا كهذا عن كثير من المفاهيم

---

(١) - Ibid, p. 524, and Grayling, A. C., An Introduction to Philosophical Logic, p. 200.

(٢) - Harman, G., "Review of W. V. Quine's The Roots of Reference", Vol. LXXII, No. 13, 1975, pp. 389-390.

التى يرتكز عليها المذهب العقلى والتى سرعان ما تتلاشى عند الاختبار ، أما أنصار المذهب التجريبى فيقصرون تفكيرهم على الفروض التى يعرفون كيف يختبرونها .

٢ - ٦ الاختلافات بين المذهب التجريبى (كواين) والمذهب العقلى (تشومسكى)

حاول كواين أن يقدم تفسيرًا تجريبيًا سلوكيًا لاكتساب اللغة ، وإعادة بناء نظرية للخطوات التى يجوز أن تفضى بالطفل على نحو معقول إلى التمكن من الإشارة ، غير أن التفسير التجريبى لاكتساب اللغة قد لقى هجومًا من قبل كثير من النقاد وأشهرهم تشومسكى ، وإذا كان تشومسكى قد وجه نقدًا للسلوكيين من أمثال سكنر وبلومفيلد ، وقد قبل كواين بعض أفكارهما ، كما تبين لنا ، فإن هجومه يتحول بصورة طبيعية على كواين ، بالإضافة إلى انتقاداته المباشرة للافتراضات التجريبية فى فلسفة كواين[1] .

ولقد أسلفنا الإشارة إلى إحدى الأفكار التى تكشف بوضوح عن تباين آراء كواين عن آراء تشومسكى ألا وهى أن مفهوم الإشراط الإجرائى فى تعلم اللغة يواجه مأزقًا حرجًا إزاء مفهوم الإبداع اللغوى ، وذلك على أساس أننا نتمتع بقدرات تخول لنا أن نتجاوز خبراتنا اللغوية الماضية ونضع مجموعة لا متناهية من العبارات الجديدة التى لا نعول فى إبداعها على تلك الخبرات ؛ وقبل أن نعرض محاولة كواين للخروج من هذا المأزق ، يحسن بنا أن نلقى ضوءًا ساطعًا على فكرة الإبداع اللغوى ذاتها ، إذ أن توضيحها سوف يوضح بدوره أسس الخلاف بين المذهب التجريبى والمذهب العقلى فى دراسة اللغة وفلسفة العقل .

إن المتتبع لكتابات تشومسكى يجد أنه لا يترك فرصة يجدها ملائمة لنقد السلوكية إلا وشن عليها هجومًا يبدو عنيفًا ، وأول هجوم قام به تشومسكى على السلوكية هو ما نجده فى عرضه لكتاب سكنر « السلوك اللفظى » فى عام ١٩٥٩ ؛ ولقد أسلفنا الإشارة إلى أن سكنر ينظر إلى السلوك اللغوى ، مثل أى سلوك آخر ، باعتباره نتيجة لعملية التدعيم ، ويؤسس تحليله لهذا السلوك على تصور ضبط المثير الذى ينطوى على ثلاث عوامل هى المثير والاستجابة والتدعيم ، وهذا يعنى أنه ينظر إلى اللغة بوصفها عادة اجتماعية يتعلمها الإنسان بالطريقة التى يتعلم بها جميع العادات الاجتماعية الأخرى ،

---

(١) - Chomsky, N., "Quine's Empirical Assumptions", in Words and Objections, edited by D. Davidson and J. Hintikka, pp.53-68.

وهى الطريقة التى توضحها عوامل ضبط المثير ، ومن ثم لا يعول عالم اللغة السلوكى فى فهمه لعملية التعلم إلا على السلوك القابل للملاحظة .

بيد أن تشومسكى يرفض هذه الدعاوى التى تذهب إليها النظرية السلوكية ، ويرى أنها عاجزة عن تفسير قدرتنا على تعلم اللغة واستخدامها ، لأن الاستجابات اللغوية لا تخضع كلية لسيطرة المؤثرات الخارجية ، وإنما هناك أشياء أخرى تم اغفالها بسبب التركيز على هذه الجوانب الظاهرية التى تحيط بالمتعلم ، ومن خطل الرأى عند تشومسكى أن نطبق مبادئ التعلم التى أظهرت التجارب نجاح تفسيرها لتعلم الحيوان على تعلم الإنسان ، وسر ذلك أن اللغة واحدة من الخصائص المميزة لبنى البشر .

ويقرر تشومسكى أن الدراسة الدقيقة لكتاب سكنر « السلوك اللفظى » تكشف عن أن الدعاوى المشار إليها ، والتى حاول بها سكنر تفسير تعلم اللغة واستعمالها ، ليس لها ما يسوغها ، وتظهر أيضًا أن الآراء التى تم التوصل إليها فى معامل صاحب نظرية التدعيم ، مع أنها حقيقية تمامًا ، يمكن تطبيقها على السلوك الإنسانى المعقد فقط بطريقة سطحية وظاهرة للعيان تمامًا ، وأن المحاولات النظرية speculative لمناقشة السلوك اللغوى فى هذه المصطلحات وحدها تسقط من الاعتبار عوامل ذات أهمية أساسية ، والتى تكون بلا شك قابلة للدراسة العملية على الرغم من أنه لا يمكن صياغة سمتها المحددة صياغة دقيقة فى الوقت الحاضر ؛ وطالما أن عمل سكنر هو المحاولة الشاملة إلى أبعد الحدود لتكييف السلوك الإنسانى الذى يتضمن قدرات عقلية عالية داخل خطة سلوكية محكمة صارمة من النوع الذى لفت انتباه كثير من اللغويين والفلاسفة بالإضافة إلى علماء النفس ، فإن أهمية إخفاق هذه المحاولة لتفسير السلوك اللفظى تصلح ، فيما يرى تشومسكى ، كنوع لقياس أهمية العوامل التى تم اسقاطها من الاعتبار ، ودلالة على مدى ضآلة ما نعرفه بالفعل عن هذه الظواهر المعقدة بشكل لافت للنظر(١) .

وما فتئ تشومسكى يوجه الانتقادات للمذهب السلوكى على أساس أن المصطلحات العلمية التى يستخدمها السلوكيون فى أبحاثهم ما هى إلا تقليد سطحى للمصطلح العلمى

(١) - Chomsky, N., "A Review of B. F. Skinner's Verbal Behavior", in The Structure of Language: Readings in The Philosophy of Language, edited by J. A. Fodor and J. J. Katz, p. 549.

فى العلوم الطبيعية ، وليس أدل على سطحيتها من كونها قاصرة عن تفسير حقيقة اللغة الإنسانية ، يقول تشومسكى : « ويشارك علم اللغة الحديث فى وهم – واعتقد أن الكلمة دقيقة – مؤداه أن (العلوم السلوكية) الحديثة قد أنجزت ، فى جانب أساسى ، تحولاً من « النظر » إلى « العلم » وأن العمل السابق يمكن أن نودعه كاملاً لدى دارسى الآثار ؛ ومن الواضح أن أى شخص عاقل سوف يؤيد التحليل الدقيق والتجربة الحذرة ، بيد أننى أشعر بدرجة كبيرة أن (العلوم السلوكية) هى مجرد تقليد للجوانب السطحية فى العلوم الطبيعية ، وأن جانبًا كبيرًا من سمتها العلمية قد أنجز عن طريق تضييق مادة الموضوع والتركيز على قضايا سطحية إلى حد ما ؛ وهذا التضييق لمركز البحث يمكن تسويغه فقط إذا أفضى إلى انجازات ذات مغزى فكرى حقيقى ، ولكن فى هذه الحالة أظن أنه من الصعب للغاية إثبات أن تضييق المجال قد أدى إلى نتائج عميقة وذات مغزى »(١) .

ولعل إخفاق النظرية السلوكية ، التى ترتكز على أسس تجريبية ، فى تفسير تعلم اللغة فى نظر تشومسكى هو الذى دفعه إلى البحث عن مبادئ أخرى ، ووجد ضالته فى آراء المذهب العقلى عند ديكارت والفيلسوف واللغوى الألمانى وليم فون همبولت W. V. Humboldt(١٧٦٧–١٨٣٥)، ومناطقة القرن السابع عشر وهم انطون أرنو Antoine Arnauld ونيكول Nicole أصحاب كتاب « المنطق أو فن التفكير » والذى اشتهر باسم منطق بور رويال Port Royal؛ ويرى تشومسكى أن هناك عدة أسئلة تواجهنا عند دراسة اللغة من أهمها(٢) :

١ – ماذا نعرف عندما نستطيع تكلم اللغة وفهمها ؟
٢ – كيف تكتسب هذه المعرفة ؟
٣ – كيف تستعمل هذه المعرفة فى الكلام أو الكتابة ؟
٤ – ما هى العمليات العضوية التى تدخل فى تمثيل هذه المعرفة واكتسابها واستعمالها ؟

---

(١) - Chomsky, N., Langu age and Mind, enlarged edition, New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1972 p.xi.

(٢) نعام تشومسكى ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة د . حمزة بن قبلان المزينى ، الطبعة الأولى ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ ، ص ١٥ ، ١١٧ .

والسؤال الذى يعنينا هنا هو السؤال الثالث ، ويقسمه تشومسكى إلى جانبين : أحدهما جانب الإدراك والآخر جانب الانتاج ؛ وتتعلق مشكلة الإدراك بالكيفية التى نفسر بها ما نسمعه أو مانقرؤه وسوف نغض الطرف عن هذا الجانب ، أما مشكلة الانتاج فتتعلق بما نقوله وبالسبب الذى يجعلنا نقول ما نقول ، ويسمى تشومسكى هذه المشكلة بمشكلة ديكارت ؛ والفكرة المحورية فى هذه المشكلة هى المظهر الإبداعى لاستعمال اللغة ، ذلك المظهر المألوف والذى يشكل مع ذلك ظاهرة فريدة جديرة بالتأمل ؛ على أننا يجب أن نفهم أن تشومسكى عندما يستخدم كلمة « إبداعى » ، فإنه لا يعنى استعمال اللغة الذى له قيمة جمالية حقيقية ، والذى نسميه إبداعًا حقيقيا كما يتجلى فى كتابات فحول الشعراء والنوابغ من الروائيين والكتاب ، وإنما يعنى شيئًا عاديًا تمامًا ، أى الاستعمال العادى اليومى للغة الذى يتميز بخصائص معينة كالجدة والحرية من تحكم المثيرات الخارجية أو الحالات الداخلية ، بالإضافة إلى انسجامه مع الظروف التى يستعمل فيها وملاءمته لها ؛ وقبل أن نوضح هذه الخصائص ، يجدر بنا أن نلقى ضوءًا على كيفية ظهور هذه المشكلة فى فلسفة ديكارت .

نبعت مشكلة الكيفية التى تستعمل بها اللغة على الصورة الإبداعية الطبيعية فى سياق مشكلة العقل والجسم أو ما يسمى بمشكلة العقول الأخرى ، وقد اقترح ديكارت نظرية آلية للكون كانت اسهامًا أساسيا فى العلوم الطبيعية فى أيامه ، فكان يرى أن كل ما يحدث فى الكون المحيط بنا يمكن تفسيره عن طريق التصورات الآلية التى اقترحها ، أى فى إطار التفاعل بين الأجسام بصورة مباشرة ، وهى ما يمكن أن نسميه « بآليات التماس » ، وحاول ديكارت بواسطة هذه التصورات أن يفسر كل شىء ابتداءً من حركة الأجسام السماوية وانتهاءً بسلوك الحيوانات والجانب الأعظم من السلوك والإدراك الإنسانيين ، ويبدو أنه شعر بأنه حقق نجاحًا كبيرًا فى هذا المشروع وأنه لم يبق عليه إلا وضع التفاصيل لهذه التصورات الشاملة ، بيد أنه اكتشف أيضًا أنه لا يمكن أن تجد تجاربنا كلها مكانًا لها فى داخل هذا الإطار ، وأوضح الاستثناءات على الإطلاق ، كما يرى ، هو ما سميناه بالمظهر الإبداعى لاستعمال اللغة ، وهو موضوع يقع خارج فكرة الآلية ؛ ومن الأشياء التى يتصف بها الإنسان أنه يمكن أن يدرك بواسطة التأمل أن له عقلاً يختلف بقدر كبير فى خصائصه عن الأجسام التى يتكون منها العالم المادى ؛ ولنفترض الآن أننا نريد أن نرى ما إذا كان لكائن حى آخر عقل أم لا ، فينبغى فى هذه الحالة — كما يقترح

الديكارتيون – أن نقوم ببرنامج تجريبى معين هدفه أن نرى ما إذا كان هذا الكائن يتحلى بالخصائص المميزة للسلوك الإنسانى أم لا ، وقد كان المظهر الابداعى الخلاق فى استعمال اللغة أبرز أمثلة هذا السلوك لفتا للنظر(١) .

وتكمن المشكلة فى أن « الآلة » مجبرة على العمل بطريقة محددة حين توضع تحت ظروف معينة وتكون أجزاؤها مركبة بطريقة معينة ، وذلك على نقيض الإنسان حين يوضع تحت الظروف نفسها ، فهو فى هذه الحالة « يحث ويوجه » فحسب لكى يتصرف بهذه الطريقة ، ومن الممكن فى أغلب الأحيان أن ينفذ الإنسان ما يحث ويوجه لعمله ، بل إنه يتصرف على هذا النحو بصورة تكاد تكون دائمة ، لكن الأمر الذى نعرفه جميعا بالتأمل هو أن لدينا الخيرة فى هذه المسألة ؛ والفارق بين أن تكون مجبرًا وأن تكون محثوثًا أو موجهًا وحسب فارق جوهرى كما يرى الديكارتيون ، وهى نتيجة دقيقة للغاية ، ويبقى هذا الفارق جوهريًا وإن لم يظهر فى السلوك الفعلى ؛ ولو لم يكن الأمر على هذا النحو ، لأمكن أن يوصف سلوك الإنسان وصفًا دقيقًا فى الاطار الآلى ، لكن هذا الوصف لن يكون تحديدًا صحيحًا لصفات بنى البشر الأساسية ولا لمصادر سلوكهم(٢) .

ولو أردنا تفسير حقائق الكون التى لا تخضع لاحتمالات التفسير الآلى ، لتعين علينا أن نبحث عن مبدأ آخر غير آلى ، وذلك المبدأ هو ما يمكن أن نسميه بمبدأ الإبداع ، ومبدأ الإبداع هذا ، كما يقول الديكارتيون ، واحد من مبادئ العقل ، أى أنه « جوهر ثان » second sudstance تكون ماهيته الفكر ، ويكون منفصلاً انفصالاً كليا عن الجسم الذى هو موضوع التفسير الآلى(٣) .

ومن بين ملاحظات ديكارت القليلة عن اللغة ، والتى اعتمد عليها تشومسكى ومضى بها إلى ابعد نتائجها اللغوية ، الملاحظات الآتية : « إذا وجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أى حيوان آخر غير ناطق ، فإنه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات فى كل شىء ، فى حين أنه لو أن منها ما له شبه بأجسامنا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٢ وانظر :

- Chomsky, N., Language and Mind, p.6. and Chomsky, N., Cartesian Linguisics, New York and London : Harper & Row, 1966, pp. 3 - 30.

وكان يقلد من أعمالنا ما يمكن تقليده خلقيا ، لكان لنا دائما طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة ؛ أولى هاتين الوسيلتين هي أن هذه الآلات لن تقدر مطلقًا على أن تستعمل الكلمات أو أى إشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا ، ويمكن أن نتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وأن تنطق ببعضها بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييرًا فى أعضائها ، كأن تلمس فى بعض المواضع فتسأل عما يراد أن يقال لها ، وتلمس فى موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك ، ولكن لا يمكن أن نتصور أنها تنوع تأليف الألفاظ لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال فى حضرتها كما يستطيع أن يفعل أغبى الناس ؛ وأما الثانية فهى أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أى واحد منا بل قد تعمل خيرًا مما يعمل ، فإنها لابد من أن تفشل فى أعمال أخرى منها ما يتبين أنها لا تعمل عن علم ، ولكن بواسطة وضع أعضائها ، وعلى حين أن العقل آلة عامة يمكن استخدامها فى كل أنواع الطوارئ ، فإن هذه الأعضاء فى حاجة إلى وضع خاص لكل عمل على حده ... وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء أن يعرف الفرق بين الإنسان والحيوان ، لأنه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الأغبياء والبلداء ، حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة ، وأن يركبوا منها كلامًا به يجعلون أفكارهم مفهومة ، وعلى العكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملاً ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك ... (ومن ثم) فإن معرفة الكلام لا تحتاج إلا إلى شيء من العقل جد قليل »[١] .

وهكذا حاول ديكارت إثبات أن اللغة خصيصة إنسانية تميز الإنسان عن الحيوان وأن النوع البشرى يختلف اختلافًا أساسيا عن أى شيء آخر فى العالم المادى ، وأن الدليل الوحيد على أن جسمًا آخر يمتلك عقلاً مثل عقولنا ، وأنه ليس مجرد جهاز آلى ، هو قدرته على استعمال اللغة على نحو إبداعى .

ويحاول تشومسكى توضيح فكرة « الجانب الإبداعى فى استعمال اللغة » من خلال ثلاث ملاحظات هامة ، الأولى هى أن الاستعمال العادى للغة « ابتكارى innovative» بمعنى أن كثيرا مما نقوله خلال الاستعمال العادى للغة يكون جديدًا تمامًا ، وليس تكرارًا

(١) رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضيرى ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢٥٩ – ٢٦١ .

لأى شيء سمعناه من قبل ولا حتى مماثلاً فى النمط– بأى مغزى مفيد لكلمتى « مماثل » و« نمط » – للجمل أو الحديث الذى سمعناه فى الماضى ؛ وهذه حقيقة بدبهية ولكنها هامة ، وكثيرًا ما أهملت فى الفترة التى سيطر عليها الاتجاه السلوكى فى علم اللغة ، وذلك عندما زعم بشكل عام تقريبًا أن معرفة الشخص للغة تقبل التمثيل على أنها فئة مجهزة من النماذج التى تم تعلمها برمتها عن طريق التكرار المتواصل والتدريب التفصيلى ، مع كون الإبداع مسألة « تمثيل » analogy على الأكثر ؛ ومع ذلك فالحقيقة بالتأكيد هى أن عدد الجمل فى لغة المرء الأصلية التى سوف يفهمها المرء مباشرة ودون الشعور بصعوبة أو غربة هو عدد ضخم إلى حد لا يصدق ، وأن عدد الأنماط التى تكمن تحت استعمالنا العادى للغة وتناظر الجمل ذات المغزى والتى يمكن فهمها بسهولة فى لغتنا يقدر بمقدار أكبر من عدد الثوانى فى حياة المرء ، وبهذا المعنى يكون الاستعمال العادى للغة تجديديا ؛ ومن ناحية ثانية ، فإن السلوك الحيوانى ، فى وجهة النظر الديكارتية ، لا متناهى Infinite بشكل ممكن فى تنوعه ، وذلك بالمغزى الخاص الذى يمكن فيه القول بأن قراءات عداد السرعة لا متناهية فى تنوعها ، وهذا يعنى أنه لو كان السلوك الحيوانى محكوما بمثيرات خارجية أو حالات داخلية (وتتضمن الحالات الداخلية تلك التى يتم إثباتها عن طريق الإشراط) ، إذن كما تتغير المثيرات على طول مجال غير محدد ، فكذلك يتغير سلوك الحيوان ؛ ولكن الاستعمال العادى للغة ليس ابتكاريا ولا متناهيا بشكل ممكن فحسب ، بل هو متحرر أيضًا من تحكم المثيرات القابلة للاكتشاف ، سواء كانت خارجية أو داخلية ، وهذا هو محور الملاحظة الثانية التى توضح فكرة « الجانب الإبداعى فى استعمال اللغة » ، لأنه بسبب هذا التحرر من تحكم المثيرات ، يمكن أن تصلح اللغة وسيلة للفكر والتعبير الذاتى ، ليس بقدر ما تصلح للإنسان الموهوب بشكل استثنائى فقط ، بل بقدر ما تصلح أيضًا ، فى الواقع ، لكل إنسان عادى(١) .

ومع ذلك ، فإن الخواص المتعلقة بتحرر الكائن من تحكم المثير لا تتخطى بذاتها حدود التفسير الآلى ، ومن ثم فإن المناقشة الديكارتية لنقائص التفسير الآلى لفتت النظر إلى خاصية ثالثة للاستعمال العادى للغة ، أعنى تماسكه coherence وملاءمته appropriateness للموقف ، وهذا هو لب الملاحظة الثالثة ؛ وهذه الخاصية ، بطبيعة

---

(١) -Chomsky, N., Language and Mind, pp. 11 - 12.

الحال ، مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن التحكم عن طريق المثيرات الخارجية ، ونحن لا نستطيع أن نقول بأية طريقة واضحة ومحددة ما الذى تتوقف عليه « الملاءمة » و« التماسك » ، ولكن لا يوجد شك فى أن هذين المفهومين من المفاهيم ذات المعنى[١] .

ولكن هل يمكن أن نفهم على وجه الدقة ما يمكّن الإنسان من الكلام بطريقة ابتكارية ، ومتحررة من تحكم المثير ، وملائمة ومتماسكة أيضًا ؟ الجواب عند تشومسكى أن الأمانة تفرض علينا أن نسلم بأننا بعيدون فى الوقت الحالى ، مثلما كان ديكارت منذ ثلاث قرون خلت ، عن أن نفهم ذلك فهمًا دقيقًا؛ وهذه مشكلة خطيرة يجب أن يواجهها فى نهاية الأمر عالم النفس وعالم الأحياء، ولا يمكن توضيح وجودها عن طريق الاستشهاد « بالعادة » habit أو « الإشراط » conditioning أو « الانتخاب الطبيعى » natural selection[٢] .

أما وقد أوضحنا أبعاد فكرة « الجانب الإبداعى فى استعمال اللغة » أو الإبداع اللغوى التى تضع مفهوم الإشراط الإجرائى فى مأزق حرج ، فقد بقى علينا أن نوضح كيف حاول كواين الخروج من هذا المأزق ، وإلى أى حد نجح فى محاولته .

الحق أن كواين كان على وعى بهذا المأزق ، وحاول أن يجد مخرجًا منه عن طريق فكرة الاستبدال التمثيلى analogical substitution فنراه يقول : « إن جميع الجمل أو معظمها لا يتم تعلمها كجمل كاملة ، فمعظم الجمل مركبة بالأحرى من أجزاء تم تعلمها ، وذلك بطريقة تماثل الطريقة التى أدرك بها من قبل أن هذه الأجزاء تظهر فى جمل أخرى ربما تم تعلمها كوحدات تامة وربما لم يتم تعلمها كذلك ... ومن الواضح إلى أى حد يجوز أن تنشأ جمل جديدة من مواد قديمة وترتجل ببساطة فى مناسبات ملائمة بمقتضى التمثيلات ؛ فإذا تم إشراط الطفل مباشرة للاستعمال الملائم لـ« قدم » (أو هذه قدمى) بوصفها جملة ، و« يد » أيضًا ، و« قدمى تؤلمنى » كوحدة كاملة ، لجاز أن ينطق الطفل على نحو يمكن تخيله « يدى تؤلمنى » فى مناسبة ملائمة ، على الرغم من أنه لم يستعن بخبرة سابقة تتعلق بهذه الجمل الواقعية »[٣] .

ويتضح مما أسلفناه أننا نتعلم الجمل بطريقتين : (١) تعلم الجمل كوحدات كاملة

(١) - Ibid, p. 12.

(٢) - Ibid, pp. 12 - 13.

(٣) - W. & O., p. 9.

عن طريق إشراطها المباشر لاثارات غير لفظية ملائمة ، (٢) انتاج جمل أخرى من جمل سابقة بواسطة الاستبدال التمثيلي[1] ؛ وهذا يعنى أن طريقة الإشراط الإجرائى تتصدر عملية اكتساب الجمل ، ثم تأتى طريقة الاستبدال التمثيلي بعد ذلك .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو : هل مفهوم الاستبدال التمثيلي أو التمثيل مفهوم يكفى لتفسير الخاصية الإبداعية للغة الإنسانية ؟ ثمة رأى يقول بأن « التمثيل مصطلح يغطى المشكلة ، وليس حلاً لها »[2] ، وثمة رأى آخر يقول إن التمثيل « فكرة غائمة غير واضحة أو محددة »[3] ، ونحن نميل إلى أنها فكرة ناقصة ولا تكفى بمفردها لأن تفسر القدرة على تكوين كل الجمل الجديدة من وحدات غير مترابطة فى الأصل ؛ إذ أن بناء الجمل عن طريق التمثيل لا يكون إلا فى مجموعة قليلة جدًا من جمل اللغة ، أما بقية الجمل اللامتناهية فيأتى إبداعها على غير مثال .

على أن الشىء الهام الذى يجب أن نلاحظه هو اختلاف رأى كواين عن رأى تشومسكى فيما يتعلق بمفهوم القدرة الإبداعية للغة البشرية ، فيذهب تشومسكى إلى أن هذه القدرة الإبداعية خاصية يتميز بها الإنسان عن سائر الكائنات الحية فضلاً عن تميزه بها عن الآلات متابعًا فى ذلك ديكارت كما أوضحنا ، أما كواين فيذهب إلى أن هذه القدرة لا تميز الإنسان عن الحيوان تمييزا جوهريا ، ويعتمد فيما يذهب إليه على التجارب التى أجريت على الشمبانزى .

لقد قام بعض العلماء مثل كيلوج Kellog وزوجته[4] بمحاولات لتعليم الشمبانزى اللغة الإنسانية ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وافترض العلماء أن السبب فى ذلك ربما يرجع إلى أن الشمبانزى لا يستطيع أن يتحكم فى شفتيه ولسانه ، أى أنه لا يملك جهازًا للنطق مثل الذى يتمتع به الإنسان ؛ وتغلب بعض العلماء على هذه العوائق العضلية عن طريق اللجوء إلى حيل أخرى تعتمد على وسائل بصرية يدوية بدلاً من الوسائل النطقية السمعية ، فلجأ ديفيد بريماك David Premak إلى قطع من البلاستيك كرموز تقوم مقام الكلمات ، الأمر الذى مكن الشمبانزى « سارة » من الكتابة عن

---

(١) Ibid, p. 9.

(٢) Davis, S., Philosophy and language, p. 147.

(٣) جون ليونز ، نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة د . حلمى خليل ، ص ٢٠٩ .

(٤) Kellog, W. N. and A. Kellog, The Ape and The Child, New York : McGraw - Hill, 1933.

طريق وضع هذه الرموز على لوحة ممغنطة ، واستطاعت سارة عن طريق التدريب أن تتعلم ما يزيد على مائة من هذه الرموز ، وأن تضع بعضها مع بعض فى نظام خاص لتكوين ما يشبه الجملة(١) .

وهناك شمبانزى تدعى « واشو » كانت تتعلم لغة الصم والبكم أو ما يسمى بلغة الإشارة الأمريكية ، وقد استطاعت « واشو » أن تتعلم أكثر من مائة علامة من علامات تلك اللغة قبل أن تواجه بعض الصعوبات فى ذلك عندما بلغت السادسة من عمرها ، بل استطاعت أن تستخدم هذه الرموز وتؤديها بتلقائية ، كما تمكنت من تفسيرها عندما صدرت عن سواها ، ومما يثير الدهشة أنها استطاعت أيضًا أن تألف سلسلة من هذه الرموز لم تصادفها قط من قبل ، وهذا يعنى أن « واشو » أظهرت قدرة على بناء تراكيب جديدة من وحدات منفصلة ، أى أظهرت قدرة إبداعية للغة(٢) .

يؤيد كواين هذه التجارب ويرى أنها تكشف فى جانب ما عن خطل القول بوجود حد فاصل بين الإنسان والحيوان ، فنراه يقول : « والتعارض الذى طالما لوحظ بين اللغة البشرية والإشارات الحيوانية هو الإنتاجية التوافقية combinatorial productivity للغة ، أى قدرة الإنسان على تأليف جمل جديدة لم يسبق لها مثيل من عناصر قديمة ، والاستجابة على نحو ملائم لهذه الإبداعات الجديدة ؛ غير أن « بريماك » يقرر أن الشمبانزى يجتاز أيضًا هذا الاختبار داخل حدود متواضعة ، وهكذا يتضح أن الانتاجية التوافقية فى اللغة لا تقدم حدًا فاصلاً بين الإنسان والحيوان ، وربما أخذت الإنسان حالة من الخيلاء والتباهى بأنه أول من وضع الانتاجية التوافقية للغة ، ولكن القدرة على تعلمها قد تكون واسعة الانتشار إلى حد بعيد ؛ ومع ذلك فليست الانتاجية التوافقية هى السمة الوحيدة التى ظهر أنها تميز الحديث المحكوم بالعقل عن أداء الحيوانات المدربة ، وإنما العامل الأساسى هو تلقائية الكلام التى لا يمكن التنبؤ بها ، إذ تظل الدوافع الحيوانية تعمل وراء سيل من الكلام البشرى ، ولكن نادرًا ما يتم اكتشافها بوضوح ؛ وحتى لو اختلفنا فى ناتجنا اللفظى عن شمبانزى « بريماك » فى الدرجة فقط وليس فى النوع ، فلايزال الاختلاف القاهر فى الدرجة هو الذى يغرى بالتفسيرات العقلية للسلوك اللفظى ، فقد

---

(١) انظر د . محمد عماد الدين إسماعيل ، الأطفال مرآة المجتمع ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) انظر جون ليونز ، نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة د . حلمى خليل ، ص ٢٥٥ .

أدرك سيل الكلمات على أنه تجل للحياة الداخلية عند المتكلم التى تتجاوز نطاق الدوافع الحيوانية »[١] ؛ ويرى كواين أن السبب فى ميل المرء فى وقتنا الحالى إلى التسليم بالمذهب العقلى فى تناول اللغة والقول بأن الفجوة بين الإنسان والحيوان كبيرة وعميقة إلى الحد الذى لا يستطيع الحيوان معه أن يتمكن من بعض خصائص اللغة الإنسانية مثل الإبداع اللغوى ، نقول إن السبب فى ذلك ، فيما يرى كواين ، لا يرجع إلى إدراك المرء للهوة الانطولوجية بين الإنسان والقردة بقدر ما يرجع إلى عدم الولاء لمعايير العلم الطبيعى ، وافتقاد الثقة فى قدرته على حل مشكلات الحديث العقلى[٢] .

يتضح لنا من هذا أن إيمان كواين الشديد بالعلم الطبيعى يجعله يدعم هذه التجارب وينظر إلى المستقبل ويعلق عليه آمالاً عريضة ، على حين يقلل تشومسكى من أهمية تلكم التجارب ، إذ يقول : « لو افترضنا ما يتعارض مع التوقعات الطبيعية ، كأن تكتشف الدراسات فى المستقبل إنه بإمكان القرود ، أو أنواع أخرى ، اكتساب لغة تشترك مع اللغة البشرية فى أهم خصائصها ... فماذا عسى أن يفيدنا هذا الكشف فى معرفة طبيعة اللغة البشرية وأصل نشأتها ؟ الجواب على ذلك هو : القليل جدًا »[٣] ؛ والحقيقة أن التجارب التى اجريت ولا تزال تجرى على القرود تثبت أن القرود تستطيع أن تتعلم بالفعل نوعًا من اللغة البشرية ، وتظهر قدرتها على اكتساب بعض الخصائص المميزة لهذه اللغة مثل خاصية الإبداع اللغوى التى أظهرتها القردة « واشو » وإن كان ذلك بصورة متواضعة ؛ وليس من شك فى أن ما جرى حتى الآن يعد مراحل أولى ، وأن المستقبل وحده هو الذى يملك فصل الخطاب فى هذه المسألة ؛ والشىء الذى نؤمن به هو أن مثل هذه التجارب يمكن أن تقدم لنا شيئًا كثيرًا فى فهم القدرات الذهنية بالنسبة للقرود ، وتزودنا بفهم أكبر وأعمق للغة البشرية .

وانطلاقًا من النظرة العقلية إلى اللغة ، يذهب تشومسكى إلى أننا إذا شئنا أن نفسر عملية اكتساب اللغة تفسيرًا صحيحًا ، فيجب أن نتخذ موقفًا مضادًا للاتجاهات السلوكية والتجريبية ، ويتطلب منا هذا أن نفترض أساسًا فطريا لتعلم اللغة ، وإذا كان الطفل

---

(١) - M. V. D., pp. 85 - 86.

(٢) - Ibid, p. 86.

(٣) نعوم تشومسكى ، « اللغة البشرية وأنظمة سيميوطيقية أخرى » ، ترجمة كاظم نعمة الحلفى ، ص٢٠٨ .

يستطيع اكتساب أية لغة إنسانية ، فإن تفسير هذه الحالة يكمن فى القول بأن الطفل يملك أصولاً عامة مشتركة بين جميع اللغات ، أى أن البنية الفطرية التى يولد الطفل مزودا بها تتألف من قواعد لتوليد الجمل فى اللغات التى يتم تعلمها ؛ ومع أن اللغات تختلف اختلافًا ظاهريًا ، فإن القواعد التحتية لجميع اللغات واحدة ، وهذه القواعد هى الكليات اللغوية (أو الأصول اللغوية المشتركة) linguistic universal؛ وهذه الكليات اللغوية ليست مكتسبة وإنما هى جزء من تكوين الكائنات البشرية ، أو قل إنها جزء من العقل ، وهى تشبه الأفكار الفطرية عند ديكارت وغيره من العقلانيين الذين تعود أصولهم إلى أفلاطون .

ودعوى الكليات اللغوية تجد بلا شك تأييدًا عند أتباع تشومسكى من العقلانيين ، ولكنها لا تحظى بشىء من القبول عند فلاسفة المذهب التجريبى مثل كواين الذى يشك فيها على أساس أن المشكلة التى تعترض سبيل هذه الدعوى تشبه مشكلة الدعاوى المتعلقة بترجمة اللغات ، فدعوى الكليات اللغوية تقرر أن هناك بنى نحوية معينة تظهر فى جميع اللغات ، ولكن كواين يجد أن المعطيات التجريبية لا تقدم – كما فى حالة الترجمة – دليلاً على هذه الدعوى الطموحة[1] .

مما سبق يتبين أن هناك اختلافًا واضحًا إلى حد ما بين كواين وتشومسكى ، وقد يزداد هذا الاختلاف وضوحًا إذا اكتفينا بالعناوين التى تحدد إطار فلسفة كل منهما وقلنا إن تشومسكى العقلانى والمعارض للسلوكية يقف قبالة كواين التجريبى والمتحصن بالسلوكية ، ونمضى أيضًا فى القول : « إن الاختلاف بين كواين وتشومسكى ليس تعارضًا لنظريات متنافسة منصبة على معطيات بعينها ، بل اختلاف على ما يعد معطيات ، وعلى المصطلحات التى نسلم بها لتمثيل المعطيات »[2] ، ولكن أبعاد هذا الاختلاف تتضح بشكل حقيقى وليس بشكل ظاهرى عندما نقابل أفكارهما فى مسائل محددة تندرج تحت عملية اكتساب اللغة .

إذا كان فرض الفطرية innateness يمثل أحد الركائز الأساسية فى عملية تعلم اللغة ،

---

(١) - M. R. on C. L. T., pp. 446 - 447.

(٢) - Ricketts, T. G. Rationality, Translation, And Epistemology Naturalized, Journal of Philosophy, Vol. LXXIX, No. 3, March 1982 p. 136.

فإننا لا نستطيع أن نقول هنا ببساطة إن تشومسكى يسلم ببنية فطرية ولا يسلم كواين بها ، لأن كواين يسلم بآلية فطرية لاكتساب التشابهات التى تعمل فى المرحلة قبل اللغوية والمراحل اللغوية على حد سواء ، وبالتالى فإن العناوين سلوكى - تجريبى وعقلانى يمكن أن تكون مضللة فى هذه النقطة ؛ وتسليم كواين أو تشومسكى بالآليات الفطرية هو على وجه التقريب تسليم بكائنات غير قابلة للملاحظة ، مثل الجزيئات أو الالكترونات ، من أجل تفسير الظواهر الفيزيائية ، وكلاهما يعتقد بأن البنى الفطرية مطلوبة لتفسير كيفية حدوث التعلم(١) .

على أن الشيء الذى يجب أن نلاحظه هو أن هذه البنى الداخلية التى تجيزها نزعة كواين التجريبية السلوكية ، لا تتعلق بحالات عقلية وإنما ترتبط بالجهاز العصبى للكائن الحى ، ومن ثم فإن فرض الفطرية عند كواين ليس عقليا وإنما هو مسألة استعدادات يجب تفسيرها فى نهاية الأمر فى حدود آلية فيزيائية للجسم ، أى أن كواين يفهم فرض الفطرية على نحو يختلف إلى حد ما عن فهم تشومسكى له .

وثمة اختلاف فى المصطلحات الفنية ، إذ ينسب تشومسكى إلى الأطفال « معرفة لغوية فطرية » ، على حين يمنحهم كواين « قدرات فطرية » ، وإن كان « ديفيس » يذهب إلى أن فرض الفطرية عند تشومسكى يمكن صياغته فى حدود القدرات دون أن ينقص ذلك من قوته التفسيرية(٢) .

ومع ذلك هناك تعارض حقيقى فيما يتعلق بالشيء الذى يكون فطريًا ؛ إذ تعمل آلية اكتشاف التشابهات عند كواين على المستويات قبل اللغوية بالإضافة إلى المستويات اللغوية للتعلم ، ويذهب كواين إلى أن الحيوانات تتمتع بها بالإضافة إلى الإنسان ؛ ومن ناحية ثانية يسلم تشومسكى بالقواعد الفطرية التى تعمل فى المقام الأول فى مرحلة تعلم اللغة ، وهذا القواعد الفطرية مقصودة بحيث تكون أنواعًا مميزة للكائنات البشرية ، وتشكل أساسًا للاعتقاد بأن هنالك كليات لغوية ، ويعتقد تشومسكى أن هذه البنى اللغوية مطلوبة لأنها وحدها التى تفسر قدرة مستعمل اللغة على إدراك المجموع اللا متناهى من الجمل النحوية ، وتفسر حقائق من قبيل السرعة التى يكتسب بها الأطفال اللغة ، أما كواين

(١) - Orenstein. A., Willard Van Orman Quine, p. 147.

(٢) -Davis, S., Philosophy and Language, p. 148.

فيبرهن أن هذه القواعد يمكن اكتسابها ، وأن الفهم التام السريع بشكل واضح من جانب الطفل يمكن تفسيره عن طريق ثقته أو تصديقه برصيد وافر من طرق التعلم قبل اللغوية وغير اللغوية مثل القدرة على اكتشاف التشابهات [١] .

ويمكن أن نخلص من هذا إلى نتيجة مفادها أنه على الرغم من أن كواين وتشومسكى يتفقان على نسبة قدرات فطرية إلى الطفل بغية تفسير اكتساب اللغة ، فإنهما يختلفان فى تصورهما لكم هذه القدرات ونوعها أيضًا ؛ على حين يرى كواين أن القدرات الفطرية توجد عند الإنسان وعند الحيوان أيضًا ، يجعل تشومسكى هذه القدرات سمات مميزة للإنسان دون غيره من الكائنات ؛ ويذهب كواين إلى أن القدرات الفطرية تكون ضرورية لتفسير التعلم بصفة عامة وليس لتفسير تعلم اللغة فحسب ، بينما ينظر تشومسكى إلى هذه القدرات على أنها لغوية على وجه الخصوص ؛ وعلى حين يظهر تصور كواين للقدرات الفطرية محدود النطاق حيث ينطوى على معيار التشابه أو مساحات الكيف الفطرية innate quality spaces نجد أن تصور تشومسكى لهذه القدرات يعد تصورًا واسع النطاق ؛ وعلى حين تشكل القدرات الفطرية عند تشومسكى جزءًا من العقل ، فإن هذه القدرات عند كواين ليست عقلية ، وإنما هى استعدادات يمكن معالجتها فى حدود الآلية الفيزيائية للجسم .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين المذهب التجريبى والمذهب العقلى فى دراسة اللغة ، فالرأى عندنا أن التعارض بينهما ليس تعارضًا حقيقيا بحيث لا يجد التوفيق بينهما سبيلاً ، وإنما الأقرب إلى الصواب القول بأن كل مذهب منهما يدرس الموضوع من جوانب غير الجوانب التى يتناولها المذهب الآخر ؛ وتبعًا لذلك يتعين على دارس اللغة أن يتخطى ما يبدو خلافًا ويسعى إلى الجمع بين الآراء الإيجابية فى المذهبين ، وهو بذلك ينظر إلى اللغة نظرة متكاملة ؛ فاللغة ليست فنًا اجتماعيا فحسب كما يرى أنصار المذهب التجريبى السلوكى ، وإنما هى أيضًا مرآة العقل كما يرى العقليون .

---

(١) - Orenstein, A., Willard Van Orman Quine, p. 148.

الفصل الثالث

مشكلة المعنى

٣ - ١ ما هو المعنى ؟

تجيء مشكلة المعنى بصفة عامة فى موضع الصدارة من المشكلات التى واجهت العقل الإنسانى ، إذ أن السؤال « ما معنى كذا » مطروح على الإنسان منذ القدم ، أى منذ أن بدأ يتواصل مع غيره من الناس وحاول إدراك العالم الخارجى من حوله ؛ ولعل الظاهرة الكلامية فى مجتمع لغوى معين من أكثر الظواهر إثارة لمشكلة المعنى ، وذلك لأن هناك علاقة حميمة بين المعنى والكلام أو اللغة عمومًا ، فليس ثمة لغة من دون معنى ، ومن بين التعريفات الدقيقة للغة نجد تعريف ابن جنى (المتوفى ٣٩١ هـ) الذى يقول فيه : « أما حدها (أى اللغة) فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[(١)] ؛ وتأتى دقة هذا التعريف من ابرازه لثلاثة ملامح من أهم ملامح اللغة ، الملمح الأول أن اللغة ظاهرة صوتية ، والثانى أنها ظاهرة اجتماعية ، والثالث أنها أداة للتعبير أو التوصيل ، وتوصيل المعنى هو الهدف الأساسى من وراء اللغة ، فنحن نتحدث لكى نعبر عن معنى أفكارنا ونستمع إلى غيرنا بغية اكتشاف المعنى الذى يهدفون إليه من وراء كلامهم ، ومن ثم يجوز لنا القول بأن اللغة صوت يعبر عن معنى .

وإذا كان السؤال عن المعنى من أقدم الأسئلة المطروحة على الفكر البشرى كما ألمعنا ، فلا عجب أن يقع هذا السؤال من الفلسفة فى صميم صميمها ، إذ تمثل الإجابة عليه المحور الذى يرتكز عليه البحث الفلسفى طوال تاريخه ليس هذا وحسب ، بل هو مجال يجذب إليه المشتغلين بحقول معرفية أخرى مثل علم اللغة الذى يشغل المعنى فرعًا كاملاً من فروعه ألا وهو علم الدلالة semantics، كما تتناول المعنى مجالات علم النفس والانثروبولوجيا والأدب أيضًا .

وليس أدل على كون المعنى يمثل قطب الرحى من الفلسفة من أننا لو نظرنا إلى قصة الفلسفة فى القرن العشرين ، ودع عنك الفلسفة فى عصورها القديمة والوسيطة والحديثة ، لوجدنا أنها قصة لفكرة المعنى على حد تعبير جلبرت رايل

---

(١) ابن جنى ، أبو الفتح عثمان ، الخصائص ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٣٤ .

(١٩٠٠-١٩٧٦)[١]، وإن شئت قل بعبارة أخرى إنه يمكن وصف الانشغال التام بنظرية المعنى على أنه مرض المهنة لفلسفة القرن العشرين الأنجلو سكسونية والنمساوية »[٢] .

ولكن على الرغم من توكيدنا على أن نظرية المعنى تقع من البناء الفكرى عند كثير من الفلاسفة المعاصرين عند حجر الأساس ، فإننا لا نغلو فى تقدير ذلك مثلما فعل « دميت » M. Dummett عندما قال : « يتعين على الفلسفة – كوظيفة أولى لها إن لم تكن الوظيفة الوحيدة – تحليل المعانى .. فنظرية المعنى .. هى أساس الفلسفة برمتها وليست نظرية المعرفة كما أضلنا ديكارت »[٣] ؛ وإذا كان ديكارت قد جانب الصواب فى التوحيد بين نظرية المعرفة والفلسفة ، فإن دميت قد وقع فى خطأ مماثل بتوحيده بين الفلسفة ونظرية المعنى .

على أن الاهتمام المحورى بالمعنى فى الفلسفة المعاصرة لم يشغل التيارات التحليلية فحسب ، بل شغل الاتجاهات غير التحليلية أيضًا مثل الفينومينولوجيا والبراجمانية والبنيوية ؛ وإذا كان السبب الأساسى للاهتمام بالمعنى فى الفلسفات غير التحليلية يرتكز على اقتناع بأن المعنى والخبرة مرتبطان كأشد ما يكون الارتباط ، وأن المعنى يتخلل الخبرة ، فإن الفلاسفة التحليليين قد اهتموا إلى حد بعيد بالمعنى اللغوى ، أى المعنى كما يتم التعبير عنه فى اللغة ، ولقد أظهر الفلاسفة التحليليون اهتمامًا بارزًا بالعلاقة بين المعنى والأنواع المتباينة من الظواهر القصدية مثل الاعتقاد ، والمواقف القضوية الأخرى ، والإدراك الحسى[٤] .

ولو أننا ضيقنا مجال الكلام عن المعنى فى الفلسفة بحيث يقتصر على فلسفة اللغة ، لوجدنا أنها تدرس عدة موضوعات يأتى المعنى فى موضع الصدارة منها ، أو قل إن

---

(١) - Ryle, G., "Introduction", in The Revolution in Philosophy, by A. J. Ayer (and Others), London: Macmillan & Co. LTD, 1956, p. 8.

(٢) - Ryle, G., "The Theory of Meaning", in C. E. Caton (ed.), Philosophy and Ordinary Language, Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1963, p. 128.

(٣) - Dummett, M., Frege: Philosophy of language, New York, Evanston, San Francisco, London: Harper & Row, 1973, p. 669.

(٤) - Follesdal, D., "Meaning and Experience", in S. Guttenplan (ed.), Mind and Language, Oxford: Clarendon Press, 1975, p. 25.

مشكلة المعنى تمثل قطب الرحى بالنسبة لفلسفة اللغة ، لأن فيلسوف اللغة لا يستطيع أن يتناول الموضوعات التي تشكل مجال بحثه تناولاً دقيقًا ، اللهم إلا إذا عمد أولاً إلى تحديد موقفه من المعنى ، ومن ثم لا سبيل أمامه سوى أن يطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة من قبيل : ما هى علاقة المعنى بتعلم اللغة ؟ وما هى علاقة المعنى بالإشارة ؟ وما هى علاقة المعنى بالصدق ؟ وما هى علاقة المعنى بالتواصل ؟ وما هى علاقة المعنى بالفهم ؟ وما هى علاقة المعنى بالترجمة ؟ وعلى أساس اختلاف الإجابات عن مثل هذه الأسئلة تختلف نظريات المعنى ، ولكن يبقى السؤال المحير : ما هو المعنى ؟

ولعل مصدر الحيرة التى تنتابنا إزاء فكرة المعنى هو أن كلمة « المعنى » كلمة رواغة ، لا يكاد الإنسان يمسك بطرف من أطرافها حتى تفلت منه ، وسر ذلك أنها كثيرة الأطراف ؛ وإذا كان التعريف الجامع المانع يدنو من المحال اللهم إلا فى المعانى الرياضية وما لف لفها ، فهو أشد استحالة فى تحديدنا لمعنى « المعنى » .

وإلى جانب الغموض الذى يكتنف كلمة المعنى ذاتها ، فإن هناك عوامل أخرى تحول بيننا وبين الإدراك الدقيق لها من بينها أن موضوع المعنى قد تناوله عدد من النظريات والآراء الدقيقة وغير الدقيقة على السواء ، واستخدمت فى دراسته مجموعة ضخمة من المصطلحات المتضاربة والمتداخلة حتى أن المعنى كاد يفقد أهميته وصلاحيته للدراسة ، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى غض النظر عن مشكلة المعنى واستبعادها من مجال البحث ، وخير شاهد على اضطراب المصطلحات وتداخل المفاهيم فى موضوع المعنى هو أن أوجدن وريتشارد فى كتابهما « معنى المعنى » قد جمعا ما لا يقل عن ستة عشر تعريفًا للمعنى ، أو قل اثنين وعشرين تعريفًا ، إذا أخذنا فى الحسبان ما أورداه من تقسيمات جزئية(١) .

ويشير « كاتز » – وهو من أبرز فلاسفة اللغة المعاصرين الذين اهتموا بمشكلة المعنى اهتمامًا جادًا – إلى وجود اتفاق عام على أن السؤال الأساسى فى علم الدلالة هو « ما هو المعنى » ؟ ، ولكن هذا الاتفاق سرعان ما يتلاشى بعد ذلك وتظهر الخلافات اللامتناهية

---

(١) ستيفن أولمان ، دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة وقدمه وعلق عليه د . كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٦٢ .

حول نوع الشيء الذى يكون معنى ؛ وهناك خلاف على مسائل من كل نوع بما فى ذلك المسألة الأساسية التى تتعلق بالتساؤل : هل يمكن أن نفيد من مفهوم المعنى أو نصنع به شيئًا ، أم هل سنكون فى وضع أفضل لو نحيناه جانبًا ومضينا فى سبيلنا من دونه ؟ فالذين ينظرون إلى المعنى باعتباره فكرة عديمة القيمة يتنازعون حول الطريقة التى يمكن بها استبعاده ، على حين أن أولئك الذين يعتبرون المعنى مفهومًا أساسيًا لا غنى عنه على الإطلاق يتنازعون حول الطريقة التى يمكن بها توضيحه توضيحًا ملائمًا [1] .

وإذا كانت مشكلة المعنى ذات أطراف كثيرة ومتفرقة ، وتناولتها مجالات معرفية متعددة ، فلا عجب أن يكون لها من التعريفات بقدر المحاولات التى سعت إلى تحديدها ، وكل تعريف من هذه التعريفات يجسد نظرية لها أنصارها وخصومها ، وسوف نشير إلى بعض نظريات المعنى فى فلسفة اللغة ، ونغض النظر عن المجالات المعرفية الأخرى التى عالجت المعنى .

يجمع « ألستون »[2] نظريات المعنى فى ثلاث نظريات هى النظرية الإشارية referential theory ونظرية الأفكار ideational theory والنظرية السلوكية behavioral theory ، وتذهب النظرية الإشارية إلى أن معنى التعبير هو ما يشير إليه ، وترى نظرية الأفكار أن معنى التعبير هو الأفكار التى ترتبط به أو تناظره فى ذهن المتكلم والمستمع ، أما النظرية السلوكية فتزعم أن معنى التعبير هو المثير الذى يستدعى نطقه أو الاستجابة التى يستدعيها التعبير بدوره ، ثم تتنوع المواقف داخل كل نظرية من هذه النظريات .

وهناك تصنيف آخر لنظريات المعنى يحصيها فى خمس نظريات هى :

١ – نظرية أفلاطون القائلة بأن المعانى هى النماذج الخالدة أو المثل .

٢ – نظرية لوك التى مؤداها أن المعانى هى الأفكار التى تدل عليها الكلمات .

٣ – النظرية القائلة إن المعانى هى الأشياء التى نجدها فى العالم ، أو إن معنى الاسم هو مسماه .

٤ – نظرية فتجنشتين القائلة إن معنى الكلمة هو مجموعة استعمالات الناس لها فى اللغة العادية .

---

(١) - Katz, J. J., Semantic Theory, New York: Harper & Row, 1972, pp. 1 - 2.

(٢) - Alston, W. P., Philosophy of Language, p. 11 ff.

٥ - النظرية السلوكية التى مفادها أن المعانى هى المثيرات التى تستدعى استجابات لفظية .

ولعلنا نلاحظ تشابهًا ما بين التصنيفين السابقين ، وإن كان التصنيف الثانى يوحى بأن احصاء نظريات المعنى قد يستلزم الحديث عن نظرية المعنى عند كل فيلسوف على حده ، وهذا أمر غير معقول [1] ؛ زد على ذلك أن التصنيفين السابقين قد أغفلا نظريات هامة فى المعنى مثل نظرية التحقق عند الوضعية المنطقية التى تذهب إلى أن معنى العبارة هو منهج التحقق منها سواء كان تحققًا فعليًا أو تحققًا ممكنًا ، والنظرية البراجماتية فى المعنى التى تقول ، فيما يرى بيرس ، إن معنى اللفظ أو العبارة هو الذى يوجه الإنسان أو يرشده إلى نوع من السلوك أو الفعل ، أى أن المعنى فى هذه الحالة ليس إلا مجموعة ما يمكن للإنسان أن يؤديه من سلوك أو أفعال ، مسترشدًا بالكلمة أو مهتديًا بالعبارة ، ومن ثم فإن ما لا يؤدى إلى سلوك معين أو عمل ناجح فى الحياة الخارجية ، يصبح بلا معنى ، ويعبر بيرس عن ذلك بقوله إن معنى الكلمة أو العبارة إنما يقع بأسره فى حدود دلالتها على ما يمكن أن يؤدى فى الحياة السلوكية بنجاح[2] .

وبالإضافة إلى التصنيفين السابقين لنظريات المعنى ، يقدم هارمان تصنيفًا ثالثًا يحدد من خلاله الطرق التى يتناول بها الفلاسفة مشكلة المعنى بثلاث طرق هى[3] :

١ - يعتبر كارناب ، واير ، ولويس ، وفيرث ، وهمبل ،وسيلارز ، وكواين وغيرهم ، المعنى مرتبطًا بالدليل والاستدلال ، وينظرون إليه على أنه دالة لمكان التعبير فى « الخطة المفهومية » conceptual scheme للمرء أو لدوره فى « لعبة لغة » استدلالية معينة .

٢ - يعتبر موريس ، وستيفنسون ، وجرايس ، وكاتز وغيرهم ، المعنى مسألة فكرة وإحساس أو انفعال يمكن أن يستعمل تعبير معين لتوصيله .

٣ - ينظر فتجنشتين ، وأوستن ، وهير ، ونويل سميث ، وسيرل ، وألستون وغيرهم ، إلى المعنى على أنه يملك شيئًا يتعلق بأفعال الكلام التى يمكن أن يستعمل التعبير لأدائها .

---

(١) د . محمود فهمى زيدان ، فى فلسفة اللغة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٩٦ - ٩٧ .

(٢) د . عزمى إسلام ، اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ، الطبعة الأولى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٩٧ .

(٣) - Harman, G., "Three Levels of Meaning", The Journal of Philosophy, Vol. LXV, No. 19. 1968, p. 590.

ويورد « هارمان » بعض الاعتراضات المألوفة على كل طريقة من الطرق السابقة على النحو التالى(١) :

(أ) لقد اتهمت النظريات من النوع الأول – التى تعتبر أن المعنى يتحدد عن طريق اعتبارات الدليل القائم على الاستدلال والقائم على الملاحظة – بتجاهل الجانب الاجتماعى للغة ؛ وقيل إن هذه النظريات تسلم بإمكانية اللغة الخاصة private language التى يجوز للمرء فيها أن يعبر عن أفكار دون أن يكون قادرًا على توصيلها للآخرين ، وهناك اعتقاد بأن هذه الامكانية محالة ؛ ويمكن إثبات أن – حتى لو اعتمد المعنى على اعتبارات علاقة الدليل – الفكرة الملائمة للدليل تستلزم موضوعية بين ذاتية ، والتى تتطلب إمكانية التواصل بين مختلف الناس ، ومن ثم يمكن إثبات أن المرء لا يستطيع تفسير المعنى عن طريق فكرة الدليل دون مناقشة أيضًا للمعنى فى التواصل ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، هناك استعمالات كثيرة للغة لا تنطبق عليها فكرة الدليل ، فإذا طرح المرء سؤالاً أو أعطى أمرًا ، فمن غير الملائم أن نبحث عن الدليل لما قيل .

(ب) وتتعرض نظريات النوع الثانى لنفس الاعتراضات التى تتعرض لها نظرية الأفكار .

(جـ) ونظريات النوع الثالث ، التى تعالج المعنى على أنه إمكانية فعل كلامى speech-act potential ، هى أيضًا عرضة للانتقاد ، على سبيل المثال ، أثبت تشومسكى ، متابعًا فى ذلك ديكارت وهمبولت ، أن هذه الطريقة (وربما الطريقة الثانية أيضًا) تتجاهل « الجانب الإبداعى فى استعمال اللغة » ، فاللغة توجد فى المقام الأول للتعبير الحر عن التفكير ، أما التواصل والاستعمالات الاجتماعية الأخرى للغة – فيما يرى تشومسكى – فتأتى فى المرتبة الثانية من حيث الأهمية .

وهناك مأخذان على تقرير هارمان السابق ، الأول أنه أغفل الإشارة إلى بعض النظريات الهامة مثل النظرية التصويرية picture theory التى يمثلها فتجنشتين المبكر فى كتابه « رسالة منطقية فلسفية » والتى مؤداها أن معنى التعبير هو ما يقوم بتصويره أو تمثيله ، أى أنه الواقعة التى يصورها التعبير أو حالة الأشياء التى يرمز إليها ، وذلك على أساس أن اللغة تصوير للواقع .

---

(١) - Ibid, pp. 590 - 592.

أما المأخذ الثانى فهو أن هارمان قد جانب الصواب عندما أورد بعض الانتقادات الموجهة إلى الاتجاه الذى أدخل كواين ضمن الفلاسفة الذين يمثلونه ، ومن بين هذه الانتقادات تجاهل الجانب الاجتماعى فى اللغة ، والتسليم بإمكانية اللغة الخاصة ، نقول إن هارمان قد جانب الصواب فيما يتعلق بكواين على الأقل لأن كواين يحفل بالجانب الاجتماعى للغة ، وسبق أن ألمحنا إلى هذا الجانب ، وبالإضافة إلى ذلك فإن كواين يرفض صراحة إمكانية اللغة الخاصة .

ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل القول فى نظريات المعنى فى علم اللغة ، وإنما حسبنا أن نشير إلى أن أهم هذه النظريات هى التحليل القائم على المصاحبة اللفظية collocational analysis ، وطريقة المجال الدلالى semantic field ، وطريقة التحليل العناصرى componential analysis، وبالإضافة إلى ذلك قام كاتز وفودر بمحاولات لتحليل عناصر معانى الكلمات من خلال النظر فى بنية المعجم .

ألمحنا إلى أن نظريات المعنى تتعدد بصورة يتعذر تصنيفها فى عدد محدود ، وسر ذلك ينتج إلى حد ما ، فى رأينا ، عن خلاف بين نزعتين متباينتين إزاء مشكلة المعنى ألا وهما النزعة المفهومية intensionalism والنزعة الماصدقية extensionalism . فالنزعة الماصدقية من ناحية تعد صورة من صور الشكية حول المعقولية العلمية لمحاولة توضيح مفهوم المعنى ، إذ يذهب أصحاب هذه النزعة إلى إمكانية تفسير الصورة المنطقية للجمل والتعبيرات فى اللغات الطبيعية تفسيرًا يقوم على أساس فكرة الماصدق دون الرجوع إلى مفهوم المعنى ، أما النزعة المفهومية من ناحية أخرى فتنظر إلى مفهوم المعنى باعتباره ضروريا لهذه المهمة[١] ؛ وتتجلى إحدى صور النزعة المفهومية فى المبدأ القائل بأن « الصورة المنطقية والمعنى شىء واحد ، والنظرية عن أحدهما نظرية عن الآخر » ، ويستلزم هذا المبدأ أن العلاقة بين المنطق واللغة تتلخص فى أن الكائنات أو الموضوعات التى تنطبق عليها قوانين المنطق هى معانى الجمل فى اللغة الطبيعية ، ومن هذه الوجهة من النظر يهتم المنطق ، من حيث هو فرع معرفى علمى يسعى إلى كشف الحجب عن قوانين الاستدلال الصحيح ، بتعيين الاطرادات فى سلوك الموضوعات الدلالية ، وتهتم النظريات الدلالية ، باعتبارها جزءا

(١) - Katz., J. J., Semantic Theory, p. 233.

من نظرية البنية اللغوية العامة ، بوصف بنية المعانى وصفا عميقا ومفصلا بغية تقديم تفسير لكل ملمح يتطلبه المنطق من أجل تقرير كامل عن قوانينه(١) .

وترتبط القضايا بجمل اللغة الطبيعية بالطريقة التى ترتبط بها المعانى بهذه الجمل ، الأمر الذى يفضى إلى الرأى القائل بأن القضايا هى معانى الجمل ، هو رأى يسعى كاتز إلى تأييده بطرائق شتى ، أما كواين ، باعتباره الممثل البارز للنزعة الماصدقية ، فيفصل فصلاً واضحًا بين نظرية المعنى ونظرية الإشارة على أساس أن النظرية الأولى تناقش أسئلة تتعلق بالمعانى ، والترادف ، والتحليلية ، وهلم جرا ، على حين تناقش النظرية الثانية أسئلة تدور حول الإشارة ، والصدق ، والانطولوجيا(٢) ، ويقتنع كواين اقتناعًا راسخًا بالأفكار التى تعالجها نظرية الإشارة ، بينما ينظر بعين الشك إلى الأفكار التى تنطوى عليها نظرية المعنى ؛ وإذا أخذنا فى الاعتبار هذا التمييز الذى يقيمه كواين بين نظرية المعنى ونظرية الإشارة ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى نظرية المعنى على أنها نسق من العبارات المخصصة للإجابة على مجموعة من الأسئلة حول علاقات معينة تربط الموضوعات اللغوية المتمثلة فى التعبيرات والجمل ، وننظر إلى نظرية الإشارة على أنها نسق من العبارات المخصصة للإجابة على مجموعة من الأسئلة حول علاقات معينة لموضوعات لغوية بالعالم ، ولتوضيح هذه الأوصاف يتعين علينا أن نبين أى العلاقات بين الموضوعات اللغوية تكون ملائمة لنظرية المعنى ، وأى العلاقات بين الموضوعات اللغوية والعالم تكون ملائمة لنظرية الإشارة ؛ وبيان هذا يأتى عن طريق تقديم الأمثلة ، فترانا نورد العلاقات « س ذات مغزى فى ل » ، و « س إعادة صياغة لـ ص » ، و « س مترادفة مع ص » ، و « س هى ص متناقضة » ، و « س هى ص تحليلية » ، و « س مشتركة لفظيًا مع ص » وهلم جرا ، بوصفها أمثلة للعلاقات التى تحفل بها نظرية المعنى ؛ ونورد العلاقات « ق تستوفى ك » ، و « ق ترمز إلى ك » ، و « ق تمثل ك » ، و « ق تدل على ك » ، و « ق صادقة بالنسبة لـ ك » وهلم جرا ، بوصفها أمثلة للعلاقات التى تهتم بها نظرية الإشارة . ومهما يكن من أمر الخلاف بين النزعة المفهومية والنزعة الماصدقية ، فقد كشف لنا عن تصور تمهيدى لموقف كواين من مشكلة المعنى ، فما الذى يقبله كواين من نظرية المعنى ؟ وما الذى يرفضه منها ؟

---

(١) - Katz., J. J., "Logic and Language: An Examination of Recent Criticism of Intensionalism", in Minnesota Studies in Philosophy of Science, Vol. VII, Language, Mind, and Knowledge, edited by K. Gunderson, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1975, pp. 36 - 37.

(٢) -L. P. V., P. 130.

٣ - ٢ نقد علم الدلالة العقلى :

٣ - ٢ - ١ رفض المعانى من حيث هى أفكار أو كائنات ذهنية

عالج كواين مشكلة المعنى من زاويتين ، الزاوية الأولى يمكن أن نسميها نقدية ، وشغلت المرحلة المبكرة من تفكيره ، وتجلت فى الكتابات التى ظهرت فى الأربعينات والخمسينات ، ونقد كواين من خلالها التصور العقلى للمعنى ، وكان الأمل يراود كواين فى تلك المرحلة فى أن يجد حلاً أو تفسيرًا تجريبيًا سلوكيًا لكثير من المشكلات المتعلقة بالمعنى ؛ أما الزاوية الثانية فيمكن أن نسميها بنائية ، وشغلت فترة تفكيره الممتدة من بداية الستينات وحتى كتابة هذه السطور ، وفيها يأخذ كواين بالتفسير السلوكى للمعنى والمشكلات المتعلقة بفلسفة اللغة بصفة عامة ؛ ولو شئنا أن نقدم تصورًا ملائمًا لمعالجة كواين لمشكلة المعنى ، فلابد من أن نضع فى اعتبارنا تطوره الفكرى هذا ، ولنبدأ أولاً بالزاوية النقدية .

إذا كنا قد ألمعنا إلى أنه لا توجد لغة دون معنى ، فذلك راجع إلى تصور أولى لعلاقة المعنى باللغة مفاده أن المعنى أساسى بالنسبة للغة ؛ فالمفردات اللغوية تكتسب معنى ما عند مستوى معين من التركيب ، وتدخل المفردات البسيطة ذوات المعنى فى تركيبات لغوية تكتسب معناها من معانى مكوناتها ؛ وتأتى أهمية المعنى بالنسبة للغة من كونه ضروريًا لكى تقوم اللغة بوظائفها ، ووظائف اللغة متنوعة وكثيرة ، ولكن الوظيفة التى تنازع سواها لكى تجئ منها فى الطليعة هى أن اللغة أداة للتواصل بين الذوات .

ويستلزم الفهم الكامل للغة أو التمكن منها معرفة معانى الوحدات الأساسية ذوات المعنى فى اللغة ، ومعرفة كيف يكون معنى المركب وظيفة لتلك الوحدات ؛ وعلى أساس هذه المعرفة يكون المتكلم الفصيح للغة : (١) قادرًا على بناء جملة قابلة للاستعمال بصورة نموذجية لكى تقول ما يود أن يقوله ، (٢) قادرًا على فهم ما يقوله المتكلم الآخر للغة ؛ وتلك حقيقة واقعة ، فالجزء الأساسى فى وصف اللغة هو تصوير بنيتها الدلالية ، أى وضع قائمة بمعانى وحداتها الأساسية ذوات المعنى وتخصيص المبادئ التى يتم بها تحديد المركبات عن طريق معانى عناصرها الأساسية بالإضافة إلى البنية ؛ وبطريقة مماثلة سيكون الجزء الحاسم من سيكولوجيا توصيل الكلام هو فحص العمليات التى عن طريقها يحدد

المستمع معنى ما قيل ؛ والمهمة الأساسية للتفكير الفلسفي في اللغة هي توضيح المفاهيم الدلالية[1] .

ويمكن أن نسمى مع « ألستون » هذا الهيكل أو التصور الموجز للغة « بالصورة النموذجية » ، وهى تحظى بقبول واسع النطاق من علماء اللغة والفلاسفة وآخرين يدور تفكيرهم حول اللغة ، على الرغم من أن الاختلافات الحادة سرعان ما تظهر برؤوسها عندما نحاول أن نكسوا هذا الهيكل باللحم ؛ كما أنها صورة تضرب بجذور عميقة فى تصور الحس المشترك للغة ؛ ويهاجم كواين مفهوم المعنى كما يقدمه علم الدلالة العقلى وبقدر ما تبرزه هذه الصورة النموذجية ؛ وأول اعتراضات كواين على مفهوم المعنى من المنظور العقلى هو رفض المعانى من حيث هى أفكار أو كائنات ذهنية ، ولكن ما الذى تقوله نظرية الأفكار مما يجعلها عرضة لهجوم كواين وغيره من فلاسفة وعلماء اللغة ؟

تذهب نظرية الأفكار إلى أن الكلمة تكون بمثابة علامة أو رمز على فكرة فى العقل ، وأن هذه الفكرة هى معنى الكلمة ، وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن معنى الكلمة هو الفكرة التى تصحب الكلمة فى عقل المتكلم ، والتى تستدعيها الكلمة ذاتها فى عقل المستمع لكى يتم التواصل بين الذوات .

ويقدم « لوك » التقرير الكلاسيكى عن نظرية الأفكار فى كتابه « مقال فى الفهم الإنسانى » حيث يقول : « إن استعمال الكلمات ، إذن ، يجب أن يكون رموزاً حسية للأفكار ، والأفكار التى تمثلها هى مغزاها المباشر والخاص »[2] ؛ وهنالك وجهة نظر محورية تشكل أساس هذه النظرية مفادها أن اللغة وسيلة أو أداة لتوصيل الفكر ، ويتكون الفكر من سلاسل متتابعة من الأفكار فى الشعور أو الوعى ، وليست الأفكار من الأمور المشتركة ، بل هى خاصة ، ولا يملك المرء سوى وسيلة للاقتراب من عملياته الفكرية ، ومن ثم لكى يوصل كل واحد منا أفكاره إلى الآخرين ، ترانا نحتاج إلى نسق من الأصوات والعلامات المتاحة بشكل بين ذاتى ، والتى ترتبط بالأفكار إلى درجة أنه إذا استعملها أى إنسان

---

(١) - Alston, W. P., "Quine of Meaning", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 49.

(٢) - Locke, J., An Essay Concerning Human Understanding, Vol. 2, Book 111, ch. 11, Sec. 1, p. 12.

إنسان استعمالاً ملائمًا فسوف يحث هذا الاستعمال أفكارًا مناسبة فى عقل انسان آخر ، وتبعًا لذلك فإن ما تعنيه الكلمة هو الفكرة التى ترتبط بها ارتباطًا مطردًا[1] .

وهكذا نرى أنه إذا شاءت هذه النظرية أن تجد لها سبيلاً إلى التطبيق بالنسبة لكل تعبير لغوى أو بالأحرى بالنسبة لكل مغزى قابل للتمييز لتعبير لغوى ، فلابد من أن توجد فكرة بحيث إذا استعمل أى تعبير بهذا المغزى ، فإنه يستعمل كعلامة على حضور هذه الفكرة ، وهذا يعنى أنه كلما استعمل التعبير بهذا المغزى ، فلابد من أن تتوفر عدة شروط هى :

١ – يجب أن تكون الفكرة حاضرة فى عقل المتكلم .

٢ – يجب أن يحدث المتكلم تعبيرًا لكى يجعل من يستمع إليه يدرك أن الفكرة موضوع البحث حاضرة فى عقله فى ذلك الوقت .

٣ – بقدر ما يكون التواصل ناجحًا ، يجب أن يستدعى التعبير الفكرة ذاتها فى عقل المستمع[2] .

وتتمع نظرية الأفكار ببعض المزايا ، بالإضافة إلى تفسيرها لمعنى التواصل بالصورة التى عرضناها ، إذا قورنت بنظريات أخرى فى المعنى مثل النظرية الإشارية ، ومن بين مزاياها أنها استطاعت أن تفسر بعض الصعوبات التى كانت تقف حجر عثرة فى سبيل النظرية الإشارية ، ذلك أن إحدى هذه الصعوبات كانت تقول بأن هنالك بعض الكلمات أو التعبيرات ذوات المعنى من دون أن تكون ذوات ما صدق مثل « الشجاعة » و« الكرم » ، و« بيجاسوس فرس اسطورى » ، فجاءت نظرية الأفكار لتزيل هذه الصعوبة بقولها إن معنى الكلمة يتخذ أساسه من الفكرة الحاضرة فى ذهن المستمع والمتكلم ولا يعول كثيرًا على الماصدق .

على أن هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل نظرية الأفكار ذاتها ، ولكن إحداها التى تجئ من سواها فى الطليعة هى أن « معنى الفكرة » الذى يصاحب الكلمة وينشأ فى عقل من يستخدمها هو نفسه معنى غامض غير محدد ، فماذا عساها أن تكون الأفكار ؟ هل هى الأفكار المجردة ؟ أم هى الحادثات والحالات العقلية ؟ أم هى الصور الذهنية كما يقول « لوك » فى بعض الأحيان ؟ أم هى شىء آخر غير ذلك كله ؟ فإذا قلنا بأن

(١) - Grayling, A.C., An Introduction to Philosophical Logic, Sussex: The Harvester Press,1982, p. 186.

(٢) - Alston, W. P., Philosophy of Language, pp. 23-24.

معنى الكلمة هو الفكرة المجردة ، لوجدنا أنه قول لا يقوم عليه برهان مقنع ، لأن الفكرة المجردة هى ذاتها غير محددة ، وها هو « تيلور » يشير إلى أن معنى كلمة « قط » لا يمكن أن يكون قطًا مجردًا أو الفكرة المجردة عن القط ، ولقد أشار بركلى (١٦٨٥ - ١٧٥٣) من قبل فى هجومه على نزعة التجريد عند لوك بأنه من المستحيل أن نتخيل مثلثًا مجردًا ، أى الشكل الذى له ثلاثة أضلاع ولكنه ليس متساوى الساقين ، ولا مختلف الأضلاع ، ولا متساوى الأضلاع ، ولا قائم الزاوية ؛ وشبيه بذلك فإن تصور الذى لا هو بنى ولا أسود ولا أبيض ، ... ، ولا هو فارسى ولا سيامى ولا منك (قط أليف لا ذيل له) ، ولا طويل الشعر ولا قصير الشعر ، ولا هو له ذيل ولا هو بلا ذيل ، وهلم جرا ، هو تصور مستحيل استحالة تتساوى مع استحالة المثلث المجرد ؛ إن مفهوم القط المجرد مفهوم محال ، ومن ثم فإن الاقتراح القائل بأن معنى « القط » هو فكرة مجردة ، أو فكرة مجردة عن القط ، هو اقتراح محال[١] .

أما إذا اعتبرنا أن معنى الكلمة هو الحادثة العقلية التى تصاحب استخدامها ، فإن ذلك لاينجو أيضًا من النقد على أساس أن كون الأفكار حوادث عقلية يتنافى مع القول بإمكان توصيل الأفكار إلى الآخرين ، فالأفكار بالمعنى الذى نتكلم به عنها ، بوصفها ما يتم توصيلها أوالوقوف عليها ، ليست فى الواقع حادثات عقلية على الإطلاق ، لأنها لو كانت كذلك ، لمااستطاع عدد من الناس أن يشاركوا فى تلك الأفكار ، أى تنتفى المشاركة الفكرية فى هذه الحال ؛ وهذا يعنى أنه إذا كان أصحاب نظرية الأفكار يذهبون إلى القول بأن افتراض الأفكار يوضح لنا كيفية التواصل بين الناس ، فإن نقاد هذه النظرية يرفضون النظر إلى الأفكار بوصفها حادثات عقلية ، إذ لو كانت كذلك ، لعجزت عن تفسير التواصل؛ زد على ذلك أن الأفكار ليست هى الصور الذهنية ، حيث توجد رموز ذوات معنى ومع ذلك لاتوجد صور ذهنية تناظرها مثل «المكان سداسى الأبعاد» و«الأنا»، كما أن هناك رموزًا تكون ذوات معنى، ويكون من الواضح أن الصور الذهنية المناظرة لها ليست لها معانى تلك الرموز مثل «العدالة» التى لاتعنى «امرأة معصوبة العينين تمسك بالميزان »[٢] .

---

(١) - Taylor, D. M., Explanation and Meaning, Cambridge : Cambridge University Press, 1970, pp. 139-140.

(٢) د . عزمى إسلام ، مفهوم المعنى ، دراسة تحليلية ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ، ١٩٨٥ ، ص ٥٩ .

وفضلاً عن هذه الانتقادات يقدم كواين انتقادًا آخر لنظرية الأفكار ، فإذا كانت هذه النظرية تذهب إلى أن الفكرة التى تشغل عقل شخص معين تنسخ منها نسخة أخرى فى عقل شخص آخر ، فإن كواين يرى أننا لا نستطيع أن نقول بسهولة كيف تكون النسخة المطابقة للأصل ، وأن هذا هو الإبهام فى نظرية الأفكار[١] .

وإذا كان الهدف المحورى من وراء افتراض الأفكار هو تفسير التواصل ، فإن كواين يذهب إلى أننا نستطيع توضيح طبيعة التواصل وحدوده إلى حد ما إذا نحينا جانبًا الفكرة الضبابية عن الأفكار ، وركزنا على الواقع الملموس والمرئى والمسموع ، فعندما نكتسب نحن ومن نتواصل معهم بعض الكلمات والعبارات فى حضور بعض الموضوعات ، فإن استعمالنا لهذه الكلمات والعبارات يتم انعاشه وفحصه بتواصل مؤقت مع نفس الذين نتواصل معهم أو مع آخرين يشبهونهم فى حضور حقيقى لهذه الموضوعات ذاتها أو موضوعات تشبهها ؛ على أن أساس التواصل يكون أقل بساطة ووضوحًا عندما يكون الشيء الذى أقوم بتوصيله - والمثال هنا لكواين - هو أن شخصًا ما سرق سيفًا قديمًا أشعر نحوه بارتباط وجدانى لأن زوج أمى قد استخدمه فى معركة « جيتيسبورج » ؛ إن الشخص الذى اتواصل معه يضيق بالمتاحف ، ولم يشاهد سيفًا ابدًا ، ولم تقع عينيه قط على زوج أمى ، ولم يشاهد هو ولا أنا سرقة ولا معركة ، وربما نفترض أنه لم يشاهد « جيتيسبورج » ، وفيما يختص بالارتباط الوجدانى ، يصعب أن يعرف المرء أين يبدأ ، ومع ذلك ، فليس من شك فى أن التواصل ناجح[٢] .

أما سبب نجاح التواصل رغم هذا فيرجع إلى أن الشخص الذى أتواصل معه يعرف كلمة « سيف » من سماعها ويرى الكلمة فى سياقات منوعة ويسمعها أو يراها موضحة بكلمات أو صور ؛ وأنا أعرف الكلمة من سماعها ورؤيتها فى سياقات « أخرى » وأسمعها وأراها موضحة بطرائق أخرى بما فى ذلك عمليات تقديم الشيء الواقعى ، أى السيف ؛ وترتبط هذه الطرق المنوعة لإدراك الكلمة عبر المجتمع فى شبكة متماسكة ، والتماسك لا يكون مصادفة لأن الشبكة تصحح ذاتها ، وعندما يرى التواصل وقد تلعثم عن طريق سوء استعمال الكلمة ، فإن الشخص الذى أساء الاستعمال يستعيد نشاطه ويتحول إلى

---

(١) - Q., p. 27.

(٢) - Ibid, p. 27.

جادة الصواب ؛ والفهم المقتسم لكل الكلمات فى مثالنا ، حتى « الارتباط الوجدانى » يجوز تفسيره بصورة مماثلة[١] ، نحن نعرف إذن الكلماتِ والعبارات ونفهمها من خلال سماعها من الآخرين أو رؤيتها واردة فى سياقات متباينة ، ونعرفها من ناحية ثانية عندما تكون مرتبطة بإشارة إلى موضوعاتها ، أى أن هذه المعرفة تأتى عن طريق السياق أو الإشارة ، ثم نتواصل مع الآخرين ، وهناك نقاط فحص موضوعية تضبط هذا التواصل ، ونحن نقتنع بأننا قد تواصلنا إذا استجاب من يشترك معنا فى الكلام بصورة ملائمة ، وكل ذلك يحدث فى الخارج دون أن نعول على الأفكار .

والحق أن أنصار المذهب السلوكى فى علمى النفس واللغة قد دأبوا على رفض الآراء التى يذهب إليها أصحاب المذهب العقلى ومن بينها النظر إلى المعنى بوصفه فكرة أو صورة ذهنية فى العقل ، وها هو بلومفيلد يرفض الحل العقلى لمشكلة المعنى ، على حين يؤيد النظرة السلوكية لها ، حيث يقول : « يعتقد أنصار علم النفس العقلى أن فى استطاعتهم اجتناب صعوبة تعريف المعانى ، لأنهم يعتقدون أن هناك عملية غير فيزيائية تحدث فى نفس المتكلم قبل نطق الصيغة اللغوية ، وهى التفكير ، والتصور ، والتخيل ، والشعور ، والرغبة ، وما لف لفها وجرى مجراها ، ويعتقدون أن السامع أيضًا عندما يستقبل الموجات الصوتية ، فإنه يخضع لعملية متكافئة مع العملية التى يخضع لها المتكلم ومتبادلة معها ، ومن ثم فإن صاحب وجهة النظر العقلية يستطيع تعريف معنى الصيغة اللغوية على أنها الحدث الذهنى المميز الذى يحدث فى كل متكلم ومستمع عند نطق الصيغة اللغوية أو سماعها ، فالمتكلم الذى ينطق كلمة تفاحة لديه صورة ذهنية للتفاحة ، وتستدعى هذه الكلمة صورة مماثلة فى ذهن السامع ، ويرى صاحب وجهة النظر العقلية أن اللغة هى وسيلة للتعبير عن الأفكار ، والمشاعر أو الرغبات ؛ أما صاحب وجهة النظر الآلية فلا يقبل هذا الحل لصعوبة تعريف المعانى ، إذ أنه يعتقد أن الصور الذهنية والمشاعر وما شابه ذلك هى مجرد ألفاظ عامة لحركات جسدية منوعة »[٢] .

وإذا كان بلومفيلد قد ذهب إلى آراء تنسجم مع آراء دائرة فينا ، فلا عجب أن ينظر إلى مصطلحات المذهب العقلى باعتبارها غير علمية ، ومن ثم فإنها لن تدوم طويلاً ،

---

(١) - Ibid, p. 28.

(٢) - Bloomfield, L., Language, London: George Allen & Unwin LTD, 1935, p. 142.

و« سوف يتعلم الجنس البشرى فى الأجيال القادمة أن الألفاظ القابلة للترجمة إلى لغة الفيزياء والعلم البيولوجى تكون قابلة للاستعمال فى أى علم ، وأن المصطلحات التى نحاول بها فى الوقت الحاضر الحديث عن أمور إنسانية – أى مصطلحات « الوعى » و« العقل » و« الإدراك الحسى » و « الفكرة » وهلم جرا ، وخلاصة القول مصطلحات المذهب العقلى والحياتية animsism– سوف يتم نبذها[١] ، ويؤكد بلومفيلد على ضرورة استبعاد الأفكار على وجه الخصوص عندما يقول : « ينسى دائمًا من ليسوا بعلماء لغة (اللهم إلا إذا تصادف وكانوا علماء طبيعة) أن متكلمًا يحدث صوتًا ، وينسبون إليه بدلاً من ذلك امتلاك أفكار غير محسوسة ، ويبقى بالنسبة لعلماء اللغة أن يظهروا بالتفصيل أن المتكلم لا يملك أفكارًا ، وأن الصوت فيه الكفاية »[٢] .

وإن كواين يساير بلومفيلد فى رفضه لفهم المعنى باعتباره فكرة أو كائنا ذهنيًا آخر ، ويذهب إلى أن أخطر ما يترتب على استعمال الأفكار هو أن من يستعملها يتوهم بأنه يملك شيئًا مفسرًا ؛ « إن الموضوع الذى يشير إليه الحد المفرد أو يسميه أو يدل عليه الحد العام يمكن أن يكون أى شىء تحت الشمس ، ومع ذلك ، جرى الزعم بأن المعانى كائنات من نوع خاص : معنى التعبير هو الفكرة المعبر عنها ؛ وهناك الآن اتفاق هام بين علماء اللغة المحدثين على أن فكرة الفكرة ، أى فكرة النظير الذهنى للصيغة اللغوية أسوأ من أن تكون عديمة القيمة بالنسبة لعلم اللغة ؛ وأظن أن أنصار السلوكية على صواب فى اعتقادهم فى أن الكلام عن أفكار هو عمل سىء حتى بالنسبة لعلم النفس ؛ وآفة فكرة « الفكرة » هو أن استعمالها ... يولد وهما بامتلاك شىء ما مفسر »[٣] .

والواقع أننا لو تتبعنا رفض كواين لتصور المعنى بوصفه فكرة أو صورة ذهنية ، لوجدنا أن هناك زاوية أخرى يظهر من خلالها هذا الرفض ، وهى زاوية فلسفية خالصة تتمثل فى الخلاف بين صورتين من صور التجريبية ، فالتجريبية بمغزاها المعاصر ، التى تمثل فلسفة كواين ذروتها ، ترفض من بين ما ترفض فى التجريبية الحديثة الاتجاه العقلى القائل

---

(١) -Bloomfield, L., "Language or Ideas"?, in J.J. Katz, (ed.): The philosophy of Linguistics, Oxford University Press, 1985, p. 19.

(٢) - Ibid, p. 23.

(٣) - F..L.P.V., pp. 47-48.

بوجود أفكار ، يقول كواين : « نظر التجريبي الرائد نظرة داخلية إلى أفكاره أما التجريبي الحديث فقد نظر نظرة خارجية إلى العرف الاجتماعي للغة ... لقد اضطر التجريبيون الرواد الذين اتجهوا إلى الداخل – هوبز وجاسندى ولوك وأتباعهم – إلى صياغة مقياسهم التجريبي عن طريق الرجوع إلى الأفكار ، وفعلوا ذلك بالإعلاء من شأن الانطباعات الحسية والاستهزاء بالأفكار الفطرية ، ومن ناحية أخرى عندما نجعل التجريبية تتجه نحو ما هو خارجي ، فإن « الفكرة » ذاتها تتحول إلى موضع شك ؛ ويصير الكلام عن الأفكار كلامًا لا يقنع ما لم نستطع إعادة صياغته فى حدود الاستعدادات للسلوك القابل للملاحظة »[1] .

ولقد ألمحنا فى مدخل هذه الدراسة إلى مقال كواين « خمسة معالم للتجريبية » والتى كان الملمح الأول فيها هو « التحول من الأفكار إلى الكلمات » ، ويشير كواين إلى أن هذا الملمح « هو اختيار سياسة الكلام – فى الابستمولوجيا – عن التعبيرات اللغوية حيث تكون ممكنة بدلاً من الأفكار ؛ لقد مارس الاسميون فى العصور الوسطى هذه السياسة بطبيعة الحال ، غير أننى افكر فيها على أنها تدخل التجريبية الحديثة فقط فى سنة ١٧٨٦ ، وذلك عندما كتب فقيه اللغة « جون هورن توك » John Horne Tooke مايلى : « إن الجزء الأكبر من مقال لوك ، أعنى كل ما يرتبط بما يسميه بتجريد الأفكار ، وتعقدها ، وتعميمها ، وعلاقتها ، الخ ، لا يهم إلا اللغة بالفعل » ؛ وكانت التجريبية البريطانية مكرسة للقضية القائلة إن الحس وحده هو المعقول ، أما الأفكار فلا تكون مقبولة إلا إذا قامت على انطباعات حسية sense impressions؛ ولكن « توك » أدرك أن فكرة « الفكرة » تتناسب تناسبا ضئيلا مع معايير التجريبي »[2] ، وعلى هذا النحو تتضافر السلوكية والتجريبية بمغزاها الحديث فى فلسفة كواين من أجل استبعاد « الأفكار » من دائرة البحث اللغوى الفلسفى والتركيز بدلاً من ذلك على « الكلمات » التى تقبل الملاحظة والفحص بين الذاتى .

٣ – ٢ – ٢ استبعاد المعاني بوصفها تمثل عالمًا خاصًا من الكائنات

يعتقد كواين أن مصدر الخطأ فى علم الدلالة العقلى يكمن فى نظرته إلى المعانى بوصفها

---

(١) -L. & P., p. 259.

(٢) -T. & T., pp. 67-68.

تمثل عالمًا خاصًا من الكائنات أو بالأحرى يجسد المعانى فى كائنات وسيطة ؛ وإذا كان كواين قد نهج نهج بلومفيلد وغيره من السلوكيين فى استبعاد المعنى من حيث هو فكرة أو صورة ذهنية ، فقد وجد أيضًا فى بنيوية بلومفيلد أساسًا علميًا يحتاج إليه لإعادة صياغة مشكلة المعنى فى الفلسفة مثل مشكلة المعنى فى علم اللغة ؛ وتجلى هذا النمط من المعالجة فى مقال « مشكلة المعنى فى علم اللغة » (سنة ١٩٥١) والكتابات الأخرى المرتبطة به مثل مقال « فيما يوجد » (١٩٤٨) ومقال « عقيدتان للتجريبية » (١٩٥١) .

ويذهب كاتز إلى أن مقال كواين « مشكلة المعنى فى علم اللغة » والكتابات المرتبطة به لها تأثير هام على فلسفة اللغة الحالية ، وتأثيرها أكبر بكثير مما ادرك بصورة عامة ، إذ ظهرت هذه الكتابات فى مرحلة حاسمة من تطور الفلسفة التحليلية المعاصرة ، فقبل ظهورها كان فلاسفة اللغة الذين يعملون داخل نطاق الفلسفة التحليلية يتناولون مشكلة المعنى بطريقتين : قدمت فلسفة اللغة العادية طريقة ، وقدمت التجريبية المنطقية الطريقة الأخرى ، نظرت الأولى إلى المعنى باعتباره شيئًا لابد من فهمه فى حدود كيفية استعمال الكلمات فى اللغة العادية على حين نظرت الثانية إلى المعنى على أنه شيء لابد من فهمه فى حدود القواعد الصورية للاستدلال المحددة فى اللغات الاصطناعية ؛ والطريقتان فلسفيتان تمامًا ، وتحث عليهما دوافع فلسفية خفية تتمثل فى حذف صور معينة من الميتافيزيقا ، زد على ذلك أن كل طريقة منهما يشوبها النقص إذا نظرنا إليها من وجهة النظر العلمية ، فالأولى لاحظت اللغة دون أن تحاول التنظير حولها ، ونظّرت الأخيرة دون محاولة لملاحظة اللغة(١) .

هنا تأتى إحدى اسهامات كواين فى فلسفة اللغة على نحو ما تتجلى فى محاولة ايجاد بديل لهذا الاختيار بين « طريقتين غير علميتين لموضوع علمى » وذلك عن طريق التساؤل عما يقوله العلم ذو الصلة الوثيقة بموضوع المعنى ، وهو فى هذه الحالة علم اللغة ؛ وكواين يستحق الإكبار لأنه جاء فى طليعة الذين سخطوا على أهلية فلسفة اللغة العادية والتجريبية المنطقية معًا للنطق بحكم فى مسائل هى من صميم علم اللغة ، وبالتالى فإن كواين كان فى مقدمة (وعبارة كاتز تقول : كان أول) الذين أدركوا الصلة الوثيقة لعلم اللغة بالفلسفة(٢) .

وليس من شك فى أن مثل هذا الحكم إذا كان يقع من كواين موقع الرضا ، فإنه

---

(١) -Katz., J.J., "Logic and Language: An Examination of Recent Criticisms of Intensionalism", p. 41.

(٢) - Ibid, p. 41.

لا يقع كذلك من فلاسفة التجريبية المنطقية وفلاسفة اللغة العادية ، ولعل الذى يرمى إليه كاتز من وراء هذا الحكم هو أن يضفى الشرعية على تناول علم اللغة لمشكلة المعنى ، فيجعل موضوع المعنى موضوعًا علميًا ثم لا يقصر البحث فيه على علم اللغة فحسب ، بل يقصره أيضًا على مدرسة بعينها هى مدرسة النحو التحويلى التى يسعى إلى تطويرها عن طريق أبحاثه الدلالية ؛ بيد أنه قد يكون من خطل الرأى أن ينظر المرء إلى معالجة علم اللغة لموضوع المعنى بوصفها المعالجة العلمية الوحيدة وما سواها لا يكون علميًا ، لأن موضوع المعنى كما ألمعنا ، موضوع مشترك بين عدة حقول معرفية متنوعة من قبيل علم النفس والانثروبولوجيا والأدب ، بالإضافة إلى الفلسفة وعلم اللغة ؛ زد على ذلك أن هنالك حوارًا متواصلاً بين هذه المجالات المعرفية جميعًا ولا يوجد بينها ما يمكن أن نسميه بالقطعية الابستمولوجية ، وهنالك شواهد كثيرة على ذلك منها تأثر بلومفيلد بالوضعية المنطقية ، وتأثر اولمان بالاتجاه النفسى الذى وجده عند اوجدن وريتشاردز ، وتأثر تشومسكى ، الذى مافتئ كاتز يرفع إليه آيات العرفان باعتباره إمامًا ومعلمًا له ، بديكارت وغيره من الفلاسفة العقلانيين .

ولكن ، ما الذى قاله علم اللغة عن المعانى فى الوقت الذى كتب فيه كواين مقالته « مشكلة المعنى فى علم اللغة » ؟ الجواب أن ما قاله علم اللغة عن المعانى هو ما قالته النظرية السائدة فى ذلك الوقت وهى النظرية التصنيفية taxonomic theory المتطورة داخل بنيوية بلومفيلد ؛ وإذا كانت السلوكية ذات السمات التجريبية الصارمة قد هيمنت على التصورات والمفاهيم اللغوية عند بلومفيلد كما أشرنا ، فلا غرو أن تحظى نظرية بلومفيلد عند كواين بقبول لا تحظى به نظرية أخرى فى تلك المرحلة من تفكيره .

لقد انقسمت ممارسة علماء اللغة التصنيفيين إلى مجالين هما النحو وصناعة المعجم ، وعندما نظر كواين فى الاستعمالات الأساسية لمصطلح « معنى » فى الممارسة العملية عند هؤلاء العلماء وجد سياقين تستعمل فيهما كلمة معنى ؛ السياق الأول « له معنى » ويشغل اهتمام النحوى ، والثانى هو « متشابه فى المعنى » ويشكل اهتمام المعجمى ، ثم يمضى كواين فى معالجة السياق الأول بروح المفهوم « ذو مغزى » ، ويعالج السياق الثانى بروح المفهوم « مترادف » ، وبالتالى يستبعد مفهوم المعنى باعتباره كائنًا وسيطًا عن طريق إثبات أن هذين المفهومين يمكن تناولهما دون الالتزام بالمعانى ، يقول كواين :

« ما يحدث في هذه الخطة هو أننا نختار سياقًا واحدًا للكلمة المحيرة « معنى » ، أى السياق (« متشابه فى » المعنى) ، ونقرر معالجة هذا السياق التام بروح الكلمة المفردة « مترادف » ، وبالتالى لا نغوى ببحث المعانى بوصفها كائنات وسيطة ؛ ولكن حتى على افتراض أن فكرة الترادف يمكن تزويدها فى آخر الأمر بمعيار مقنع ، فلاتزال هذه الخطة تعنى فقط بسياق واحد لكلمة معنى ، أى سياق « متشابه في المعنى » ؛ ولكن ، هل كلمة معنى لها سياقات أخرى تشغل علماء اللغة ؟ الجواب نعم ، هناك بقينا السياق « له معنى » having meaning، وهنا تجئ الخطة الموازية بالترتيب : نعالج السياق « له معنى » بروح الكلمة المفردة « ذو مغزى » significant، ونستمر فى صدنا عن الكائنات الزائفة التى تدعى المعانى »[١] .

والنتيجة التى يخلص إليها كواين من هذه الخطة هى أن ما فعلناه يختصر مشكلة المعنى الآن إلى زوجين من المشكلات لا يشار فيهما على أفضل الفروض إلى المعنى ، الأولى هى مشكلة فهم فكرة السلسلة ذات المغزى ، والأخرى هى مشكلة فهم فكرة الترادف[٢] .

يحاول كواين معالجة الاستعمال الأول لكلمة معنى ، أى « له معنى » عن طريق جعل مفهوم امتلاك المعنى مشابهًا لمفهوم التكوين الصحيح أو الصواب النحوى ، فنراه يقول : « والمغزى هو السمة التى من جهتها يدرس النحوى موضوع علم اللغة ، ويفهرس النحوى الصيغ القصيرة ويستنبط قوانين تسلسلها ، والناتج النهائى لهذا ليس أكثر ولا أقل من تخصيص فئة لكل الصيغ اللغوية الممكنة ، بسيطة كانت أو مركبة ، فى اللغة موضوع البحث ، أى فئة لكل السلاسل ذوات المغزى ، إذا قبلنا معيارًا متسامحًا للمغزى »[٣] .

ويرى كواين ، إذن ، أن المهمة الفريدة للنحوى فى اللغة (ل) هى تقديم تخصيص صورى بشكل محض لفئة من « السلاسل ذوات المغزى » من الفونيمات فى (ل) ، والمراد بذوات المغزى هنا هو أنها قابلة للوقوع فى المجرى العادى للكلام »[٤] ؛ فإذا كانت

(١) - F.L.P.V., p. 48.
(٢) - Ibid, p. 49.
(٣) - Ibid, pp. 48-49.
(٤) - Ibid, p. 52.

فكرة السلسلة ذات المغزى مطلوبة فى تحديد وظيفة النحوى ، فإنها قابلة للوصف - دون الاستعانة بالمعانى من حيث هى كذلك - على أنها تدل على أية سلسلة يمكن نطقها فى المجتمع اللغوى دون ردود فعل توحى بالغرابة[١] .

ثم يمضى كواين فى محاولته لاستبعاد المعانى ، فنراه يتناول الاستعمال الثانى لكلمة معنى وهو « متشابه فى المعنى » ، ويبحثه فى حدود الترادف ، وتكشف طريقة كواين لتناول مشكلة الترادف فى مقال « مشكلة المعنى فى علم اللغة » عن تأثره بالاطار العام لبنيوية بلومفيلد ، وذلك لأن الشروط التى يقبلها كواين لكى نقدم توضيحًا مقنعًا لمفهوم الترادف هى تلك الشروط التى استعملها البنيويون فى مدرسة بلومفيلد لمحاولة توضيح مفاهيم من قبيل « الفونيم نفسه » و « الجزء نفسه من الكلام »[٢] ؛ وعلى حين حاول بلومفيلد وأنصاره تحديد الفونيمات فى لغة معينة عن طريق طرح أسئلة من قبيل « هل هذا الصوت الكلامى phone قابل للاستبدال بالنسبة لذاك الصوت الكلامى دون أن يغير الكلمة إلى أخرى (بالطريقة التى يغير بها هذا الاستبدال كلمة butt إلى putt) ؟ » ، فإن كواين يعتبر من الواضح أننا لابد من أن نكون قادرين على تحديد علاقات الترادف عن طريق أسئلة موازية على المستوى الدلالى ، حيث يقول : « قامت معايير الاستبدال المسماه هكذا أو شروط القابلية للاستبدال بشكل أو بآخر بأدوار محورية فى النحو الحديث ، وبالنسبة لمشكلة الترادف فى علم الدلالة فإن هذا التناول يبدو أنه لا يزال واضحًا »[٣] .

بيد أن كواين يعود ويقرر أن صياغة مثل هذه الأسئلة الموازية من أجل تقديم معيار كاف للاستبدال بالنسبة للترادف أمر غير ميسور ، وإنما يتعين علينا أن نقدم مقياسًا نستطيع عن طريقه أن ننظر إلى صورتين لغويتين على أنهما مترادفتان فى حالة واحدة فقط وهى أن تحل إحداهما محل الأخرى فى مجموعة معينة من السياقات دون تغيير فى جانب ما ، وبالتالى فإن فكرة القابلية للاستبدال لصورتين لغويتين تفيد معنى فحسب بقدر تقديم الإجابة على سؤالين : ما هى السياقات التى يجب استعمالها ؟ وما هى

---

(١) - Ibid, p. 54.

(٢) - Katz, J.J., "Logic and Language: An Examination of Recent Criticisms of Intensionalism", pp. 58-59.

(٣) -F.L.P.V., p.56.

الجوانب التى لابد من أن تظل ثابتة عند استبدال التعبيرات المترادفة[(١)] ؛ ويمثل هذان السؤالان جانبًا من نقد كواين لمفاهيم الترادف والتحليلية ، إذ لا يمكن الإجابة على أى سؤال منهما دون الدوران فى حلقة مفرغة .

على أن أخطر ما فى محاولة مدرسة بلومفيلد ومحاولة كواين على السواء هو استبعاد الجانب الدلالى من النحو وذلك بوضع مبادئ النحو فى قالب صورى محض دون أية إشارة إلى المعنى ، وها هو كواين يقول : « إن مشكلة السلسلة ذات المغزى ... هى أحد جانبين يبدو أن مشكلة المعنى تنحل إليهما ، أى جانب امتلاك المعنى ؛ والحقيقة أن هذا الجانب من مشكلة المعنى بهذا الشكل المقبول تقريبًا يفسر بلا شك الميل إلى التفكير فى النحو على أنه جزء صورى غير دلالى فى علم اللغة »[(٢)] .

والحق أن تصور كواين للنحو تصور ضيق أكثر مما ينبغى ، الأمر الذى حدا بـ « هارمان » أن يبحث عن تصور بديل للنحو ووجده فى معالجة تشومسكى للنحو ، « ومن هذه الوجهة من النظر ، فإن ما يسميه كواين بالنحو ، أعنى تقديم وصف صورى لفئة من السلاسل التى يمكن أن تقع فى المجرى العادى للكلام ، ليس نحوًا كما يسمى بشكل صارم ، بل هو بالأحرى جزء من نظرية الأداء اللغوى »[(٣)] ؛ ولو أننا أمعنا النظر فى رد كواين على هارمان ، لوجدنا به اعترافًا ضمنيًا بقصور تصوره السابق للنحو حيث يقول : « غير أننى واصلت الإشارة بعد ذلك .. إلى أن هذه الكلمات الغامضة « قابلة لـ » و « عادى » تفسح المجال أمام النحوى لكى يشكل وظيفته بما يلائم راحته »[(٤)] .

وليس من شك فى أن تأثر كواين بالنظرية التصنيفية فى النحو هو الذى دفعه إلى هذا الفهم المحدود للنحو وأفضى به إلى الرغبة فى استبعاد الجانب الدلالى منه ؛ إذ قدمت النظرية التصنيفية التحليل النحوى للجمل بوصفه عملية مماثلة تمامًا لفهرسة المكتبة ، فأجزاء المنطوقات عند عالم اللغة ، والمدونة بصورة ملائمة خلال مجال العمل ، تناظر

---

(١) -Ibid, p.56

(٢) - Ibid, p. 56.

(٣) - Harman, G., "Quine's Grammar", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 170.

(٤) - R. to C. in P. of Q., p. 181.

مجموعة الكتابات والمطبوعات عند أمين المكتبة ، وتناظر عناصر مجموعة أمين المكتبة وهى الكتب والمجلات والدوريات والرسائل والصحف ، الخ ، الأصوات الكلامية phones عند عالم اللغة ، وهى أصغر أجزاء من المنطوقات التى تمثل أصوات الكلام القابلة للتمييز فى اللغة ؛ وفى حالة تصنيف المكتبة وحالة النحو التصنيفى على حد سواء ، يتقدم التصنيف عن طريق تكوين فئات تعنون بشكل ملائم وعلى مستوى أعلى فأعلى بصورة متوالية ؛ وفى التحليل النحوى يتم تمييز الأصوات الكلامية على أدنى مستوى ، ثم تجمع بعد ذلك فى فئات من الفونيم (وحدة صوتية مميزة) phoneme، ثم تصنف الامتدادات الفونيمية فى المنطوقات إلى فئات مورفيمية (المورفيم وحدة صرفية) morphemic ، وبعد ذلك تصنف فئات الكلمة أيضًا إلى فصائل نظمية أعلى من اسم ، وفعل ، وحرف جر ، وأداة ، وظرف ، الخ ، ومن أنواع منوعة للعبارة وشبه الجملة ، وأخيرًا من نوع أو آخر للجملة (مثل جملة بسيطة ، مركبة ، إخبارية ، استفهامية ، طلبية « الأمر والنهى ») ؛ وهذه الطبقات من الفئات ليست مختلفة اختلافًا أساسيًا عن عملية التصنيف الطبقى للكتب والمجلات ، الخ إلى خيال ولا خيال ، وخاصة بالبالغين وخاصة بالصبية ، الخ ، ثم فصائل فرعية من قبيل خيال علمى ومغامرة ، وغير ذلك ، وعلم ، وتاريخ ، وفن ، وهلم جرا ، ثم إلى مجموعات ضيقة مثل الرياضيات والفيزياء ، والكيمياء ، الخ ؛ ثم يمتد التصنيف حتى المكافئ البيليوغرافى للأصوات الكلامية ، أى الطبعات المختلفة للكتاب الواحد ؛ ولكن على الرغم من اختلاف التعبيرات الاصطلاحية والفصائل فى عملية التحليل النحوى وفهرسة المكتبة ، فإن صورة التصنيف واحدة(١) .

على أن هذا التصور للتحليل النحوى لا يحظى بقبول عند أصحاب النحو التحويلى ، لأنه لا يفسح مجالاً لتقديم « معنى » الجملة باعتباره جزءًا متممًا لبنيتها النحوية ؛ فجاذبية التصور التصنيفى للتحليل النحوى تتمثل فى أنه يبدأ بالمنطوقات ، أى الأحداث الفيزيائية فى الهواء ، والتى تكون مادية وبين ذاتية على نحو ملائم ؛ إذ لا يتضمن كل مستوى متوالى للوصف النحوى شيئًا أكثر من إعادة تصنيف لعناصر هذه الأحداث الفيزيائية ، وإعادة تحليل لأصوات الكلام الموصوفة فى المستوى الأدنى ، وهذا يعنى أنه

---

(١) Katz, J. J., "Logic and Language: An Examination of Recent Criticisms of Intensionalism", pp. 44-45.

لا يمكن لشيء غير فيزيائي أن يظهر كجزء من البنية النحوية للجمل فى هذا التحليل ؛ ولكن لاحظ أن هذا التحليل ، من الصوت الكلامى إلى الجملة ، لا يفسح مجالاً فى البنية النحوية لأى شيء سوى الأصوات وعلاقات الأصوات فى نظام متتابع ، ولا يسمح بأى شيء سوى البنية الفونولوجية والنظمية phonological and syntactic structure ، وعلى وجه الخصوص لا يوجد مجال لتقديم معنى الجملة بوصفه جزءًا متممًا لبنيتها النحوية ؛ ولو وضعنا المسألة بطريقة أخرى لقلنا إن هذه الخطة تعمل بالنسبة لعمليات حساب التفاضل والتكامل الصورية مثلما تعمل بالنسبة للغات الطبيعية تمامًا ، وإذا قبل الإنسان هذه الخطة لكتابة قواعد اللغة ، فيجب أن يعرف المعنى على أنه شيء خارجى فيما يتعلق بالنحو ، كما هو الحال فى تعريف بلومفيلد وكواين للمعنى فى حدود المثير والاستجابة(١).

ولم يكن الهجوم على التصور التصنيفى للنحو قاصرًا على أنصار المدرسة التحويلية فحسب ، بل سايرهم فى ذلك كثير من فلاسفة اللغة الذين يدافعون عن مشروعية البحث فى المعنى .

ولعل ميزة النظرية التحويلية فيما يرى أنصارها هى أن المعنى يجد من خلالها مكانًا طبيعيًا فى البنية النحوية ، إذ يرفض النموذج التحويلى الزعم الأساسى للنظرية التصنيفية القائل بأن عناصر البنية النحوية هى بالفعل عناصر فيزيائية ، وعامة ، وبين ذاتية مثل الكتب فى المكتبة ، وتزعم النظرية التحويلية أن مستويات كثيرة من البنية النحوية تكمن تحت الصورة السطحية للجمل وأن القواعد التصنيفية لا تملك وسيلة للعمل أكثر من وصف هذه الصورة السطحية ، ولا يمكن تفسير حقيقة البنى على هذه المستويات التحتية فى النموذج التصنيفى ، ولتفسير هذه الحقيقة اللغوية التحتية ، تقدم النظرية التحويلية أساسًا للقواعد والتحويلات التى تمثل كل مستوى تحتى للبنية النحوية حتى السطح ، وتشتق التمثيل لكل مستوى بشكل تحويلى من المستوى الكامن تحته ، وهكذا يعالج الوصف التصنيفى فى النظرية التحويلية على أنه حالة خاصة ومحدودة للتمثيل النحوى ؛ ولكن قواعد النحو التى تحدد المستويات التحتية للغة لا يمكن أن تنسجم مع نوع الحقيقة التى تنسجم مع قواعد النحو التصنيفى ، أعنى كتمثيلات لاضطرادات فى التوزيع تم تعميمها بشكل استقرائى من منطوقات فى عينة من اللغة ، وعلى الأصح ، لابد من

---

(١) - Ibid, pp. 45-46.

التفكير فى القواعد لتمثيل المستويات التحتية على أنها تمثيلات للمبادئ العقلية فى رؤوس المتكلمين ، وهذا التفسير للقواعد باعتبارها مظاهر للمبادئ التى يكون بمقتضاها المتكلم فصيحًا فى لغة طبيعية ، يقدم مباشرة مكانًا طبيعيًا للبنية الدلالية باعتبارها جزءًا من البنية النحوية(١) .

وإذا أمعنا النظر فى القواعد التى تنطوى عليها النظرية التحويلية وبخاصة ما يسمى بمرحلة « النظرية النموذجية » ويمثلها كتاب تشومسكى « جوانب من نظرية النظم » (١٩٦٥) ، لوجدنا أنها تتألف من ثلاثة مكونات هى : المكون النظمى syntactical والمكون الدلالى semantical والمكون الفونولوجى phonological؛ وينقسم المكون النظمى بدوره إلى مكونين هما المكون الأساسى والمكون التحويلى ، ويتكون العنصر الأساسى من مجموعة قواعد التكوين ومن معجم له حصيلة تسمى بمؤشرات العبارة ، وهذه المؤشرات للعبارة ، أى البنى العميقة للجمل ، لها مفردات معجمية ذات نقاط تفريع أدنى مع مجموعة مصاحبة من السمات النظمية والفونولوجية والدلالية ، وتمثل الأخيرة معانى المفردات المعجمية ، والبنية العميقة لجملة هى المستوى الذى يظهر بنية مكون الجملة والذى يحدد العلاقات النحوية فيما بين مفرداتها المعجمية ، ولأن هذه المعلومات ضرورية لعملية المكون الدلالى ، فإن البنى العميقة جزء من مدخله input، بالإضافة إلى أنها المدخل للمكون التحويلى الذى يحتوى على مجموعة منظمة من القواعد التحويلية ؛ وتؤثر هذه القواعد على مؤشرات العبارة فى البنية العميقة وتحولها إلى مؤشرات عبارة فى البنية السطحية التى لها سلسلة ذات نقاط تفريع أدنى من المفردات المعجمية التى تكون الجمل ؛ ويتألف المكون الدلالى من قواعد الاسقاط التى تعمل على البنية العميقة فتنتج مجموعة من القراءات للجملة تمثل معانيها ؛ ويتألف المكون الفونولوجى من القواعد الفونولوجية ومن المعجم الفونولوجى وتصلح البنى السطحية باعتبارها مدخلاً للمكون الفونولوجى الذى يزود كل جملة بتفسير صوتى(٢) .

ولكن ، إذا كانت النظرية التحويلية تتمتع بمزية أنها أدخلت الجانب الدلالى ضمن

---

(١) - Katz, J. J., "Logic and Language: An Examination of Recent Criticisms of Intensionalism", pp, 46-47.

(٢) - Davis, D., Philosophy and Language, pp. 207-208.

جوانب النحو ، فإن تصور النظرية التحويلية لهذا الجانب يعد تصورًا ضعيفًا ، إذ يذهب سيرل إلى أن علم الدلالة يشكل القسم الأضعف فى نظرية تشومسكى ، كما أقر تشومسكى نفسه فى مناسبات عدة ، ويقرر أن نظرية التعبير عن المعنى التى يقترحها تشومسكى هى أفقر من أن تؤدى إلى بلوغ هدفه[١] ؛ زد على ذلك أن أنصار الاتجاه الوظيفى فى تحليل اللغة يذهبون إلى أن نظرية النحو التحويلى قد أسقطت من حسابها الظروف النفسية التى يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تامًا مسألة السياق الذى يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقلى[٢] .

ولقد سبق أن فطن العلماء المسلمون من البلاغيين والنحاة إلى العلاقة الحميمة بين مبادئ النحو ومبادئ الدلالة ؛ فليس النحو قاصرًا على الإعراب ولا على القواعد النحوية ، بل يشمل إلى جانب ذلك ما يسمى بمعانى النحو مثل التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والتعريف والتنكير ، والحذف والإضافة ، وغير ذلك مما يعالجه عبد القاهر الجرجانى فى شرحه لنظرية النظم ، إذ يقول : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ... هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معانى النحو قد اصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه »[٣] ؛ ثم يضيف قائلاً : « ثم اعلم أن ليست المزية بواجبه لها فى أنفسها (أى معانى النحو) ومن حيث هى على الإطلاق ، ولكن تعرض

(١) جون سيرل ، « تشومسكى والثورة اللغوية » ، الفكر العربى ، العددان ٨ ، ٩ ، يناير – مارس ١٩٧٩ ، دون ذكر مترجم ، ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) د . يحيى أحمد ، « الاتجاه الوظيفى ودوره فى تحليل اللغة » عالم الفكر ، المجلد العشرون ، العدد الثالث ، أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٩ ، ص ٧٠ .

(٣) عبد القاهر الجرجانى ، دلائل الإعجاز ، الطبعة السادسة ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

بسبب المعانى والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم يحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض »[١] .

والحق أن وجهة نظر كواين فى رفض المعانى باعتبارها تمثل عالمًا من الكائنات أو باعتبارها كائنات وسيطة هى وجهة نظر لا تعدم قبولاً ، ولكن الوسيلة التى اتخذها كواين لتحقيق غايته أفضت به إلى مواضع زلل خطيرة ؛ منها أن رد مشكلة المعنى إلى مفهومين فحسب هما المغزى والترادف لا يقوم عليه دليل مقنع ، وترتب على هذا استخفاف كواين بخصائص وعلاقات دلالية أخرى كثيرة ، ومنها أيضًا النظر إلى وظيفة النحوى نظرة ضيقة ، ولقد ترتب على هذا أيضًا استبعاد الجانب الدلالى من النحو ، ولعل ذلك كله يرجع إلى تأثر كواين بالنظرية التصنيفية فى النحو السائدة فى الوقت الذى كتب فيه مقال « مشكلة المعنى فى علم اللغة » .

فإذا ما نظرنا إلى رفض كواين للمعانى بوصفها تمثل عالمًا خاصًا من الكائنات ، وجدنا أن هناك من يشارك كواين فى هذا الرفض وإن كان لا يقاسمه نظرته الكلية إلى المعنى ، فها هو « ألستون » الذى يرفض انتقادات كواين لتصورات معينة للمعنى يقول : « إننى متعاطف تمامًا مع إنكار كواين لعالم خاص من المعانى »[٢] ، ويذهب فى موضع آخر إلى أنه ليس أمعن فى الخطأ من افتراض أن « المعانى » كائنات من نوع يمكن تحديده ، فإذا كنا نتكلم عن المعانى بوصفها فئة لكائنات ، فلابد من أن نعترف بأنها فريدة بحيث لا تقبل أن توصف بأية ألفاظ أخرى ، وربما تأتى النزعة العامة لإثارة مشكلة المعنى بهذه الصورة من افتراض مفاده أنه بتخصيص المعنى لكلمة ، فإن ما نفعله هو مطابقة الكائن الذى يرتبط بهذه الكلمة بحيث يكون معناها ، أى أنه من الطبيعى تمامًا النظر إلى العبارة :

١ – معنى « يؤجل » هو يرجىء .

على أن لها نفس الصورة المنطقية التى للعبارة :

٢ – عاصمة مصر هى القاهرة .

وبناءً على ذلك يأتى التفكير فى أننا كما نحدد فى العبارة (٢) كائنًا يرتبط بمصر بحيث

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٢) Alston, W. P., "Quine on Meaning", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 51.

يكون عاصمة لها ، كذلك نجد فى العبارة (١) كائنًا يرتبط بالكلمة « يؤجل » بحيث يكون معناها ؛ وأبسط طريقة لإدراك أن هذا ليس ما نفعله هو ملاحظة أن ما يلى « هو » فى العبارات مثل (١) ليس تحديدًا لكائن كائنًا ما يكون ، وهذا صحيح بالنسبة للعبارة (١) ، إذ أن « يرجىء » ليست كلمة لها وظيفة تحديد كائن معين يجوز أن نواصل بعد ذلك فى طرح أسئلة معينة حوله والإجابة عليها، والتعميم صحيح بصورة واضحة إلى حد بعيد فى :

٣ – معنى « إذا » هو شريطة أن .

من الواضح هنا تمامًا أنه لا يوجد كائن من قبيل « شريطة أن » ، ويكون هذا كذلك ، ليس لأنه لا يتصادف أن يوجد مثل هذا الشىء ، بل لأنه من غير المعقول افتراض وجوده ، لأن عبارة « شريطة أن » لا تقوم بوظيفة تحديد كائن ما ربما يوجد أو لا يوجد[1] .

ما الذى نفعله إذن عندما نقول ما تعنيه الكلمة ؟ إن ما نفعله هو تقديم تعبير آخر نزعم أن له على الأقل نفس استعمال التعبير الذى نحدد معناه ، والسبب الأساسى لقول أشياء مثل (١) و (٣) هو مساعدة شخص ما فى تعلم كيفية استعمال التعبير الذى نحدد معناه ؛ وعندما نقدم تحديدًا للمعنى ، فإننا نحاول بلوغ هذا الهدف عن طريق أخبار الشخص بأن هذا التعبير يستعمل بالطريقة التى يستعمل بها التعبير الآخر الذى نفترض أن الشخص يعرف كيفية استعماله ، وبالتالى فإن العبارة (١) متكافئة تقريبًا مع (استعمل « يؤجل » بالطريقة التى ألفت بها استعمال « يرجىء » ، وسوف تكون على صواب تمامًا) ، وربما تضللنا التشابهات النحوية السطحية إذا افترضنا أن ما نفعله حقًا هو اختيار مثال جزئى لنوع خاص لكائن يدعى « المعانى »[2] ؛ وهكذا تكتسب دعوى كواين لرفض المعانى باعتبارها تمثل عالمًا خاصًا من الكائنات تسويغًا مقنعًا دون أن تفضى به إلى مشكلات خطيرة .

ويقدم « ألستون » اقتراحًا بديلاً للفكرة « هـ تعنى .. » دون التزام بعالم خاص من المعانى كما يزوم كواين ، ويتمثل فى نظرية إمكانية الفعل غير التعبيرى illocutionary-act potential فى المعنى ومفادها أن الجملة تملك معنى فى حالة واحدة فقط وهى أن تكون

---

(١) - Alston, W. P., Philosophy of Language, p. 21.

(٢) - Ibid, pp. 21-22.

لها إمكانية فعل غير تعبيرى[١] ، وأن تكون قابلة للاستعمال بشكل نموذجى لأداء فعل غير تعبيرى من نوع معين ، على سبيل المثال التنبؤ بأن هجومًا معينًا على وشك الوقوع ، أوسؤال شخص عن ملعقة ، ويتوقف امتلاك كلمة لمعنى معين على كونها قابلة لأن تؤثر فى معنى جملة بطريقة معينة ؛ ويتوقف الجوهر النفسى والاجتماعى لامكانية الفعل غير التعبيرى على حقيقة مؤادها أن القواعد السارية فى المجتمع اللغوى تخصص الشروط التى يجوز بمقتضاها نطق الجملة، ولايوجد تسوير على المعانى فى أى من هذا[٢]؛ ويوافق كواين على اقتراح «ألستون» هذا حيث يقول: «يمكن أن اتفق مع هذا، فأنا متحمس للترجمة التى لطالما انهمكت فيها كثيرًا بطريقة عملية ، ومتحمس أيضًا لصناعة المعجم ، ومتحمس لعلم الدلالة النظرى عندما مارسته بشكل معقول ؛ وتشكل « الشروط التى بمقتضاها يجوز نطق الجملة » المحاور الحقيقية،فى اعتقادى، لكل هذه الممارسات، وسوف يكون معقولاً تمامًا الإشارة إلى هذه الشروط ككل بوصفها (معنى) الجملة »[٣] .

ولو أننا أنعمنا النظر فى قبول كواين لفكرة « الشروط التى يجوز بمقتضاها نطق الجملة » ، لوجدنا أن الذى حدا بكواين إلى قبول هذا هو أن علاقة الترادف التى تمثل أم المشكلات فى المعنى لا تكتسب تأييدًا من هذه الفكرة ، « والسبب هو أنه – فى هذه الرؤية المعدلة للمعنى – لا يمكن أن يكون لجملتين معنى بعينه ، لأنه لن تكون الجملتان متشابهتين تشابهًا تامًا فى شروط نطقهما ، إذ لا يمكن نطق جملة إلا عند استبعاد جميع الجمل الآخرى ، ومن ثم لا يمكن نطقها إلا بمقتضى شروط غير مشترك فيها تمامًا ؛ وبالتخلى عن الترادف باعتباره أملاً خادعًا ، اسلم مع ألستون بأن مهمة علم الدلالة هى استكشاف وتحليل « الشروط التى بمقتضاها يجوز نطق الجملة » ، ويجوز التوقع بأن تتقدم هذه الدراسات إلى الأفضل عندما لا تثقل بفكرة مسبقة عن علاقة الترادف غير المحددة أو بفكرة مسبقة عن المعانى من نوع له صلة بالترادف »[٤] .

وهناك تقرير عن المعانى يتسم بشىء ما من المعقولية ويحظى بقدر ما من القبول وهو

(١) - Ibid, p. 39.

(٢) - Alston, W. P., "Quine on Meaning", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 52.

(٣) - R. to C. in P. of Q., p. 73.

(٤) - Ibid, pp. 73-74.

معالجتها بوصفها موضوعات مجردة من النـوع المفهـومى intensional ، وعلى خلاف الأفكار ، فالمعانى بهذا المغزى ليست كائنات ذهنية على الرغم من أنه كثيرًا ما يقال إنها موضوعات تعرف بالعقول ؛ وتعد كتابات فريجه الشاهد الكلاسيكى لهذه المعالجة ، فعندما ميز فريجه بين معنى التعبير وإشارته، قدم نظرية فى المعنى تتجاوز نظرية الإشارة ، إذ ميز بين المعنى والإشارة أو المفهوم والماصدق للحدود الجزئية والمحمولات والجمل ، فالحدود الجزئية مثل «نجم الصباح» و«نجم المساء» يشيران إلى كوكب واحد بعينه ولكنهما مختلفان فى المعنى ، فالمعنى الذى نفهمه من «نجم الصباح» ليس هو المعنى الذى نفهمه من «نجم المساء» ؛ والمحمولات مثل «... أعزب» و« ... غير متزوج » لهما نفس الإشارة ، أعنى أن فئة الأفراد التى تنطبق عليها المحمولات واحدة، وبالإضافة إلى ذلك لهما نفس المعنى ، أى أنهما يعبران عن المفهوم أو الخاصية ذاتها ؛ والجملتان « إنها تمطر » و"It is raining" لهما نفس الإشارة (نفس قيمة الصدق) بالإضافة إلى المعنى نفسه (القضية نفسها)(١) .

وهذه الطريقـة تلـزم المرء بانطولوجيـا مفهوميـة intensionalist ontology للخصائص والقضايا وغيرها ، فعندما نقول بأن التعبير ذو معنى meaningful فى هذه الوجهة من النظر فإننا نقول بأن له معنى hasameaning أى هناك « موضوع » هو معناه ، ويقال بأن التعبيرين مترادفان إذا كانا يعبران عن المعنى نفسه ، أى إذا كان هناك موضوع وحيد هو معناهما ، وهكذا إذا سلمنا بأن الجملة « العقاد إنسان » ذات معنى ، للزم عن ذلك فى هذا التقرير عن حالة المعنى أن هناك معنى تملكه هذه الجملة ، وإذا استخدمنا التعبير الرمزى وبخاصة السور الوجودى والذى يقرأ فى هذه الحالة « هناك معنى واحد على الأقل هو س » ، لكان ذلك يعنى (E س) (س هو المعنى لـ « العقاد إنسان ») ؛ وبصورة مماثلة إذا سلمنا بترادف « إنها تمطر » و "Itisraining" ، للزم عن ذلك أن هناك قضية (معنى) هى معنى للتعبيرين ، أى (E س) (س هو المعنى لـ « إنها تمطر » و"It is raining" ، ويلتزم المرء فى هذه النظرية للغة بالاعتراف بالمعانى من حيث هى مفاهيم intensions باعتبارها قيمًا للمتغيرات(٢) .

والحق أن كواين إذا كان يعترف مع اضطرار بالحاجة إلى التسليم بالفئات فى نظريته الانطولوجية على أساس قوتها التفسيرية ، إذ يسلم بها من أجل تفسير حقائق الرياضيات ،

---

(١) - Orenstein, A., Willard Van Orman Quine, p. 116.

(٢) - Ibid, p. 116.

فإنه يرفض التسليم بموضوعات مفهومية مثل القضايا ، ومن ناحية ثانية نجد أن بعض الفلاسفة مثل ألونزو تشيرش Alonzo Church، الذى يدافع عن نظرية فريجه فى المعنى ، ويسلم بضرورة الحاجة إلى المعانى والكائنات المجردة الأخرى فى علم الدلالة(١) ، يذهب إلى أن المفاهيم ضرورية بوصفها افتراضات نظرية مثل ضرورة الفئات عند كواين .

غير أن كواين يثير بعض الاعتراضات على استعمال المفاهيم فى فلسفة اللغة ، وأكثرها أهمية هى(٢) :

١ – معارضة افتراض أنواع إضافية من الكائنات المجردة إذا كانت غير ضرورية بالفعل .

٢ – غياب نظرية دقيقة فى المفاهيم وبخاصة الافتقار إلى شرط هوية (تطابق) مقبول بالنسبة للكائنات المفهومية .

٣ – وجهة نظر كواين القائلة بأن المعانى من حيث هى كائنات مفترضة (من حيث هى أفكار أو مفاهيم) تخلد نظرة « أسطورة المتحف » للغة ، وسوف نشير إليها بعد قليل ، تلك النظرة التى تزيف حقائق اللغة وتحجبها .

وإذا كانت هناك معطيات معينة تتطلب التسليم بالمفاهيم لتفسيرها مثل التحليلية ، والترجمة ، وحوامل الصدق ، والموجهات وغيرها ، فإن كواين يبرهن على أن بعض هذه المعطيات مشكوك فيه فى بعض الحالات ، وأن بعضها الآخر يمكن تفسيره عن طريق موضوعات غير مفهومية ، ومن ثم فليس هنالك ما يسوغ التسليم بالمفاهيم المفترضة ؛ فربما يتطلب منطق الجهة modal logic موضوعات مفهومية ولكن كواين يعتقد أن هنالك مسوغات جيدة للشك فى منطق الجهة ؛ أما افتراض المعانى لتفسير التحليلية ، فإن كواين قد شك فى وجود تمييز صارم بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، ثم عالج التحليلية من منظور سلوكى فى آخر الأمر مستبعدًا التسليم بالمعانى ؛ ويشك كواين فى مهمة المعانى فى تقديم تقرير تجريبى عن الترجمة ؛ وفيما يتعلق بافتراض القضايا بوصفها حوامل صدق ، فإن كواين يثبت أن الجمل الثابتة eternal sentences تؤدى وظيفة القضايا باعتبارها حوامل للصدق والكذب ، وسوف نناقش هذه المسألة فى الفصل الخامس .

---

(١) - Church, A., "The Need for Abstract Entities in Semantics", in Copi, I. M., and J. A. Gould (eds), Contemporary Readings in Logical Theory, New York: the Macmillan Company, 1967, pp. 194-203.

(٢) - Orenstein, A., Willard Van Orman Quine, pp. 116-117.

٣ - ٢ - ٣ رفض القوة التفسيرية للمعانى

لقد أسلفنا القول فى جانبين من الجوانب التى يهاجم كواين من خلالها مفهوم المعنى كما يعرضه علم الدلالة العقلى ؛ الأول هو رفض المعانى من حيث هى أفكار أو صور ذهنية ، والثانى هو استبعاد المعانى بوصفها تمثل عالمًا خاصًا من الكائنات ، ونستطيع الآن أن نضيف إليهما جانبًا ثالثًا هو التفسير ؛ إذ يزعم كواين بأننا لو عهدنا بأية مهمة تفسيرية إلى المعنى من المنظور العقلى فلا يمكن أن يؤديها بنجاح .

ويبدو أن هجوم كواين على المعنى من هذا الجانب على درجة كبيرة من الأهمية مما حدا بجلبرت هارمان ، مثلاً ، فى مقالته « كواين فى المعنى والوجود » ١٩٦٧ أن ينظر إلى هذا الهجوم على أنه اعتراض كواين المحورى على المعنى ؛ فقد وضع هارمان عنوانًا داخليا مفزعًا تدور حوله كافة الأفكار التى يعالجها فى الجزء الأول من مقالته المشار إليها وهو « موت المعنى » ، وذهب إلى أن موقف كواين الفلسفى يكمن حقيقة فى هجومه على النظريات الفلسفية النموذجية فى المعنى ؛ وإذا صح ما يذهب إليه كواين ، فإن كل ، تقريبًا ، ما قاله فلاسفة اللغة وما يقال عن المعنى يعد خاطئًا[١] ؛ ويناقش هارمان هجوم كواين على المعنى من خلال مجموعتين من النظريات ، ترتبط الأولى بالتمييز التحليلى - التركيبى ، وتتعلق الثانية بافتراض الموضوعات المفهومية مثل المعانى أو القضايا ، وفيما يختص بمشكلة التحليلية مثلا ، التى سبق أن ناقشناها ، يرى هارمان أن إسناد التحليلية يلزم الإنسان بدعوى تفسيرية مفادها أن شيئًا ما يمكن أن يكون صادقًا أو قابلاً للمعرفة بمقتضى المعنى ، أو على الأقل يمكن أن تكون الجمل متكافئة بمقتضى المعنى ، وينتهى إلى أن ليس ثمة طريقة يجوز أن يقدم المعنى بها مثل هذا التفسير[٢] ؛ ويشير هارمان إلى فكرة القوة التفسيرية للمعنى فى مقالة « مقدمة للترجمة والمعنى » والتى يعالج فيها دعوى اللا تحديد فى الترجمة عند كواين حيث نراه يقول : « لابد أن يدرس المرء دعوى كواين ضمن سياق هجومه العام على المحاولات الفلسفية لاسناد قوة تفسيرية للمعنى ، والمعانى ، والقضايا ، والمواقف القضوية ، وهلم جرا ؛ فمن المعروف

---

(١) - Harman, G., "Quine on Meaning and Existence, 1", Review of Metaphysics, Vol. XXI, No. 1967, p.124

(٢) - Ibid, p. 141.

جيدًا أن كواين ينكر قدرة المرء على تفسير الصدق عن طريق القول بأن شيئًا ما يكون صادقًا بمقتضى معناه ، وينكر أيضًا وجود قوة تفسيرية فى التسليم بالقضايا والمواقف القضوية ، فينكر ، مثلاً ، أن الإنسان يستطيع أن يفسر لماذا يقبل الشخص جملة بقوله إنه يقبل القضية التى تعبر عنها الجملة ، وبصفة عامة إلى حد بعيد ، يعترض كواين على معظم الحديث الفلسفى عن المعنى ، والمعانى ، والقضايا ، والمواقف القضوية »[١] ؛ وعلى الرغم من أننا نعتبر مقالة هارمان « كواين فى المعنى والوجود » من التفسيرات الكلاسيكية لفلسفة كواين ، فإننا لا نسلك مسلكه فى الجزء الأول من مقالته تلك ، وذلك لاعتبارين : الأول منهجى ومفاده أننا عالجنا مشكلة التحليلية معالجة مستقلة ، والثانى تاريخى ومؤداه أننا عند مناقشة اعتراض كواين على المعنى من جانب التفسير أخذنا فى الحسبان كتابات كواين المتأخرة التى صدرت بعد مقالة هارمان المشار إليها .

وتبرز معالجة كواين للدور التفسيرى الذى يسنده علم الدلالة العقلى إلى المعانى فى مقالته « العقل والاستعدادات اللفظية » (١٩٧٥) حيث يقول : « هناك نزعة قديمة العهد ومستمرة لمحاولة تفسير الظاهرة الفيزيائية للكلام وتحليلها عن طريق الاستعانة بالعقل ، والفاعلية العقلية ، والكائنات العقلية ، وذلك باللجوء إلى الأفكار (الموضوعية) Thoughts والأفكار (الذاتية) Ideas والمعانى »[٢] .

ويذهب كواين إلى أن الفكرة المحورية عن علم الدلالة العقلى هى فكرة عن المعنى مسلم بها دون اخضاعها للتحليل والفحص والنقد ، ويكشف عن سياقين تتجلى فيهما هذه الفكرة ، الأول هو الكلام عن معرفة معنى التعبير والثانى هو الكلام عن تماثل المعنى ؛ « فنحن نقول بأننا نعرف معنى التعبير عندما نكون قادرين على تقديم تعبير واضح ومألوف إلى حد بعيد له المعنى نفسه ، وعندما نسأل عن معنى التعبير فإن ما نريده هو تعبير واضح ومألوف تمامًا له المعنى نفسه »[٣] .

ويسوق كواين مثالاً ليبين به كم تضللنا طرائق كلامنا عن المعنى يقول فيه لقد قلت لابنى الصغير : Eighty - Two هل تعرف ما أعنيه » ؟ قال : « لا » ، ثم قلت لابنتى

---

(١) - Harman, G.,"An Introduction to Translation and Meaning, Chapter Two of Word and Object", in Words and Objections, edited by D. Davidson and J. Hintikka, p. 15.

(٢) - M. & V. D., p. 83.

(٣) - Ibid, p. 86.

الصغيرة : Ottantadue هل تعرفين ما أعنيه » ؟ قالت « نعم Eighty - Two » ، قلت : « انظر ، مارجريت تفهم اللغة الإيطالية افضل مما يفهم دوجلاس الانجليزية ؛ ويكمن التضليل فى الكلام عن المعنى فى قول المرء بأن فهمك للتعبير هو معرفة المعنى ، وبأن معرفتك للمعنى هى أن تكون قادرًا على تقديم المعنى ، ومع ذلك يمكن أن يزعم الابن الصغير بحق أنه يفهم التعبير Eighty - Two على الرغم من أنه يجيب بـ« لا » على السؤال « هل تعرف ما أعنيه » ؟ إنه يجيب بـ « لا » لأنه عاجز عن تقديم المعنى ، وهو عاجز عن تقديم المعنى لأن ما ندعوه بتقديم المعنى يكمن بالفعل فى الإجراء اللاامتمائل لتقديم تعبير مكافئ يكون واضحًا ؛ إن البنت الصغيرة مستعدة بالمكافئ الواضح لـ« Ottantadue» ولكن الابن الصغير مرتبك بالنسبة لمكافئ واضح لـ Eighty - Two[1] .

وينشأ الخلط بين فهم التعبير ومعرفة معناه أو تقديم هذا المعنى نتيجة لفكرة التعبيرات وفهمها ؛ « وهكذا يصر الناس على الكلام عن معرفة المعنى ، وتقديم المعنى وتماثل المعنى حيث يمكن لهم أن يستبعدوا فكرة المعنى ويتكلموا فحسب عن فهم التعبير أو يتكلموا عن تكافؤ التعبيرات وإعادة صياغتها ، وهم يصرون على الكلام على هذا النحو بسبب فكرة المعنى التى جرى الاعتقاد بأنها « تفسر » تكافؤ التعبيرات وفهمها ، إذ نفهم التعبيرات عن طريق معرفة معانيها أو إدراكها ، ويصلح التعبير الواحد بوصفه ترجمة لتعبير آخر أو إعادة صياغة له لأنهما يعنيان الشىء نفسه ؛ إنه تفسير غير مشروع بطبيعة الحال ، تفسير عقلى فى أسوأ حالاته »[2] ؛ ولذلك يميز كواين بين ثلاثة مستويات من التفسير يمثل كل مستوى منها درجة معينة من العمق وهى : العقلى والسلوكى والفسيولوجى ، فالمستوى العقلى هو المستوى السطحى إلى أبعد الحدود فى هذه المستويات ، ويكاد لا يستحق اسم التفسير ، وأما الفسيولوجى فهو الأعمق والطموح إلى حد بعيد وهو الفرصة الملائمة للتفسيرات العلية ، وأما المستوى السلوكى الذى يتوسطها ، فهو ما يجب أن نقبله فى أوصافنا للغة ، وفى صياغتنا لقواعدها ، وفى تفسيراتنا للمصطلحات الدلالية[3] .

وخلاصة القول هى أن كواين يرفض فكرة المعنى كما يقدمها علم الدلالة العقلى ، إذ

---

(١) - Ibid, p86.

(٢) - Ibid, pp. 86-87.

(٣) - Ibid, p. 87.

يتحدث الفلاسفة عن المعانى كما لو كانت مرتبطة بالتعبيرات بنفس الطريقة التى ترتبط بها الصور الزيتية فى متحف بلافتاتها ، ويسمى كواين هذا « بأسطورة المتحف » the myth of the museum إذ يقول : « وعلم الدلالة غير النقدى هو أسطورة المتحف الذى تكون الأشياء المعروضة فيه هى المعانى والكلمات هى اللافتات »(١) ، وتبعًا لهذه الوجهة من النظر يكون التعبيران مترادفين عندما يرتبطان بمعنى وحيد كما هو الحال فى اللافتتين بالنسبة لصورة زيتية واحدة . وإذا كان كواين يرى أن فكرة المعنى تبعًا للتفسير العقلى تفضى بنا إلى الخلط والتضليل ، فإنه يستبعد هذه الفكرة وذلك التفسير ، ويستبقى فكرتين انبهمت معالمهما داخل التفسير العقلى هما فهم التعبير ، وعلاقة التكافؤ بين التعبير وإعادة صياغته ، ويسعى إلى تفسيرهما داخل إطار التفسير السلوكى ، أى تفسيرهما فى حدود الاستعدادات إلى السلوك الصريح .

٣ – ٣ التفسير السلوكى للمعنى

لقد أسلفنا القول بأن كواين يعالج مشكلة المعنى من زاويتين : الأولى نقدية وسيطرت على الفترة المبكرة من تفكيره ، والثانية بنائية وسادت مرحلة الستينات وما بعدها ، وإذا كان كواين يرى أن المذهب العقلى الضار قد أفسد علم الدلالة ، ومن ثم وجه إليه بعض الانتقادات التى كانت بمثابة تطهير للأرض وإزاحة بعض المهملات التى تعترض سبيل النظر العلمى إلى المعنى ، فماذا عسى أن تكون نظرته البنائية لمشكلة المعنى ؟ إنها تتمثل فى التفسير السلوكى ؛ وقبل أن نتناول هذا التفسير يجعل بنا أن نقدم نظرة سريعة إلى التصور السلوكى للمعنى بصفة عامة .

تعتمد النظرية السلوكية فى المعنى على الجوانب القابلة للملاحظة علانية من سلوك الناس فى مواقف تواصلهم ، وهى تحاول بذلك أن تعالج مشكلة المعنى معالجة علمية ، وتتفادى فى الوقت نفسه كثيرًا من الصعوبات التى تعترض سبيل نظرية الأفكار التى سبق أن أشرنا إليها .

وتنشأ إحدى نقائص نظرية الأفكار من الحقيقة القائلة إننا لا نبحث عن الأفكار فى عقول المتكلمين لكى نحسم الخلافات المتعلقة بما تعنيه الكلمة فى اللغة أو المغزى الذى

---

(١) -O. R.& O. E., p. 27, and Q., p130

استعمَل به المتكلم لفظة بعينها فى مناسبة معينة ؛ فإذا لم أكن على يقين يتعلق بالمغزى الدقيق الذى تستعمل به كلمة « عادى » فى شىء قلته أنت ، فمن المحال بالنسبة لى أن أحاول اكتشافه بأن أطلب منك أن تستبطن ذاتك بعناية بالغة ثم تخبرنى ما المجاز الذى صاحب نطقك لهذه الكلمة ؛ وليس واضحًا تمامًا ما عساه أن يكون ذلك الشىء الذى نبحث عنه عند حسم مثل هذه الخلافات ، ومع ذلك فإن الحقيقة القائلة بأن هناك اتفاقًا واسع النطاق حول ما تعنيه الكلمات المنوعة توحى كأشد ما يكون الايحاء بأن المعنى وظيفة لجوانب تكون عرضة لفحص عام فى موقف الاتصال ؛ زد على ذلك أن نجاح علم النفس فى تفسير بعض جوانب السلوك الإنسانى فى حدود علاقات مطردة بين المثيرات والاستجابات القابلة للملاحظة يبعث الأمل بشكل طبيعى فى قدرة الإنسان على تقديم نفس النوع من المعالجة للسلوك اللفظى[1] ، وإذا كان هذا هو التصور السلوكى للمعنى بشكل عام ، فليس بدعًا أن يعرف بلومفيلد معنى الصيغة اللغوية « على أنه الموقف الذى فيه ينطقها المتكلم والاستجابة التى تحدثها تلك الصيغة فى السامع »[2] .

أما كواين فيدعم مذهبه السلوكى بالمذهب الطبيعى naturalism والتناول التجريبى للغة الذى يستمد أصوله من فلسفة « ديوى » (١٨٥٩ – ١٩٥٢) ، حيث يقول : « أنا مرتبط فلسفيا بديوى عن طريق المذهب الطبيعى الذى سيطر على العقود الثلاثة الأخيرة من تفكيره ، واعتقد مع ديوى أن المعرفة ، والعقل ، والمعنى هى بمثابة جزء من نفس العالم الذى ترتبط به ، وأنه لابد من دراستها بنفس الروح التجريبية التى تبعث الحياة فى العلم الطبيعى »[3] .

لقد ذهب ديوى إلى أن القول بوجود اللغة الخاصة private language أمر مستحيل ، وذلك عندما قرر فى العشرينات أن « مناجاة النفس هى نتاج للحديث مع الآخرين وصورة منعكسة له » ، ووسع هذه النطقة قائلاً إن اللغة هى على وجه التحديد طريقة للتفاعل بين اثنين من الكائنات على الأقل ، متكلم ومستمع ، ويفترض مقدمًا وجود مجموعة منظمة ينتمى إليها هذان الشخصان ، والتى اكتسبا منها عاداتهما فى الكلام ،

(١) - Alston, W. P., Philosophy of Language, pp. 25 - 26.

(٢) - Bloomfield, L., Language, p. 139

(٣) - O. R. & O. E., ., p.26

ومن ثم فإن اللغة علاقة ؛ وسلك كواين مسلك ديوى فى رفض اللغة الخاصة على أساس أنه حالما ندرك تأسيس اللغة فى حدود سلوكية نرى أنه لا يمكن أن توجد لغة خاصة بأى مغزى مفيد[١] .

وعندما كان ديوى يكتب بهذا المزاج الطبيعى ، كان فتجنشتين لايزال يحتفظ برأيه فى استحالة اللغة الخاصة ؛ وليس المقصود باللغة الخاصة تلك اللغة التى لا يفهمها أى شخص آخر سوى المتكلم فحسب ، بل اللغة التى « لا يمكن » أن يفهمها أى شخص آخر سواه ، أما السبب فى ذلك فيتضح من تحديد اللغة الخاصة ذاتها ، إذ أنها اللغة التى يستطيع المرء بها أن يدون خبراته الباطنية أو يعطى لها تعبيرًا صوتيا – تلك التى تتمثل فى المشاعر ، وظواهر الشعور ، وهلم جرا – وذلك بالنسبة إلى استعماله الخاص ، والتى فيها تشير الكلمات الفردية إلى ما يمكن أن يكون معروفًا فقط للشخص المتكلم ، أى تشير إلى أحاسيسه الخاصة المباشرة[٢] ؛ ولكن هذه اللغة تمثل ضربًا من الاستحالة ، وتأتى استحالتها من أنها لو كانت تشير إلى الحالات الشعورية النفسية التى لا يكابدها سوى شخص واحد ، فلن تكون ظاهرة اجتماعية ، على حين أن السمة الاجتماعية تأتى فى موضع الصدارة من السمات التى تميز اللغة ؛ ومن ثم فإن رفض اللغة الخاصة والتوكيد على السمة الاجتماعية للغة يعد من بين الجوانب التى يقتسمها ديوى وفتجنشتين وكواين .

وإذا كان ديوى يرى أن اللغة الخاصة مستحيلة ، ويؤكد على الصبغة الاجتماعية للغة ، وعلى ضرورة دراسة اللغة من وجهة النظر الطبيعية ، فلا غرو أن ينظر إلى المعنى باعتباره خاصية للسلوك حيث يقول : « ليس المعنى .. وجودًا نفسيًا ، وإنما هو فى المقام الأول خاصية للسلوك »[٣] .

والحق أن كواين يساير ديوى فى تناوله الطبيعى للغة ونظرته السلوكية إلى المعنى ، ويرى أن المذهب العقلى الضار قد أفسد علم الدلالة عندما نظر إلى المعنى عند الإنسان باعتباره محددًا فى عقله بطريقة تختلف عما يكون متضمنًا فى استعداداته للسلوك اللفظى

---

(١) - Ibid. p. 27

(٢) - Wittgenstein, L., Philosophical Investigations, translated by G. E. M. Anscombe, Pa. 1, Sec. 243, pp. 88 - 89.

(٣) - Quoted in O. R.& O. E., p. 27

الصريح ؛ والرأى عنده أن « المعانى ، هى أولاً وقبل كل شيء ، معانى للغة ، واللغة فن اجتماعى نكتسبه جميعًا بالدليل فقط من السلوك العلنى للناس الآخرين فى ظروف يمكن إدراكها جهارًا ، ومن ثم تنتهى المعانى ، وهى النماذج الحقيقية للكائنات الذهنية ، بوصفها طحينًا لطاحونة السلوكى » ؟(١) وما فتيء كواين يؤكد على هذه الفكرة فى كتاباته المتأخرة ، إذ يقول : « واللغة مهارة يكتسبها كل منا من رفاقه عن طريق الملاحظة المشتركة ، والمحاكاة ، والتصحيح فى ظروف قابلة للملاحظة بشكل مشترك ؛ وعندما نتعلم معنى التعبير فإننا نتعلم فقط ما هو قابل للملاحظة فى السلوك اللفظى وظروفه »(٢) ؛ وهذا يعنى أنه لا مجال إذن لفكرة المعنى كما يقدمها المذهب العقلى فى علم الدلالة ، ولكن رفض التناول العقلى للمعنى لا يقلل على الإطلاق من شأن علم الدلالة ، بل يمثل تطهيرًا له من العوائق التى تحول دون نموه بصورة أفضل ؛ وإذا شئنا أن نفهم المعنى فهمًا دقيقا فلا مناص من تفسيره فى حدود السلوك اللفظى المتاح بشكل بين ذاتى .

لقد استبعد كواين ، كما ألمعنا ، التفسير العقلى للأفكار الدلالية مثل معرفة المعنى ، وتماثل المعنى باعتباره تفسيرًا مضللاً وغير مشروع ، ورأى أن نتناول بدلاً من ذلك فكرتين دلاليتين هما فهم التعبير وتكافؤ التعبير ، فكيف نفسرهما تفسيرًا سلوكيا ؟ ولكن قبل أن نعرض الإجابة على هذا السؤال ، يحسن بنا أن نطرح سؤالاً آخر يأتى قبل السؤال السابق من حيث ترتيب البناء الفكرى وهو : ما الذى يعنيه كواين « بالتعبير » على وجه الدقة ؟ ويجيب كواين على هذا السؤال الأخير بقوله : « التعبير ، فيما أرى ، هو سلسلة من الفونيمات (وحدات صوتية مميزة) Phonemes ، أو — لو فضلنا الكلام فى حدود الكتابة — هو سلسلة من الحروف والمسافات ؛ وبعض التعبيرات جمل ، وبعضها الآخر كلمات ؛ وبالتالى عندما أتحدث عن جملة أو كلمة ، فإننى اشير من ناحية ثانية إلى سلسلة خالصة من الفونيمات وليس شيئًا أكثر من ذلك ؛ ويجب أن أؤكد هذا لأن هنالك استعمالاً واسع النطاق لما هو عكس ذلك ؛ فعاة ما يتم التفكير فى الكلمة أو الجملة على أنها مركب بطريقة ما من سلسلة من الفونيمات ومعنى »(٣) ؛ والنقطة الهامة

(١) - O. R. & O. E., p. 26.

(٢) -Q., p. 130.

(٣) - T. & T., p44.

التى يود كواين إثباتها من وراء ذلك هى أننا يجب أن لا نسلم بأن فكرة التعبير تفترض مسبقًا فكرة المعنى أو أن التعبيرات تفترض وجود أشياء من قبيل المعانى ، لأن التسليم بذلك يفضى بنا إلى الصور المنوعة التى يقدمها علم الدلالة العقلى للمعنى ، والتى أوضحنا انتقادات كواين لها .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى سؤالنا الأساسى وهو : كيف نفسر فهم التعبير وتكافؤ التعبير تفسيرًا سلوكيا ؟ إذا تناولنا الفهم وجدنا أن جزءًا من فهم الكلمة (أو التعبير) يكمن فى القدرة على استعمالها استعمالاً ملائمًا بكل طريقة فى سياقات مقبولة ، ويكمن الجزء الآخر فى الاستجابة بصورة ملائمة لكل هذه الاستعمالات ؛ ويمكن أن ننحى جانبًا تعقيد سياقات الجمل التى لا تحصى ، وذلك بأن نبدأ بالأحرى بالجمل من حيث هى وحدات تامة ، أى نبدأ بعمليات الكلام التامة القليلة ، والتى ربما تتألف من كلمة واحدة وربما من أكثر من كلمة ؛ وإذا نظرنا إلى الأغراض التى نعبر عنها بالجمل ، لوجدنا أن هنالك تنوعًا مذهلاً فى تلكم الأغراض ، وآية ذلك أن تنطق الجملة الواحدة لأغراض متباينة ، فقد تنطق للتحذير ، والتذكرة ، والحصول على ممتلكات ، وكسب التأييد ، وكسب الأعجاب ، وإضفاء السرور عن طريق الإشارة إلى شىء ما ، وهكذا تكون مناسبات نطق الجملة نفسها منوعة إلى حد أننا قلما نستطيع أن نتنبأ متى ستنطق الجملة ، وهذا الوضع لا يبشر بأى نجاح فى استكشاف الاستعدادات اللفظية ، ولابد لنا من أن نعثر على شاطئ آمن أساسى يخلصنا من الحيرة ؛ وهذا الشاطئ عند كواين هو « الصدق » truth؛ ولكن بعض الجمل ليس لها قيم صدق مثل الأسئلة والأوامر ، ومثل بعض الأغراض التى أشرنا إليها ، فما الذى يفعله كواين هنا ؟ يرجئ كواين البحث فى هذه الجمل ، ويقدم معيارًا للفهم يستند فيه على تصور ديفيدسون لعلم الدلالة الذى يعتمد فيه بدوره على تعريف تارسكى للصدق الذى يقول : بالنسبة لأية عبارة إثبات مثل ق ، فإن ق تكون صادقة فقط إذا كانت ق (موجودة على النحو الذى تثبته العبارة) for any statement p, p is true if and only if p فالعبارة القائلة بأن « الثلج أبيض » تكون صادقة فى حالة واحدة فقط وهى إذا كان الثلج أبيض بالفعل ، وكذلك العبارة « الورقة بيضاء » تكون صادقة فى حالة واحدة فقط وهى إذا كانت الورقة بيضاء بالفعل ، نقول استنادًا إلى هذا يقدم كواين معيارًا للفهم مؤداه أن الإنسان يفهم الجملة بقدر ما يعرف

شروط صدقها truth conditons ، وهذا النوع من الفهم يتوقف عند الدعابة والتهكم ، والتلميح ، والقيم الأدبية الآخرى ، أو قل إنه لا يقدم شيئًا لهذه المجالات ؛ غير أنه يسلك طريقًا طويلاً فيما يتعلق بعبارات الإثبات الإخبارية ، وهو بصفة خاصة يمثل كل ما يمكن أن نطلبه لفهم لغة العلم(١) .

وإذا كان كواين يرى أننا يجب أن ندرس اللغة بوصفها نسقًا من الاستعداد disposition للسلوك اللفظى ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : فى أى استعداد سلوكى ، إذن ، تكمن معرفة الإنسان لشروط صدق الجملة « هذا أحمر » مثلاً ؟ والجواب عند كواين إنها لا تكمن يقينًا فى الاستعداد لإثبات الجملة فى كل مناسبة نلاحظ فيها موضوعًا أحمر ، وانكارها فى جميع المناسبات الآخرى ، وإنما هى الاستعداد للموافقة أو المعارضة عندما توضع الجملة موضع التساؤل فى حضور موضوع أحمر أو فى غيابه ، ومنهج التساؤل والموافقة ، والتساؤل والمعارضة هو هنا بمثابة الحل الذى يرد الفهم إلى الاستعداد اللفظى(٢) .

والواقع أن منهج التساؤل والموافقة والتساؤل والمعارضة ، فيما يرى كواين ، ينطبق على ألفاظ أو جمل المناسبة ocasion sentences مثل « هذا أحمر » و« هذا أرنب » و« إنها تمطر » أحرى من انطباقه على الجمل الدائمة standing sentences مثل « الكلاب حيوانات » و« الماء سائل » و« الثلج أبيض » ، والسبب فى ذلك أن الاستعداد للموافقة على الجملة « هذا أحمر » أو الاعتراض عليها يتسم بالترابط بين الموافقة وحضور موضوع أحمر ، والمعارضة وغياب هذا الموضوع الأحمر ، وذلك فى مناسبات حيث تطرح الجملة باعتبارها سؤالاً ؛ أما الجمل الدائمة التى تظل قيمة صدقها ثابتة خلال فترات طويلة من الزمن ، فلا تقدم ترابطا هامًا من هذا النوع ؛ على أن طريقة طرح الأسئلة بغية الموافقة والمعارضة تكون فى أفضل حالاتها فى التطبيق على جمل المناسبة من النوع الذى يسميه كواين جمل الملاحظة observation sentences؛ لأن المناسبات التى تجعل الجملة صادقة لابد من أن تكون قابلة للإدراك بشكل بين ذاتى إذا شئنا أن نكون قادرين على « معرفة »

---

(١) - M. & V. D., pp. 87 - 88

(٢) -Ibid, p. 88

ما إذا كان المتكلم لديه استعداد معين أم لا ؛ وحتى فى هذه الحالات نظل بطبيعة الحال تحت رحمة صدق المتكلم ، فترانا نفترض عندما نسأله أن تجئ موافقاته ومعارضاته حقيقية(١) .

أما بالنسبة للجمل الدائمة مثل « القطط حيوانات » ، فإنها يمكن أن توضع أيضًا موضع التساؤل ، ولكن الموقف المثير لن يكون عادة له تأثير على الحكم عندما نطرحها كأسئلة ، ونظرًا لهذا السبب لا نستطيع أن نحدد فهم جملة دائمة بالاستعداد للموافقة أو المعارضة عندما تطرح الجملة كسؤال فى مناسبات معينة ، وإن كواين ليعترف بأنه لا يعرف كيف تقرب ، فى حدود الاستعدادت اللفظية بصفة عامة ، فكرة الفهم عندما تكون الجمل المفهومة هى الجمل الدائمة(٢) .

إذا كنا قد تناولنا فكرة الفهم ، فماذا عن الفكرة الدلالية الأخرى التى يسعى كواين إلى تفسيرها تفسيرًا سلوكيا ؛ أى علاقة التكافؤ بين التعبير وإعادة صياغته ؛ ينطبق قدر كبير مما قلناه عن الفهم بطريقة موازية على التكافؤ ، إذ نستطيع هنا أن ننظم عملنا تنظيما ملائما بأن ننظر أولاً إلى الجمل باعتبارها وحدات تامة ، ونبحث عن مفهوم التكافؤ بالنسبة لها ، ونستطيع أن نضيق مشكلتنا تضييقًا نافعًا عن طريق التركيز على شروط الصدق والإفادة أيضًا من منهج التساؤل والموافقة ؛ وبطبيعة الحال ، فإن الجمل التى تثبت أنها طيعة هنا ، كما فى حالة الفهم ، هى جمل المناسبة وجمل الملاحظة على وجه الخصوص ، والذى يربط هذه الجمل بما يكافئها هو ببساطة تطابق الاستعدادات ، أى نكون على استعداد للموافقة على الجملتين معًا فى الظروف نفسها(٣) .

وكما أننا قد واجهنا صعوبة فى التفسير السلوكى للفهم عندما انتقلنا إلى الجمل الدائمة ، فكذلك نواجه صعوبة فى التفسير السلوكى للتكافؤ عندما ننتقل إلى هذه الجمل ، وذلك واضح أيضًا ، فطالما أن الإنسان مستعد للموافقة على الجملة الدائمة – إذا سئل – فى جميع الظروف أو ليس مستعدًا للموافقة عليها فى أى ظرف ، فإن تطابق أو توافق الاستعدادات للموافقة على جملتين دائمتين لا يقدم أساسًا لتسويتهما(٤) .

(١) - Ibid, pp. 88 - 89.

(٢) - Ibid, p. 89.

(٣) - Ibid, p. 89.

(٤) - Ibid, p. 90.

وهكذا يهاجم كواين علم الدلالة العقلى ، ويلح على دراسة الاستعدادات للسلوك بدلاً منه ، ومع ذلك يرى إمكانية تصوير هذا الانتقال تصويرًا رائعًا إلى حد بعيد على أنه ليس مسألة استبدال بقدر ما هو مسألة تطابق ، إذ « يؤول » العقل بوصفه نسقًا من الاستعدادات للسلوك ، وهو فى هذا يحذو حذو جلبرت رايل وويلفرد سيلارز[١] . فقد ألح رايل وسيلارز على فلسفة العقل الاستعدادية dispositional philosophy of mind أو النظر إلى العقل على أنه استعداد للسلوك ، ولكن ما الذى يعنيه كواين بفكرة « الاستعداد » ؟

الاستعداد ، فيما يرى كواين ، هو ببساطة سمة أو آلية فيزيائية ، فقابلية الذوبان فى الماء ، مثلاً ، سمة فيزيائية يمكن تحديدها بطرق منوعة مع درجات متفاوتة من الاكتمال ، إذ يمكن وصفها وصفًا مفصلاً فى حدود الأوضاع النسبية لذرات صغيرة ، ويمكن وصفها أيضًا على نحو أقل تفصيلاً ، وذلك بأن نذكر الاختبار البسيط : ضع شيئًا فى ماء ثم انظر ما إذا كان يتحلل أم لا ؛ والاستعدادات للسلوك هى حالات أو سمات أو آليات فيزيائية ، وعندما نقدمها على نحو استعدادى ، فإننا نميزها عن طريق أعراض سلوكية واختبارات سلوكية ، وعادة لا نكون فى وضع يتيح لنا تفصيلها فى حدود فسيولوجية ، ولكن لا يوجد شذوذ فى هذا ، إذ أننا عادة ما نحدد أيضًا الأمراض عن طريق الأعراض ، ونذكر علامات وإشارات ولا نعرف التفصيلات الفسيولوجية[٢] .

ولعلنا ندرك الآن علاقة المستوى الثانى من التفسير ، أى المستوى السلوكى ، بالمستوى الثالث والعميق ، أى الفسيولوجى ، فتراناً نبحث فى المستوى الثانى الاستعدادات ، وهذه الاستعدادات هى بالفعل الحالات الفسيولوجية ، بيد أننا لا نحددها إلا عن طريق تجلياتها السلوكية ، وسوف يحلل التفسير العميق ، أى الفسيولوجى ، هذه الاستعدادات فى حدود واضحة للاندفاعات العصبية والعمليات العضوية الأخرى المحددة تشريحيًا وكيميائيًا[٣] .

وبالإضافة إلى ما أسلفناه عن تفسير كواين السلوكى للمعنى والذى ورد فى جانب كبير منه فى مقال « العقل والاستعدادات اللفظية » ١٩٧٥ ، فقد قدم كواين معالجة أخرى تعد مكملة لهذا التفسير فى مقال « الاستعمال ومكانته فى المعنى » ١٩٧٨ وتبرز

---

(١) - See Ryle, G. The Concept of Mind, and W. Sellars, "Mind, Meaning and Behavior", Philosophical Studies, 111, 1952, pp. 83-95.

(٢) - M. & V.D., pp.93-94.

(٣) - Ibid, p. 94.

هذه المعالجة مفهوم الاستعمال كما هو واضح من عنوان المقال ، ثم قرر كواين بعد ذلك « أن النظرية المشروعة فى المعنى لابد من أن تكون نظرية عن استعمال اللغة »[١] ، فما هو دور الاستعمال فى المعنى ؟ وإلى أى حد تعد هذه المعالجة تكميلاً للتفسير السلوكى السابق عليها ؟

إذا كان فتجنشتين قد أكد على ضرورة التماس معنى الكلمة فى استعمالها ، وسوف نوضح هذا بشىء من التفصيل فيما بعد ، وقرر ديوى قبل ذلك هذه الفكرة عندما ذهب إلى أن المعنى هو فى المقام الأول خاصية للسلوك ، فإن كواين يمضى فى هذا الاتجاه مؤكدًا أن الاستعمال هو الموضع الذى ينظر إليه عالم الدلالة التجريبى ، أى ينظر إلى السلوك اللفظى ، ومن ثم فإننا نستطيع التحدث عن السلوك والاستعمال ونصرف المعنى من أذهاننا[٢] .

والسؤال الآن هو : كيف نبدأ دراسة استعمال الكلمات ؟ لنأخذ كلمة مألوفة مثل كلمة « مكتب » ، ثم ننظر فى ظروف استعمالى لها ، إن هذه الظروف ربما تتضمن جميع الجمل التى استعملت فيها الكلمة أو سوف استعملها ، وجميع المواقف المثيرة التى نطقت فيها هذه الجمل أو سوف انطقها ، وربما تتضمن جميع الجمل والمواقف المثيرة التى فيها أود استعمال الكلمة ، ويجوز أن يقال إن الجمل والمواقف المثيرة التى فيها أود الآن استعمال الكلمة تشكل « معنى » الكلمة بالنسبة لى الآن ، وذلك لو أردنا أن نرد الاعتبار لمصطلح « المعنى » المشكوك فيه ، ولكن مجال الجمل والمواقف المثيرة المشار إليها والتى تعنينا واسع بدرجة منفرة ويعوزه التنظيم ، فأين يا ترى يبدأ المرء ؟ يدعونا الحل المؤقت إلى تأمل ما نؤديه بالفعل عندما يسأل عن معنى كلمة معينة ، إن ما نفعله هو أننا نعرف الكلمة بتسويتها بكلمة أو عبارة مألوفة إلى حد كبير ، وهذه طريقة سريعة لتحديد مجال الجمل والمواقف التى تستعمل الكلمة فيها ، ويأتى تحديد هذا المجال عن طريق مطابقته بمجال الجمل والمثيرات التى تستعمل فيها الكلمة أو العبارة الأخرى المألوفة إلى حد كبير[٣] .

---

(١) - T. & T., p. 192.

(٢) - Ibid, p. 46.

(٣) - Ibid, pp. 46-47.

ولكن تظهر مشكلة بعد ذلك تتمثل فى إصرارنا على الطريقة القديمة فى تقديم المعانى عن طريق ذكر المرادفات ؛ وهنا يقدم كواين قدرًا من التسامح إزاء فكرة الترادف ، ولكنه يسعى إلى تفسيرها تفسيرًا سلوكيًا ، إذ يقرر صراحة أن المذهب السلوكى فى المعنى لا يعارض هذه الطريقة القديمة ولكن هذا المذهب يسهم بشىء نظرى فى هذا المجال ، ومؤدى هذا الاسهام أنه يدعى تفسير نفس علاقة الترادف هذه ، أى العلاقة بين الكلمة التى يسأل عن معناها والكلمة أو العبارة المألوفة إلى حد بعيد والتى نذكرها فى الإجابة ، يقول كواين : « إن المذهب السلوكى يخبرنا بأن هذه العلاقة للترادف ، أو تماثل المعنى ، هى تماثل الاستعمال sameness of use »[١] .

وإذا كان كواين يعترف بأن منهج تقديم المعنى لكلمة بذكر مرادفها يعد منهجًا ملائمًا ، فإنه يقرر فى الوقت نفسه بأنه محدود للغاية ، إذ أنه لا يفسر سوى قلة قليلة من المداخل entries فى معجم معين ، وفى هذه الحالة يلجأ المعجمى غالبًا إلى ما يسميه بتمييز المعانى ، ويذكر مرادفات جزئية عديدة ، يكون بعضها ملائمًا فى بعض أنواع السياق ، والأخرى ملائمة فى أنواع السياق الآخرى ، وعندما يفعل ذلك ، يتعين عليه أن يميز أنواع السياق بتقديم وصف عام لكل منها ، وعادة ما يتم ذلك بالرجوع إلى مادة الموضوع ؛ وفى حالات كثيرة لا توجد مثل هذه الاستعانة حتى بالنسبة للمرادفات الجزئية ، إذ أن استعمال الكلمة يمكن تعلمه بطرائق أخرى[٢] مثل التعلم الإشارى .

على أن علاقة ترادف الكلمات بالكلمات أو العبارات قليلة الأهمية إذا ما قورنت بعلاقة أخرى تمثل عند كواين المفهوم المحورى فى علم الدلالة وهى علاقة التكافؤ الدلالى semantical equivalence لجمل كاملة ، وإذا أخذنا مفهوم التكافؤ الدلالى بعين الاعتبار ، لكان تعريف مفهوم الترادف أمرًا يسيرًا على النحو الآتى : تكون الكلمة مرادفة لكلمة أو عبارة إذا كان استبدال إحداهما بالأخرى فى جملة ينتج دائما جملة متكافئة ؛ ولكن السؤال الهام الآن هو : متى تعد الجمل متكافئة دلاليا ؟ والجواب المؤقت من وجهة النظر السلوكية هو أنها تكون متكافئة لو كان استعمالها هو نفس الاستعمال ، وإذا حاولنا وضع المسألة بصورة أقل غموضًا ، جاز لنا أن نقول إن الجمل تكون متكافئة لو حثت

---

(١) - Ibid, p. 47.

(٢) - Ibid, p. 47.

على نطقها نفس المواقف المثيرة ؛ ولكن هذا أمر يتعذر الحدوث ، إذ لا يمكن نطق الجمل معًا في وقت واحد ، لأن نطق إحداها يستبعد نطق الأخرى ، زد على ذلك أنه فى أية مناسبة تنطق فيها إحدى الجمل لابد من أن يوجد سبب ، مهما كان تافهًا ، لنطقها دون جملة أخرى ؛ ومن الواضح أننا نطلب الكثير لو طلبنا لجملتين متكافئتين أن تحث عليهما نفس المثيرات تمامًا ، ولو كان المعيار المطلوب يضاهى بالفعل الشروط المثيرة لنطق الجمل ، فسوف يكون بالتأكيد متعذرًا فى الممارسة ، لأن المنطوقات لا يمكن التنبؤ بها بالفعل على وجه الجملة ، إذ أن بواعث نطق جملة معينة يمكن أن تتنوع تنوعًا يأتى على نطاق واسع ، وبصورة مبهمة فى أحوال كثيرة ؛ فالمتكلم ربما يريد أن يأمر ، أو يعزى أو يدهش ، أو يسلى ، أو يؤثر أو يخفف من صمت محزن وهلم جرا[1] .

ولو أننا أخذنا فى تأمل هذه البواعث المتباينة ، لانتهى بنا الأمر إلى بحث أفكار مفهومية مثل القصد الذى يريده المتكلم من نطقه للجملة ، أو الغرض من وراء نطقها ، أو الفكرة التى توجد فى ذهن المتكلم عند نطقه للجملة ، أو الانفعال الذى يحس به المتكلم ، وغير ذلك من الأفكار التى يعالجها أصحاب الاتجاه الثانى فى فلسفة اللغة الذى أشرنا إليه فى المدخل ، والذى يهتم بالعلاقة بين المعنى والاستعمال ولكن من زاوية بحث العلاقة بين اللغة والمتكلم ، أما كواين فإنه ينحى جانبًا كل هذه الأفكار المفهومية ويؤكد على أهمية الاستعمال فى المعنى ولكن من زاوية العلاقة بين اللغة والعالم ؛ وأحسب أن هذا الفرق بين الموقفين إزاء فكرة الاستعمال على درجة من الأهمية بحيث إذا أفلت منا ، ضاعت منا القضية الأساسية التى يود كواين إبرازها من وراء تناوله لمكانة الاستعمال فى المعنى .

وتتضح هذه القضية كأحسن ما يكون الوضوح عندما يقرر كواين أننا نستطيع أن نجتنب البحث فى كل البواعث المشار إليها لو قصرنا اهتمامنا على التكافؤ المعرفى cognitive equivalence للجمل ، أى على تماثل شروط الصدق sameness of truth conditions، ومن ثم فإننا ننظم الظروف بأنفسنا فى صيغة تساؤل ، ونسأل فقط عن حكم الصدق والكذب ؛ وسوف تنال الجمل المتكافئة معرفيًا أحكامًا متماثلة ، على الأقل إذا احتفظنا بنفس المتكلم الذى يصدر هذه الأحكام ، ويمكن أن يخطئ هذا المتكلم فى أحكامه ، ولكن هذا أمر لا يهم ، لأنه سوف يقع بعد ذلك فى نفس الخطأ فى الجمل على حد

---

(١) - Ibid, pp. 47-48.

سواء ؛ ولاحظنا أننا نطلب الكثير لو طلبنا لجملتين متكافئتين أن يحث على نطقهما نفس المثيرات تمامًا ، والآن فإننا نواجه صعوبة مضادة هى أننا نطلب القليل ، إذ نطلب فقط أن يصدق المتكلم بالجمل على السواء أو ينكرها على السواء أو يتوقف عن الحكم عليها على السواء[١] .

إذا شئنا أن نتغلب على هذه الصعوبة ، لابد أن نركز اهتمامنا على نمط معين من الجمل هو جمل المناسبة ocasion sentences، وهذه الجمل – باعتبارها مقابلة للجمل الدائمة standing sentences – هى التى تغير قيم صدقها من مناسبة إلى أخرى إلى درجة أن الحكم الجديد عليها لابد من الحث عليه فى كل مرة ؛ ويمكن القول بأن جمل المناسبة هى التى تحتوى على كلمات دالة indexical words أى كلمات تدل مثلاً على الأشخاص أو الأشياء فى العالم الخارجى ، والتى تعتمد اعتمادًا أساسيًا على أزمنة الأفعال ، وأمثلتها هى « هذا أحمر » و « يجرى أرنب هناك » ويصنف كواين هذه الجمل على أنها جمل الملاحظة observation sentences ، وسبق أن شرحنا تحديد مجالها ودورها بشىء من التفصيل ، وبالإضافة إلى الأمثلة السابقة هناك أمثلة من قبيل « هو أعزب » و« يسير هناك معلم محمد الخاص العجوز » ولا توصف هذه الأمثلة على أنها جمل ملاحظة ، ولكنها لا تزال جمل مناسبة ؛ فقيمة صدق الجملة « هو أعزب » تتغير بتغير إشارة الضمير « هو » من مناسبة إلى أخرى ، وقل مثل ذلك عن قيمة صدق الجملة « يسير هناك معلم محمد الخاص العجوز » ، إذ يعتمد صدقها معًا على تغير إشارة الاسم « محمد » وعلى الشخص الذى يتصادف عبوره للشارع فى اللحظة التى تقال فيها الجملة ؛ والآن لو كان الشخص الذى نستجوبه على استعداد لتقديم أحكام متماثلة على هاتين الجملتين من جمل المناسبة فى كل مناسبة نضع فيها الجملتين موضع السؤال ، ومهما كانت الظروف الحاضرة ، إذن لابد من القول بأن الجملتين مكافئتان معرفيًا بالنسبة له[٢] .

ويتوقف التكافؤ المعرفى لجملتين من جمل المناسبة بالنسبة لمتكلم على كونه مستعدًا لتقديم أحكام متماثلة عندما نضع الجملتين موضع التساؤل فى ظروف مثيرة ؛ وسبق أن أوضحنا ما يعنيه كواين بفكرة « الاستعداد » ، أما فكرة الظروف المثيرة فإن كواين

(١) - Ibid, p. 48.

(٢) - Ibid, p. 49.

يوضحها بقوله إنها مسألة تتعلق بالقوى الخارجية التى لها تأثير على الشخص المستجوب فى لحظة الاستجواب ، وهذه القوى تؤثر على جهازه العصبى عن طريق إثارة حواسه ؛ وبفضل قانون الكل أو لا شيء ، لا توجد درجات أو جوانب للإثارة لكى نميزها ، وهكذا يجوز أن نطابق ببساطة ، دون أية خسارة فى المعلومات الملائمة ، المثير الخارجى للشخص فى كل لحظة بمجموعة حواسه المثارة(١) .

لقد حددنا علاقة التكافؤ المعرفى بالنسبة لجمل المناسبة ، والآن ماذا عن الكلمات المفردة وعلاقة ترادفها بالكلمات والعبارات الأخرى ؟ إن تحديد هذه العلاقة أمر يسير بعد تثبيت علاقة تكافؤ الجمل ، فالكلمة تكون مرادفة لكلمة أو عبارة أخرى إذا كان استبدال إحداهما بالأخرى ينتج دائمًا جملاً متكافئة ، والآن بعد أن تحددت علاقة التكافؤ بالنسبة للجمل لدينا على أنها التكافؤ المعرفى ، يمكن القول بأن الكلمة تكون مرادفة « معرفيًا » cognitively synonymous لكلمة أو عبارة إذا كان استبدال إحداهما بالأخرى ينتج دائمًا جملاً متكافئة معرفيًا(٢) .

وهكذا حاول كواين أن يضع بناءً فكريًا قوى الأساس للترادف المعرفى ، وجاءت المداميك فى هذا البناء على النحو الآتى : أولاً هناك علاقة تماثل المثير عمومًا لفرد فى أوقات مختلفة ، ويعرف هذا ، نظريًا ، عن طريق تماثل الأعضاء الحسية المثارة ؛ وبعد ذلك هناك علاقة التكافؤ المعرفى لجمل المناسبة بالنسبة للفرد ، ويعرف هذا عن طريق استعداده إلى تقديم أحكام متماثلة عندما نضع الجملتين موضع التساؤل تحت مثيرات متطابقة على وجه العموم ؛ وبعد ذلك هناك علاقة التكافؤ المعرفى لجمل المناسبة بالنسبة للمجتمع اللغوى بأسره ، ويعرف هذا على أنه تكافؤ معرفى بالنسبة لكل فرد ؛ وأخيرًا هناك علاقة الترادف المعرفى لكلمة بكلمة أو عبارة ، ويعرف هذا على أنه قابلية التبادل فى جمل المناسبة مع الاحتفاظ بالتكافؤ المعرفى لهذه الجمل ، ويمكن أن نخطو خطوة اسمية إضافية ، إذا شئنا ، ونعرف المعنى المعرفى cognitive meaning لكلمة على أنه مجموعة مرادفاتها المعرفية(٣) .

لعلنا نلاحظ أن تصور كواين لمفهوم الترادف المعرفى يعد مكملاً إلى حد كبير لتصوره

(١) - Ibid, p. 50.

(٢) - Ibid, p. 51.

(٣) -Ibid, pp. 51-52.

السلوكى السابق لفكرة فهم التعبير وتكافؤ التعبير ، لأنه إذا كان قد قدم معياراً للفهم ، مثلاً ، يقول بأننا نفهم التعبير بقدر ما نعرف شروط صدقه ، فإنه يؤسس الترادف المعرفى على التكافؤ المعرفى ، أى تماثل شروط الصدق ، أو تشابه الأحكام بمقتضى تشابه المثير ؛ فالصدق هو حجر الأساس فى الحالتين ، ويمكن أن نخلص من هذا إلى نتيجة مؤداها أن كواين لم يتحول عن فكرته الأساسية فى علم الدلالة وهى محاولة رد — وإن شئت تعبيراً أخف حدة قل جذب — نظرية المعنى وأفكارها إلى نظرية الإشارة وأفكارها .

ليس من شك فى أن كواين يحاول معالجة مشكلة المعنى معالجة علمية ، أى يناقشها داخل إطار معرفى يمكن التحقق من عناصره ، ويؤسس هذه العناصر على ما يمكن ملاحظته بشكل بين ذاتى ؛ وهو حينما يهتم بالمعنى فإنه يضع نصب عينيه دائماً الدور الذى يمكن أن يؤديه المعنى فى التقرير العلمى التفسيرى للعالم ، وذلك على أساس نظرته للفلسفة باعتبارها متصلة بالعلم أو بوصفها جزءاً منه ؛ ومن ثم نجد أن المصطلحات التى تمثل لب لباب وجهة نظره فى المعنى هى « الصدق » و « التكافؤ المعرفى » و« الاستعداد للسلوك » و « الاستعمال » و « السلوك اللفظى » و « الظروف المثيرة » ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فليس بدعاً أن يكون المعنى عند كواين هو « المعنى المعرفى » .

وإذا كان كواين قد انتقد علاقة ترادف الكلمات بالكلمات أو العبارات ، أو منهج تقديم معنى الكلمة بذكر مرادفها بأنه منهج ملائم ولكنه محدود ، فإننا نستطيع أن نقول نفس الشىء عن علاقة الترادف المعرفى ؛ صحيح أن كواين وضع أساساً راسخاً إلى حد ما لمفهوم الترادف المعرفى ، ولكن هذا المفهوم لا يتعلق إلا بجانب واحد من جوانب اللغة وهو الجانب المعرفى أو لغة العلم ، وقد استطاع كواين تفسيره من خلال مذهبه السلوكى التجريبى فى اللغة والمعنى ، ولكنه تجاهل الجوانب الأخرى للغة مثل الجوانب الانفعالية والأدبية وغيرها ؛ وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن تصور كواين للمعنى يقدم المعنى لبعض الجمل — وفى المقام الأول جمل المناسبة — دون بعضها الآخر ، وهو بهذه الصورة تصور محدود .

إذا كان كواين قد أشار فى غير موضع من كتاباته ، كما أوضحنا ، إلى تقرير فتجنشتين بأننا يجب أن نلتمس معنى الكلمة فى استعمالها ، وبعد ذلك أكد كواين نفسه على فكرة الاستعمال فى المعنى ، فهل هناك تشابه بينهما فى وجهة النظر ؟

يبدو أن ثمة تشابهًا بين أفكار فتجنشتين وكواين فى فلسفة اللغة وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار فتجنشتين المتأخر، ولعل الذي يوحى بعقد المقارنات التى تفضى إلى تبنى القول بوجود تشابه هو كواين نفسه، إذ أنه يقتبس مع شيء من الاستحسان بعض عبارات فتجنشتين فى مواضع منوعة فى كتاباته، فمثلاً فى كتاب « الكلمة والموضوع » يقتبس قول فتجنشتين « فهم الجملة يعنى فهم اللغة »[1]، ويعلق كواين على هذه العبارة فى الهامش قائلاً: « ولعل مذهب اللاتحديد فى الترجمة يحظى بجو قليل من المفارقة عند القراء الذين يألفون ملاحظات فتجنشتين المتأخرة عن المعنى »[2].

والحق أن هناك بعض الآراء التى يقتسمها فتجنشتين وكواين وتؤيد افتراض وجود التشابه بينهما، مثل معاداة الأفلاطونية platonism، فكلاهما يرفض الفكرة القائلة بوجود تصورات أو معانى توجد مكونة جيدًا ومحددة فى عالم معين واضح المعالم، وكلاهما يرفض التصور الخاص بمهمة الفلسفة الملازم لهذه الفكرة، أى التصور القائل بأنه يتعين على الفيلسوف أن يصب جل عنايته على تحليل المفاهيم وتفسير العلاقات القائمة فى العالم الأفلاطونى، زد على ذلك توكيد فتجنشتين وكواين على الملامح « الكلية » holistic لاستعمال اللغة والمعنى، أى الفكرة القائلة بأن المفردات تكون ذوات مغزى فقط إذا قامت بدور معين فى بنية مركبة معينة، وأن معناها متصل اتصالاً غير منفصم العرى بالعمل التام للبنية[3]، وهذا واضح من النزعة الكلية عند كواين كما تبين فى الفصل الأول، ويتجلى فى عمل فتجنشتين فى نفس الفقرة التى اقتبس منها كواين العبارة السابقة، والتى تقول: « تكتسب العلامة (الجملة » مغزاها من نسق العلامات، ومن اللغة التى تنتمى إليها، وعلى وجه التقريب، فهم الجملة يعنى فهم اللغة »[4].

زد على ذلك اتفاق فتجنشتين وكواين على رفض اللغة الخاصة، وعلى التوكيد على السمة الاجتماعية للغة، وكذلك الاشتراك فى نظرة معينة إلى فلسفة العقل، أى النظر إلى العقل بوصفه استعدادًا للسلوك.

---

(١) - Wittgenstein, L., The Blue and Brown Books, Harper & Row, Publishers, New York: Harper Torchbooks, 1958, p. 5.

(٢) - W. & O., p. 77.

(٣) - Heal, J., Fact and Meaning: Quine and Wittgenstein on Philosophy of Language, Oxford: Basil Blackwell, 1989, pp. 1-2.

(٤) - Wittgenstein, L., The Blue and Brown Books, p. 5.

ولكن إلى جانب هذه الأفكار المتماثلة والتى لا تخطئها عين فاحصة ، هناك أيضًا اختلافات هامة ؛ فالمزاج الفلسفى عند كواين يختلف عن مزاج فتجنشتين ، إذ يمارس كواين الفلسفة باعتبارها متصلة بالعلم على أساس أنها دراسة لمناهج العلم ، وأنها جزء من العلم نفسه ، وينصب اهتمامه بالمعنى على دوره فى التقرير العلمى التفسيرى للعالم ، ويتجلى فى فكرته عن المعنى المعرفى ، وينعكس أيضًا فى استخفافه بالمعنى من المنظور العقلى وبما هو قصدى ، وعلى عكس ذلك ، وجدنا ، فيما أسلفناه ، الملاحظات المفعمة بالثناء على ما هو ما صدقى وعلمى .

أما فى كتابات فتجنشتين ، فلا نجد نظيرًا لهذا ، صحيح أنه يهاجم الأفلاطونية ، ولكنه لا يضع ملاحظات شكية على نحو صريح حول المعنى ، ولا يقوم العلم بالنسبة له بدور الوضع النموذجى المحورى بالنسبة للأعمال الفكرية[1] ، فالاهتمام بالعلم غائب على نطاق واسع فى كتابات فتجنشتين ؛ وخلاصة القول هى أن فتجنشتين وكواين يتفقان على النظر إلى اللغة باعتبارها محورا أساسيا تدور حوله فاعلية الفيلسوف ، ويختلفان فى معالجة البحث الفلسفى ، إذ ينظر إليه فتجنشتين بوصفه « علاجا » بينما ينظر إليه كواين على أنه « ابستمولوجيا داخل العلم الطبيعى » ، وسوف نوضح رأى كواين فى تطبيع الابستمولوجيا وصلة الفلسفة بالعلم فى خاتمة الكتاب .

٣ – ٤ نظرية الاستعمال فى المعنى

ألمحنا فى الجزء الأول من هذا الفصل إلى أن مشكلة المعنى كثيرة الأطراف ومتعددة الجوانب الأمر الذى جعلها تفرز عددًا كبيرًا من النظريات التى حاولت تحديدها وحلها ، ونحن فى اقتناعنا بنظرية الاستعمال لا ندعى أنها النظرية الصحيحة وما عداها نظريات خاطئة ، إذ ليس فى المعنى صواب وخطأ بالمغزى المعرفى ، وإنما نزعم فحسب أنها أكثر ملاءمة من غيرها ؛ وسوف نشير إلى الجوانب التى نرى أنها تكشف عن هذه الملاءمة بعد أن نعرض النظرية أولاً .

---

(١) - Heal, J., Op. Cit., pp. 2-3.

يعد كتاب جان هيل Jane Heal المشار إليه مقارنة للآراء الفلسفية فى المعنى التى نجدها فى كتابات كواين وفتجنشتين ، والنتيجة التى تخلص إليها من هذه المقارنة هو أن الاختلافات تقوم بينهما على نحو أكثر من التشابهات .

تعتمد نظرية الاستعمال فى المعنى على افتراض مؤداه أن معنى الكلمة (أو التعبير) هو استعمالها (أو استعماله) فى اللغة ، أى أن المعنى لا يتضح إلا من خلال وضع الكلمة أو التعبير فى سياق ؛ وثمة ارهاصات لهذه النظرية فى كتابات فتجنشتين المبكرة ، غير أن هذه الارهاصات قد اكتملت وشكلت نظرية واضحة فى كتبه المتأخرة ، ثم جاء فلاسفة اكسفورد فطوروا هذه النظرية وأضافوا إليها أبعادًا جديدة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تحظى بتأييد من أصحاب الاتجاه الوظيفى فى علم اللغة .

والحق أن فتجنشتين المبكر قد ذهب فى كتابه « رسالة منطقية فلسفية » إلى القول بالنظرية التصويرية فى اللغة ومفادها أن اللغة رسم للوجود الخارجى أو تصوير له ، بيد أن فتجنشتين المتأخر أدرك جوانب القصور فى هذه النظرية وراح ينقد الافتراض العام الذى نسبه إلى أوغسطين ومؤداه أن معنى أية كلمة هو الشىء الذى تشير إليه أو تمثله ، واستهل كتابه « البحوث الفلسفية » بفقرة اقتبسها من كتاب « الاعترافات » لأوغسطين يقول فيها : « عندما كان يسمى (الأكبر سنًا منى) موضوعًا ما ، ويتجهون وفقًا لذلك نحو شىء ، فإننى أرى هذا الشىء وأفهم أن الشىء تمت تسميته عن طريق الصوت الذى تلفظوا به عندما كانوا يقصدون الإشارة إليه ، وكان قصدهم واضحًا عن طريق حركاتهم الجسدية ، كما لو كانت اللغة الطبيعية لكل البشر هى : تعبير الوجه وحركة العينين ، وحركة أجزاء الجسم الأخرى ، ونغمة الصوت التى تعبر عن حالاتنا الذهنية فى البحث عن الشىء ، ورفضه أو تجنبه ، وهكذا ، بما أننى استمعت إلى الكلمات مرارًا وتكرارًا وقد استعملت فى مواضعها المناسبة فى العبارات المختلفة ، فقد تعلمت شيئًا فشيئًا أن أفهم الموضوعات التى يعنونها ؛ وبعد أن دربت فمى على صياغة تلك العلامات ، استعملتها للتعبير عن رغباتى »[١] ؛ ولكن فتجنشتين ينقد هذا التصور للغة بحجة أنه يعطينا صورة محددة لماهية اللغة الإنسانية على النحو الآتى : الكلمات المفردة فى اللغة تسمى الأشياء ، والجملة مجموعة مؤتلفة من هذه الأسماء ، ونجد فى هذه الصورة للغة جذور الفكرة التالية : إن كل كلمة لها معنى ، وهذا المعنى مرتبط بالكلمة ، إنه الشىء الذى تشير إليه الكلمة[٢] .

---

(١) - Wittgenstein, L., Philosophical Investigations, Part 1, See. 1, p. 2.

(٢) - Ibid, Part 1, sec. 1, p. 2.

وإذا أمعنا النظر فى تصور اللغة الذى قدمه أوغسطين ، لوجدنا أنه نفس تصور فتجنشتين فى « الرسالة » ، وهو تصور قاصر دون شك ، لأنه لا ينطوى إلا على جانب واحد من جوانب اللغة ألا وهو التسمية ، ولقد ترتب على هذا التصور للغة تصور للمعنى فحواه أن معنى الكلمة هو الشيء الذى تشير إليه ؛ وعندما حاول فتجنشتين اجتناب هذا القصور فى نظرته للغة عثر على حيلة جديدة هى « ألعاب اللغة » ، ولقد نتج عن هذا المفهوم المحورى الجديد نظرية جديدة فى المعنى هى نظرية الاستعمال التى توجزها العبارة القائلة : « لا تسأل عن المعنى ، بل أسأل عن الاستعمال » .

وقدم فتجنشتين أمثلة منوعة لمفهوم « لعبة اللغة » فى كتابه « بحوث فلسفية » يقول فى مثال منها : « لنفكر الآن فى الاستعمال التالى للغة : إنى أرسل شخصًا ما إلى متجر ، وأعطيه قصاصة من الورق مكتوبًا عليها ، « خمس تفاحات حمراء » ، ويأخذ هذه الورقة ويذهب بها إلى صاحب المتجر ، الذى يفتح درجًا مكتوبًا عليه « تفاح » ، ويبحث عن الكلمة « أحمر » فى قائمة حتى يجد نموذج اللون المقابل لها ، ثم يتلو سلسلة من الأعداد الصحيحة – وإنى لافترض أنه يعرفها عن ظهر قلب – إلى أن يصل إلى الكلمة « خمس » ، وهو يأخذ مع كل عدد يتلفظ به تفاحة مثل النموذج الموجود خارج الدرج ؛ وبهذه الطريقة وبطرق مماثلة يتعامل الإنسان مع الكلمات ، ولكن ترى كيف يعرف الموضع ، وكيف يبحث عن الكلمة « أحمر » ، وما الذى هو فاعله بالكلمة « خمس » ؟ حسنًا ، إننى افترض أنه يفعل كما وصفت .. ولكن ما معنى كلمة « خمس » ؟ ليس مثل هذا السؤال موضع بحث هنا ، وإنما السؤال فحسب عن كيفية استعمال الكلمة (خمس)»[1] ؛ ويسوق فتجنشتين مثالاً ثانيًا لألعاب اللغة يذهب فيه إلى أن غرض اللغة هنا هو التواصل بين البناء (أ) ومساعده (ب) ، (أ) يبنى بأحجار البناء ؛ فهناك قوالب ، وقوائم ، وبلاطات ، ودعامات ، و (ب) ينقل الأحجار بالنظام الذى به يحتاج إليها (أ) ؛ وهما يستعملان لهذا الغرض لغة تتألف من الكلمات « قالب » و « قائمة » و « بلاطة » و « دعامة » ، و (أ) يطلبها (أى الكلمات) و (ب) يحضر الحجر الذى تعلم أن يحضره عند سماع مثل هذا النداء – وتخيل (هذا) على أنه اللغة الأصلية التامة »[2] .

(١) -Ibid, Part 1, Sec, 2, pp.2-3.

(٢) -Ibid, Part 1. Sec 2. p. 3.

ويمكن أن نقارن الطريقة التى تستعمل بها كلمة « خمس » بالطريقة التى تستعمل بها كلمة بلاطة ، مثلاً ، داخل لعبة اللغة فى المثالين السابقين ، ويتضح الاختلاف فى استعمال هاتين الكلمتين عندما نقارن الاجراءات التى عن طريقها ثم تعليم الاستعمال الخاص بهما ، ففى المثال الأول من المفترض أن صاحب المتجر يحفظ سلسلة من الأعداد عن ظهر قلب وأنه تعلم كيف يستعمل هذه المعرفة فى حالة عد التفاح على سبيل المثال ، فهو يتلو سلسلة من الأعداد الصحيحة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ويأخذ مع كل عدد تفاحة من السلة ، « ويجب أن يأخذ حذره فلا يعد تفاحة واحدة مرتين أو يغفل عن تفاحة ، والعدد الذى يكون – طبقًا لهذا الاجراء – متساويًا مع التفاحة الأخيرة هو عدد التفاح فى السلة ، وهذا هو كيفية تعلم استعمال الأعداد ، وكيفية استعمال الأعداد والعد والحصر ، ثم نقارن هذا باستعمال كلمة « بلاطة » حيث يتم تعلم هذه الكلمة عن طريق شرح بسيط : إذ يتم نطق الكلمة بلاطة مرارًا وتكرارًا مع وجود البلاطة ، وفى النهاية يكون المرء قادرًا على مماثلة البلاط بصورة صحيحة داخل لعبة اللغة التى قد تعلمها »[١] .

وتنطوى قائمة ألعاب اللغة عند فتجنشتين– والتى يدعونا فيها إلى ملاحظة كثرة هذه الألعاب – على الأمثلة الآتية : اصدار الأوامر والامتثال لها ، ووصف المظهر الخارجى لشىء أو تقديم أحجامه ، والتقرير عن حادثة ، والتفكر حول حادثة ، وصياغة الفرض واختباره ، والتمثيل ، وتخمين الأحاجى ، والتساؤل ، والسب ، والترحيب ، والتوسل[٢] .

ويذهب فتجنشتين إلى أنه لا يوجد قاسم مشترك أو صفة مميزة لكل الفاعليات التى نسميها « ألعاب » ، وكل ما يمكن أن نجده بعد فحص الألعاب المنوعة ومقارنتها لا يزيد على أن يكون شبكة معقدة من التشابهات تتداخل وتتشابك كما هو الحال فى التشابهات بين أفراد العائلة ، يقول فتجنشتين : تأمل على سبيل المثال الأحداث التى ندعوها « ألعاب » ، وأقصد الألعاب ذات اللوحة الخشبية ، وألعاب الورق ، وألعاب الكرة ،

---

(١) -Feyerabend, P., "Wittgenstein's Philosophical Investigations", The Philosophical Review, Vol. LXIV, 1955, p. 462.

(٢) - Wittgenstein, L., Philosophical Investigations, Part 1, Sec. 23, p. 11.

والألعاب الأولمبية ، وهلم جرا ، فما هو القاسم المشترك بينها جميعًا ؟ لا تقل : يجب أن يوجد شيء مشترك ، أو يجب أن لا نسميها ألعاب » ، ولكن انظر ولاحظ ما إذا كان هناك أى شيء مشترك بينها جميعًا ؛ ولو أنك نظرت إليها جميعًا فلن ترى شيئًا ما يكون مشتركًا بينها جميعًا ، ولكن تشابهات وعلاقات ... واكرر لا تتأمل ولكن انظر على سبيل المثال إلى الألعاب ذات اللوحة الخشبية بعلاقاتها المتنوعة ، والآن انتقل إلى ألعاب الورق ، تجد هنا تماثلات مع المجموعة الأولى ، ولكن تتلاشى ملامح مشتركة عديدة ، وتظهر ملامح أخرى ؛ وعندما ننتقل بعد ذلك إلى ألعاب الكرة ، يبقى كثير مما هو مشترك ويزول كثير ، فهل كل هذه الألعاب « مسلية » ؟ قارن الشطرنج بالألعاب التافهة والمنافسات ، أو هل يوجد دائمًا فوز وهزيمة ، أو تنافس بين اللاعبين ؟ وفكر بأناة ؛ يوجد فى ألعاب الكرة فوز وهزيمة ، ولكن عندما يقذف الطفل كرته نحو الحائط ويمسك بها مرة ثانية ، فهذا ملمح خيب الأمل فى وجود فوز وهزيمة ، وانظر إلى الجوانب التى يتم لعبها عن طريق المهارة والحظ ، وإلى الاختلاف بين المهارة فى الشطرنج والمهارة فى التنس ... ويمكن أن ندرك إلى أى مدى تتوارى التشابهات وتتلاشى ، ونتيجة كل هذا الفحص هى : أننا نرى شبكة معقدة من التشابهات تتداخل وتتشابك »[١] .

ويمعن فتجنشتين النظر فى هذه التشابهات المتشابكة المتداخلة ثم يقرر « إننى عاجز عن التفكير فى تعبير نصف به هذه التشابهات أفضل من « تشابهات العائلة » ، لأن التشابهات المتنوعة بين أفراد العائلة : بنية الجسم ، والصورة ، ولون العيون ، وطريقة المشى ، والمزاج ، وهلم جرا ، تتداخل وتتشابك بالطريقة ذاتها ، وسوف أقول الألعاب تكون عائلة »[٢] .

وإذا كان ثمة نتيجة لابد من استخلاصها من تقديم مفهوم « لعبة اللغة » ، فتلك هى أن ليس للغة وظيفة واحدة هى وصف الواقع أو تقرير وقائعه ، بل هناك وظائف متعددة ، كما أن الجمل لا تنقسم إلى ثلاثة أنواع فحسب هى التقرير والاستفهام والأمر وإنما هنالك أنواع كثيرة لا تعد ولا تحصى من استعمال الكلمات والعبارات .

ويقدم فتجنشتين تشبيهًا آخر إلى جانب تشبيه ألعاب اللغة هو « الأداة » tool؛ فاللغة

(١) - Ibid, Part 1, Sec. 66, pp. 31 - 32.

(٢) - Ibid, Part 1, Sec. 67, p. 32.

نشاط يرتكز على استخدام الكلمات كأدوات ، والهدف الذى يرمى إليه فتجنشتين من تقديم تشبيه الأداة هو أن يلفت أنظارنا إلى تنوع استعمال الكلمات كما تتنوع الأدوات فى الصندوق ، فنراه يقول : « تأمل الأدوات الموجودة فى الصندوق ، توجد مطرقة ، وزرادية ، ومنشار ، ومفك ، ومسطرة ، ووعاء الغراء ، وغراء ، ومسامير ورزات ؛ ووظائف الكلمات المنوعة مثل وظائف هذه الأشياء (وتوجد تشابهات فى الحالتين على حد سواء) »(١) .

إذا كان فتجنشتين قد أسهب فى الحديث عن اللغة باعتبارها « لعبة » أحيانًا ، أو باعتبارها أداة » أحيانًا أخرى ، فذلك راجع إلى أنه ينظر إلى تكلم اللغة من حيث هو جزء من الفاعلية الاجتماعية ، وطريقة للسلوك والحياة فى مجتمع أو صورة من صور الحياة على حد تعبيره ، إذ يقول : « من السهل أن نتخيل لغة تتألف فقط من أوامر وبيانات ... أو لغة تتألف فقط من أسئلة وتعبيرات للإجابة بنعم أو لا ، وأشكال أخرى فى اللغة لا تعد ولا تحصى ، وتخيل اللغة يعنى تخيل صورة الحياة »(٢) ، ويقول أيضًا : « ويعنى تعبير ألعاب اللغة هنا ابراز الحقيقة التى مؤداها أن تكلم لغة هو جزء من الفاعلية أو من صورة الحياة »(٣) .

ويخلص فتجنشتين من تصوره هذا لطبيعة اللغة إلى نتيجة مفادها أن معنى الكلمة هو استعمالها فى ألعاب اللغة المنوعة التى تقوم الكلمة بدور فيها ، ويقرر تلك النتيجة بقوله : « فيما يتعلق بطائفة (كبيرة) من الحالات – وليس جميعها – التى تستعمل فيها كلمة « معنى » يمكن أن يتم تحديدها هكذا : معنى الكلمة هو استعمالها فى اللغة »(٤) ؛ وخلاصة رأى فتجنشتين فى هذه المسألة أن كل رمز أو كل كلمة فى اللغة تبدو فى ذاتها ميتة ، ويأتى الاستعمال فيهبها الحياة ، أو قل إن الاستعمال هو حياتها .

ولقد طور فلاسفة مدرسة اكسفورد نظرية الاستعمال وأضافوا إليها أبعادًا جديدة حتى أصبحت نظرية تميزهم كتيار من تيارات الفلسفة التحليلية ، وقدموا تعريف المعنى فى حدود الاستعمال باعتباره قاعدة منهجية عملية ، ونظروا بالتالى إلى السؤال : كيف

(١) - Ibid, Part 1, Sec. 12, p. 6.

(٢) - Ibid, Part 1, Sec. 19, p. 8.

(٣) - Ibid, Part 1, Sec. 23, p. 11.

(٤) - Ibid, Part 1, Sec. 43, p. 20.

تستعمل (س) أو فى أى السياقات تستعمل بطريقة ذات مغزى على أنه حيلة أو أسلوب على حد تعبير « رايل » ينبهنا إلى أمرين : أولاً ، الحقيقة القائلة إن الكلمات تعنى بطرق مختلفة ، ثانيًا ، أن معنى أية كلمة يرتبط دائمًا بالسياق الذى تستعمل فيه ؛ ويذهب « وارنوك » إلى أن معرفة معنى الجملة هو معرفة كيفية استعمالها ، ومعرفة فى أى الظروف يكون استعمالها صحيحًا أو غير صحيح ، فالجملة تكون ذات معنى لو أن لها استعمالاً ، ونحن نعرف معناها إذا عرفنا استعمالها(١) .

ويرى « فايزمان » أن الكلام عن المعنى بوصفه « ملازمًا » للكلمات هو كلام مضلل ، لأنه يبدو كما لو كان المعنى نوعًا من الكائن السحرى ، ويتحد بالكلمة اتحاد الروح بالجسد ، ولكن المعنى ليس روحًا فى جسد الكلمة ، وما نسميه بالمعنى يشكف عن ذاته فى استعمال الكلمة ؛ إن القصد التام لتفسيرنا يمكن ايجازه بالقول « إذا رغبت فى معرفة ما تعنيه الكلمة ، فانظر وتدبر كيف تستعمل »(٢) .

إذا كان معنى الكلمة أو العبارة هو استعمالها فى اللغة ، فيجب أن يكون هذا الاستعمال محكومًا بقواعد بحيث يجعل الكلمة أو العبارة ذات مغزى ، ومن ثم تأتى ضرورة التفرقة بين الاستعمال الصحيح والاستعمال غير الصحيح ، فالاستعمال الصحيح هو الذى يجئ منسجمًا مع القواعد التى تضبطه ، أما الاستعمال غير الصحيح فهو الذى لا يخضع لتلك القواعد ؛ ومن هنا راح أصحاب نظرية الإستعمال يبحثون عن قواعد الاستعمال ، ويتجلى هذا فى بحث أوستن عن القواعد التى تحكم العبارات الأدائية(٣) ، وهى فكرة طورها كثير من أتباع أوستن مثل ألستون الذى ذهب إلى أن هناك قبولاً واسع النطاق لوجهة النظر القائلة بأن المعنى اللغوى هو مسألة قواعد ، وإن شئت أن تضع ذلك بصورة أكثر وضوحًا قل إن الحقيقة القائلة بأن التعبير اللغوى له معنى معين هى الحقيقة القائلة بأن استخدامه محكوم بقواعد معينة(٤) .

(١) - Weitz, M., "Oxford Philosophy", The Philosophical Review, Vol. LXII, 1953, p. 197.

(٢) - Waismann, F., The Principles of Linguistic Philosophy, edited by R. Hare, London: Macmillan, 1968, p.156.

(٣) انظر دراستنا ، التحليل اللغوى عند مدرسة اكسفورد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) - Alston, W. P., "Semantic Rules", in Semantics and Philosophy,, edited by M. K. Munitz and P. K. Unger, New York: New York University Press, 1974, p. 17

ويمكن أن نتناول مجموعتين من القواعد تصف إحداهما منطق العبارة « من فضلك افتح الباب » وهى من عبارات الرجاء وتصف الأخرى منطق العبارة « ضع الأطباق بعيدًا » وهى من عبارات الأمر وذلك فى ظروف الاستعمال الطبيعى لهاتين العبارتين :

(أ) س (المتكلم) يلتمس من ص (المستمع) أن يفتح الباب :

١ – يجب أن يكون هناك باب فى متناول اليد ، ذلك الذى يكون متحددًا بشىء ما فى سياق الكلام .

٢ – يجب أن لا يكون الباب مفتوحًا فى الوقت الحالى .

٣ – يجب أن يكون فى إمكان ص أن يفتح الباب .

٤ – يجب أن يكون لدى س الرغبة فى أن يكون الباب مفتوحًا .

(ب) س يأمر ص أن يبعد الأطباق :

١ – يجب أن تكون هناك أطباق فى متناول اليد ، تلك التى تكون محددة بشىء ما فى سياق الكلام .

٢ – يجب أن لا تكون هذه الأطباق موضوعة بعيدًا فى الوقت الحالى .

٣ – يجب أن يكون فى إمكان ص أن يبعدها .

٤ – يجب على ص أن يبعدها وفقًا لرغبة س .

٥ – لابد من أن يكون س فى موضع السلطة بالنسبة لـ ص(١) .

فإذا تأملنا القواعد التى تحكم استعمال العبارة الأولى « من فضلك افتح الباب » ، لوجدنا أن مخالفة أية قاعدة من هذه القواعد تنتج لنا استعمالاً غير صحيح ؛ فمثلاً تستعمل العبارة المذكورة استعمالاً غير صحيح إذا لم يكن ثمة باب فى متناول المتكلم والمستمع ، كما تستعمل تلك العبارة استعمالاً غير صحيح إذا كان الباب مفتوحًا عندما نطق المتكلم عبارته ، وتستعمل تلك العبارة استعمالاً غير صحيح إذا وجه المتكلم عبارته إلى مستمع لا يقدر على تنفيذ الرجاء كأن يكون شخصًا عاجزًا مثلاً ، وهلم جرا .

---

(١) Alston, W. P., Philosophy of Language, p. 40 ff and E. A. Burtt, In Search of Philosophic understanding, London, George Allen & Unwin LTD, 1967, pp. 34 - 35, and see also W. P. Alston, "Semantic Rules", pp. 38-40.

وإذا كان فتجنشتين وفلاسفة مدرسة اكسفورد قد نظروا إلى اللغة باعتبارها جزءًا من الفاعلية الاجتماعية ، وطريقة للسلوك والحياة فى مجتمع ، فإن هنالك اتجاهًا فى علم اللغة يؤيد هذه النظرة تأييدًا كاملاً ألا وهو الاتجاه الوظيفى الذى يضم أسماء من قبيل « فيرث » J. R. Firth و« هاليدى » M. A. K. Halliday[(١)] ، والذى يضع توكيدًا كبيرًا على الوظيفة الاجتماعية للغة ، ويتفق أصحاب هذا الاتجاه على فكرة تمثل حجر الزاوية بالنسبة لاتجاههم ومفادها أن « اللغة أداة اتصال فى الحياة الاجتماعية ، وأن القواعد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم فى اللغة ؛ وحينما نصف اللغة فإننا يجب أن نصفها من خلال وظيفتها فى البيئة الاجتماعية التى تؤدى فيها تلك اللغة وظيفتها »[(٢)] ، ويذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن معنى الكلمة هو استعمالها فى اللغة ، وأن المعنى يتجلى من خلال السياق ، وتتعدد معانى الكلمة بقدر تعدد السياقات التى تستعمل فيها .

ولا يتسع المقام لضرب كثير من الأمثلة التى توضح صحة هذه الوجهة من النظر ، وحسبنا أن نسوق بعضها ، انظر إلى كلمة « أطرق » فى السياقات الآتية[(٣)] :

١ – أطرق الرجل ، أى سكت ولم يتكلم .
٢ – أطرق بصره ، أى أقبل ببصره إلى صدره وسكت .
٣ – أطرق رأسه ، أى أماله وأسكنه .
٤ – أطرق جناح الطائر ، أى لبس الريش الأعلى الريش الأسفل .
٥ – اطرقت الأرض ، إذا ركب التراب بعضه بعضًا .
٦ – أطرقه فحلاً ، أعطاه إياه يضرب فى إبله .

وتأمل كلمة « سقط » فى السياقات الآتية[(٤)] :

١ – سقط الكتاب ، وقع .
٢ – سقط على بعيره ، أى عثر على موضعه .
٣ – سقط فى كلامه ، أخطأ .

---

(١) - See Halliday, M. A. K., Language as Social Semiotic, London: Edward Arnold, 1978, p.36 ff.

(٢) د . يحيى أحمد ، « الاتجاه الوظيفى ودوره فى تحليل اللغة » ، ص ٩٧ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، دون تاريخ ، جزء ٣٠ ، ص ٢٦٦٢ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ، جزء ٢٣ ، ص ٢٠٣٧ وما بعدها .

٤ – سقط في يده ، ندم .
٥ – سقط إليّ قوم ، نزلوا عليّ .

وتأمل كلمة « قدر » فى السياقات الآتية[1] :

١ – قدر الرزق ، قسمه .
٢ – قدر الشىء بالشىء ، قاسه .
٣ – قَدَّرتُ أمر كذا وكذا ، أى نويته وعقدت عليه .
٤ – قدر الشىء ، دنا له .
٥ – قدر القوم أمرهم ، دبروه .
٦ – قدرت عليه الثوب ، أى جاء على المقدار .
٧ – « وما قدروا الله حق قدره » ، أى ما عظموا الله حق تعظيمه .
٨ – « فظن أن لن نقدر عليه » أى لن نضيق عليه .
٩ – « وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه » ، أى ضيق عليه .

من ذلك نرى أن معنى الكلمة يتحدد تبعًا للسياق الذى ترد فيه ، وبالتالى إذا شئنا دراسة دقيقة لمعانى الكلمات أو العبارات ، فلابد من أن نضرب بمشارط التحليل فى المواقف والسياقات التى تقع فيها ، وتختلف السياقات تبعًا لاختلاف اللغات ، بل تختلف فى اللغة الواحدة تبعًا لاختلاف البيئة الاجتماعية والإرث الثقافى للمجتمع .

وينقسم السياق ، على الأرجح ، إلى ثلاثة أنواع هى :

١ – السياق اللغوى :

هو السياق الذى يعتمد فى تعيين معنى الكلمة أو التعبير على العناصر اللغوية التى تحيط بالكلمة أو ترد فى التعبير ؛ مثل كلمة « زوج » فالمعجم يقول إن الكلمة تستخدم فى اللغة الفصيحة للمذكر والمؤنث ولكن فى قوله تعالى : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا﴾ [النساء : ٢٠] نجد أن السياق يحدد معنى الكلمة بالمؤنث بدلالة القرائن اللفظية المصاحبة للنص ، وقل مثل ذلك عن الجمع « أزواج » ، فهى كلمة تطلق على المذكر والمؤنث ، ولكننا نجدها فى قوله تعالى :

---

(١) المرجع السابق ، جزء ٣٩ ، ص ٣٥٤٥ – ٣٥٤٨ .

﴿وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثًا فلما نبأت بـه وأظهـره الله عليه عـرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير﴾ [التحريم : ٣] وقد تحدد معناها فى سياقها بالمؤنث بشهادة القرائن اللغوية[١] .

ويعد التنغيم من القرائن اللفظية التى تقوم بدور هام فى السياق اللغوى ، إذ العبارة الواحدة ربما تكون تقريرية أو استفهامية أو تهكمية أو طلبية ، والتنغيم هو الذى يميز بين هذه المعانى .

٢ – سياق الموقف :

ارتبط مصطلح « سياق الموقف » context of situation باثنين من الباحثين هما ، أولاً ، عالم الانثروبولوجيا مالينوفسكى « B. Malinowski » ، وبعد ذلك عالم اللغة « فيرث » J.R. Firth . واهتم العالمان بتقرير معنى التعبير أو الكلمة فى حدود السياق الذى تستعمل فيه ، ولكن بطرق متباينة إلى حد ما ، وكان مالينوفسكى يعنى بسياق الموقف الظروف الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بنطق العبارة ، وتابعه فيرث فى هذه الفكرة وأضاف إليها أبعادًا جديدة ، فعلى حين كان سياق الموقف عند مالينوفسكى جزءًا من عملية اجتماعية يمكن تناولها بشكل منفصل ، نجد أن فيرث يعتبر سياق الموقف جزءًا من أدوات عالم اللغة التى يعتمد عليها فى التحليل اللغوى ، وعناصر سياق الموقف كما اقترحها فيرث هى[٢] :

(أ) الجوانب المتصلة بالمشاركين ، أى الأشخاص وشخصياتهم ، وتنطوى على :

١ – العمل اللفظى من جانب المشاركين .

٢ – العمل غير اللفظى من المشاركين .

(ب) الموضوعات ذات الصلة بالموقف .

(جـ) أثر العمل اللفظى .

ولقد فطن البلاغيون المسلمون إلى فكرة سياق الموقف من قبل عندما قالوا « لكل مقام مقال » ؛ والحق أن توضيح المعنى على المستوى الوظيفى (الصوتى والصرفى والنحوى) وعلى

---

(١) د . عاطف مدكور ، علم اللغة بين القديم والحديث ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٢١٣ ، وانظر د . محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، ص ١١٧ .

(٢) Firth, J. R., Papers in Linguistics 1934 -1951, London: Oxford University Press, 1964, p. 182 and -

المستوى المعجمى (العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها) لا يقدم لنا إلا « معنى المقال » أو « المعنى الحرفى » كما يسميه النقاد أو « معنى ظاهر النص » كما يسميه الأصوليون[1]، وإذا شئنا أن نقدم المعنى الدلالى فى صورته الكاملة فلابد من أن نضيف إلى « المعنى المقالى » جانبًا آخر هو « المعنى المقامى » وهو ظروف أداء المقال ويسمى بالمقام .

والمقام ضرورى لفهم المعنى الدلالى ، « فالذى يقول لفرسه عندما يراها : « أهلاً بالجميلة » يختلف المقام معه عن الذى يقول هذه العبارة لزوجته ، فمقام توجيه هذه العبارة للفرس هو مقام الترويض وربما صحب ذلك ربت على كتفها أو مسح على جنبها ، أما بالنسبة للزوجة فالمعنى يختلف بحسب المقام الاجتماعى أيضًا ، فقد تقال هذه العبارة فى مقام الغزل أو فى مقال التوبيخ أو التعيير بالدمامة ؛ فالوقوف هنا عند المعنى المعجمى لكلمتى « أهلاً » و « الجميلة » وعلى المعنى الوظيفى لهما وللباء الرابطة بينهما لا يصل بنا إلى المعنى الدلالى ولا يكون وصولنا إلى هذا المعنى الدلالى إلا بالكشف عن المقام الذى قيل فيه النص »[2] .

٣ – السياق الثقافى :

إذا كانت الثقافة من السمات التى تميز مجتمعًا عن غيره من المجتمعات ، وكانت اللغة فى مجتمع معين تعبيرًا فى جانب كبير منها عن خصوصية ثقافة هذا المجتمع ، فإن تحديد دلالات كثير من العبارات فى تلك اللغة يتطلب تحديدًا للبيئة الثقافية التى استعملت فيها ، وهذا يعنى أن هناك فى كل لغة مجموعة كبيرة من التعبيرات الإصطلاحية والأمثال والحكم وما يجرى مجراها من عبارات يتعذر ترجمتها إلى لغة أخرى ما لم نقدم بين يديها شرحًا وافيًا للخلفية الثقافية التى أفرزتها ؛ وكذلك يتعذر نقل بعض الآيات القرآنية إلى أية لغة أجنبية ما لم نسبقها بشرح كاف لثقافة المجتمع العربى والإسلامى الذى نزلت فيه[3] ، مثل قوله تعالى :

(١) د . تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٢ ، وانظر فى توضيح أهمية السياق بشقيه اللغوى والاجتماعى أو المقالى والمقامى فى ثلاث من البيئات العلمية الإسلامية ، وهى بيئات المفسرين والبلاغيين والأصوليين ، د . طاهر سليمان حمودة ، دراسة المعنى عند الأصوليين ، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، دون تاريخ نشر ، ص ٢٢٠–٢٢٣ .

(٣) انظر د . عاطف مدكور ، علم اللغة بين القديم والحديث ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلكم فسق ، اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ، فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم فإن الله غفور رحيم﴾ [المائدة : ٣]

على أن الذى دفعنا إلى قبول نظرية الاستعمال فى المعنى هو أن هذه النظرية ملائمة أكثر من سواها لطبيعة اللغة والبحث الفلسفى فيها ، إذ أنها تستوعب كثيرًا من النظريات الأخرى فى المعنى وتتفادى نقائصها ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتى :

١ – تتفادى نظرية الاستعمال الصعوبات التى كانت عقبة كأداء فى سبيل نظرية الأفكار فى المعنى ، والتى تتمثل فى صعوبة تحديد الأفكار وماذا عسى أن تكون ؟ هل هى الأفكار المجردة ، أم الحادثات العقلية ، أم هى الصور الذهنية ؟ وذلك لأنها لا ترتكز على الفكرة الذهنية المناظرة للتعبير ، بل ترتكز على الاستعمال الفعلى له ؛ وفى هذا الإطار أيضًا نجد أن نظرية الاستعمال تتفادى الانتقادات الموجهة إلى معالجة المذهب العقلى الحديث فى المعنى عند تشومسكى وأتباعه ، لأنه إذا كان معنى التعبير يكمن فى القواعد أو المواضعات التى تتحكم فى استعماله فى اللغة ، فمن الخطأ النظر إلى المعانى على أنها مفاهيم فى « العقل » لأن هذا يجعلها ذاتية ولا سبيل إلى معرفتها إلا بالنسبة للشخص نفسه .

٢ – تؤكد نظرية الاستعمال على أن فهم معنى التعبير هو معرفة القواعد التى تتحكم فى استخدامه فى الوظائف اللغوية المنوعة مثل التقرير ، والتساؤل ، والأمر ، والتهكم وغيرها ؛ ومن زاوية عملية التعلم يمكن القول بأن تعلم معنى التعبير هو تعلم كيفية استعماله فى هذه الوظائف ؛ ويلزم عن هذا أنه من الضلال والتضليل الظن بأن المعانى تمثل نوعًا معينًا لكائنات لا زمانية تدعى « القضايا » وتقطن فى « عالم ثالث » كما زعم فريجه ومن سار عى دربه .

٣ – إن نظرية الاستعمال لا تواجه الصعوبات التى واجهت النظرية الإشارية فى المعنى ، مثل وجود رموز ذوات معنى دون أن تكون ذوات ما صدق ووجود رموز

ذوات ما صدق واحد على الرغم من عدم ترادفها فى المعنى ؛ وتفسر نظرية الاستعمال الحالة الأولى بأنها تنشأ حين تكون هناك قواعد تحكم استعمال الرمز على حين لا يوجد موضوع يصدق عليه ذلك الرمز ، أما الحالة الثانية فتنشأ حين تكون هناك ، بالنسبة لكل رمز ، قواعد مختلفة تحدد الموضوع الذى يشير إليه الرمز أو يصدق عليه ، على حين يكون الموضوع أو الموضوعات التى يتم تحديدها فى هذه الحالة شيئًا واحدًا فى الواقع[1] .

٤ - إذا كانت نظرية إمكانية التحقق فى المعنى قد افترضت أن للتعبيرات وظيفة واحدة مشروعة هى « الوصف » ، فقد نقد أوستن هذا الافتراض وأطلق عليه اسم « المغالطة الوصفية » ، وذهب مع غيره من أصحاب نظرية الاستعمال إلى أن هناك عددًا من الوظائف اللغوية المتميزة التى لا يشكل الوصف إلا واحدة منها ، وليس أكثرها أهمية بالنسبة لعمل الفيلسوف ، ولقد أفضى بهم ذلك إلى الكشف عن صياغة نظريات جديدة لأنماط معينة من استعمالات اللغة مثل نظرية أفعال الكلام عند أوستن .

٥ - على حين زعمت نظرية إمكانية التحقق فى المعنى أن التعبير اللغوى له معنى محدد ثابت ومستقل تمامًا عن المتكلم والمستمع ومستقل عن كل جوانب السياق ما عدا الجانب المتمثل فى طبيعة وجود الأشياء فى الخارج ، تذهب نظرية الاستعمال إلى أن التعبير الواحد يمكن أن يكون له أكثر من معنى ، والذى يفصل بين هذه المعانى هو السياق الذى يرد فيه التعبير .

---

(١) د . عزمى إسلام ، مفهوم المعنى : دراسة تحليلية ، ص ٧٠ - ٧١ .

الفصل الرابع

اللا تحديد فى الترجمة

٤ - ١ تمهيد :

تناولنا فى الفصل السابق انتقادات كواين لنظرية المعنى كما يصورها علم الدلالة العقلى ، وسوف نسعى فى هذا الفصل إلى تقديم نقد كواين الأساسى لهذه النظرية والذى يتمثل فى دعوى اللا تحديد فى الترجمة indeterminacy of translation؛ ولقد حاولنا فى الجزء الأول من هذا الفصل أن نبين علاقة هذه الدعوى بعلم الدلالة عند كارناب ، فهى تمثل رد كواين على كارناب ، وعرضنا بعض الصيغ المبكرة للدعوى ، ثم ناقشنا فى الأجزاء الثلاثة التالية حجج كواين على اللا تحديد ، وجاء الجزء الخامس ليفحص نتائج الدعوى بالنسبة لنظرية المعنى وفلسفة العقل ونظرية الإشارة ، أما الجزء السادس والأخير فيناقش الانتقادات التى وجهها بعض الفلاسفة إلى هذه الدعوى .

كان نقد التمييز التحليلى - التركيبى من أهم الأفكار المحورية التى برزت فى كتابات كواين المبكرة ، والتى كانت موضوعًا لنقاش فلسفى طال أمده من جانب كثير من الفلاسفة والباحثين ، وكذلك نجد أن فكرة اللا تحديد فى الترجمة قد احتلت موضع الصدارة من أفكار كواين المتأخرة التى شغلت غيره من الفلاسفة ، ويبالغ « كاتز » قليلاً فى تقديرها إذ ينظر إليها على أنها « اسهام كواين الأساسى فى فلسفة اللغة »[1] ؛ على أن قولنا هذا لا يعنى أن الفكرة الأولى قد أصبحت أثرًا بعد عين ، وإنما الأقرب إلى الصواب القول بأن الفكرة الثانية تضيف أبعادًا جديدة إلى الأولى ، وتسعى الفكرتان معا إلى تقويض بنيان وجهة النظر المفهومية فى دراسة اللغة والمعنى والعقل ، وتوطيد أسس وجهة النظر الماصدقية فى دراسة هذه الموضوعات .

لكن دعوى اللا تحديد فى الترجمة أكثر صعوبة فى فهمها من نقد كواين للتحليلية أو أفكاره الأخرى ، ولعل ذلك يرجع إلى غموض صياغة كواين لهذه الدعوى ، وربما يعود أيضًا إلى أن كواين لم يقدم الأفكار التى تمثل لباب هذه الدعوى وحججه لتأييدها

---

(١) - Kalz., J. J. Effability and Translation, in Meaning and Translation: Philosophical and Linguistic Approaches, edited by F. Guenthner and M. Guenthner -Reutter, New York: New York University Press, 1978, P. 193.

مرة واحدة ، وإنما قدمها فى كتابات متعددة وفى فترات زمانية متباعدة إلى حد ما ؛ ولقد نتج عن هذا أن قدم شراح كواين ونقاده تفسيرات منوعة متباينة لهذه الدعوى زادت من صعوبة إدراك مغزاها ونتائجها وعلاقتها بغيرها من نظرياته وأفكاره الأخرى ؛ وإذا كانت هناك دعوى هذا حالها ، فلا غرو أن تجد كل ، وإن شئت الدقة قل معظم ، الشراح والنقاد الذين عالجوها يمهد الواحد منهم لمحاولته بأنها دعوى عسيرة الفهم ، وأن غيره قد اساء إدراكها وفهمها ، وأنه يسعى إلى تصحيح هذا الفهم ، وها هو « جبسون » يقول : « لا توجد نظرية فى فلسفة كواين حيرت قراءها أكثر مما فعلت نظرية اللا تحديد فى الترجمة ؛ فهناك اتفاق قليل بين نقاد كواين وشراح فلسفته فيما يتعلق بما عساها أن تكون الصيغة الصحيحة لدعوى اللا تحديد ، وما تؤكد عليه الدعوى ، وكيف ترتبط بالدعاوى والالتزامات الأخرى عند كواين ، وهل الدعوى صحيحة أم خاطئة ؟ »[1] .

ولقد بسط كواين وجهة نظره فى دعوى اللا تحديد فى كتابات عديدة ، تأتى فى مقدمتها « المعنى والترجمة » ١٩٥٩ ، و« الكلمة والموضوع » ١٩٦٠ ، و« النسبية الانطولوجية ومقالات أخرى » ١٩٦٩ ، و« فى أسباب اللا تحديد فى الترجمة » ١٩٧٠ ، و« اللا تحديد فى الترجمة مرة أخرى » ١٩٨٧ ، و« ملاحقة الصدق » ١٩٩٠، وناقش كواين هذه الدعوى كذلك فى غير موضع من ردوده الكثيرة على نقاده .

صاغ كواين دعوى اللا تحديد فى عدة صيغ من بينها الصيغة القائلة : « يمكن أن يتشابه اثنان من البشر تماما فى كل استعداداتهما للسلوك اللفظى تحت كل الاثارات الحسية الممكنة ، ومع ذلك فإن المعانى أو الأفكار المعبر عنها فى أقوالهما التى تحدث وتطلق بشكل متطابق يمكن أن تختلف اختلافًا جذريا بالنسبة للاثنين ، وعلى نطاق واسع من الحالات »[2] .

ولكن هذه الصيغة تستخدم المصطلحات الذهنية مثل المعانى أو الأفكار ، وتوحى بموقف شكى مألوف من العالم الخاص بالمعانى ، ولذلك سعى كواين إلى طرح النقطة نفسها بصورة تجتنب الكلام عن المعنى وتكون أقل تجريدًا وأكثر واقعية على حد تعبيره

---

(١) Gibson, R. E. Trnslation, Physics, and Facts of the Matter, in The Philosophy of W. V. Quine, edited by Hahn, L. E. and P. A. Schilpp, P. 139.

(٢) W. & O. p. 26

وذلك بواسطة التحول إلى الترجمة ، ومن ثم تغدو الدعوى كالآتى : يمكن إعداد كتيبات للترجمة من لغة إلى أخرى بطرق مختلفة ، وجميعها منسجمة مع المجموع الكلى للاستعدادات للكلام ، ومع ذلك فإن الواحد منها لا ينسجم مع الآخر ، وسوف تختلف فى مواضع لا تحصى فى تقديم – بقدر اختلاف ترجماتها الخاصة لجملة فى اللغة الواحدة – جمل اللغة الأخرى التى لا تقوم الواحدة منها مقام الأخرى بأى نوع مقبول من التكافؤ مهما كان فضفاضًا »(١) .

وإذا تساءلنا بأى مغزى يكون كتيب الترجمة « غير منسجم » مع الآخر ، لوجدنا أن العبارة التالية لهذا التعبير فى نص كواين السابق تفسر المقصود به ، ولكن كواين يرفض هذا التفسير باعتباره غير ملائم ويعترف بأن هذه الصياغة فى الجزء الثانى منها صياغة ضعيفة وبخاصة لفظ « التكافؤ » equivalence ويظهر هذا على وجه الدقة والوضوح فى رده على « هارمان » ، إذ نراه يقول : « لقد كرهت الاستعانة هكذا بالتكافؤ ... فى الصياغة الفعلية للدعوى التى تلقى الشك فى أفكار الترجمة أو الترادف أو التكافؤ »(٢) ؛ ويمكن القول بأن المراد من كلمة « التكافؤ » كما تستخدم فى هذه الصياغة هو أنها مصطلح آخر للفكرة غير النقدية عن تماثل أو تشابه المعنى بوصفه علاقة محددة(٣) .

وإذا كانت الصيغ المبكرة للدعوى يكتنفها الغموض ويعوزها التحديد والوضوح ، فإننا نستطيع أن نعبر عن الدعوى على ضوء شرح كواين لها على النحو الآتى : جرى الاعتقاد أن الجملة (أ) لها معنى فى لغة معينة ، وأن الجملة (ب) فى لغة أخرى تكون ترجمة لها إذا كان لها نفس المعنى ؛ ولكن كواين يعترض على هذا ويرى أن السؤال عما إذا كانت الجملة (ب) لها نفس معنى الجملة (أ) لا يقبل إجابة محددة ، ويرجع ذلك إلى أمرين ، أولهما ، أن الترجمة غير محددة تجريبيا ، إذ يمكن ترجمة اللغة الواحدة إلى لغة أخرى بطرائق عدة ، ولا تنسجم أية طريقة منها مع الأخرى ومع ذلك تكون منسجمة مع كل الحقائق الخاصة باستعدادات المتكلمين للسلوك اللفظى؛ وثانيهما أن الاختيار بين الترجمات البديلة لا يتضمن أية حقيقة موضوعية بحيث يكون صحيحًا أو خاطئًا بشأنها .

---

(١) - Ibid, p. 27.

(٢) - R. in W. S. & O. S., pp. 296 - 297.

(٣) Zabludowski, A., "On Quine's Indeterminacy Doctrine". Philosophical Review. Vol. XCVIII, No. 1, 1989. p. 43.

وبدلاً من أن نقدم عناصر دعوى اللا تحديد والحجج عليها مباشرة ، سوف نتخذ مسلكًا آخر نراه أكثر نفعًا في فهم الدعوى ، ألا وهو البحث أولاً عن المشكلة الفلسفية التي جاءت الدعوى بمثابة موقف منها ، وتتلخص هذه المشكلة في أن انتقادات كواين لأفكار نظرية المعنى ، كما بدت في نقده للتمييز التحليلي – التركيبي ، قد شكلت تحديا مفاده أنه لو استطاع الفلاسفة تفسير هذه الأفكار في حدود تجريبية ، فلن يتردد كواين في قبولها .

تلقف كارناب هذه الفكرة ، وحاول مواجهة هذا التحدى في مقالته « المعنى والترادف في اللغات الطبيعية » ١٩٥٥[1] حيث يؤكد أن الغرض من هذه المقالة هو الدفاع عن الدعوى القائلة إن تحليل المفهوم[2] intension بالنسبة للغة الطبيعية هو إجراء علمي صحيح من الناحية المنهجية مثل تحليل الماصدق تمامًا ، وسوف تبدو هذه الدعوى بالنسبة لكثير من علماء اللغة والفلاسفة بوصفها حقيقة بديهية ، ومع ذلك يعتقد بعض الفلاسفة المعاصرين وبخاصة كواين ووايت أن تصورات نظرية المفهوم ضبابية وغامضة ولا سبيل إلى فهمها بالفعل ، ولم تحظ بتفسيرات حتى الآن ، ويعتقدان بالإضافة إلى ذلك أنه إذا وجد تفسير لأى تصور من هذه التصورات ، فسوف يكون على أفضل الفروض في صورة تصور بدرجة معينة ، ويعترفان بالحالة العلمية الجيدة لمفاهيم نظرية الماصدق ؛ ومن ثم فإن السؤال الذى يطرحه كارناب على نفسه ويحاول الإجابة عليه هو : إذا افترضنا أن عالم اللغة يستطيع تحديد الماصدق لمحمول معين ، فكيف يستطيع أن يتجاوز هذا ويحدد مفهومه أيضًا ؟ ويوضح كارناب دعوى صاحب وجهة النظر المفهومية التى يدافع عنها والتى تقول بأن تحديد المفهوم هو فرض تجريبى يمكن اختباره ، شأنه فى ذلك شأن أى فرض آخر فى علم اللغة ، عن طريق ملاحظة سلوك اللغة ؛ ومن ناحية ثانية تقرر دعوى صاحب وجهة النظر الماصدقية أن تحديد المفهوم ، على أساس ماصدق محدد من قبل ، ليست مسألة واقع ، بل مجرد مسألة اختيار ،

---

(١) نشرت كملحق لكتابه « المعنى والضرورة » .

(٢) يستعمل كارناب « المفهوم » بدلاً من المعنى meaning على أساس أن المصطلح الثانى أكثر غموضا من الأول ، وبالتالى فإنه يستعمل مصطلح « نظرية المفهوم » (أى نظرية المعنى بتعبير كواين) و « نظرية الماصدق » (أى نظرية الإشارة بتعبير كواين) .

وتتمسك هذه الدعوى بأن عالم اللغة حر فى اختياره للمفهوم الذى يلائم الماصدق ، وربما يسترشد فى اختياره بفكرة البساطة ، ولكن لا يوجد سؤال عما هو صواب أو خطأ(١) .

يسعى كارناب إلى الدفاع عن الدعوى المفهومية عن طريق اختبار الفروض التى تدعى تقديم ترجمات لكلمة معينة فى لغة محددة ؛ لنفترض أن اثنين من علماء اللغة يبحثان اللغة الألمانية التى يتكلمها (كارل) ، وبعد بحث سلوكه الكلامى يكتب أحدهما فى قاموسه الآتى :

١ – حصان ,Pferd

على حين يكتب الآخر :

٢ – حصان أو حصان مقرن ,pferd

وطالما أنه لا توجد أحصنة مقرنة ، فإن الماصدق المسند إلى pferd فى (١) و (٢) هو نفس الماصدق ، ومع ذلك فإن المفاهيم المتضمنة تكون مختلفة ، وإذا شئنا أن نختبر هذا الاختلاف فى المفهوم ، ومن ثم الاختلاف بالنسبة للمفاهيم ، فإن عالم اللغة ربما يصف حصانًا مقرنًا (باللغة الألمانية) بشىء يناظر الصيغة العربية : « شىء يشبه الحصان ، ولكن له قرن وحيد فقط فى وسط الجبهة » أو ربما يشير إلى شىء ثم يصف التعديل المراد فى كلمات من قبيل « شىء مثل هذا الشىء ولكن له قرن وحيد فى وسط الجبهة » ، أو يجوز أن يشير غلى صورة تمثل حصانا مقرنًا ، ثم يسأل (كارل) بعد ذلك عما إذا كان يرغب فى استعمال كلمة pferd لشىء من هذا النوع ، واستجابة (كارل) هى التى تجيز لنا أن نحدد ما هى الترجمة الصحيحة من الترجمين السابقتين ، وهذا يكشف عن أن (١) و (٢) فرضان تجريبيان مختلفان(٢) .

وطالما أن الاختلاف بين الفرض (١) والفرض (٢) هو وجود مفاهيم مختلفة ، وطالما أن طريقة تمييز هذه المفاهيم تكون تجريبية على النحو المشار إليه ، يزعم كارناب أنه قد

---

(١) - Carnap, R., Meaning and Necessity: A Study in Semantics and Modal Logic, second edition, Chicago Universiy Press, 1956 pp. 236 - 237, and See Creath, R., (edited with an Introduction), Dear Carnap, Dear Van: The Quine -Carnap Correspondence and Related Work, University of California Press 1990, introduction, pp. 37 - 38.

(٢) - Ibid, p. 238.

أثبت أن فكرة المفهوم يمكن معالجتها بطريقة تجريبية ، ولعله قد اتضح من التناول السابق أن الطريقة التجريبية تتألف من ملاحظة السلوك اللغوى للمرء ابتغاء اختبار فروض الترجمة والتى يمكن عن طريقها اختبار الفروض المتعلقة بالمفاهيم .

ويمضى كارناب فى بحثه محاولاً العثور على تصور عام للمفهوم (أى المعنى) ، فماذا عسى أن يكون ؟ لقد أدركنا أنه يوجد إجراء تجريبى لاختبار الفرض المتعلق بمفهوم المحمول مثل pferd بالنسبة لمتكلم مثل (كارل) ، وأن هذا الإجراء للاختبار يتألف من ملاحظة السلوك اللغوى ، وطالما أن الإجراء من هذا النوع قابل للتطبيق على أى فرض للمفهوم ، فإن التصور العام للمفهوم الخاص بأى محمول فى أية لغة بالنسبة لأى شخص فى أى وقت له مغزى واضح يقبل الاختبار تجريبيا ، ويجوز وصف التصور العام للمفهوم تقريبًا على النحو الآتى : إن المفهوم للمحمول (س) بالنسبة للمتكلم (ص) هو الشرط العام الذى لابد من أن يفى به الموضوع (ع) لكى يرغب (ص) فى نسبة المحمول (س) إلى (ع) (وفى محاولة للتبسيط سنهمل الإشارة إلى الوقت (و)) ، ويمكن توضيح هذا الوصف العام ؛ فالقول بأن (ص) يكون قادرًا على استعماله للغة (ل) يعنى أن (ص) يتمتع بنظام معين من الاستعدادات المترابطة لاستجابات لغوية معينة ، والقول بأن المحمول (س) فى اللغة (ل) له خاصية (ف) باعتبارها مفهومه (أى معناه) بالنسبة لـ (ص) يعنى أنه من بين الاستعدادات عند (ص) التى تشكل اللغة (ل) هناك استعداد لنسبة المحمول (س) لأى موضوع (ع) إذا كان ، وفقط إذا كان ، (ع) يتمتع بالخاصية (ف)(١) .

بعد أن قدم كارناب فكرته عن المفهوم (أى المعنى) نراه يستخدمها فى تعريف الأفكار الأخرى فى نظرية المفهوم (المعنى) مثل الترادف والتحليلية ، يقول كارناب : « يكون التعبيران (مترادفين) فى اللغة (ل) بالنسبة لـ (ص) فى وقت (و) إذا كان لهما نفس المفهوم فى (ل) بالنسبة لـ (ص) فى (و) ؛ وتكون الجملة (تحليلية) فى (ل) بالنسبة لـ (ص) فى (و) إذا كان مفهومها ... يشمل كل الحالات الممكنة »(٢) ؛ وهكذا يعرف كارناب الترادف على أنه تماثل المعنى ، ويعرف التحليلية فى حدود معنى الجمل الذى يحدد كل

---

(١) - Ibid, p. 242.

(٢) - Ibid, p. 243.

الحالات الممكنة للاستجابة ، أى أنه من المحتمل أن يكون المتكلم مستعدًا للاستجابة على نحو موجب للجملة « كل الطيور طيور » فى كل الحالات الممكنة .

ويناقش كواين هذه المشكلة نفسها فى كتابه « الكلمة والموضوع » مجسدًا لمضمونها فى التساؤل : إلى أى مدى تكون اللغة قابلة للتحليل التجريبى ، أو إلى أى حد يمكن فهم اللغة فى حدود ظروف مثيرها ؟ وإذا أمعنا النظر فى معالجة كواين لهذه المشكلة ، لوجدنا أن ثمة تشابهًا منهجيا بين أفكاره وأفكار كارناب ؛ فهو يتناول ، شأنه فى ذلك شأن كارناب ، افتراض عالم اللغة حول الترجمة باعتباره موضوعا للبحث التجريبى ، كما ينظر إلى استجابة المتكلم الأصلى لمثيرات ملائمة على أنها المعطيات الأساسية ، وفضلاً عن ذلك يدرس كارناب وكواين اللغة فى حدود الاستعدادات إلى السلوك اللفظى ؛ وإلى جانب هذه التشابهات المنهجية ، هناك اختلافات بين آراء كارناب وكواين فى هذه المشكلة ، فكارناب لا يدرس إلا حالة الترجمة بالنسبة للغات ذات أصول لغوية وثقافية مشتركة مثل الألمانية والإنجليزية ، أما كواين ، كما سنرى ، فإنه يتناول فى بداية مناقشته حالة الترجمة الجذرية radical translation أى الترجمة بين لغات لا يوجد بينها شىء مشترك على الإطلاق ؛ ونسارع فنقرر هنا أن دعوى كواين قد تفهم أحيانا على أنها قاصرة فقط على حالة الترجمة الجذرية ، ولكن هذا الفهم يحرف الدعوى بلا شك ويبعدها عن الهدف المروم ، لأن الدعوى تهتم بالترادف بصفة عامة ، ولا تزيد تجربة الفكر المتمثلة فى الترجمة الجذرية على أن تكون وسيلة تضفى الحيوية على المسالة ؛ ومهما يكن من أمر التشابه أو الاختلاف فى تناول المشكلة ، فإن الذى يعنينا فى المقام الأول هو اختلاف النتيجة التى يتوصل إليها كل فيلسوف منهما ، فكارناب يحاول بيان إمكانية تحديد مفاهيم نظرية المعنى فى دراسة تجريبية للغة ، على حين يحاول كواين استبعاد المفاهيم الدلالية فى نظرية المعنى التى يدافع عنها صاحب وجهة النظر المفهومية باعتبارها مفاهيم غامضة ولا تفيد كثيرًا فى دراسة اللغة والموضوعات المرتبطة بها ، بل تمثل حجرة عثرة لابد من إزالته ، ومن ثم يمكن القول بأن دعوى اللاتحديد فى الترجمة عند كواين تمثل ردًا على محاولة كارناب المشار إليها .

٤ – ٢ الترجمة الجذرية

أشار كواين إلى الترجمة الجذرية أولاً فى مقالته « مشكلة المعنى فى علم اللغة » ثم

ظهرت الترجمة الجذرية بعد ذلك بوصفها تجربة للفكر فى كتابه « الكلمة والموضوع » واستعملت فى هذا الكتاب استعمالاً واضحًا ونوقشت بصورة بارزة ؛ والترجمة الجذرية هى « ترجمة لغة لبشر لم يتصلوا بغيزهم حتى اليوم »(١) ، وهذا يعنى أن المترجم ، وهو هنا عالم اللغة ، لن يستعين بقواميس أو معاجم سبق إعدادها ، مما يدل على أنه سوف يمارس عمله دون الإفادة من مجموعة الكلمات المقترضة loan words أو الدخيلة والبنى النحوية المشتركة التى تساعدنا فى الترجمة بين لغتين يربطهما رباط وثيق ، ولن يفيد أيضا من الدراسات التاريخية التى تتبع الأصول المشتركة بين اللغة الأصل واللغة المترجم إليها ، وسوف يواجه مهمته دون مساعدة من أشخاص يتقنون لغتين .

ويكشف فحص شروط الترجمة الجذرية عن الأساس الضئيل الذى يعتمد عليه هذا النمط من الترجمة من ناحية ، ويظهر طبيعة العلاقة بين اللغة والخبرة من ناحية ثانية ، (فاللغة الأصل) source language التى يتعين أن تكون لغة خاصة jargon هى لغة الغاب ، و(اللغة المنشودة) target language هى اللغة الانجليزية ، ويتعذر الحصول على لغة الغاب من أية لغات معروفة بوصفها مواقع وسط ، وبالتالى فإن المعطيات الوحيدة هى المنطوقات الأصلية وظروفها المتزامنة القابلة للملاحظة ، إنه أساس ضئيل ، ولكن يجب أن لا يكون لدى المتكلم الأصلى معطيات أخرى »(٢) ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإن جميع المعطيات الموضوعية التى يسلك على أساسها عالم اللغة هى القوى التى يراها تصطدم بحواس المواطن الأصلى ، وسلوكه القابل للملاحظة سواء كان معبرًا عنه بالألفاظ أم كان من نوع آخر(٣) .

وإذا كانت الترجمة الجذرية يتم التفكير فيها عادة على أنها ترجمة لغة غريبة للغاية أو منعزلة ، فإن « روت » يعد هذا ملمحًا عرضيا ، فالترجمة الجذرية يمكن أن تتضمن أيضا ترجمة اللغة الفرنسية إلى الانجليزية أو ترجمة كلمات صديق لنا إلى كلمات فى لغتنا الخاصة ، ويجب أن لا نحفل باللغة التى نختارها ، فمطلب كواين هو : نحن مطالبون بترجمة لغة على اساس دليل مفاده أن لا نعتمد على أى اعتقادات سابقة تتعلق باللغة أو بمواقف الناس الذين يتكلمونها ؛ ويرى « روت » أن النقطة الأخيرة هامة ،

---

(١) -W. & O., p., p. 28.

(٢) -I. of T. A., p. 5.

(٣) -W. & O., p. 28.

إذ أنها تشير إلى ملاءمة تجربة الفكر عند كواين لعلم النفس ، فالهدف المحدد عند عالم اللغة ربما يكون إدراك اللغة غير المعروفة حتى الآن وترجمتها ، ولكن هذا الهدف لا يمكن فصله عن هدف آخر ألا وهو إدراك الخطة المفهومية ووصفها ، أى اعتقادات ومواقف بشر غير معروفين حتى الآن ، ويعتبر كواين أن علم اللغة وعلم النفس فرعًا معرفيا واحدًا ، وهذا هو هدفه فى « الكلمة والموضوع » عندما يكتب « إن عملية الإدراك بأى مقياس جدير بالاعتبار لا تنفصل عن اللغة »(١) .

وهناك تماثل واضح بين موقف عالم اللغة الذى يتعلق به حديثنا وموقف الطفل الذى يتعلم لغته الأولى ، فالوظيفة التى يحددها كواين لعالم اللغة هى ترجمة لغة لا ترتبط باللغة المترجم إليها (وهى الانجليزية عند كواين) بأية صلة ، أى لغة يتحدث بها قوم لهم ثقافة مختلفة اختلافًا تامًا عن ثقافته ، وبالإضافة إلى ذلك ، فلن يستعين عالم اللغة بمترجم أو بشخص يتقن لغتين ، وهو وضع يشبه وضع الطفل الذىلا يعرف أية لغة على الإطلاق ، ولكن عالم اللغة يتمتع من ناحية ثانية بمزايا تفوق ما يتمتع به الطفل ، فهو يتكلم لغة ، بالإضافة إلى دراسته لعلم لغة معينة ، وتساعده هاتان الميزتان فى وصف لغة المواطن الأصلى لأنه يعرف ملامح هذه اللغة التى يبحث عنها ، غير أنهما لا تمكنانه من تعلم لغة المواطن بسرعة تفوق السرعة التى يستطيع أن يتعلم بها الطفل لغته ، والأكثر أهمية من ذلك أنهما لاتزيدان من الدليل المتاح عند عالم اللغة بالنسبة لكتيباته للترجمة(٢) .

فكيف يترجم عالم اللغة لغة غريبة تمام الغربة عن لغته ودون الاستعانة بأية وسيلة من الوسائل التى تكون متاحة عند الترجمة العادية ؟ الجواب عند كواين هو أن المنطوقات التى تترجم أولا فى مثل هذه الحالة هى منطوقات تجىء وفقا لأحداث حالية تكون واضحة لعالم اللغة ، فينطلق الأرنب مسرعًا على مقربة من المواطن الأصلى وعالم اللغة ، فيقول المواطن الأصلىGavagai ويدون عالم اللغة « أرنب » أو « انظر أرنب » بوصفها ترجمة مؤقتة وخاضعة للاختبار فى حالات أخرى(٣) .

إن نقطة البداية فى الترجمة الجذرية ، إذن ، هى ملاحظة استعمال المواطن الأصلى

---

(١) Ibid, p. 3. Root, M., "Quine's T hought Experiment", in Contemporay Prspectives in the Philosophy of Language, edited b P. A. French and T. E. Uehling and H.K. Wettstein Minneapolis: University of Minnesota Press, 1978, PP. 276 - 277.

(٢) - Davis, S., Pjilosophy and Language, p. 151.

(٣) - W. O., p. 29

للغة والسلوك المصاحب لهذا الاستعمال ، فقد يتخيل المرء أن المواطن الأصلى ربما يومىء أو يشير إلى شىء على حين ينطق اسمه ، ولكن يجب أن يأخذ عالم اللغة حذره بشأن اضفاء المغزى الذى لديه على سلوك المواطن الأصلى ، لأن تعبيرات الوجه أو الجبهة المتجعدة ربما تعنى شيئًا مختلفًا فى ثقافة المواطن الأصلى اختلافًا تامًا عما تعنيه فى ثقافة عالم اللغة ؛ ومع ذلك يجب أن تبدأ الترجمة من نقطة ما ، ولعل أفضل نقطة للبداية تكون عن طريق الإشارة .

ولنتخيل أرنبًا ينطلق فى المجال البصرى للمواطن الأصلى وعالم اللغة على حد سواء ، ويلاحظ المواطن الأصلى هذا الكائن ويشير إليه قائلاً **Gavagai** فهل يستطيع عالم اللغة أن يستنتج من هذا استنتاجًا مؤقتًا مفاده أن الجملة ذات الكلمة الواحدة **Gavagai** لابد من ترجمتها على أنها أرنب » ؟ الجواب أنه يكاد لا يستطيع ذلك ، إذ من الصعب تحديد « حيوان » و « قارض » و « حيوان من ذوات الأربع » على أساس الذراع الممدودة للمواطن الأصلى ومنطوقه ، ولذلك فإن عالم اللغة بحاجة إلى طريقة معينة يضيق بها المجال ، ولكى يقوم بهذا لابد من أن يسأل المواطن الأصلى عن أشياء متباينة ، على سبيل المثال ، يستطيع عالم اللغة أن يكتشف كلمة « حيوان » من قائمة تحوى أسماء حيوانات منوعة إذا سأل "Gavagai ?" مشيرًا إلى « الثور » أو « البعوضة » واعترض المواطن الأصلى عند الاستجابة ، وعلى عكس ذلك سوف يزداد عالم اللغة تثبيتًا للدليل على ترجمة **Gavagai** على أنها « أرنب » لو أشار إلى أرنب وسأل "Gavagai ?" ووافق المواطن الأصلى(١) .

تفترض هذه المحاولة أن عالم اللغة قادر على طرح الأسئلة بلغة المواطن الأصلى وباستطاعته أن يدرك موافقة المواطن الأصلى أو اعتراضه ، ولكى يدرك عالم اللغة هذه الموافقة وذلك الاعتراض ، « فإن ما يجب أن يفعله هو أن يخمن من الملاحظة ثم ينظر إلى أى مدى تعمل التخمينات بصورة حسنة ؛ وهكذا يفترض أنه بسؤاله عن **Gavagai** ومثيلها فى حضور واضح للأرنب ومثيله ، استخرج الاستجابتين "Event" و "Yok" إلى حد يكفى غالبًا للظن بأنهما تناظران « نعم » و « لا » ولكن دون أن تكون لديه أية فكرة عن أيهما تناظر الأخرى ثم يحاول تجربة محاكاة عمليات النطق التى قام بها المواطن الأصلى ، فإذا

---

(١) - Davis, S., Op. Cit., p. 152.

استخرج ، بذلك ، "Event" بشكل جميل وعلى نحو منتظم أكثر من "Yok" فإنه يتشجع على أخذ "Event" على أنها نعم » ، ويحاول أيضًا الاستجابة بـ "Event" و "Yok" لتعليقات المواطن الأصلي ، والكلمة التى تكون أكثر هدوءًا فى وقعها هى المرشح الأفضل لـ « نعم » ؛ وعلى الرغم من كون هذه المناهج غير حاسمة ، فإنها تنتج فرضًا عاملاً »(١) .

والسؤال الآن هو : هل تنتج هذه المناهج فرضًا عاملاً ؟ إن ما يجب على عالم اللغة أن يجتنبه فى هذه النقطة وفى كل نقطة فى الترجمة هو اسقاط ثقافته واعتقاداته الخاصة حول العالم على سلوك المواطن الأصلى ، لأنه يتعين على عالم اللغة أن يكتشف ما تعنيه الكلمات والجمل الأصلية من دون أن يغشيها بثقافته واعتقاداته ؛ غير أن « ديفيس » يرى أن عبارة كواين فى الاقتباس السابق لا تنجز هذا الغرض ، إذ يقترح فيها أن يبدأ عالم اللغة تعلم اللغة الأصلية عن طريق طرح السؤال "Gavagai ?" ويتساءل « ديفيس » كيف يعرف عالم اللغة كيفية طرح الأسئلة فى هذه اللغة ؟ وهناك فى لغتنا أدوات لغوية معقدة لطرح الأسئلة تتضمن ضمائر الاستفهام ، والترتيب المقلوب للكلمات ، والتنغيم الهابط مع الأسئلة التى تبدأ بـ « من » و « ما » و « متى » و « لماذا » وهلم جرا ، والتنغيم الصاعد مع الأسئلة التى تجىء الإجابة عليها بـ « نعم » أو « لا » ويجب ترجمة الملامح المناظرة لهذه الملامح من اللغة الغريبة إلى لغتنا شأنها فى ذلك شأن الكلمات والجمل فى اللغة ، زد على ذلك أنه لا يوجد مسوغ لافتراض أن الاستجابة التى تستخرجها محاكاة منطوق المواطن الأصلى تناظر « نعم » أكثر مما تناظر « كل شىء على ما يرام » ، أو أن الهدوء يدل على الموافقة أكثر من التسليم لحماقة عالم اللغة الميدانى ، ولكننا لو أفسحنا المجال أمام افتراضات عالم اللغة بشأن المغزى المشترك لسلوك إنسانى معين ، فلا يمكن أن تبدأ الترجمة بداية ناجحة(٢) .

غير أننا لو تابعنا عبارات كواين لوجدنا أنه يشير من طرف خفى إلى العقبات التى ألمح إليها « ديفيس » ، إذ يقول : « ولو لازمت صعوبات غير عادية كل الخطوات التالية لعالم اللغة ، فيجوز أن يقرر نبذ هذا الفرض ويخمن مرة أخرى »(٣) ، ويعيد كواين

(١) -W. & O., pp. 29-30.

(٢) - Davis, S., Op. Cit., p. 153.

(٣) - W. & O., p. 30.

التوكيد على تلك العقبات فى مقالة « اللاتحديد فى الترجمة مرة أخرى » ، فلكى تستعمل حيلة التساؤل والموافقة أو المعارضة « يجب أن يكون عالم اللغة قادرًا على إدراك – ولو بشكل تخمينى فقط – علامات signs الموافقة والمعارضة فى مجتمع الغاب ، وإذا كان مخطئًا فى تخمينه لهذه العلامات ، فسوف يضعف بحثه الإضافى ، وسوف يحاول مرة أخرى »[١] ؛ ولكن لكى تبدأ الترجمة دعنا نفترض أن عالم اللغة قادر على طرح الأسئلة فى لغة المواطن الأصلى ، وإدراك ما يعد علامات أصلية على الموافقة والمعارضة .

وبعد عملية التساؤل المجتهدة يختار عالم اللغة « أرنب » باعتبارها ترجمة معقولة لـ"Gavagai" وتوكيدًا لترجمة عالم اللغة ، يمكن أن نتخيل الإجراء البسيط التالى : يحاول عالم اللغة عزل مجموعة من الأشياء ، وهى الأرانب ، التى تحث على نطق المواطن الأصلى لـ Gavagai ، ثم يجرب لغته الخاصة ، وسيتبين له أن الأشياء نفسها ، أى الأرانب ، تحثه على نطقه لـ « أرنب » ، وطالما أن الأرانب تحث على منطوق المواطن الأصلى ومنطوق عالم اللغة على حد سواء ، فإن أرنب عند عالم اللغة تصلح كترجمة لـ Gavagai عند المواطن الأصلى[٢] .

وعلى الرغم من أن هذا الإجراء قد يبدو معقولاً ، إلا أن كواين يشير إلى أن هناك صعوبات تعترضه ؛ هب أن هناك أرنبًا « زائفًا » فى الغابة ، وما لم يعرف هذا فربما يوافق المواطن الأصلى على "Gavagai" ويوافق عالم اللغة على « أرنب » فى هذه الحالة ، أو هب أن الأرنب ينطلق بسرعة فى جهة يستطيع أن يراه المواطن الأصلى فيها رؤية كاملة بالعين ، بينما لا يراه عالم اللغة إلا كلمح بالبصر ، وفى هذه الحالة سوف يوافق المواطن الأصلى على "Gavagai"، ولكن يجوز أن يعترض عالم اللغة على « أرنب » ؛ وهكذا نرى أن ما يحث على الموافقة فى الحالة الأولى ليس هو الأرنب الحقيقى بل الأرنب الزائف ، أما فى الحالة الثانية ، فإننا نجد أن الأرنب يحث المواطن الأصلى على الموافقة بينما لا يوافق عالم اللغة ، وبالتالى يرى كواين أنه لا يمكن أن تكون الأرانب هى التى تحث على الموافقة على "Gavagai" و « أرنب » معًا ، والتى تقدم أساسًا للترجمة ؛ ولكى نجتنب هذه الصعوبات يقترح كواين أنه لا يجب أن ننظر ، فى الترجمة ، إلى الأرانب بوصفها الأشياء التى تحث على منطوقات

---

(١) - I. of T. A., p. 6.

(٢) - Davis, S., Op. Cit., pp. 153-154

المواطن الأصلى وعالم اللغة ، لأن ما يحث على ذلك هو ما يسميه باسم « الإثارات » stimulations، ويمكن ترجمة الجمل الأصلية بجملة عالم اللغة فى حالة واحدة فقط وهى أن تحث عليهما إثارات بعينها ، وهاك ما يقوله كواين : « من الأهمية بمكان أن نفكر فيما يحث موافقة المواطن الأصلى على "Gavagai ?" على أنها إثارات وليست الأرانب ، إذ يمكن أن تظل الإثارة كما هى ومع ذلك يحل شيء مزيف محل الأرنب ؛ وعلى العكس ؛ فإن الإثارة يمكن أن تتفاوت فى قدرتها على حث الموافقة على "Gavagai" بسبب التغيرات فى زاوية النظر والإضاءة ، وتباين اللون ، ومع ذلك يظل الأرنب كما هو ؛ وعند الموافقة بصورة تجريبية بين استعمالات "Gavagai" و« أرنب » فإن الإثارات — وليست الحيوانات — هى التى يجب أن توضع موضع المضاهاة »[1] .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نمضى إلى فحص الطريقة الفنية للترجمة عند عالم اللغة ؛ هب أن عالم اللغة يسمع المواطن الأصلى ينطق الجملة (س) على حين يشير إلى الإثارة (ص) ، ويفترض عالم اللغة أن الإثارة (ص) تحث على نطق المواطن الأصلى لـ (س) ، ولكى يراجع عالم اللغة افتراضه ويختبره نراه يسأل المواطن الأصلى (س ؟) تحت ظروف مثير مختلفة ، ويحدد الإثارات التى يوافق عليها المواطن الأصلى والإثارات التى يعترض عليها ، ومن خلال المجموع الكلى لهذه الإثارات يقدم كواين تصورًا تجريبيًا جديدًا للمعنى يسميه « المعنى المثير » stimulus meaning، فماذا عسى أن يكون ؟

إن المعنى المثير ينقسم إلى قسمين ويشتمل على فئة كل الإثارات التى سوف تحث المتكلم للموافقة على الجملة وفئة كل الإثارات التى سوف تحثه على معارضتها ، وفئة الإثارات التى تحث على الموافقة تسمى « المعنى المثير الإيجابى » affirmative stimulus meaning، وعلى خلاف ذلك فإن فئة الإثارات التى تحث على المعارضة تسمى « المعنى المثير السلبى » negative stimulus meaning ؛ ولو أخذنا جملة معينة (س) بالنسبة لمتكلم معين وليكن (ص) ، فإن المعنى المثير الإيجابى لـ (س) هو المجموع الكلى للإثارات التى سوف تحث (ص) للموافقة على (س) ، والمعنى المثير السلبى لـ (س) هو المجموع الكلى للإثارات التى سوف تحث (ص) للاعتراض على (س) ، والمعنى المثير لـ (س) هو المعنى المثير الإيجابى والسلبى لها .

---

(١) - W. & O., pp. 32-33.

وهاك ما يقوله كواين فى ذلك : « ربما نبدأ بتعريف (المعنى المثير الإيجابى) لجملة من قبيل (Gavagai) بالنسبة لمتكلم معينٍ على أنه فئة جميع الإثارات التى سوف تحثه على الموافقة عليها ، وإذا وضعنا ذلك بصيغة أكثر وضوحًا ... فإننا نستطيع القول بأن الإثارة (أ) تنتمى إلى المعنى المثير الإيجابى للجملة (س) بالنسبة لمتكلم معين فى حالة واحدة فقط وهى إذا كانت هناك الإثارة (أ) بحيث إذا قدمت الإثارة (أ) للمتكلم ، ثم طرحت عليه (س) ، وبعد ذلك قدمت إليه الإثارة (أ) ثم طرحت عليه الجملة (س) مرة أخرى ، فإنه سوف يرفض فى المرة الأولى ويوافق فى الثانية ؛ ويجوز أن نعرف (المعنى المثير السلبى) بطريقة مماثلة مع استبدال مواضع (الموافقة) و (المعارضة) ثم نعرف المعنى المثير على أنه زوج منظم من الاثنين[١] ، ويؤكد كواين على الفكرة نفسها بشكل موجز فى آخر كتاباته بقوله : « إننى اسمى مجال الإثارات المرتبطة بجملة الملاحظة ، ايجابًا أو سلبًا ، بالمعنى المثير الإيجابى أو السلبى لها بالنسبة للمتكلم » [٢] ؛ ويذهب كواين إلى أن استعمال الصيغة « سوف » الواردة فى تعريفه للمعنى المثير ليس أسوأ من استعمالها عندما تفسر العبارة « ص قابلة للذوبان فى الماء » على أنها تعنى أن ص تتحلل إذا وضعت فى الماء ، وما تحدده هذه الصيغة هو « الاستعداد » ، وهو فى هذه الحالة الاستعداد للموافقة على (س) أو الاعتراض عليها متى جرت الإثارة بشكل متنوع ؛ وجريا مع التفكير فى اللغة فى حدود الاستعدادات ، يقرر كواين أن « المعنى المثير لجملة بالنسبة لشخص يلخص استعداده للموافقة على الجملة أو الاعتراض عليها عند الاستجابة لإثارة حالية »[٣] .

وعندما نستعين بالمعنى المثير يكون بوسعنا تعريف « الترادف المثير » stimulus synonymy ، فالجملتان مترادفتا المثير بالنسبة لكل شخص يتكلم اللغة إذا كانتا تملكان المعنى المثير نفسه ، وبقدر ما يتعلق الأمر بالترجمة من اللغة الأصلية إلى لغة عالم اللغة ، نجد أن اجراءات عالم اللغة هى مضاهاة الجمل التى تكون مترادفة المثير فى اللغتين ، وتصلح « أرنب » كترجمة لـ Gavagai لأن الجملتين تملكان المعنى المثير نفسه[٤] .

---

(١) -W. & O., pp. 32-33.

(٢) -P. of T., p. 3.

(٣) -W. & O., p. 34, and see Ziff, p. "A Response to Stimulus Meaning", Philosophical Review, 79, 1970, pp. 63-74.

(٤) -W. & O., p. 64 ff .

وليس أمعن فى الخطأ من الظن بأن استعمال كواين لمصطلح « الترادف المثير » يعد تنازلاً وتراجعًا ، وشيئًا يضعف من النزعة الشكية فى الترادف وما يرتبط به من مفاهيم والتى نجدها فى « عقيدتان للتجريبية » ،لأنه ليس كذلك فى الحقيقة ؛ والحق أن المعنى المثير والترادف المثير لا ينصفان أفكارنا العادية عن المعنى والترادف ، كما لاحظ كواين نفسه ، وذلك لعدة أسباب ؛ أولاً ، أن معيار كواين للترادف المثير يميز الجمل على أنها غير مترادفة وهى ما ينظر إليها بصورة عادية باعتبارها مترادفة ؛ ثانيًا ، يميز المعيار الجمل على أنها مترادفة المثير وهى تعد غير مترادفة ؛ ثالثًا ، يثير المعيار ضبابًا حول التمييز بين الكشوف والتغيرات التجريبية فى المعنى ؛ ولنبدأ بالنقطة الأولى ، هب أنه معروف للمواطن الأصلى دون أن يكون معروفًا لعالم اللغة أن هناك ذبابة أرنب محلية تلازم الأرانب دائمًا ، ولو تخيلنا الآن أن ذبابة الأرنب تنطلق بسرعة عبر المجال البصرى للمواطن الأصلى ، فإن المواطن الأصلى يوافق على "Gavagai ?" حتى لو لم يثره الأرنب ، ومن ناحية ثانية ، سوف يعترض عالم اللغة على "Rabbit ?" لو سألناه ، وذلك بسبب جهله لاقتران الثابت بين الأرنب وذبابة الأرنب ؛ وهكذا يختلف المعنى المثير لـ "Gavagai" و "Rabbit" بالنسبة للمواطن الأصلى وعالم اللغة ، وتنتمى إثارات ذبابة الأرنب إلى المعنى المثير الإيجابى لـ "Gavagai" بالنسبة للمواطن الأصلى ، ولكنها لا تنتمى إلى المعنى المثير الإيجابى لـ "Rabbit" بالنسبة لعالم اللغة ؛ غير أننا نعرف أن الصعوبة هى اعتقاد المواطن الأصلى حول الاقتران الثابت بين ذبابة الأرنب والأرانب وأن Gavagai عند المواطن الأصلى و « أرنب » عند عالم اللغة يملكان بالفعل المعنى نفسه ، والصعوبة الواضحة هى أن معيار كواين غير قادر على وضع تمييز ملائم بين استجابة المواطن الأصلى الناشئة عن الاعتقاد واستجابته الناشئة عن المعنى ، وبالتالى فإنه يميز الجملتين على أنهما غير مترادفتين(١) .

ويمكن بيان الصعوبة الثانية على النحو الآتى ، تأمل الجملتين « هناك حيوان له قلب » و « هناك حيوان له كلية » بالنسبة لمعظم المتكلمين للغة العربية الذين يعرفون قدرًا معينًا من علم الأحياء ، تجد أن هاتين الجملتين مترادفتا المثير ، ولكن هؤلاء المتكلمين لن يقبلوا القول بأن الجملتين تعنيان شيئًا بعينه بالمغزى الذى يقولون به إن الجملتين « هناك عزاب » و « هناك ذكور غير متزوجين » تعنيان

---

(١) - Davis, S., Op. Cit., p. 156.

شيئًا بعينه ؛ وبناء على ذلك فإن معيار كواين يميز الجمل على أنها مترادفة المثير بالنسبة لمتكلمين لا يعتبرونها مترادفة(١) .

أما الصعوبة الثالثة والأخيرة المتعلقة بالترادف المثير فهى أنه يثير ضبابًا حول التمييز بين الكشوف والتغيرات التجريبية فى المعنى ، ولتوضيح ذلك هب أن شخصًا ما يعتقد بأن « فينوس » (أو الزهرة) و « نجم المساء » لا يتطابقان ، وبالنسبة لهذا الشخص ، ليست الجملتان « هناك فينوس » و « هناك نجم المساء » مترادفتى المثير ، ولكن بعد اكتشاف تطابقهما سوف تصبح الجملتان مترادفتى المثير بالنسبة له ، والآن فإن ما نقبله بصورة عادية هو أن المتكلم قد غير اعتقاده حول ما إذا كان نجم المساء متطابقًا مع فينوس ، ولا نقبل القول بأنه قد غير ما يعنيه بالجمل ، ومع ذلك ، فإن المعايير السلوكية للمعنى المثير والترادف المثير عند كواين لا تضع مثل هذا التمييز(٢) .

وسوف يظن الفيلسوف صاحب وجهة النظر المفهومية أو العقلية فى دراسة اللغة أن هذه الصعوبات تشكل انتقادات تثبت بوضوح أن المعنى المثير والترادف المثير لا يقدمان تفسيرًا كافيًا لأفكارنا الحدسية حول المعنى والترادف ، وبالتالى لابد من نبذهما بالإضافة إلى الأفكار الأخرى فى علم الدلالة السلوكى عند كواين ، وهو فى ظنه هذا يفترض أن أفكارنا الحدسية عن المعنى والترادف تمثل المعايير التى لا معايير سواها لأية نظرية دلالية ، ولكن ماذا عسى أن يكون رد كواين على هذا ؟

إن كواين يرفض هذا بطبيعة الحال ، لأن معياره كما ألمحنا من قبل هو الدليل المتاح لعالم اللغة ، فقد ذهب إلى أن جميع المعطيات الموضوعية التى يتعين على عالم اللغة أن يسلك على أساسها فى بحثه الميدانى هى القوى التى يراها تصطدم بحواس المواطن الأصلى بالإضافة إلى سلوكه القابل للملاحظة ؛ وليس من شك فى أن هناك اثنتين من الدعاوى الفلسفية التى دأب كثير من الفلاسفة على القول بها ، وتشكلان أساس نقد المعنى المثير والترادف المثير على النحو المشار إليه ، ألا وهما وجود تمييز بين المعرفة اللغوية والمعرفة الواقعية ، ووجود تمييز بين الجمل التحليلية والجمل التركيبية ، وهما دعوتان مرتبطتان ، وطالما أن كواين قد أثبت ، كما أوضحنا فى الفصل الأول ، أن هذه التمييزات غير موجودة على النحو الذى

---

(١) -Ibid, p. 157.

(٢) -Ibid, p. 157.

زعم القائلون بها ، فإنه لا يعد هذه الانتقادات أساسًا متينًا لرفض معاييره السلوكية ، زد على ذلك أن كواين لا ينظر إلى المعنى المثير والترادف المثير وتحليلية المثير بوصفها عمليات إعادة بناء سلوكية لعلم الدلالة الحدسي ، وإنما يعدها بدائل سلوكية فقط .

ونستطيع تقسيم المنطوقات أو الجمل فى حدود المعنى المثير إلى فئتين : جمل المناسبة occasion sentences والجمل الدائمة standing sentences ، ثم نميز بعد ذلك داخل جمل المناسبة بين جمل الملاحظة observation sentences وجمل اللاملاحظة non - obervation sentences ، ولو تناولنا التمييز الأول ، لوجدنا أن فئة جمل المناسبة تتألف من جمل مثل :

(١) إنها تمطر .
(٢) الجريدة وصلت منذ لحظات .
(٣) هذا أحمر .

أما فئة الجمل الدائمة فتنطوى على جمل من قبيل :

(١) الثلج أبيض .
(٢) السكر حلو .
(٣) ٥ + ٥ = ١٠ .

ويكمن الفرق بينهما فى أن جمل المناسبة قد تحظى بالموافقة فى مناسبات معينة وقد لا تحظى بها فى مناسبات أخرى ، فالجملة « إنها تمطر » ربما نوافق عليها فى مناسبة ولا نوافق عليها فى مناسبة أخرى ، على حين أن الجمل الدائمة تفتقر إلى هذه السمة الخاصة « بنسبية السياق »[(١)] context-relativity « على حد تعبير « هوكوى » ، ونستطيع أن نضيف إلى هذا التعبير كلمة تجعله أكثر دقة ، فنقول « نسبية سياق الموقف » ، لأن السياق قد يفهم بأكثر من معنى ، فهناك سياق للغة ، وهناك سياق للموقف ، وغير ذلك من الأنماط التى يمكن استخراجها من مفهوم السياق ، نقول إن الجمل الدائمة تفتقر إلى نسبية سياق الموقف لأنه إذا تمت عليها على الإطلاق ، فسوف تحظى بها فى كل وقت وحين ، ولو وافقنا على الجملة « الثلج أبيض » فسوف نوافق عليها بعد ذلك موافقة دائمة .

ويوضح كواين التمييز بين جمل المناسبة والجمل الدائمة بقوله : « تتعارض الجمل

---

(١) - Hookway, C., Quine: Language, Experience and Reality, P. 132

الدائمة مع جمل المناسبة فى أن الفاعل (فى حالة الجمل الدائمة) ربما يكرر موافقته - أو معارضته - القديمة التى لم تحث عليها إثارة حالية عندما نسأله مرة ثانية فى مناسبات متأخرة ، على حين أن جمل المناسبة لا تنال الموافقة أو الاعتراض إلا بقدر ما تحث عليها إثارة حالية من جديد »[١] ؛ وتوحى عبارة كواين هذه بأمرين ، الأول هو أن التمييز بين جمل المناسبة والجمل الدائمة هو ذاته يقبل التعريف فى حدود فكرة الموافقة والاعتراض الحث عليهما ، ولقد بين كواين هذا فى موضع آخر عندما قال : تكون الجملة جملة مناسبة بالتسبة لشخص إذا استطاع التوصل إلى الموافقة أو الاعتراض عليها ، ولكنه لا يستطيع التوصل إلى ذلك أبدا ما لم يكن وضع الجملة موضع التساؤل مصحوبا باثارة حاثة »[٢] والأمر الآخر إننا يمكن أن نستمد من عبارة كواين المشار إليها شرطا ضروريًا لجمل المناسبة مؤداه « تكون (س) جملة مناسبة فقط إذا حدثت الموافقة على « س » ؟ أو الاعتراض عليها بعد إثارة حالية حادثة »[٣] .

على أن « ديفيس » يرى أن هذا الشرط الضرورى يستبعد الأمثلة التى يقدمها كواين لجمل المناسبة مثل Gavagai و« أحمر » و« إنه يؤلم » ، إذ لا تتطلب ، فيما يرى ، أية جملة من هذه الجمل إثارات حالية حاثة لإحداث الموافقة أو الاعتراض ، ويتناول الجملة « إنه يؤلم » ، كمثال يوضح من خلاله فكرته هذه ، قائلا : هب أننى أتحدث مع عمتى عن رجل ابن عمتى المكسورة ، وأسأل فى قلق « هل تؤلم ؟ » ، من الواضح أن عمتى يمكن أن تستجيب من دون حضور حاث لرجل ابن عمتى التى أصابها الأذى ، ومن السهل إلى حد كاف أن ندخل جمل المناسبة الأخرى التى يقدمها كواين فى أحاديث حيث يتم استعمالها باعتبارها أسئلة ، وعندما تستعمل كذلك ، فسوف تنال الموافقة أو الاعتراض من غير أن تحث عليها إثارة حاثة[٤] ؛ ولعلنا نلاحظ أن « ديفيس » قد حول نمط جملة المناسبة من الصيغة التقريرية ، وهى الصيغة التى صاغ كواين بها هذه الجمل ، إلى الصيغة الاستفهامية ، وأراد من وراء ذلك أن يحول الحاضر إلى غائب ، ومن ثم يتوارى شرط وجود إثارة « حالية » لإحداث الموافقة أو الاعتراض على جملة المناسبة ؛

---

(١) -W. & O., p. 36.

(٢) -M.7T.,p.462.

(٣) -Davis, S., Op. Cit., p. 161.

(٤) -Ibid, pp. 161 - 162.

ولكن يمكن الرد على محاولة « ديفيس » بأن استجابة العمة فى غياب الإثارة الحالية لن تكون استجابة صحيحة أو دقيقة ؛ فلو سألها هل تؤلم ؟ » وأجابت « نعم » دون حضور حاث لرجل ابنها المصابة ، فإن هذه الإجابة قد لا تكون صحيحة ، إذ ربما تلاشى الألم دون أن تدرى ، ولو أنها عادت إلى ابنها المريض ونظرت إلى رجله سائلة : ألا زالت تؤلم ؟ فربما تأتى الإجابة : لا يا أماه لقد توارى الألم ، وهنا تدرك أنها جانبت الصواب فى الرد على ابن أخيها ؛ وقل مثل ذلك فى حالة جملة المناسبة « إنها تمطر » ، إذ لو استجاب المرء بالموافقة أو الاعتراض على هذه الجملة دون حضور حاث من نزول المطر ، فإن هذه الاستجابة لا تكون ملائمة .

ولو أننا أنعمنا النظر فى الشىء العميق الذى يشكل أساس التفرقة بين جمل المناسبة والجمل الدائمة ، لوجدنا أنه اختلاف فى قيمة الصدق truth value بالنسبة لهاتين الفئتين من الجمل ، فقيمة صدق جمل المناسبة تعتمد على مناسبة نطق هذه الجمل ، وهى بذلك تختلف باختلاف الظروف السائدة فى وقت النطق ، أى أنها تكون صادقة فى مناسبة وكاذبة فى أخرى ، وقل عكس ذلك عن الجمل الدائمة ، فهى الجمل التى تظل قيمة صدقها ثابتة بصرف النظر عن مناسبة نطقها .

والمعنى المثير يكون مثالاً نموذجيا كاملاً لميول الشخص النامية للموافقة على الجملة أو الاعتراض عليها وذلك إذا كانت الجملة جملة مناسبة ، ويكون أقل من ذلك إذا كانت الجملة جملة دائمة ، وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فلا غرو أن تكون فكرة المعنى المثير عظيمة الأهمية بالنسبة لجمل المناسبة[1] ؛ وهذا يعنى أن عالم اللغة إذا عرف المعنى المثير للجملة الأصلية المناظرة لجملته « هذا أحمر » ، فسوف يعرف بعض المواقف التى من الملائم أن تستعمل فيها وسوف يفهم فى بعض المناسبات الشىء الذى أراده المواطن الأصلى من وراء استعمالها ، أما إذا انتقلنا إلى الجمل الدائمة ، فإن الوضع سرعان ما يختلف ، إذ أن اصطدام الإثارات على حواس المواطن الأصلى عندما ينطق جملة دائمة لا تقدم لعالم اللغة طريقة يستطيع من خلالها أن يدرك كيفية استعمال تلك الجملة الدائمة أو فهمها .

ولئن كان عالم اللغة يستطيع ربط المعنى المثير بجمل المناسبة ، إلا أنه لا يستطيع ترجمة

---

(١) - W. & O., pp. 36 - 37

« كل » جمل المناسبة ، ولتوضيح ذلك تأمل الجملة الأصلية المناظرة لجملتنا « إنه أعزب » تجد أن المعنى المثير لها لا يتضح من إثارة سطحية بعينها وإنما قد يستحوز على كل إثارات الأعزب فى المجتمع الكلامى الأصلى ، وطالما أن وجود الأعزب لا يسترشد بالمعنى الظاهرى أو القيمة الظاهرية ، فإن معرفة عالم اللغة بالمعنى المثير للجملة الأصلية المناظرة لجملتنا « إنه أعزب » لا تمكنه من استعمالها أو ترجمتها ، ومن ثم لا يستطيع عالم اللغة ترجمة الجمل الدائمة وعدد كثير من جمل المناسبة .

وهنا لا يجد كواين مندوحة عن أن يصنف جمل المناسبة إلى فئتين هما جمل الملاحظة ، وجمل اللا ملاحظة فما هو سبيله إلى ذلك ، وما هو الهدف الذى يرمى إليه من وراء هذا التمييز ؟ الحق أننا قد عالجنا جمل الملاحظة بشىء من التفصيل فى موضع آخر من كتابنا (انظر ٢ — ٤) غير أننا نوجه اهتمامنا إليها هاهنا من زاوية الترجمة الجذرية فحسب ، وفى هذا السياق يذهب كواين إلى أن بعض المعانى المثيرة يكون أقل عرضة لتأثير المعلومات المقحمة من بعضها الآخر ، ويرى أن ثمة تباينًا ذا مغزى فى هذا الموضوع بين « أحمر » و« أرنب » حتى عندما ننظر إلى أحمر نظرة متكافئة مع نظرتنا إلى « أرنب » على أنها لا تدل على معطى حسى زائل ، بل تدل على أثر موضوعى ثابت للشىء الفيزيائى ويعترف كواين بأن هنالك حالات متطرفة حيث ربما نقتنع ، عن طريق المعلومات المكملة فيما يخص الإضاءة الزائدة والتجاور ، بأن الشىء الذى هو أحمر بالفعل لا يبدو كذلك ، بيد أنه يعود ويقرر أنه على الرغم من هذه الحالات ، فهناك مجال للمعلومات المكملة فى تحديد هل الشىء المرئى أحمر أقل من مجالها فى تحديد هل الشىء أرنب ، ومن ثم فإن تماثل المعنى المثير فى حالة « أحمر » يصبح قريبًا بشكل غير عادى مما يتوقعه المرء من الترادف بصورة حدسية[1] .

وإذا كانت « أحمر » أقل عرضة إلى حد ما لتأثيرات المعلومات المقحمة من « أرنب » فهناك جمل أخرى أكثر عرضه لتأثير هذه المعلومات ، وهذه الجمل هى جمل المناسبة التى سوف تعتمد الموافقة ، التى نالت حثًا ، عليها اعتمادًا دائمًا وعلى نطاق واسع على معلومات مكملة إلى درجة أن معانيها المثيرة لا يمكن معالجتها على أنها « معانيها » عن طريق مرونة التخيل ، والمثال الذى يقدمه كواين هو « أعزب » أو « هذا أعزب » ؛

---

(١) Ibid, pp. 40 - 41.

فالجملة « هذا أحمر » إذن أقل عرضه لتدخل المعلومات الإضافية من « هذا أرنب » وهى أقل فى هذا الأمر بكثير من « هذا أعزب » ؛ إن موافقة المرء على جملة من قبيل « هذا أعزب » يتم الحث عليها بشكل حقيقى عن طريق النظر إلى الوجه ، ومع ذلك فإنها تعتمد اعتمادًا أساسيًا على معلومات جاهزة ولا تعتمد على الإطلاق على الإثارة الحاثة اللهم إلا بقدر ما تكون للتعرف على صديق أعزب ، والمشكلة المتعلقة « بهذا أعزب » هو أن معناها يتجاوز النظرات إلى الوجوه الحاثة ويتعلق بمسائل يمكن معرفتها فقط من خلال مصادر أخرى ؛ ومن الواضح إذن أننا يجب أن نحاول تمييز فئة فرعية من جمل المناسبة والتى نصفها وصفًا جيدًا على أنها « جمل الملاحظة » مع إقرار أن ما أسميته المعنى المثير يشكل فكرة معقولة لهذه الجمل على الأكثر[1] .

وهكذا يمكن النظر إلى « أحمر » على أنها جملة ملاحظة طالما أن معظم المتكلمين الذين نسألهم « أحمر ؟ » وتجرى إثارتهم بصورة مماثلة سوف يستجيبوا بالطريقة ذاتها ، ومن ناحية ثانية يمكن النظر إلى « أعزب » على أنها جملة لا ملاحظة طالما أننا لو طرحنا هذه الجملة فى صيغة سؤال على مجموعة من المتكلمين ، وجرت اثارتهم بصورة مماثلة ، فسوف تجىء استجابتهم على نحو يختلف من متكلم إلى آخر ؛ وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إننا نستطيع فى معظم الحالات أن ندرك هل يكون الشىء أحمر عن طريق النظر إليه ، على حين أن مجرد النظر إلى شخص لا يخبرنا بشىء عن حالته الاجتماعية ، وإذا شئنا أن نعرف هل الشخص المعين أعزب ، فيجب أن نعرف شيئًا يأتى بمثابة إضافة أو تكملة للإثارة الحاثة ، أى نعرف شيئًا عن تاريخه الماضى ؛ لا عجب إذن أن تكفى المعلومات التى نحصل عليها عن طريق النظر لفهم استعمال جملة من قبيل « أحمر » ، على حين أن الإشارة إلى أية مجموعة من العزاب لن تجدى كثيرًا فى توضيح وتحديد معنى « أعزب » ، ومن ثم لابد من أن تكون الإشارة فى هذه الحالة الأخيرة مصحوبة بشىء من التاريخ الشخصى أو المعرفة الخلفية ؛ وإذا طرحنا المسألة من زاوية التعلم ، لكان بوسعنا القول بأن المرء يستطيع تعلم استعمال « أحمر » بصورة صحيحة من شخص يعتمد على الإشارة فحسب ، أما فى حالة « أعزب » فلابد من أن يكون المتكلم مزودا بمعلومات إضافية حتى يتم التعلم بشكل ملائم ؛ فمن الجائز أن يرى

---

(١) - M. & T., p. 466, W. & O., pp. 40 - 42.

متكلمان شخصًا بعينه ، ولكن نظرًا لاختلاف معرفتهما الخلفية ، كأن يعرف أحدهما أن الشخص موضوع البحث ليس متزوجًا ، بينما لا يعرف الآخر ذلك ، فلن يكون الحافز الإشارى كافيا لتعليم « أعزب » .

وخلاصة هذا الذى أسلفناه بعبارة كواين هى أن « جملة الملاحظة هى الجملة التى يصدر عليها كل من يتكلم اللغة حكمًا بعينه عند تقديم إثارة متزامنة بعينها ، وإن شئت أن تضع النقطة ذاتها على نحو سلبى قل إن جملة الملاحظة هى التى لا تتأثر بالاختلافات فى الخبرة الماضية داخل المجتمع الكلامى »[1] ؛ ويقول كواين فى موضع آخر : « لقد عرفت جمل المناسبة على أنها الجمل التى توجد لها موافقة أو اعتراض شريطة أن تكون عرضة للحث فقط ، وما نطلبه الآن لجمل الملاحظة هو أن يجرى الحث على الموافقة أو الاعتراض عليها من دون مساعدة المعلومات التى تتجاوز الإثارة الحاثة ذاتها »[2] ؛ وإذا كنا قد ألمحنا إلى أن المعنى المثير يكون أقرب ما يكون إلى أفكارنا العادية عن معنى جمل المناسبة منه إلى معنى الجمل الدائمة ، فإننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك أن المعنى المثير يكون أقرب إلى أفكارنا العادية عن معنى جملة الملاحظة « أحمر » منه إلى معنى جملة اللا ملاحظة « أعزب » .

طرحنا سؤالين فيما يتعلق بالتمييز داخل جمل المناسبة بين جمل الملاحظة وجمل اللا ملاحظة وهما : ما هو سبيل كواين إلى وضع هذا التمييز ، وما الهدف الذى يبتغيه من وراء اصطناعه ؟ وأجبنا على الأول ، وفيما يخص الثانى ، نجد أن الغاية التى قصد إليها كواين من هذا التمييز هى إظهار الدور الذى تقوم به جمل الملاحظة فى الترجمة ؛ ولقد أشرنا فى (٢ — ٤) إلى أن جمل الملاحظة هى المدخل إلى اللغة ، وهى المدخل إلى العلم أيضًا ، وهاهنا يضاف إليهما أنها المدخل إلى الترجمة الجذرية كذلك .

ويوضح كواين هذه الفكرة بقوله إن « جمل الملاحظة هى الجمل التى نكون معها فى وضع يتيح لنا أن نتعلم الفهم أولا كأطفال وعلماء لغة ميدانيين على حد سواء »[3] ، ثم يجمع الوظائف الأساسية التى يسندها إلى جمل الملاحظة فى عبارة واحدة تقول إننا

---

(١) - O. R. & O. E., pp. 86 - 86.

(٢) - M. & T., p. 466.

(٣) - O. R. 7 O. E., p. 89.

قد أدركنا هذه الجمل « بوصفها السجل الابتدائى للدليل فيما يخص العالم الخارجى ، وأيضًا بوصفها الخطوة الأولى عند الطفل نحو اللغة المعرفية ، وهى أيضًا الخطوة الأولى عند عالم اللغة الميدانى نحو لغة الغاب »(١) .

وهكذا نرى أهمية الدور الذى تقوم به جمل الملاحظة فى موضوع الترجمة ، فهى تعد أساسًا لنظرية الترجمة ، إذ يستطيع عالم اللغة أن يترجمها دون أن يملك مدخلاً إلى أى جزء آخر من لغة المواطن الأصلى ، كما أنها تلك الجمل التى يمكن فهمها فى حدود تقديم شروط المثير ، أى أن معناها يكون مكتملاً عن طريق مفهوم المعنى المثير ، وعلى ضوء هذا وبسببه تمثل جمل الملاحظة تلك الجمل التى يبدأ بها عالم اللغة ترجمته .

وفضلاً عن ترجمة جمل الملاحظة ، فإن عالم اللغة يملك دليلاً للدخول فى مجال آخر من مجالات الترجمة الجذرية ، ألا وهو المجال الخاص بدوال الصدق truth functions مثل النفى والعطف والانفصال ؛ فالنفى يقوم بتغيير الجملة الأصلية التى يوافق عليها المواطن الأصلى إلى جملة لن يوافق عليها أو يغير الجملة التى يعترض عليها إلى جملة سوف يوافق عليها ؛ ويمكن تحديد العطف على أنه التعبير الأصلى الذى يؤلف الجمل المركبة التى يوافق عليها المواطن الأصلى فى حالة واحدة فقط وهى أن يوافق على الجمل المكونة لها على حد سواء ؛ أما الانفصال الأصلى فهو التعبير الذى يؤلف مركبًا سوف يعترض عليه المواطن الأصلى فى حالة واحدة فقط وهى أن يعترض على عناصر الانفصال(٢) .

ويوضح كواين ترجمة روابط دوال الصدق المفسرة بشكل دلالى تمامًا إذ يقول : « والآن بالرجوع إلى الموافقة والمعارضة نستطيع تحديد معايير دلالية لدوال الصدق ، أعنى معايير لتحديد ما إذا كان يتعين تفسير تعبير اصطلاحى أصلى معين على أنه تعبير عن دالة الصدق موضوع البحث ؛ فالمعيار الدلالة للنفى هو أنه يحول اية جملة قصيرة سوف يوافق عليها المرء إلى جملة سوف يعترض عليها ، وعكس ذلك صحيح ؛ والمعيار الدلالى للعطف هو أنه يقدم مركبات (شريطة أن تكون الجمل المكونة قصيرة) يكون

(١) - P. of T., p. 39.

(٢) الانفصال هنا بالمعنى الضعيف أو التضمنى week or enclusive disjonction ومؤداه أن أحد البديلين صادق على الأقل ويجوز أن يصدق البديلان معًا ، ومن ثم لن يعترض المواطن الأصلى على جملة الانفصال إلا فى حالة اعتراضه على البديلين معًا ، ويوافق فى بقية الحالات .

المرء مستعدًا للموافقة عليها دائما فقط عندما يكون مستعدًا للموافقة على كل مكون ؛ والمعيار الدلالى للانفصال يشبه المعيار الدلآلى للعطف مع تغيير الفعل (يوافق) مرتين إلى (يعارض)[١] ؛ وقد يتساءل المرء : لماذا يشترط كواين فى صياغته للمعايير الدلالية لدوال الصدق أن تكون الجمل المكونة قصيرة ؟ والجواب أن هذا بمثابة حذر منهجى ، لأنه لو كانت هذه المكونات طويلة لجاز أن تختلط الأمور على الشخص ، ولا يوجد حد معين يمكن فرضه على أطوال الجمل المكونة التى ربما تنطبق عليها صورة النفى أو العطف أو الانفصال ، ولكن عندما نكون بازاء حالات الاختبار التى نبغى من وراءها الكشف للمرة الأولى عن مثل هذه التركيبات فى اللغات الغريبة ، فمن الأفضل أن تكون حالات ذات مكونات قصيرة ، وذلك إذا أردنا اجتناب الوقوع فى لبس .

إن عالمنا اللغوى يلاحظ المنطوقات الأصلية وظروفها ملاحظة سلبية فى بادئ الأمر ، ثم يضع الجمل الأصلية موضع التساؤل وذلك للحصول على موافقة ومعارضة تحت ظروف متباينة ؛ ويمكن أن نلخص الحصيلة الممكنة لكل الطرائق التى اصطنعناها حتى الآن من منهاجية الترجمة على النحو الآتى :

١ – يمكن ترجمة جمل الملاحظة .

٢ – يمكن ترجمة دوال الصدق .

٣ – يمكن إدراك الجمل تحليلية المثير ، وكذلك يمكن إدراك الجمل من النوع المقابل ، أى الجمل « متناقضة المثير » التى تستحق معارضة نهائية .

٤ – الأسئلة عن الترادف المثير بين الذاتى لجمل المناسبة الأصلية حتى من نوع اللا ملاحظة يمكن حسمها إذا اثيرت ولكن لا يمكن ترجمة الجمل[٢] .

وها هنا ينشأ السؤال القائل : كيف يعبر عالم اللغة هذه الحدود أو يتجاوزها ؟ إذا أراد عالم اللغة القيام بذلك فليس أمامه سوى طريقة واحدة تتمثل فى المخطط الواسع الآتى : يقطع عالم اللغة المنطوقات المسموعة إلى أجزاء قصيرة متكررة بشكل ملائم ، ويؤلف بالتالى قائمة من « الكلمات » الأصلية ، ويسوى بشكل افتراضى كلمات متنوعة

---

(١) -W. 7 O., pp. 57 - 58.

(٢) -W. & O., p. 68.

منها بالكلمات والعبارات فى اللغة المترجم إليها ، وذلك بطريقة تعمل طبقًا لـ (١ – ٤) ويسمى كواين هذه العمليات باسم الفروض التحليلية analytical hypotheses[(١)] .

وعندما يصبح عالم اللغة شخصًا يتقن لغتين ، فإنه يستطيع أن يوسع من مجال ما لديه من دليل للترجمة بحيث يشمل ترجمة جمل المناسبة من فئة اللاملاحظة ، أى يستطيع ترجمة جمل المناسبة برمتها ؛ وهكذا فإن عالم اللغة الذى يتقن لغتين يستطيع :

١ – أن يترجم جمل المناسبة .
٢ – أن يترجم دوال الصدق .
٣ – أن يحدد أى الجمل الأصلية تكون تحليلية المثير وأيها تكون متناقضة المثير .

ويرى كواين أن عالم اللغة سوف يحتاج إلى الفروض التحليلية لتسوية البنى النحوية الأصلية بالبنى النحوية فى اللغة المترجم إليها ، وتؤلف هذه الفروض التحليلية كتيب الترجمة عند عالم اللغة ؛ ولابد من أن ندرك أن الفروض التحليلية هى فروض بمغزى فضفاض فقط ، إذ أن سمة الفروض العلمية الحقيقية هى إمكان تأييدها أو دحضها على أساس دليل متاح ومقبل ، وليس الأمر كذلك مع الفروض التحليلية[(٢)] .

ولكن ، هل يمكن بناء معايير مماثلة لمعايير كواين لتوسيع الترجمة عند عالم اللغة لكى تشمل الكلمات الأصلية ؟ يحاول كواين إثبات أن هذا أمر يتعذر الوصول إليه ، ويزعم أن (١) و (٢) و (٣) هى الحدود القصوى لما يمكن ترجمته بشكل محدد على أساس ما يعتبره دليلاً متاحًا ، وهناك سببان لهذا : أولاً ، لا يمكن ترجمة الكلمات الأصلية بشكل محدد ، وبخاصة أدوات الإشارة الموضوعية ، والأسوار ، وأدوات التعريف والتنكير ؛ ثانيًا ، لا يمكن ترجمة الجمل الدائمة ، أى النظرية ، بصورة محددة .

عرضنا فى مستهل هذا الفصل بعض الصيغ المبكرة لدعوى اللاتحديد فى الترجمة ، ولاحظنا أنها غامضة وتفتقر إلى الدقة ، وها نحن نعيد مضمون الدعوى بصيغة أكثر دقة وبلغة واضحة إلى حد كبير وذلك بعد أن ناقشنا أبعادها من زاوية الترجمة الجذرية ، تقول الدعوى : « يجوز أن يضع اثنان من المترجمين كتيبين مستقلين للترجمة ، ويكون

---

(١) - Ibid, p. 68, O. R. & O. E., pp. 32-33, I. of T. A., p. 7, P. of T., p. 45.

(٢) - Davis, S., Op. Cit., pp. 183-184.

كلاهما منجسمًا مع كل السلوك الكلامى ، ومع ذلك سوف يقدم الواحد منهما ترجمات يرفضها المترجم الآخر ، ووجهة نظرى هى أن كل كتيب يمكن أن يكون نافعًا ، ولكن فيما يتعلق بما هو صواب وما هو خطأ لا توجد حقيقة فى المسألة »(١) .

٤ – ٣ حجة من التحديد الناقص فى النظريات الفيزيائية

يقدم كواين حجة ثانية على اللاتحديد فى الترجمة لا تستلزم التفكير فى منهاجية الترجمة الجذرية كما هو الحال فى الحجة الأولى ، وإنما تستلزم تفكيرًا أكثر عمومية ، ومفاد الحجة الثانية هو القول بأن اللاتحديد فى الترجمة ينشأ من التحديد الناقص underdetermination فى النظرية الفيزيائية عن طريق الدليل ؛ وهناك ارهاصات لهذه الحجة فى كتاب « الكلمة والموضوع » ، إذ يقول : « وبنفس الدرجة التى تكون بها الترجمة الجذرية للجمل ناقصة التحديد عن طريق المجموع الكلى للاستعدادات للسلوك اللفظى ، تكون نظرياتنا واعتقاداتنا ناقصة التحديد بصفة عامة عن طريق المجموع الكلى لدليل حسى ممكن »(٢) ، وزعم كواين هنا هو أن اللاتحديد والتحديد الناقص يقعان بدرجة واحدة ؛ غير أن كواين لم يطور هذه الحجة بصورة واضحة إلا فى كتاباته الأخيرة ، وبخاصة فى مقالة « فى أسباب اللاتحديد فى الترجمة » حيث يقرر أن الحجة من منهاجية الترجمة ليست هى الحجة الحقيقية على اللاتحديد ، إذ صور نقاد كواين حجة الترجمة الجذرية التى يبرزها مثال Gavagai على نحو مركزى أكثر مما ينبغى ، وراودهم الأمل فى أنهم إذا استطاعوا إثارة الشكوك حول هذه الحجة ، لكان من اليسير عليهم تفنيدها بعد ذلك ، بيد أن كواين يعترف بأن هذه الحجة لا تمثل الأساس المكين والحقيقى لدعوى اللاتحديد ، وإنما الأساس أبعد عمقًا وأكثر اتساعًا من ذلك(٣) .

ويطلب منا كواين أن ننحى الترجمة جانبًا لفترة وجيزة ، ونتأمل فى النظرية الفيزيائية ، « ومن الطبيعى أن تكون النظرية الفيزيائية ناقصة التحديد عن طريق دليل ظهر فى الماضى ، إذ يمكن أن تتعارض معه ملاحظة مقبلة ، ومن الطبيعى أن تكون ناقصة التحديد عن طريق دليل ماضى ومقبل مركب ، طالما أن حادثة معينة قابلة للملاحظة وتتعارض

(١) - F. of M., p. 167.

(٢) - W. & O., p. 78.

(٣) - O. R. for I. T., p. 178.

معه يمكن أن يتصادف وتمضى دون ملاحظة ؛ زد على ذلك أن كثيرًا من الناس سوف يوافقون ، إلى حد أبعد من كل هذا ، على أن النظرية الفيزيائية تكون ناقصة التحديد حتى عن طريق جميع الملاحظات « الممكنة » ، ولا تضفى سرًا على هذه الصيغة للإمكانية ، فإن ما أريده يجىء على النحو الآتى : تأمل جميع جمل الملاحظة فى اللغة ، أى جميع جمل المناسبة التى تم تكييفها بغية استعمالها فى تقرير حوادث قابلة للملاحظة فى العالم الخارجى ... وبعض هذه الجمل ... سوف تكون صادقة ، والأخرى كاذبة ، وذلك ببساطة بمقتضى الأحداث الماضية القابلة للملاحظة مع أنها لم تلاحظ والأحداث المقبلة فى العالم ؛ والآن فإن النقطة الخاصة بالنظرية الفيزيائية هى أن النظرية الفيزيائية تكون ناقصة التحديد عن طريق كل هذه الحقائق ، ويمكن أن تتغير النظرية مع أن كل الملاحظات الممكنة تكون ثابتة ، ويمكن أن تكون النظريات الفيزيائية فى نزاع الواحدة منها مع الأخرى ومع ذلك تكون منسجمة مع جميع المعطيات الممكنة ولو بالمغزى الواسع ؛ وخلاصة القول هى أنها يمكن أن تكون غير متوافقة منطقيًا logically incompatible ومتكافئة تجريبيًا empirically equivalent »[١] .

ويمكن تقسيم دعوى كواين كما تظهرها عباراته الأخيرة فى هذا النص إلى دعوتين حول النظريات الفيزيائية :

١ – يمكن أن تكون النظريات الفيزيائية فى نزاع الواحدة منها مع الأخرى ، أى أنها ، بعبارة أخرى ، غير متوافقة منطقيًا .

٢ – يمكن أن تكون النظريات الفيزيائية متوافقة مع كل المعطيات الممكنة ، أى أنها ، بعبارة أخرى ، متكافئة تجريبيًا .

ولكى نوضح هاتين الدعوتين ، هب أن س١ ، س٢ ، ... تؤلف جميع جمل الملاحظة فى اللغة العربية ، وهذه الجمل بعضها صادق وبعضها كاذب ، ولنفترض أن س$\overline{١}$ ، س$\overline{٢}$ ، ... هى الجمل الصادقة ، ومن أجل تبسيط الأمور ، دعنا نفترض أن هناك نظريتين متنافستان فقط وهما أ ، ب ، تتألف كلتاهما من مجموعة متوافقة من الجمل النظرية أو الدائمة ، والآن تتفرع دعوى كواين حول النظريات الفيزيائية إلى فرعين ، فنراه يزعم أولاً أنه من الممكن أن تكون أ ، ب متوافقتين أو متكافئتين تجريبيًا

---

(١) - Ibid, pp. 178-179.

مع س١ ، س٢ ، ... ويزعم ثانيًا أنه يمكن أن تكون إحداهما غير متوافقة منطقيًا مع الأخرى .

إن التحديد الناقص فى النظريات ، إذن ، هو الزعم القائل بأنه من الممكن صياغة نظريات علمية متكافئة تجريبيًا ولكنها غير متوافقة منطقيًا ، ودفاع كواين عن دعوى التحديد الناقص فى مقالته « فى أسباب اللاتحديد فى الترجمة » موجز للغاية ، إذ يقول : « وهذه نقطة أتوقع اتفاقًا واسعًا عليها ، ولو فقط بسبب كون معايير الملاحظة مرنة وناقصة هكذا على نحو مشترك »[١] ؛ وما يعنيه كواين هنا يمكن التماسه من كتاباته الآخرى ، فتحاول النظرية أن تقدم بنية متناهية للاتناهى فى دليل الملاحظة عن طريق شبكة من جمل محددة ، وتفسح هذه الشبكة المجال أمام جمل ملاحظة جديدة يستدل عليها من جمل معينة ، وهذه الصيغ النظرية سوف تضع تضمنًا يتجاوز كل دليل ممكن « إن أية صيغة متناهية سوف تتضمن (المجموع الكلى لجمل الملاحظة) يتعين عليها أن تتضمن مسألة مختلفة معينة ، أو عملية سد ، التى تكون فائدتها الوحيدة هى إكمال الصيغة ، وهناك حرية اختيار ما لعملية السد ، وهذا هو التحديد الناقص »[٢] ، ومن ثم فإن الدليل على النظريات يكون ناقصًا لأن النظريات تفترض الصدق لأكثر مما هو مقدم فى جمل الملاحظة ، ويكون الدليل مرنًا بسبب وجود اختيار فيما يتعلق بالجمل الأخرى التى يمكن أن تتضمنها النظرية[٣] .

ولو وافقنا على التحديد الناقص فى النظريات ، فإن سؤالنا الآن هو : كيف يؤثر هذا التحديد الناقص فى الترجمة ، وإلى أى حد يحدث هذا التحديد الناقص اللاتحديد فى الترجمة ؟ إذا أردنا أن نترجم نظرية فيزيائية لشخص غريب فلابد من أن نبدأ من حيث بدأ الغريب فى وضع نظريته ، أى نبدأ بجمل الملاحظة ، ويذهب كواين إلى أننا نستطيع أن نترجم جمل الملاحظة بشكل محدد كما اتضح لنا من منهاجية الترجمة الجذرية ، كما نستطيع أن نترجم روابط دوال الصدق ، ولكن إذا حاولنا تجاوز هذا الحد ، وسعينا

---

(١) -Ibid, p. 179.

(٢) -O. E. E. S.of W., p. 324.

(٣) Bechtel, W., "Indeterminacy and Intentionality: Quine's Purported Elimination of Propositions", Journal of Philosophy, Vol. LXXV, No. 11, 1978, pp. 651-652, and See for the Same auther, Philosophy of Mind: An Overview for Cognitive Science, Hillsdal, New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, 1988, p. 31.

إلى ترجمة الجمل النظرية ، فإن اللاتحديد سرعان ما يعود ، يقول كواين بعد أن أشار إلى التحديد الناقص : « والآن دعنا ننتقل إلى الترجمة الجذرية لنظرية الفيزيائى الغريب بصورة أساسية ، وكما هو الحال دائمًا فى الترجمة الجذرية ، فإن نقطة البداية هى تسوية جمل الملاحظة فى اللغتين عن طريق التسوية الاستقرائية للمعانى المثيرة ، ولكى نترجم بعد ذلك الجمل النظرية عند الغريب يجب أن نسقط الفروض التحليلية التى يكون مسوغها النهائى هو بالفعل مضاهاة جمل الملاحظة المتضمنة ، ولكن يعود الآن التراخى التجريبى القديم ... بمفهوم ثان ، فبقدر ما يكون صدق النظرية الفيزيائية ناقص التحديد عن طريق ما هو قابل للملاحظة ، تكون ترجمة النظرية الفيزيائية عند الغريب ناقصة التحديد عن طريق ترجمة جمل الملاحظة عنده ، ولو أمكن أن تتغير نظرياتنا الفيزيائية على الرغم من أن كل الملاحظات الممكنة ثابتة ، فإن ترجماتنا لنظريته الفيزيائية يمكن أن تتغير على الرغم من أن ترجمتنا لكل تقريرات الملاحظة الممكنة من ناحيته تكون ثابتة ؛ إن ترجمتنا لجمل الملاحظة عنده لا تثبت ترجمتنا لنظريته الفيزيائية بأكثر مما تثبت ملاحظاتنا الممكنة نظريتنا الفيزيائية الخاصة »(١).

وليس أمعن فى الخطأ من الظن بأن اللاتحديد فى الترجمة مجرد مثال لسمة التحديد الناقص تجريبيًا فى الفيزياء ، أو الظن بأن الهدف فقط هو أن علم اللغة ، باعتباره جزءًا من علم السلوك ومن ثم جزءًا من الفيزياء فى نهاية الأمر ، يقتسم سمة التحديد الناقص تجريبيًا فى الفيزياء ، وإنما الصواب هو أن اللاتحديد فى الترجمة شىء إضافى .

ولكن ، لماذا يظهر اللاتحديد عند ترجمة النظرية الفيزيائية لشخص غريب ؟ السبب هو أن أية نظرية مقدمة فى لغتنا ستكون نظرية مقبولة فى حدود التنبؤ بالأحكام على جمل الملاحظة ، وسوف نقدم ترجمة مقبولة لنظرية الشخص الغريب إذا استطعنا بناء كتيب للترجمة ، ولكن كواين يرى أن هناك صعوبة سوف تحول دون بناء هذا الكتيب ؛ وفى سبيل توضيح هذا الموقف ، يمكن أن نفترض أننا نملك فى لغتنا نظريتين فيزيائيتين هما (أ) و (ب) ، وتضع كلتاهما نفس التنبؤات حول نفس مجال المعطيات ، أى أن كل نظرية منهما تكون ناقصة التحديد ، ويقدم الشخص الغريب لنا نظريته حول مجال

---

(١) - O. R. for I. T., pp. 179-180

المعطيات نفسه ، وها هنا يظهر السؤال القائل : هل نترجم نظرية الشخص الغريب على أنها نظريتنا (أ) أم على أنها نظريتنا (ب) ؟ وفى محاولة للإجابة على هذا السؤال يقدم لنا كواين ثلاثة احتمالات ، مفاد الأول أننا نستطيع ترجمة نظرية الشخص الغريب إلى نظرية واحدة من النظريتين عندنا ، ولتكن (ب) مثلاً ، ونهتدى فى هذه الترجمة « بالبساطة » ، وفحوى الثانى أنه ربما يكون من الصعب ترجمة نظرية الشخص الغريب على أنها (أ) أو (ب) ، أما الثالث والأخير فمؤداه أنه يمكن ترجمة نظرية الشخص الغريب على أنها (أ) و (ب) بصورة متساوية .

هذا الموقف يسعى كواين إلى توضيحه عندما يقول : « حيث تكون النظريتان الفيزيائيتان (أ) و (ب) متوافقتين معًا مع كل المعطيات الممكنة ، يجوز أن نختار لأنفسنا النظرية (أ) ونظل أحرارًا فى أن ننظر إلى الغريب من ناحية الترجمة إما بوصفه يعتقد فى النظرية (أ) أو بوصفه يعتقد فى النظرية (ب) ؛ ويمكن أن نسترشد بالبساطة فى هذا الاختيار بين (أ) و (ب) فى الترجمة ؛ إذ يجوز ، عندما ننسب (ب) إلى الغريب ، أن نقول على نحو غير متوقع ترجمات قصيرة ومباشرة أكثر مما نقوله عندما ننسب (أ) إليه ، هذا احتمال ؛ أما الاحتمال الثانى فهو أن الاختيارين معًا ، (أ) و (ب) يتطلبان قواعد للترجمة مرهقة وغير مباشرة على نحو وعر ، وفى هذه الحالة يجوز أن ننظر إلى الغريب على أنه لا يتمسك بالنظرية (أ) ولا (ب) ، إذ يجوز أن نسند إليه بالأحرى نظرية فيزيائية خاطئة يمكن أن ندحضها ، أو نظرية غامضة نيأس من فهمها ، أو يجوز حتى أن ننظر إليه على أنه لا يتمسك بنظرية فيزيائية متماسكة على الإطلاق ، ولكننا نستطيع أن نتخيل أيضًا احتمالاً ثالثًا مفاده أن (أ) و (ب) يمكن نسبتهما إليه معًا بشكل معقول ، وقد يتضح فى النهاية أنه مع مجرد حالة اللامباشرة المعتدلة فى الترجمة فى نقاط معينة – النقاط المختلفة – يمكن نسبة (أ) و(ب) بصورة متساوية تمامًا »[1] ؛ ومن خلال هذه الاحتمالات الثلاثة يبدو اللاتحديد فى الترجمة واضحًا كأشد ما يكون الوضوح فى الاحتمال الأخير بالإضافة إلى وجوده فى الاحتمالين الآخرين .

وهناك نتيجتان يمكن أن نخلص إليهما من هذه الحجة ، الأولى أننا لا نستطيع معرفة

(١) Ibid, p. 180, and See R. Kirk, "Underdetermination of Theory and Indeterminacy of Translation", Analysis 33, June 1973, pp. 195-201.

النظرية الفيزيائية التى « يعتقد » بها الشخص الغريب ، فهل تراه يعتقد فى النظرية المناظرة لـ (أ) أم النظرية المناظرة لـ (ب) ؟ والثانية أننا لا نستطيع اكتشاف « ما تعنيه » الجمل فى النظرية الفيزيائية عند الشخص الغريب ، هل تعنى نفس ما تعنيه (أ) أم تعنى نفس ما تعنيه (ب) ؛ وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة موجزة قل إن هناك لا تحديد فى اعتقادات الشخص الغريب ، أو اعتقادات المواطن الأصلى ، وفى المعانى عند الشخص الغريب .

ولعل اللاتحديد الترجمى يحظى بقبول يوشك أن يكون قبولاً تامًا وذلك فى حالة اقتصار الجمل التى لا يمكن ترجمتها بشكل محدد على الجمل النظرية ذات المستوى الرفيع من النظرية الفيزيائية مثل الجمل التى تتعلق بالالكترونات والفوتونات ، وهلم جرا ، وعندما يقال بأن الجمل التى لا ترتبط بالملاحظة ارتباطًا وثيقًا ومباشرًا يتعذر ترجمتها بشكل محدد ، وأنه من الممكن أن تقدم لها تفسيرات منوعة يعد الواحد منها بديلاً للآخر ، فلا يثير هذا القول فينا شيئًا من الدهشة ، لأنه يدخل فى باب المألوف ، فمن المألوف وجود ترجمات منوعة لقصيدة الشعر الواحدة أو لقطعة بعينها من النثر الرفيع ، وتعد كل ترجمة بديلة للأخرى ، وإذا كان الأمر كذلك ، فليس هناك ما يحول دون أن نتوقع لا تحديد مشابه فى ترجمة الجمل النظرية فى لغة لا تجمعها مع لغتنا أصول لغوية مشتركة ، وينطقها بشر لهم ثقافة تختلف عن ثقافتنا اختلافًا بعيدًا ؛ ولو وقف كواين عند القول باللاتحديد فى ترجمة الجمل النظرية ، لما كان هناك صراع واصطراع ، ولكنه جاوز ذلك زاعمًا أن اللاتحديد لا يقتصر على المراحل العليا من النظرية الفيزيائية ، بل يتسع ليشمل الكلام العادى عن الموضوعات الفيزيائية .

يكشف كواين عن هذا الزعم عندما يذهب إلى أن الحجة على اللا تحديد فى الترجمة المستمدة من التحديد الناقص فى النظريات هى حجة أراد من اصطناعها « اقناع أى شخص بإدراك اللا تحديد فى ترجمة أجزاء من العلم الطبيعى التى يكون مستعدًا لاعتبارها ناقصة التحديد عن طريق كل الملاحظات الممكنة ؛ ولو استطعت أن أجعل الناس يدركون هذا التراخى التجريبى بوصفة يؤثر ليس فى الفيزياء النظرية على نحو رفيع فحسب بل فى كلام الحس المشترك تماما عن الأجسام ، إذن استطيع أن اجعلهم يسلمون باللا تحديد فى ترجمة كلام الحس المشترك تمامًا عن الأجسام »(١) ، ولكن رأى كواين القائل بأن

---

(١) - O. R. for I. T., p. 183

وانظر فى صياغة الحجة من التحديد الناقص فى خطوات موجزة :

226.

اللا تحديد فى الترجمة يؤثر فى الحديث عن الأشياء العادية ، بالإضافة إلى تأثيره فى المستويات العليا من الفيزياء النظرية هو مسألة خلافية كما لاحظ كواين نفسه ، لأن هناك من لا يذهب إلى الحد الذى ذهب إليه كواين ، ويتضح هذا فى الانتقادات التى يوجهها بعض الفلاسفة إلى دعوى اللا تحديد ، والتى سوف نناقشها فيما بعد .

٤ – ٤ حجة من دوهم وبيرس

يقدم كواين حجة ثالثة على اللا تحديد ترتكز على مقدمتين مقبولتين على نطاق واسع ، المقدمة من « دوهم » والثانية من « بيرس » ، الأولى هى نزعة الكلية ، والثانية نزعة التحقق فى المعنى ؛ والحق أن كواين لم يقدم هذه الحجة بشىء من التفصيل ، وإنما ألمح إليها فى مواضع قليلة من كتاباته ، فنراه يقول فى مقالة « تطبيع المعرفة » : « عندما نأخذ نظرية التحقق فى المعنى مأخذ الجد ، فإن اللا تحديد فى الترجمة سوف يظهر بحيث يكون أمرًا لا مهرب منه ؛ لقد اعتنقت دائرة فينا نظرية التحقق فى المعنى ولكنها لم تأخذها بجدية كافية ، ولو أننا أدركنا مع بيرس أن معنى الجملة يدور بشكل تام على ما يعد دليلاً على صدقها ، ولو أدركنا مع دوهم أن الجمل النظرية تملك دليلا ليس باعتبارها فرادى ، بل باعتبارها فقط مجموعات ضخمة فى نظرية ، فإن اللا تحديد فى ترجمة الجمل النظرية يكون نتيجة طبيعية »[١] .

ومؤدى هذه الحجة أنه لا يمكن تخصيص « الدليل » أو تحديده على نحو فريد لجمل مستقلة فى نظريات ، (وهذا هو ما تذهب إليه نزعة الكلية) ، وطالما أن الدليل على صدق الجملة يكون متطابقًا مع معناها (وهذا هو ما تذهب إليه دعوى بيرس) ، فيلزم أن « المعنى » لا يمكن تخصيصه بشكل فريد لجمل مستقلة فى نظريات ، وتلك النتيجة هى ما تروم دعوى اللاتحديد إثباتها : ويمكن أن نوجز حجة كواين فى الصيغة التالية[٢] :

---

(١) - O. R. & O. E., pp. 80 - 81.

(٢) - Follesdal, D., "Meaning and Experience", p. 30.

دوهم زائد بيرس ينتج اللاتحديد .

بيد أن كواين يتساءل بعد ذلك : « ألا يحثنا عدم الترحيب بالنتيجة على التخلى عن نظرية التحقق فى المعنى ؟ لا بالتأكيد ، إذ أن نوع المعنى الذى يكون أساسيًا للترجمة ولتعلم لغة المرء الخاصة هو معنى تجريبى بالضرورة وليس شيئًا أكثر من ذلك ؛ فيتعلم الطفل كلماته وجمله الأولى عن طريق سماعها واستعمالها فى حضور مثيرات ملائمة ، ويجب أن تكون هذه المثيرات خارجية ، وذلك لكى تحدث أثرًا فى الطفل والمتكلم الذى يتعلم منه اللغة على حد سواء ، ويتم غرس اللغة والتحكم فيها على نحو اجتماعى ، إذ تدور عملية الغرس والتحكم بشكل تام على تعديل الجمل وفقًا للإثارة المقتسمة ، وقد تتفاوت العوامل الداخلية كما يهوى المرء دون ضرر للتواصل طالما أن عملية تعديل اللغة وفقا للمثيرات الخارجية تتم بلا إعاقة ؛ وبالتأكيد ليس للمرء خيار بل لابد من أن يكون تجريبيا بقدر ما تكون نظرية المرء عن المعنى اللغوى معنية[1] .

ويذهب « فولسدال » Follesdal إلى أن السبب الذى قدمه كواين لعدم التخلى عن نظرية التحقق فى المعنى هو سبب هام ، لأنه يظهر أن السبب الأساسى عند كواين لافتراض نظرية التحقق فى المعنى هو أنه لا يسلم بوجود « نوع آخر » للمعنى التجريبى ؛ أما « فولسدال » فيخالف كواين فى هذا الرأى ، ويرى أنه ربما يتفق مع كواين على أننا نحتاج إلى نظرية تجريبية فى المعنى ، ومع ذلك لا يوافقه على أننا نحتاج إلى نظرية التحقق فى المعنى ، لأن النتيجة الأخيرة لا تلزم عن الأولى اللهم إلا إذا كانت نظرية التحقق هى النظرية التجريبية الوحيدة ، وهو أمر لا نحتاج إلى التلسيم به ، ويذهب أيضًا إلى أننا يجب أن نميز بين فكرتين : المعنى التجريبى و« نظرية » تجريبية فى المعنى ، وربما نسلم بأنه يمكن استبقاء عنوان « المعنى التجريبى » لفكرة المعنى عند فلاسفة التحقق مثل بيرس وفلاسفة التجريبية المنطقية ، ولكننا يجب أن نميز هذا عن « نظرية » تجريبية فى المعنى ، أعنى نظرية المعنى التى وفقًا لها تكون حججنا المتعلقة بالمعنى مؤسسة على الدليل الذى يصل إلينا عن طريق حواسنا ، وهذه الفكرة الأخيرة تكون فى ذهننا عندما نعتقد بأن نظريتنا فى المعنى لابد من أن تكون تجريبية ؛ وربما تكون نظرية التحقق فى المعنى تجريبية أيضًا بهذا المغزى ، ولكن هناك نظريات بديلة فى المعنى ليست بأقل

---

(١) -O. R. & O. E., p. 81.

تجريبية ، ويشير « فولسدال » إلى نظرية ديفيدسون فى المعنى التى هى نظرية تجريبية ولكنها ليست نظرية التحقق[١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك ملاحظة أخرى تتعلق بنظرية التحقق فى المعنى من حيث هى مقدمة لدعوى اللا تحديد أكثر أهمية فى نظرنا من الملاحظة السابقة ، وهى الملاحظة التى ألمح إليها « فولسدال » نفسه فى مقالته « اللا تحديد فى الترجمة والتحديد الناقص فى نظرية الطبيعة » حيث نظر إلى حجة كواين على اللا تحديد التى تعتمد على مقدمة دوهم وبيرس على أنها حجة « قليلة النفع » ، طالما أنه يعتقد أن نظرية التحقق فى المعنى « غير كافية »[٢] ، ونحن نوافق « فولسدال » على ذلك ، فهناك صعوبات كثيرة تعترض دعوى بيرس ، وتأتى فى مقدمتها الصعوبة القائلة بأن هذه الدعوى لا يمكن أن تنطبق على جميع الجمل فى اللغة ، فهنالك الجمل الأدائية مثل « إننى أعد ... » ، والأسئلة ، والجمل الطلبية سواء بالأمر أو النهى ، والتى لا تملك قيمة صدق ولا تملك أى دليل على صدقها ، ومع ذلك فإنها جمل ذات معنى ، وهذا هو ما أظهره فلاسفة اكسفورد ، ولا تنطبق دعوى بيرس إلا على نمط واحد فقط من الجمل هى الجمل الإخبارية أو التقريرية ، ولقد أفضت هذه الدعوى إلى ما أسماه أوستن « بالمغالطة الوصفية » descriptive fallacy ؛ ومن ثم فإن اعتماد حجة كواين على اللا تحديد على مقدمة تدور حولها الشكوك وتعترضها الصعوبات يقلل كثيرًا بلا شك من قوة الحجة .

٤ - ٥ نتائج دعوى اللا تحديد

تنقسم الأفكار الدلالية إلى فئتين ، أفكار تندرج تحت نظرية المعنى مثل الترادف ، والتحليلية ، والمعنى وغيرها ، وهى أفكار قصدية ينظر كواين إليها بعين الشك ، ويذهب إلى أن الفيلسوف الحق لابد من أن ينحى هذه الأفكار جانبًا ويمضى فى بحثه غير حافل بها ؛ وافكار تندرج تحت نظرية الإشارة مثل الصدق والإشارة ، والالتزام الانطولوجى ontological commitment ، وهى أفكار ماصدقية ينظر كواين إليها على أنها أفكار علمية

(١) - Follesdal, D., "Meaning and Experience", p. 31.

(٢) - Follesdal, D., "Indeterminacy of Translation and Under - Determination of The Theory of Nature", Dialectica, 27, 1973, p. 291.

وجديرة بالبحث ؛ والسؤال الآن : إلى أى حد تأثر دعوى اللاتحديد فى الترجمة على هاتين الفئتين من الأفكار الدلالية ؟

يقول تشومسكى فى معرض رده على بتنام : « يعتقد بتنام ، كما يعتقد كواين أيضًا ، أننى اعتبر دعوى اللا تحديد خاطئة ، وعلى العكس ، إننى اعتبرها صحيحة وغير هامة »[١] ، ولكن هل الدعوى غير هامة بالفعل ؟ إننا نخالف تشومسكى فى زعمه هذا ، إذ لو لم تكن الدعوى هامة ما لاقت كل هذا الاهتمام الكبير الذى ربما لم تحظ بمثله سوى دعاوى قليلة فى فلسفة النصف الثانى من القرن العشرين ، ويكشف هذا الاحتفال المستمر بدعوى اللا تحديد عن الأثر العميق الذى أحدثته فى الفلسفة المعاصرة ؛ وفى رده على تشومسكى يبين كواين مدى عمق وخطورة هذا الأثر ، يقول : « إن ما يحدثه (كل هذا) [يعنى دعوى اللا تحديد] إذا أدرك جيدا هو تغيير فى المواقف السائدة إزاء المعنى والفكرة والقضية ، وفى غالب الأمر نجد أن الحقيقة المحزنة هى ، على العكس ، أن كل هذا لا يدرك إدراكًا دقيقا وذلك بسبب الإصرار غير النقدى على الأفكار القديمة عن المعنى والفكرة والقضية ؛ ويستمر الاقتناع ، غير المعترف به غالبًا ، الذى مفاده أن جملنا تعبر عن أفكار ، وتعبر عن هذه الأفكار أحرى من تلك ، وحتى عندما لا تستطيع المعايير السلوكية أن تعين ذلك أبدا ، وهناك فكرة مزمنة تقول بأننا نستطيع أن نعرف بشكل حدسى الفكرة التى تعبر عنها جملة المرء ، وجملتنا كائنًا ما يكون الأمر ، وحتى عندما لا يقبل الحدس الرد إلى معايير سلوكية ، وهذا هو السبب فى ظن الشخص بأن سؤال المرء « ما الذى يقوله المواطن الأصلى ؟ » له أجابة صحيحة مستقلة عن عمليات الاختيار بين كتيبات الترجمة التى لا ينسجم الواحد منها مع الآخر »[٢] .

ألمعنا إلى أن دعوى اللا تحديد تقدم أساسا لشك إضافى فى نظرية المعنى كما يقدمها علم الدلالة العقلى ، وها نحن نحاول الكشف عن هذا الأساس ؛ لقد دأب الفلاسفة على الحديث عن المعانى كما لو كانت مرتبطة بالتعبيرات بنفس الطريقة التى ترتبط بها الصور الزيتية بلافتاتها فى متحف ، ويطلق كواين على هذا المنحى من التفكير اسم « اسطورة

---

(١) - Chomsky, N., Rules and Representations, New York : Columbia University Press, 1980, p. 15.

(٢) - R. in W. S. . & O. S., p. 304.

المتحف » The myth of The museum يقول كواين : « وعلم الدلالة غير النقدى هو اسطورة المتحف الذى تكون الأشياء المعروضة فيه هى المعانى والكلمات هى اللافتات »(١) ؛ وتبعًا لهذه الوجهة من النظر يكون التعبيران مترادفين عندما يرتبطان بمعنى وحيد مثل اللافتتين بالنسبة لنفس الصورة الزيتية ، وهنا تظهر فكرة الترادف من بين الأفكار القصدية باعتبارها هدفًا للنقد والشك من جانب كواين ، ولن نحفل هنا بالأفكار القصدية الأخرى مثل التحليلية التى ناقشناها فيما سبق ، والتى ترتكز فى جانب منها على الترادف ، وإذا نظرنا إلى الترادف أو تماثل المعنى من زاوية الترجمة ، لوجدنا أن هناك تصورًا مفاده أن التعبير الواحد فى اللغة العربية يكون ترجمة لتعبير آخر فى لغة أخرى إذا كان له نفس معنى التعبير الأول .

ولقد حاول كواين استبعاد هذا التصور عن المعانى من خلال منهاجية الترجمة الجذرية وما صاحبها من أفكار ، إذ يقول : « والهدف من وراء تجربتى الفكرية فى الترجمة الجذرية هو هدف فلسفى ، ومؤداه نقد الفكرة غير النقدية عن المعانى ومن ثم نقد علم الدلالة الاستبطانى introspective semantics ، واهتممت بالكشف عن حدودها التجريبية ؛ وقد اعتقد الناس أن جملة لها معنى ، وأن جملة أخرى تكون ترجمة لها إذا كان لها نفس المعنى ، ونحن نرى أن هذا لن يحدث »(٢) ؛ ولم يرم كواين إنكار وجود معانى كما تصورها أسطورة المتحف فحسب ، وإنما حاول البحث عن بدائل سلوكية .

وإذا أمعنا النظر فى المعانى التى تصورها أسطورة المتحف ، لوجدنا أنها تتمتع بوضع مطلق وليس نسبيا ، فالتعبير له معنى مجرد ، ويرتبط التعبيران المترادفان بمعنى واحد يكون مستقلا – من حيث هو موضوع بين لغوى – عن اللغات التى تم فيها التعبير عنه ؛ أما منهاجية الترجمة عند كواين فقد أثبتت أنه من غير المعقول الكلام عن المعانى المستقلة عن اللغة ، وما فتئ كواين ينبهنا إلى أن « المعانى هى أولاً وقبل كل شيء معانى للغة »(٣) ؛ وقد يقع فى ظن المرء أن كواين عندما ينكر تصور علم الدلالة العقلى للمعانى ، فإنه ينكر بذلك مشروعية البحث فى علم الدلالة برمته ، وهذا بعيد عن الصواب بعد

(١) - O. R. & O. E., p. 27.
(٢) - I. Of T. A., p. 9.
(٣) - O. R.& O. E., p. 26.

الثرى عن الثريا ، إذ « أن الشك فى الفكرة القديمة عن المعانى والكلمات والجمل ليس إنكارًا لعلم الدلالة ، والعمل الجيد إلى حد بعيد الذى لابد من فعله يتعلق بطريقة استعمال الكلمات وظروفه وتطوره ، وصناعة المعجم هى مظهره الواضح ؛ ولن أبحث عن اصطلاح علمى لشىء ما يشبه الفكرة القديمة عن المعانى المنفصلة والمتميزة ، إذ أن هذه الفكرة قد تم إدراكها جيدًا باعتبارها حجر عثرة تم رفعه ، وكانت فى السنوات الأخيرة بالفعل حجر عثرة للفلاسفة أكثر منها لعلماء اللغة العلميين الذين وجدوا ببساطة وبصورة قابلة للفهم أنها ليست مفيدة تقنيا »[1] .

إذا كانت دعوى اللا تحديد قد أظهرت أنه لا مجال للقول بوجود معانى مطلقة ومحددة ومستقلة عن اللغة ، وأن الترادف أو فكرة تشابه المعنى هى فكرة لا طائل من تحتها أو لا تزيد على أن تكون لغوًا ، فإن هذه الدعوى قد تركت عظيم الأثر على المفاهيم القصدية الأخرى مثل القضايا والمواقف القضوية وعلى الجملة فلسفة العقل ، فماذا عسى أن يكون هذا الأثر ؟

إن استعمال بعض الفلاسفة ، الذين ينتمون إلى تيار علم الدلالة القصدى ، للمواقف القضوية لتمثيل الحالات الذهنية قد أفضى بكواين ، الذى يشك فى النظر إلى القضايا بوصفها أدوات يمكن أن تفيد فى تحليل اللغة ، إلى شك عام فيما إذا كانت القصدية intentionality تمثل ظاهرة حقيقية يتعين على علمنا محاولة تفسيرها ؛ وإذا كانت دعوى اللا تحديد تؤكد أنه لا يوجد معنى محدد للتعبيرات فى اللغة طالما أننا نستطيع تبنى كتيبات ترجمة بديلة لترجمة التعبيرات فى لغة معينة إلى تعبيرات فى لغة أخرى ، ولا يوجد دليل يمكن على أساسه أن نحدد ترجمة بعينها على أنها الترجمة الصحيحة ، فقد حاول كواين الإفادة من هذه الدعوى فى أنه من الخطأ افتراض « قضايا محددة » بحيث تمثل معنى الجملة لأن إمكانية الترجمات البديلة تظهر بوضوح أنه لا يوجد معنى فريد ؛ وكما نستطيع ترجمة جمل فى لغة أخرى بصورة مختلفة اعتمادًا على كتيب الترجمة الذى نختاره ، فكذلك نستطيع أن « نفسر » الجملة التى نستعملها لتعيين محتوى الموقف القضوى بصورة مختلفة اعتمادًا على نطاق التفسير الذى نختاره .

ولو أمعنا النظر فى تصورنا العادى للعقل ، لوجدنا أنه تصور قصدى ؛ فترانا نفحص أفعال الناس فى حدود المواقف القضوية من قبيل الاعتقاد والرغبة ، وتفترض ممارستنا

---

(١) - P. of T., p. 56 I. of T. A., p. 9, R. of C. in P. of Q., p. 429.

المألوفة لوصف الأحداث الذهنية وتفسيرها افتراضًا مسبقًا مفاده أننا نستطيع تعيين المحتويات القضوية لهذه الحالات ، ونعول بصورة عادية على نوعين من الدليل للقيام بذلك : أولا ، نصف سلوك الفاعلين ونحاول تخمين اعتقاداتهم ورغباتهم مما يفعلونه ، ثانيًا ، نعنى باعترافاتهم ونعالج منطوقاتهم على أنها عملية إظهار أو كشف لاعتقاداتهم ورغباتهم ؛ وإذا صحت حجج كواين ، فإن الاستعدادات السلوكية التى نكشف النقاب عنها لا تحدد محتويات المواقف القضوية مثل الاعتقادات ؛ ولو كانت الترجمة غير محددة ، فلا توجد حقيقة تتعلق بالمحتوى القضوى الذى يعبر عنه المنطوق ، وعندما ننسب اعتقادًا معينا لشخص ما ، فإننا نخصص محتواه عن طريق استعمال جملة : إنه الاعتقاد بأن « هناك أرانب فى الحديقة » أو بأن « الثلج ابيض » ، وإذا كانت هذه الجملة لا تعبر عن محتوى محدد ، فإننا لم نخصص محتوى محدد للاعتقاد من خلال استعمالها[1] .

ولئن كانت دعوى اللا تحديد تظهر بوضوح خطأ التصور التقليدى للغة والعقل ، فإنها تفضى من ناحية ثانية إلى القول بوجهة نظر ماصدقية فى دراسة اللغة والعقل ، والتى تعول على استعمال اللغة السلوكية والفسيولوجية وتقترب من التناول السلوكى لما هو عقلى ؛ ويربط كواين دعوى اللا تحديد عنده بدعوى اللا قابلية لرد المصطلحات القصدية irreducibility of intentional terms عند برنتانو ، ولكنه يستنتج نتيجة مخالفة لما أراده برنتانو ؛ إذ نظر برنتانو إلى اللا قابلية لرد الأفكار القصدية مثل الاعتقاد والرغبة والمعنى وهلم جرا ، إلى أفكار فيزيائية على أنها تعنى تفنيد المعالجات الطبيعية والفيزيائية للعقل ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا مندوحة عن الاعتراف بوضع خاص بالظواهر القصدية ، ومن ثم البحث عن علم مستقل للقصد .

ويختلف كواين مع برنتانو فى هذا الرأى ، ويذهب إلى أننا يجب أن نستبعد المصطلحات القصدية من علمنا ، ونوجه اهتمامنا بدلاً من ذلك إلى السلوك الإنسانى ، يقول كواين : « إن دعوى برنتانو عن اللا قابلية لرد التعبيرات الاصطلاحية القصدية هى دعوى متجانسة مع دعوى اللا تحديد فى الترجمة ؛ ويجوز للمرء أن يقبل دعوى برنتانو إما بوصفها تثبت عدم الغنى عن التعبيرات الاصطلاحية القصدية وأهمية علم

---

(١) - Hookway, C., Quine: Language, Experience and Reality, pp. 139 - 140.

مستقل للقصد ، أو بوصفها تثبت أنه لا أساس للتعبيرات الاصطلاحية القصدية وعدم جدوى علم للقصد ، وموقفى ، على خلاف موقف برنتانو ، هو الثانى ؛ وقبول الاستعمال القصدى بقيمته الظاهرية هو ، فيما نرى ، تسليم بعلاقات الترجمة باعتبارها صحيحة بشكل موضوعى إلى حد ما مع أنها غير محددة من حيث المبدأ بالنسبة للمجموع الكلى للاستعدادات للكلام ، وتعد هذه المسألة بكسب قليل فى التبصر العلمى إذا كان لا يوجد لها أساس أفضل من أن علاقات الترجمة المفترضة يتم افتراضها سلفًا عن طريق ما هو دارج فى علم الدلالى والقصد »(١) .

وهكذا بدلا من محاولة تأسيس علم للقصد ، يقترح كواين تطوير التحليل السلوكى وتوسيعه بحيث يشمل السلوك الإنسانى ، ويعترف بأننا نستعمل المصطلحات القصدية فى حياتنا اليومية ، ولكن طالما أن هذه المصطلحات لا أساس لها ، فيجب أن نستغنى عنها عندما نتحول إلى العلم ، « لو أننا رسمنا البنية الصحيحة والأساسية للواقع ، فإن الخطة المعيارية بالنسبة لنا هى الخطة الصارمة التى لا تعرف .. مواقف قضوية ولكن تعرف فقط التكوين الفيزيائى وسلوك الكائنات الحية »(٢) .

إننا إذ نقول بأن دعوى اللا تحديد فى الترجمة قد أثرت على الأفكار القصدية فى علم الدلالة ، بحيث ألقت ظلالاً كثيفة من الشك على نظرية المعنى والعقل كما يتصورها علم الدلالة القصدى ، فذلك قول لا يثير الدهشة وفقًا لفلسفة كواين ؛ ولكن القول بأن المفاهيم الأساسية فى نظرية الإشارة مثل الإشارة ، والصدق ، والالتزام الانطولوجى ، تصيبها النزعة الشكية أيضًا هو قول جديد وقد يبدو غريبا للمرء الذى يدرك أن كواين ينظر بعين الاعتبار إلى مفاهيم نظرية الإشارة وبخاصة فى الكتابات المبكرة مثل كتابه « من وجهة نظر منطقية » .

يقدم كواين دعوى تجسد شكوكه حول مفاهيم نظرية الإشارة هى غموض الإشارة Inscrutability of reference، ومؤداها أنه لا توجد طريقة لمعرفة ما الذى تشير إليه الحدود المفردة فى اللغة وما الذى تكون محمولاتها صادقة بالنسبة له ، وعلى الأقل لا توجد طريقة لمعرفة ذلك من المجموع الكلى للدليل السلوكى ، الفعلى والمحتمل ، وهذا الدليل هو كل

---

(١) - W. & O., p. 221.

(٢) - Ibid, p. 221.

ما يهم مسائل المعنى والتواصل [١] ؛ وهكذا ، على حين تقرر دعوى اللا تحديد فى الترجمة أنه لا توجد حقيقة فى المسألة فيما يتعلق بمفهوم الحد ، تقرر دعوى غموض الإشارة أنه لا توجد بصورة مماثلة إجابة صحيحة واحدة فيما يتعلق بما صدق الحد ؛ وعلى الرغم من أن دعوى غموض الإشارة تتضح من خلال الأفكار التى يناقشها كواين فى إطار فحصه لدعوى اللا تحديد فى كتاب « الكلمة والموضوع » ، فإن مصطلح « غموض الإشارة » لم يظهر لأول مرة إلا فى كتاب « النسبية الانطولوجية ومقالات أخرى » .

ولو تأملنا مليا فى مثال Gavagai مرة أخرى ، لوجدنا أن من بين النقاط التى يوحى بها النقطة القائلة إنه لا توجد طريقة تجريبية لأن نعرف بإزاء شروط المثير غير اللفظية ما إذا كان المواطن الأصلى قد استخدم جهازه الإشارى للإشارة إلى « الأرانب » أم « مراحل من الأرانب » أم « أجزاء غير منفصلة من الأرانب » ، وهذا يعنى أننا لا نستطيع أن نحدد « مشار » referent كلمة gavagai تحديدًا فريدًا ؛ يقول يقول كواين : « إن الإشارة ، والماصدق ، يتعين أن تكون الشيء الراسخ ، والمعنى ، والمفهوم ، الشيء المتردد ؛ ومع ذلك فإن اللا تحديد فى الترجمة الذى يواجهنا الآن يعبر حدود الماصدق والمفهوم على حد سواء ؛ فالحدود « أرنب » و« جزء غير منفصل من الأرنب » و« مرحلة من الأرنب » لا تختلف فقط فى المعنى ، وإنما تكون صادقة فيما يتعلق بأشياء مختلفة ، ويتضح أن الإشارة ذاتها غامضة على نحو سلوكى »[٢] ؛ ولكى يحدد المرء هل يجب ترجمة gavagai من حيث هى حد على أنها أرنب مثلاً أحرى من « مرحلة من الأرنب » ، لابد من أن يقبل مجموعة من الفروض التحليلية أو الافتراضات الخلفية ، وما يشير إليه المواطن الأصلى ، أى أنماط الموضوعات التى تكون قيمًا للمتغيرات فى لغته ، يكون متناسبًا مع كتيبات الترجمة التى يقبلها ؛ وهكذا يكشف مثال gavagai عن مغزى هام بالنسبة لنظرية الإشارة يتمثل فى هذه الدعوى عن النسبية الانطولوجية ontological realitivity؛ إذ يجب التفكير فى أى زعم انطولوجى بالنسبة إلى افتراضات خلفية معينة .

ويذهب كواين إلى أن مثاله عن الأرانب وأجزاء الأرانب ومراحلها هو مثال مبتكر

(١) Davidson, D., Inquiries into Truth and Interpretation, p. 277

ويضيق عالم اللغة الممارس به ذرعًا ، ولذلك نراه يسعى إلى تقديم بعض الأمثلة التى تبدو أقل غرابة من المثال السابق ، إذ يمكن جذب غموض الإشارة على مقربة من المنزل عن طريق بحث كلمة « ألفا » alpha أو كلمة « أخضر » ، وفى استعمالاتنا لهاتين الكلمتين والكلمات التى تماثلهما غموض نسقى ، إذ نستعمل هاتين الكلمتين فى بعض الأحيان على أنهما من الحدود العامة العينية concrete general terms كما هو الحال عندما نقول العشب أخضر أو أن كلامًا منقوشًا يبدأ بـ « ألفا » ؛ ومن ناحية ثانية نستعملها فى بعض الأحيان بوصفهما من الحدود المفردة المجردة abstract singular مثلما نقول إن الأخضر لون وألفا حرف ، وهذا الغموض تشجعه الحقيقة القائلة لا يوجد شيء فى الإشارة لتمييز الاستعمالين ؛ إن عملية الإشارة التى يتم انجازها فى تعليم الحد العام العينى « أخضر » و « ألفا » لا تختلف مطلقًا عن عملية الإشارة التى يتم انجازها فى تعليم الحد المفرد « أخضر » أو « ألفا » ، ومع ذلك فإن الأشياء المشار إليها بالكلمة تكون مختلفة للغاية بمقتضى الاستعمالين ؛ إذ أن الكلمة تكون صحيحة لأشياء عينية كثيرة بمقتضى أحد الاستعمالين ، وتسمى شيئًا مفردًا مجردًا بمقتضى الاستعمال الآخر ، ويمكن أن تميز الاستعمالين بطبيعة الحال ، وذلك بالنظر إلى كيفية ظهور الكلمة فى الجمل ، هل تأخذ أداة تنكير ، هل تأخذ نهاية الجمع ، هل تماثل الفاعل المفرد ، وهل جرا ، ولكن هذه المعايير تستعين بتركيباتنا وأدواتنا النحوية الانجليزية الخاصة ، وأدواتنا الخاصة بالتشخص والتى هى ذاتها عرضة للا تحديد فى الترجمة ؛ وهكذا ، من وجهة نظر الترجمة إلى لغة غريبة ، فإن التمييز بين الحد العام العينى والحد المفرد المجرد يكون فى المأزق الذى يقع فيه التمييز بين « أرنب » و « جزء من الأرنب » و « مرحلة من الأرنب » ؛ هنا إذن مثال آخر لغموض الإشارة ، طالما أن الاختلاف بين الحد العام العينى والحد المفرد المجرد هو اختلاف فى الموضوعات المشار إليها[(١)] .

والحق أن كواين لم يوضح على وجه الدقة كيف تكون العلاقة بين دعوى اللا تحديد فى الترجمة ودعوى غموض الإشارة ، ولذلك فإننا نجد فهمًا متباينًا لطبيعة هذه العلاقة من جانب الشراح والنقاد ؛ فيرى « سيرل » أن غموض الإشارة يلزم مباشرة عن اللا تحديد فى الترجمة ، لأنه إذا كانت لا توجد حقيقة فى المسألة فيما يتعلق بما إذا كان المتكلم

(١) - Ibid, pp. 38-39.

« يعنى » (أرنب) بوصفه مقابلاً (لمرحلة من الأرنب) ، إذن لا توجد بصورة متساوية حقيقة فى المسألة فيما يتعلق بما إذا كان « يشير » إلى أرنب أو مرحلة من الأرنب(١) وعلى خلاف « سيرل » يقول « ديفيدسون » : « الدعوى (أى غموض الإشارة) هامة لأن اللا تحديد فى الترجمة يلزم عنها مباشرة »(٢) ؛ غير أن « جبسون » ينظر إلى المسألة من زاوية أخرى ، ويذهب إلى أنه « يجوز للمرء أن يقول إن دعوى اللا تحديد فى الترجمة عند كواين من ضربين : أحدهما هو (اللا تحديد فى المفهوم) indeterminacy of intension أو المعنى (مفهومًا بطريقة حدسية) ويستطيع أن يؤثر فى أى تعبير يعتقد أن له معنى ، والضرب الآخر هو اللا تحديد فى الماصدق indeterminacy of extension أو (اللا تحديد فى الإشارة) indeterminacy of reference ويؤثر فى الحدود ، ويسمى كواين هذا الضرب الأخير باسم غموض الإشارة »(٣) ؛ ولكن لو سايرنا « جبسون » فى هذا الاستعمال ، فإن السؤال لا يزال مطروحًا : ما هى العلاقة بين « اللا تحديد فى المعنى » و « اللا تحديد فى الإشارة » ؟ والرأى عندنا أن اللا تحديد فى المعنى يلزم عن اللا تحديد فى الإشارة على الأقل بالنسبة للحدود أو الألفاظ ، فإذا لم يستطع عالم اللغة أن يحدد تحديًا فريدًا ما الذى يشير إليه اللفظ gavagai، أى ما الذى يكون صادقًا بالنسبة له ، فإنه لا يستطيع أن يحدد تحديدًا فريدًا ما يعنيه هذا اللفظ ، ولعل ما ذهبنا إليه يحظى بتأييد إلى حد ما من ملاحظة « روث » القائلة بأن اللا تحديد فى الترجمة يلزم عن التحديد الناقص فى النظريات أو غموض الإشارة(٤) ؛ ومن رد كواين على هذه الملاحظة الذى يقول فيه :

« إنها صواب إلى حد ما ، إذ يستلزم غموض الإشارة اللا تحديد فى ترجمة الحدود بوضوح ، وليس اللا تحديد فى ترجمة الجمل »(٥) ، وهكذا يقترب رأينا فى طبيعة هذه

---

(١) Searle, J. R., "Indeterminacy, Empiricism, and the First Person", Journal of Philosophy, Vol. LXXXIV, No. 3, 1987, pp. 127-128.

(٢) Davidson, D., Inquiries into Truth and Interpretation, p. 227.

(٣) Gibson, R. F., "Translation, Physics, and Facts of the Matter", in the Philosophy of W.V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 146.

(٤) Roth, P. A., "Semantics Without Foundations", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp, p. 435.

(٥) R. to C. in P. of Q., p. 459.

العلاقة من رأى « ديفيدسون » ، إذا فسرنا اللا تحديد فى الترجمة الوارد فى عبارته على أنه لا تحديد فى المعنى ، بقدر ما يبتعد عن رأى « سيرل » .

٤ – ٦ مناقشة دعوى اللاتحديد

اختلف الفلاسفة والباحثون إزاء دعوى اللا تحديد من حيث صحتها وخطئها ، ومن حيث أهميتها ، وحتى من حيث فهمها ؛ فمنهم من يرى أنها صحيحة ويسعى إلى الدفاع عنها مع شىء من التعديل مثل « هارمان » ، و « وديفيدسون » ، و« بتنام » ، و « روث » وغيرهم ، ومنهم من يرى أنها خاطئة ويحاول تفنيدها مثل « كاتز » ، و« سيرل » و« ألستون » ومن سلك مسلكهم[١] ؛ ومنهم من يرى أنها صحيحة ولكنها غير هامة مثل تشومسكى ، ولقد ناقشنا رأى تشومسكى من قبل .

إن اعتماد حجة اللاتحديد على افتراضات كواين السلوكية يعد شيئًا طبيعيًا بالنسبة لكواين ، ويشير كواين إلى العلاقة بينهما بشىء من الاستحسان ، على حين نجد أن بعض النقاد مثل « بنيت » و « تشومسكى » و « سيرل » ينتقدون كواين بسبب هذه العلاقة ويعترضون بقولهم إن اللاتحديد يعادل « برهان خلف » لنزعته السلوكية اللغوية ؛ ولقد أشار كواين إلى هذا فى مقالته « اللاتحديد فى الترجمة مرى أخرى » إذ يقول : « لقد قال بعض النقاد إن الدعوى نتيجة لمذهبى السلوكى ، وقال بعضهم إنها برهان خلف لمذهبى السلوكى ، وأنا اختلف مع النقطة الثانية ، ولكننى اتفق مع الأولى »[٢] ؛ أما « بنيت » فينتقد مسلك كواين هذا قائلا : « من غير الواضح بالنسبة لى كيف يمكن تفنيد المذهب العقلى عن طريق الحجة التى تتخذ السلوكية مقدمة لها ، إننى استطيع أن تخيل فيلسوفًا من أنصار المذهب العقلى يقبل حجة كواين ويستعملها على العكس ، أى يستعملها بوصفها برهان خلف للتناول السلوكى للمعنى »[٣] ، وتلقف « سيرل » هذه

---

(١) انظر فى نقد دعوى اللا تحديد :

- Bolton, D. E., "Quine on Meaning and Translation", Philosophy, Vol. 54, No. 209, 1979, pp. 329-346, Boorse, C., "The Origins of Indeterminacy Thesis", Journal of Philosophy, Vol.LXXII, No. 13, 1975, pp 369-387, Wallace, J., "A Query on Radical Translation", Journal of Philosophy, Vol. LXVIII, No. 6, 1971 pp. 143-151, and Kirk, R. "Translation and Indeterminacy", Mind, Vol. LXXIII, No. 311, 1969, pp. 321-341

(٢) -I.of T.A., p.5.

(٣) Bennett, J., Linguistic Behaviour, Cambridge University Press, 1976, p. 261.

الفكرة ومضى بها إلى غايتها ، وحاول الكشف عن السبب فى كون حجة كواين برهان خلف للسلوكية اللغوية المتطرفة ، وذلك من خلال تقديم موقفين لا يسنجمان هما :

١ – دعوى السلوكية : الواقع الموضوعى للمعنى يتألف كلية من علاقات بين المثيرات الخارجية والاستعدادات للسلوك اللفظى .

٢ – فى حالة معينة من سلوك الكلام ، يمكن أن توجد حقيقة واضحة فى المسألة حول ما إذا كان المواطن الأصلى يعنى (أرنب) مثلاً كشىء مقابل (لمرحلة من الأرنب) أو (جزء غير منفصل من الأرنب) بنطقه للتعبير .

وإذا كانت هناك إمكانية لجعل كل خطط الترجمة البديلة وغير المنسجمة متسقة مع نفس النماذج من المثير والاستجابة ، فلا يمكن إذن أن توجد أية حقيقة حول صحة إحداها ، لأنه طبقًا لـ (١) لا يوجد أى شىء آخر لتكون صحيحة بشأنه ، ولكن هذا غير منسجم مع (٢) ، وهكذا إذا قبلنا (٢) فلابد من أن تكون (١) خاطئة ؛ وظن « سيرل » أن الموقف الذى نتخلى عنه من (١) و (٢) أصبح واضحًا ، لأن كواين سوف يفند ببساطة دعوى السلوكية اللغوية ، ولكن لماذا يثق « سيرل » فى ذلك ، ولماذا لا يتخلى كواين عن (٢) ؟ والجواب واضح ، إذا كانت السلوكية صحيحة ، فلابد من أن تكون صحيحة بالنسبة لنا كمتكلمين للغة الانجليزية بالإضافة إلى كونها صحيحة بالنسبة للمتكلمين الذين يستعملون اللغة الأصلية التى تتضمن كلمة , Gavagai ونحن نعرف من حالتنا الخاصة أننا نعنى (بأرنب) شيئًا مختلفًا عن (مرحلة من الأرنب) أو (الجزء غير المنفصل من الأرنب) ؛ ولو قرر جارى – هكذا يقول « سيرل » الذى يتحدث الانجليزية ، ويقرأ كواين ، أنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كنت أعنى بكلمة (أرنب) الأرنب أم الجزء غير المنفصل من الأرنب أم مرحلة من الأرنب ، فإن هذه الحالة السيئة ترجع إليه ؛ فعندما رأيت الأرنب منذ عهد بعيد وقلت إنه أرنب فقد قصدت الأرنب ، ولعله من الأساسى فى كل مناقشات فلسفة اللغة وفلسفة العقل أن يذكر المرء نفسه بحالة المتكلم[١] .

---

(١) - Searle, J.R., "Indeterminacy, Empiricism, And The First Person", p. 126.

وإذا كان كواين يركز فى دراسته للغة والمعنى على التقيد بالمعطيات المتاحة بشكل بين ذاتى ، فإنه يحرم ، من وجهة نظر سيرل ، عالم اللغة من ذخيرة غنية من المعلومات ، أى ما يعرفه كل واحد منا عن حالته الخاصة ، أو حالة المتكلم على حد تعبير سيرل ؛ إذ من الواضح بالنسبة لى أننى عندما أقول « أرنب » فإننى أعنى (أرنب) ولا أعنى (مرحلة من الأرنب) أو غير ذلك ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن اللا تحديد لا يتخذ سبيلاً إلى لهجتى ؛ زد على ذلك أننى إذا استعنت بالمبدأ القائل بأن الحالات المشابهة لابد من معالجتها بصورة مماثلة ، فإننى استطيع الاستدلال بأن كل متكلم آخر فى لغتى يعنى « بأرنب » (أرنب) ولا يعنى به (مرحلة من الأرنب) ، وهذا يفضى بنا إلى القول بتحديد المعنى عبر اللغة الأم ؛ وأى شخص يتقن لغتين يمكنه تفنيد اللاتحديد عن طريق التعميم من فهمه الخاص للغات التى يتقنها ؛ ذلك هو فحوى رأى سيرل فى رفض دعوى اللا تحديد ، وهو فى هذا يتفق إلى حد ما مع النتيجة التى يخلص إليها ألستون ، والتى سنعرضها فيما بعد .

ولو كان سيرل على صواب فيما ذهب إليه ، فإن اللاتحديد فى الترجمة ، وغموض الإشارة ، والنسبية الانطولوجية تنشأ كلية من منهاجية فقيرة تمنع على نحو ليس له ما يسوغه الاستعانة بالحقائق اللغوية النفسية الجلية والملائمة بوضوح ؛ وهكذا يدافع سيرل عما ينكره كواين ، أى يقول بأن المعانى حقيقية من الناحية اللغوية والنفسية ، وأنها قريبة المنال معرفيًا عن طريق الاستبطان(١) ، على حين يصر كواين على استبعاد هذه الطريقة لدراسة اللغة والمعنى بحجة أنها غير علمية ؛ ومن ثم فإن الخلاف بينهما يكشف عن الهوة الواسعة التى تفصل بين المذهب العقلى القصدى والمذهب السلوكى التجريبى .

على أن مناصرة الاتجاه المفهومى ضد الاتجاه الماصدقى فى فلسفة اللغة الحالية تتضح كأحسن ما يكون الوضوح فى مناقشة كاتز لدعوى اللاتحديد فى مقالته « تفنيد اللاتحديد » ، حيث يرى « كاتز » أن كتابات كواين وبخاصة « الكلمة والموضوع » و« من وجهة نظر منطقية » حاولت إثبات الزعم القائل بأن أفكار الفيلسوف صاحب

---

(١) - Elgin, C. Z., "Facts that don't matter", in Meaning and method: Essays in Honor of Hilary Putnam, Cambridge: Cambridge University Press, 1990. p. 21.

وجهة النظر المفهومية التقليدية عن المعنى والترادف والتحليلية لا يمكن إدراكها بشكل موضوعى ، ومن ثم لابد من التخلى عنها فى الدراسات الجادة فى اللغة .

وليس أدل على جذرية التغيرات التى أحدثتها ولاتزال تحدثها آراء كواين فى الفلسفة الأنجلو – أمريكية فى القرن العشرين من إقرار « كاتز » ، نصير الاتجاه المفهومى ، بأن النزعة الشكية عند كواين وبخاصة كما عبر عنها فى دعوى اللاتحديد فى الترجمة ، استبعدت تقريبًا الطرق المفهومية لمعالجة اللغة عن الصورة الفلسفية الحالية ؛ ومن الناحية الميتافيزيقية ، كانت حجج كواين مفيدة وذات أثر فى إحياء المذهب الطبيعى فى الفلسفة ، لأننا لو ألقينا نظرة فاحصة على كتابات فريجه لوجدنا أنه قد تصدى بمفرده لتيار المذهب الطبيعى فى القرن التاسع عشر فى فلسفة اللغة والمنطق والرياضيات[١] ؛ ثم جاء كارناب فأدخل انجاز فريجه فى فلسفة التجريبية المنطقية ، وأعطى هذه الفلسفة منطلقًا قويًا لا يأخذ بوجهة النظر الطبيعية ، وقدم تمييز فريجه الصارم بين ما هو تحليلى وما هو تركيبى ، بقدر ما تم توضيحه فى علم الدلالة الصورى عند كارناب ، ملاذًا للموضوعات المجردة والحقائق الضرورية فى الجانب التحليلى من التمييز ، ووقف التمييز بوصفه الحاجز الأساسى لعودة المذهب الطبيعى المتشدد فى روح جون ستيورات مل ، وهذا هو السبب فى أن كواين يعلن الهجوم على التجريبية فى مقالته « عقيدتان للتجريبية » ؛ ولقد نظر إلى الحجج المقدمة فى هذه المقالة وتقديمه لدعوى اللاتحديد ضد إمكانية شروط الهوية للمعانى على أنها تحطم هذا الحاجز ، وبذلك تفتح الطريق أمام مذهب طبيعى ملى جديد Neo-Millian naturalism من النوع المخطط فى مقال « كارناب والصدق المنطقى » وبالتالى ، عندما غير التحول اللغوى محور الاهتمام فى فلسفة اللغة ، أصبح قدر كبير من الفلسفة اللاحقة تعمل داخل الإطار الطبيعى الذى يجوز وصفه على أنه ابستمولوجيا هيوم من دون مقولة علاقات الأفكار[٢] .

يستهل « كاتز » نقده لدعوى اللاتحديد بتحديد هويتها على أنها نزعة شكية حول الترجمة ، وأنها تتعرض ، شأنها فى ذلك شأن أية نزعة شكية حول ما يقنعنا به الحس

---

(١) - See Sluga, H., Gotlob Frege, Boston : Routledge & Kegan Paul, pp. 17-34.

(٢) - Katz, J.J., "The Refutation of Indeterminacy", Journal of Philosophy, vol. LXXXV, No. 5, 1988, pp. 227-228.

المشترك ، لمسئولية الدليل عند الاعتراض على وجهة نظر الحس المشترك ، غير أنه يرى أن هذه النزعة الشكية لا تملك المسوغات الكافية لرفض وجهة نظر الحس المشترك فى الترجمة والمعنى ، ومن ثم فإن وجهة نظر الحس المشترك تعيد توكيد ذاتها ، وهو يعتمد فى فكرته هذه على دفاع مور عن الحس المشترك ، وواضح أنه يحاكى فى عنوان مقالته مقالة مور المشهورة « تفنيد المثالية » ؛ ولكن ما هى حجج كاتز ضد اللا تحديد ؟

يحاول « كاتز » التماس أسس دعوى اللاتحديد فى مقالات كواين المبكرة مثل « مشكلة المعنى فى علم اللغة » و « عقيدتان للتجريبية » ، ويرى أن حجة كواين تبدأ بتعيين « معايير الاستبدال » بوصفها المنهج الملائم فى علم اللغة لتعريف مفاهيم مثل التحليلية والترادف ، ولقد سبق أن ناقشنا وجهة نظر كواين القائلة بأننا لو اعتبرنا أن قابلية الاستبدال هى الطريقة المناسبة لتعريف الترادف ، فلا يمكن على أساسها تقديم هذا التعريف ؛ ويمكن ايجاز فكرة كواين بالقول إن سياق التعريف إما أن يكون مفهوميًا أو ماصدقيًا ، فإذا تناولنا السياق المفهومى ، وليكن مثلاً « بالضرورة ، ... » ، لوجدنا أننا نستطيع استعمال الصدق بوصفه الملمح الذى يظل ثابتًا فى عمليات الاستبدال ، ولكننا من جهة أخرى نتخلى عن مطلب اللا دائرية الذى يشدد عليه كواين ، لأن السياق الذى تناولناه يستعمل الترادف أو مفاهيم أخرى من نظرية المعنى ؛ أما إذا تناولنا السياق الماصدقى ، فإننا نضع بداية ناجحة للتعريف ، بيد أننا من ناحية ثانية لا نستطيع أن نستعمل طويلاً الصدق بوصفه الملمح الذى يظل ثابتًا ، لأن الصدق فى السياقات الماصدقية لن يميز التعبيرات المشتركة فى الماصدق ولكنها غير مترادفة مثل (مخلوق له قلب) و(مخلوق بكليتين) عن التعبيرات المترادفة ، وبالتالى يجب الانتقال إلى شىء أقوى مثل التحليلية ، غير أن هذا الانتقال يتخلى عن مطلب اللا دائرية أيضًا ، لأن التحليلية يتم تعريفها فى حدود الترادف .

وهذه هى الحجة الحاسمة التى تعتمد عليها دعوى اللاتحديد فى « الكلمة والموضوع » فيما يرى « كاتز » والمشكلة التى تعترض سبيل هذه الحجة هو أن الافتراض الذى تنشأ منه ، أى القول بأن معايير الاستبدال هى الطريقة الملائمة لتوضيح المفاهيم فى علم اللغة ، يمكن نقده بسهولة ، إذ لا يوجد شىء يؤيد هذا الافتراض ، وهناك حجج أولية a priori وتاريخية قوية ضده ؛ ويذهب « كاتز » إلى أن كواين لا يقدم مسوغًا للاعتماد على

معايير الاستبدال ، وإنما يلاحظ أن هذه الطريقة للتعريف « قامت بشكل أو بآخر بأدوار محورية فى النحو الحديث » ، وهذا لا يعنى سوى القول بأن هذه الطريقة تبوأت مكانة مركزية فى الأبحاث الصوتية والنظمية التى ظهرت خلال المرحلة البلومفيلدية فى علم اللغة ، أى من الثلاثينات حتى الخمسينات تقريبًا من القرن العشرين ، ولا يقدم كواين شيئًا يتجاوز مكانة معايير الاستبدال فى علم اللغة البلومفيلدى لكى يثبت أنها أساسية فى علم اللغة ويثبت بالتالى أنها الطريقة الشرعية لتعريف الترادف ، ولكن الحقيقة أن مدرسة واحدة للفكر فى علم معين فى عصر واحد من تاريخه لها ممارسة جزئية تعنى القليل جدا ، إذ أخذنا بعين الاعتبار أننا كثيرا ما نرى من مدارس الفكر تأتى وتمضى فى علم معين وأن النماذج الحديثة تحل محل النماذج القديمة[١] .

والسبب الأولى a priori الذى يقدمه « كاتز » لبيان أن معايير الاستبدال ليست هى الصيغة الوحيدة ولا المفضلة للتعريف فى علم اللغة هو أن الفيزياء والرياضيات والمنطق تقدم مثالاً لصيغة أخرى للتعريف ، والتى يمكن تكييفها بالنسبة للمفاهيم فى علم اللغة ، وهذا هو الطريق المألوف لتعريف المفهوم على أساس التخصيص البدهى axiomatic للعلاقات بين المفهوم والمفاهيم الأخرى فى عائلته ، كما هو الحال فى تبديه axiomatization مفاهيم الحساب عند « ديديكند » Dedekind و« بيانو » Peano، أو تبديه دوال الصدق فى الحساب التحليلى النموذجى للقضايا ؛ والاختلاف بين هذه « التعريفات النظرية » كما يسميها « كاتز » ومعايير الاستبدال هو أن التعريفات النظرية يمكن أن تستعمل مفاهيم تنتمى إلى العائلة التى ينتمى إليها المفهوم الذى يتعين تعريفه ؛ ودرجة القرابة المرسومة بين المفاهيم فى العائلة لا تكون درجة فى الدائرية ، بل درجة فى قوة التنسيق للتفسير[٢] ؛ وخلاصة القول هى أن هناك نماذج بديلة للتعريف بالنسبة لعلم اللغة والتى تبشر بنجاح أكبر من معايير الاستبدال .

وهناك سبب تاريخى للاعتقاد بأن معايير الاستبدال لا تستحق المكانة التى رفعها كواين إليها ؛ فإذا كان كواين قد افترض أن منهاجية علم اللغة البلومفيلدى لا غنى عنها فى علم اللغة ، فإن هذا الافتراض لم ينج من الاعتراض عليه ، إذ خضع علم اللغة فى

---

(١) -Ibid, p. 240.

(٢) - Ibid, pp. 240-241.

الستينات لما سمى « بثورة تشومسكى » ، وأحد التغيرات الأساسية التى أحدثتها هذه الثورة هو تغير النموذج من تعريف معايير الاستبدال فى النحو التصنيفى إلى التعريف النظرى فى النحو التحويلى(١) .

وزبدة القول هى أنه قد جرى الاعتقاد بأن دعوى اللاتحديد جاءت بمثابة العقبة التى حالت دون سريان خطة فريجه فى الفكر الفلسفى الحالى ، تلك الخطة التى حاولت جعل المعانى وسيطة بين الكلمة والموضوع ، ولكن « كاتز » يرى أنه لو صحت انتقاداته فلن تضع دعوى اللاتحديد نهاية للتقليد المفهومى .

وعلى هذا الأساس يعتقد « كاتز » أنه لا يمكن ادخال كواين ضمن الفلاسفة الذين وضعوا نهاية لخطة فلسفية كاملة مثل كورت جوديل Kurt Godel، وإنما الأصح ادخاله فى زمرة أصحاب الشك الفلسفى ، مثل هيوم ، الذين أجبروا التفلسف اللاحق على أن يصبح واضحًا بشأن المفاهيم الأصلية التى يستخدمها ، وكما لم يستطع كتاب هيوم « رسالة فى الطبيعة البشرية » استبعاد مفهوم العلية ، فكذلك لم يستطع كتاب كواين « الكلمة والموضوع » استبعاد مفهوم المعنى(٢) .

وهناك مأخذان أساسيان يمكن أن نوجههما إلى نقد « كاتز » لدعوى اللاتحديد ، الأول أنه ترك الدعوى بقضها وقضيضها وراح يبحث عن تصور كواين لمشكلة الترادف فى كتاباته المبكرة ، وكان الأحرى به أن يناقش حجج كواين إذا شاء أن يفند الدعوى ؛ والمأخذ الثانى أنه يعول فى نقده لنظرة كواين إلى معايير الاستبدال بوصفها المنهج الملائم فى علم اللغة والتى أثبت على أساسها أن مفهوم الترادف لا يمكن تعريفه ، نقول إنه يعول فى نقده هذا على جانب تاريخى يتمثل فى ثورة تشومسكى فى علم اللغة ، وفاته أن تشومسكى نفسه يعتبر دعوى اللاتحديد صحيحة .

فإذا ما انتقلنا إلى انتقادات « ألستون » لدعوى اللاتحديد ، وجدنا أنه يقرر فى مستهل نقده لهذه الدعوى أن اعتراض كواين الأساسى على الصورة النموذجية للغة والمعنى هو الحجة على اللاتحديد ، الحجة التى لو نجحت سوف تثبت اللاتحديد فى المعنى اللغوى ، ثم يقدم تصويرًا موجزًا للأفكار الأساسية فى هذه الحجة ، وبعد ذلك يحاول استخلاص

(١) - Ibid, p. 242.

(٢) - Ibid, p. 252.

النتيجة التى تؤدى إليها الحجة بقوله : « وهكذا تفضى حجة كواين إلى نتيجة مفادها أن المرء لا يعنى أى شىء محدد إما بأى لفظ من ألفاظه أو بأية جملة من جمل اللاملاحظة عنده ، وطالما أن قوام اللغة يشتق فى نهاية الأمر من فاعلية الكلام عند مستعمليها ، فيلزم عن ذلك أن أى لفظ أو أية جملة من جمل اللاملاحظة فى لغة لا يعنى أى شىء محدد ، وهذا هو الجانب من دعوى اللاتحديد الذى يصطدم مباشرة بالصورة النموذجية (ص ن) ، والذى سوف أهتم به »[١] .

وقبل أن يشرع « ألستون » فى الدفاع عن (ص ن) يعترف بأنه لا يتمسك بها بوصفها تقدم لنا المعانى محددة تحديدًا كاملاً ، ويذهب إلى أن اللاتحديد قد أدرك منذ عهد بعيد فى شكل غموض فى الدرجة ؛ فعندما تستعمل كلمة « مدينة » city (فى مقابل بلدة town أو قرية vilage) استعمالاً عاديًا لا توجد إجابة دقيقة على السؤال : « كم عدد السكان المطلوب لتكوين مدينة ؟ » ، ولقد تم استكشاف بعض الصور الأخرى من اللاتحديد منذ عهد قريب ، إذ يضرب « بتشابه العائلة » **family resemblance** عند فتجنشتين المثل عندما يوجد عدد من الملامح التى تحصى لكى يكون شىء ما (ص) ، مع أنه لا توجد إجابة محددة على السؤال « كم عدد هذه الملامح التى لابد من أن يحوزها (س) لكى يكون (ص) ؟ » ، وهذا النوع من اللاتحديد هو جانب ملحوظ فى مفاهيم كثيرة ، وبصفة خاصة مفاهيم الصور الثقافية مثل « دين » و « لعبة » ؛ ويخلص ألستون إلى أن المرء يستطيع أن يدافع عن الدور الحاسم للمعنى فى اللغة ، على حين يعترف بأن حدود معنى التعبير غامضة أو غائمة بطريقة أو بأخرى[٢] .

إذا كان « ألستون » ينظر إلى (ص ن) نظرة فيها قدر كبير من التبسامح الذى قد لا يوافقه عليه فلاسفة آخرون ، تلك النظرة التى تبيح للمرء أن يقول بأنه على الرغم من الدور الحاسم الذى يقوم به المعنى فى اللغة فإن حدود معنى التعبير قد تكون غامضة بطريقة أو بأخرى ، أفلا يعد هذا رأيًا يساند دعوى اللاتحديد إلى حد ما ويقرب الخلاف بين دعوى كواين و (ص ن) ، أم أن الخلاف بينهما على الرغم من هذا القدر من التسامح

(١) Alston, W. P., "Quine on Meaning", in The Philosophy of W. V. Quine, edited by L. E. Hahn and P. A. Schilpp. p. 58.

(٢) Ibid, p. 58.

لا يزال قائمًا ؟ بعبارة أخرى ، إذا كان « ألستون » ينظر إلى (ص ن) هذه النظرة المتسامحة ، ففيم إذن تكمن نقطة الخلاف بين كواين و (ص ن) ؟ .

يجيب « ألستون » عن هذا السؤال بقوله : « إنها تكمن فى الحقيقة القائلة إن حجة اللاتحديد عند كواين قد وضعت لتثبت درجة من اللاتحديد تتجاوز كل ما سبق ، إذ تتعلق الصورة السابقة بالحواشى أو القشور الغامضة أو باللايقين فى ظروف خاصة معينة ، أما اللب فكل شىء فيه يكون واضح المعالم ؛ ولكن مع اللاتحديد عند كواين لا يوجد مطلقًا أى لب أساسى محدد ، وهذا الزعم مدمر للتصور التقليدى للبنية الدلالية للغات »[1] .

بعد أن كشف « ألستون » عن مدى عمق الهوة بين دعوى اللاتحديد و (ص ن) ، وبين بذلك مدى خطورة الدعوى ، نراه يضع هيكلاً لبناء حجة اللاتحديد مفسرة على أنها حجة على اللاتحديد فى المعنى ، ومع افتراض أن (س ١) يمثل التعبير الذى تنطبق عليه الدعوى ، يأتى هيكل البناء على النحو الآتى[2] :

١ – سوف يوجد عدد كبير من الترجمات البديلة للتعبير (س ١) فى اللغة (ل ١) إلى تعبيرات فى اللغة (ل ٢) ، والتى تفسر كل ترجمة منها تفسيرًا جيدًا وبصورة متساوية استعدادات الكلام عند جميع المتكلمين المعنيين ، بالإضافة إلى أية معطيات ملاحظة أخرى ذات صلة بالموضوع .
٢ – ومن ثم لا يمكن أن يوجد سبب كافى لاعتبار إحدى هذه الترجمات ترجمة صحيحة .
٣ – ومن ثم لا توجد ترجمة صحيحة بشكل موضوعى .
٤ – ومن ثم من المعتذر تحديد ما يعنيه (س ١) .
٥ – ومن ثم لا توجد حقيقة فيما يختص بما يعنيه (س ١) .
٦ – ومن ثم لا يعنى (س ١) أى شىء محدد .

يعترض « ألستون » فى البداية على الانتقال من (٣) إلى (٤) ، ثم يحاول بعد ذلك قطع الصلة بين (١) و (٢) ؛ وفى سبيل توضيح ذلك ، يدعونا إلى التفكير فى لا معقولية

(١) - Ibid, p. 58.
(٢) - Ibid, p. 59.

القول بأنه بسبب ارتباكنا فى الامساك بترجمة فريدة لـ "gavagai" عن طريق ملاحظة سلوك المواطن الأصلى وظروفه ، لابد من أن نستنتج بناء على ذلك أن المواطن الأصلى لا يعنى أى شىء محدد بـ "gavagai" ، ولا نعنى نحن ، إذا توسعنا فى الأمر ، أى شىء محدد (بأرنب) ، نقول عندما نفكر فى ذلك ، نجد أن السبب هو وضوح أننى أعرف ما أعنيه (بأرنب) والكلمات الأخرى فى لغتى ، (ولا يفوت « ألستون » أن ينبهنا إلى أنه لا يزعم أن ما يعنيه (بأرنب) محدد بشكل كامل من « كل » جانب) ؛ فإنا أعرف مثلاً أننى استعمل (أرنب) للإشارة إلى كائنات حية كاملة ثابتة مثل هذا أحرى من الإشارة إلى أجزاء أو مراحل من هذه الكائنات أو الأنواع التى تنتمى إليها ؛ وأنا أعرف هذا على وجه الدقة بمقتضى كونى متمكنًا من لغتى ، ومعرفة هذا هى جزء أساسى من « امتلاك » هذه اللغة ، ومعرفة هذا مطلوبة ليكون المرء قادرًا على استعمال هذه اللغة بوصفها أداة لنقل الفكر ووسيلة للتواصل ؛ ولو لم أعرف أشياء من قبيل أن « أرنب » تشير إلى كائنات حية كاملة أحرى مما تشير إلى أجزاء من كائنات حية أو مراحل منها ، فلن أكون قادرًا على المشاركة فى التواصل بالطريقة التى أقوم بها ، ولن أعرف الجملة التى تستعمل للتعليق بأن الأرنب انطلق عبر واجهة الحظيرة ذات العشب ، فاللغة الطبيعية ، ضمن أشياء أخرى ، هى نظام لأداء أفعال من هذه الأنواع ، ويستلزم التمكن من اللغة معرفة بكيفية استعمالها على مثل هذا النحو ، وكيف يمكن أن يضعنى تمكنى من اللغة فى وضع يتيح لى فعل هذه الأشياء ما لم يستلزم معرفتى بما تعنيه التعبيرات المنوعة فى اللغة ، وبدرجة من التحديد المذكور آنفًا والذى يختلف عما تأخذه دعوى اللاتحديد عند كواين بعين الاعتبار ؟[1] ؛ وخلاصة القول هى أن الشىء الذى تجاهله كواين هو معرفة الجانب الدلالى فى لغة المرء ، تلك المعرفة التى يملكها المرء بمقتضى كونه متكلمًا فصيحًا للغة ، والتى يستطيع بامتلاكها أن يحدد ما يعنيه بالتعبيرات التى يستعملها ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإن إمكانية تحديد ما يعنيه التعبير فى اللغة لا تعتمد اعتمادًا كليًا على ما يمكن اكتشافه أو إدراكه من ملاحظة السلوك وظروفه .

على أن هذه الفكرة التى تجاهلها كواين فى تحليلاته هى نفسها الفكرة التى يسعى « ألستون » إلى توضيح أبعادها من خلال وضع تمييزين ، الأول هناك تمييز بين المعنى

---

(١) - Ibid, pp. 59 - 60.

عند المتكلم speaker meaning ، أى ما يعنيه شخص ما بما يقوله ، والمعنى اللغوى linguistic meaning، أى ما تعنيه التعبيرات فى اللغة ، والثانى هناك تمييز بين المعرفة « الضمنية » و« الصريحة » للمعنى .

وإذا نظرنا إلى المعنى عند المتكلم ، لوجدنا أن ما هو واضح تمامًا وما لا سبيل إلى الشك فيه هو نوع المعرفة « العلمية » بما يعنيه المرء بما يقول فى ذروة الحدث ، فالتقرير بأن الأرنب قد جرى عبر الحظيرة ذات العشب الأخضر هو حدث قصدى بصورة عادية ، وهو ما قصدت انجازه ؛ غير أننى لا أستطيع وضع « هذا » التقرير بروية وبشكل قصدى ما لم أعرف ما أقول ، والذى يتضمن معرفة ما أعنيه بالكلمات التى أتكلم بها ، أى أننى لا أستطيع أن أضع تقريرًا عاديًا من هذا النوع بنطق « جرى الأرنب عبر الحظيرة ذات العشب الأخضر » من دون أنِ أدرك أننى أعنى بالأرنب كائنًا حيًا كاملاً ، أحرى من أجزاء الأرنب أو مراحله ، ولا يمكن أن استعمل المطرقة بشكل قصدى لقرع المسمار من دون أن أدرك ما استعمل المسمار من أجله ؛ وإذا كنت لا أعرف ما أفعله ، فإننى لا أفعله بشكل قصدى ؛ ولابد من تمييز هذه المعرفة « الضمنية » عند الفاعل عن المعرفة « الصريحة » التأملية لما يقوله المرء أو ما يعنيه ، حيث تتم صياغة المعرفة الأخيرة فى كلمات كثيرة ؛ ومن الواضح أن قول أى شىء بشكل قصدى لا يستلزم بالضرورة قولى ، حتى لنفسى ، ماذا عساه أن يكون ذلك الذى أقوله ، ولو استلزم ذلك ، فسوف ينشأ تراجع لا نهائى ، ولن نحصل أبدا على أى شىء قيل[1] . —

والمعرفة التى استعان بها « ألستون » فى نقد الانتقال من (٣) إلى (٤) فى حجة اللاتحديد ليست معرفة بما قصده المتكلم بالنطق الجزئى لـ « أرنب » فحسب ، أو إن شئت قل ليست معرفة بالمعنى عند المتكلم فحسب ، بل معرفة بالمعنى اللغوى أيضًا ، ويزعم ألستون أن هذه المعرفة الإضافية متاحة بصورة متساوية للمتكلم الفضيح عن طريق التفكير ؛ وكمتكلم فصيح للغة فإننى استعمل بصورة عادية الوسائل التى تقدمها اللغة وهى الوسائل الدلالية بالإضافة إلى الوسائل الصوتية والنظمية ، ومن ثم يجب على فقط أن أفكر فى أداء نموذجى أو أكثر يتعلق بـ « أرنب » لأصبح واعيًا بوضوح بشىء بعينه

(١) - Ibid. pp. 59-61.

(أرنب) فى اللغة ؛ وإذا أنكر المرء قدرتى على أن أصبح واعيًا بوضوح بما تعينه الكلمات فى اللغة العربية عن طريق التفكير فى استعمالاتى النموذجية للكلمات فى التواصل مع الآخرين ، فإنه ينكر أننى متكلم فصيح لهذه اللغة ، ولكن طالما أننى متكلم فصيح فإننى أملك بهذه الحقيقة نفسها تلك القدرة .

والآن ماذا عسى أن يكون رد كواين على هذه الدعاوى فيما يظن « ألستون » ؟ ظن « ألستون » أن كواين سوف يوجه هجومه على المذهب العقلى وبالتالى أخذ يتحاور مع مثل هذا الهجوم ؛ فإذا كان القول بأن موقفه موقف عقلى هو ببساطة القول بأنه يقر بالحقائق الدلالية التى ليست حقائق حول الاستعدادات السلوكية ، ويسلم بمعرفة الحقائق الدلالية التى ليست معرفة للاستعدادات السلوكية ، فإن « ألستون » يرى أن ذلك يمثل وصفًا صحيحًا لموقفه ، ولكنه لا يقبل مهاجمته بضعف التفسيرات العقلية ؛ فلا يمكن مهاجمته بتوضيح المعنى فى حدود « أفكار » تثب هنا وهناك فى مجال الشعور ، ولا بتفسير معرفة المعنى فى حدود إدراك استبطانى introspective لمثل هذه « الكائنات العقلية » ، لأن تصوره لمعرفة المعنى التى هى صحة الكلام عند كل متكلم فصيح لا يشبه هذه التفسيرات على الإطلاق ، ومن ثم فإن الهجوم على المذهب العقلى ، الموجه ضد دعاوى « ألستون » ، سوف يكون هجومًا فى غير موضعه ، والتصويب فيه سيكون تصويبًا بعيدًا عن الهدف .

لقد وجه « ألستون » نقده القائم على الاستعانة بمعرفة المتكلم الفصيح للغته الخاصة إلى الانتقال من (٣) إلى (٤) فى حجة اللاتحديد :

٣ – لا توجد ترجمة صحيحة بشكل موضوعى لـ س١ .

٤ – ومن ثم ، من المتعذر تحديد ما يعنيه س١ .

وزعم أنه حتى لو لم يستطع ، من حيث المبدأ ، الشخص الغريب تحديد الترجمة الصحيحة لـ س١ ، فلا يلزم عن ذلك عدم وجود طريقة بالنسبة لأى شخص لتحديد ما يعنيه س١ ، بل على العكس يعرف المتكلم الفصيح للغة بالحقيقة ذاتها ما يعنيه س١ ؛ ويرى « ألستون » أن هذه الإجابة إذا كانت كافية ، تحول دون الانتقال من اللاتحديد فى الترجمة إلى تعذر تحديد ما يعنيه التعبير ، ولكنها تترك اللاتحديد فى الترجمة قائمًا ؛ فهل من سبيل إلى التغلب على هذه الصعوبة ؟

يشير « ألستون » إلى أن الاستعانة نفسها بالمعرفة الداخلية يمكن أن تبطل دعوى اللاتحديد فى الترجمة أيضًا ، أى أنها تحول دون الانتقال من :

١ – باستثناء جمل الملاحظة ، سوف يوجد عدد كبير من الترجمات للتعبير س١ فى اللغة ل١ إلى التعبيرات فى اللغة ل٢ ، وتفسر كل ترجمة منها تفسيرًا جيدًا بصورة متساوية استعدادات الكلام عند جميع المتكلمين المعنيين ، بالإضافة إلى معطيات الملاحظة الأخرى ذات الصلة بالموضوع .

٢ – ومن ثم لا يمكن أن يوجد سبب كافى لاعتبار إحدى هذه الترجمات ترجمة صحيحة .

والنقطة هى أن ما تقوله (١) هو أن هذا السبب لا يكون متاحًا للشخص الغريب ، أى للشخص الذى لابد من أن يحدد الترجمة الصحيحة على أساس ملاحظة سلوك المتكلم الفصيح ، ما لم يكن هو نفسه فى وضع يتيح له استعمال ل١ بوصفها وسيلة للفكر والتواصل ؛ ويعانى المتكلم لـ ل٢ من هذا العجز فقط بسبب الحقيقة الممكنة التى مفادها أنه غير متمكن من ل١ ؛ غير أنه يستطيع تعلم ل١ ، وبعد ذلك يكون متمكنًا من ل١ ، ول٢ على حد سواء ؛ ويمكن أن يشاركه الآخرون فى هذا العمل ، والأشخاص الذين يتوافر فيهم هذا الشرط يملكون وسائل لحسم مسألة الترجمة ، وهى وسائل يفتقر إليها أولئك الذين لا يتوافر فيهم ، ويمكن أن يستعملوا معرفة المطلع منهم بما تعنيه التعبيرات فى كل لغة ، ولو ملكوا هذا الفهم عند المطلع بمعنى (gavagai) و (أرنب) على حد سواء ، لاستطاعوا استعمال هذا الفهم فى تحديد هل يعنيان شيئًا بعينه على وجه التقريب ، ويتساءل « ألستون » : كيف يمكن التوكيد على أن المتكلم (أ) يعرف ما يعنيه (gavagai) وما يعنيه (أرنب) على حد سواء لكنه لا يستطيع تحديد هل هما نفس الشىء فى المعنى تقريبًا على الأقل ؟ ويرى أننا لو قلنا بأن هذا المتكلم لديه القدرة على استعمال التعبيرين معًا بوصفهما وسيلتين للفكر والتواصل ، ولديه القدرة على التفكير فى كيفية استعماله لهما ، فإنه يحدد يقينًا ، عن طريق التفكير ، ما إذا كان يصطنع لهما نفس الاستعمال ؛ وعلى وجه التخصيص ، سيكون فى وضع يتيح له الإجابة على أسئلة كواين حولهما معًا ، أى هل يدل على كائن حى أم جزء منه أم مرحلة منه ، وهلم جرا ، ولو أجيب على كل الأسئلة الملائمة بالطريقة ذاتها بالنسبة لكل تعبير ، لوجب تحديد أن التعبير الواحد يمكن

استعماله لترجمة الآخر ، وتثبت حجة اللاتحديد على الأكثر اللاتحديد فى الترجمة شريطة أن تظل جذرية[١] .

وهكذا يحاول « ألستون » التغلب على اللاتحديد فى المعنى عن طريق الفكرة القائلة إن المتكلم الفصيح للغة يعرف بمقتضى كونه كذلك ما يعنيه التعبير فى لغته ، وإذا استطاع هذا المتكلم الفصيح أن يصبح شخصًا يتقن لغتين فسرعان ما تتلاشى دعوى اللاتحديد فى الترجمة ، أى أن دعوى اللاتحديد لا مجال لها سوى الترجمة الجذرية ، أى ترجمة لغة لا نعرف عنها شيئًا ؛ ولكن ، إذا كانت الفكرة الأساسية التى حاولت دعوى اللاتحديد نقدها هى تماثل المعنى أو الترادف ، على أساس أن التعبير (س) فى اللغة ل١ يكون ترجمة للتعبير (ص) فى اللغة ل٢ إذا كان له نفس معنى (ص) ، نقول إذا كانت هذه هى الفكرة التى تنقدها دعوى اللاتحديد ، فإن « ألستون » قد افترض القدرة على تحديد المعنى على أساس تمكن المتكلم من لغته ولكنه لم يقدم لنا بعض الشروط التى يجوز بمقتضاها تحديد معانى التعبيرات بحيث نستطيع القول بأنها مترادفة أو أنها تملك نفس المعنى ؛ على أن « ألستون » قدم لنا هذا الشرط فى كتابه « فلسفة اللغة » حيث يقترح تماثل المعنى على أنه تماثل فى إمكانية الفعل غير التعبيرى illocutionary act potential، والأفعال غير التعبيرية هى فئة فرعية من أفعال الكلام ، ويزعم « ألستون » أن التعبيران يملكان نفس المعنى فقط إذا أمكن استعمالهما لأداء نفس الأفعال غير التعبيرية[٢] ، ولكن هذا الشرط ينقده « هارمان » بحجة كونه دائريًا ؛ ولبيان ذلك هب أننا نسأل عما إذا كان التعبيران « ماء » و « يد٢ أ » لهما نفس المعنى ؛ وهما يملكان نفس المعنى فقط لو ، مثلاً ، أدى المرء بقول « من فضلك انقل الماء » نفس الفعل غير التعبيرى الذى يؤديه بقول « من فضلك انقل « يد٢ أ » » ، ولكن يمكن إثبات أننا نستطيع أن نحدد ما إذا كان هذان الفعلان يمثلان شيئًا واحدًا فقط بأن نحدد بداية ما إذا كان التعبيران « ماء » و « يد٢ أ » لهما نفس المعنى ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإن اقتراح « ألستون » دائرى[٣] .

---

(١) - Ibid, p. 66.

(٢) - Alston, W. P., The Philosophy of Language, pp. 36 - 37.

(٣) - Harman, G. H., Three Levels of Meaning", p. 592.

ويتضح مما أسلفناه أن « ألستون » يتخذ موقفًا معارضًا لموقف كواين إزاء اللغة والمعنى ، فإذا كانت الحقائق التى يمكن أن نسلم بوجودها حول اللغة هى الحقائق التى يمكن أن يثبتها الباحث الخارجى فيما يرى كواين ، فإن « ألستون » يرى أن تمكن الشخص الفصيح من لغته يقدم له وسائل خاصة للاقتراب من ملامح معينة فى اللغة ، بما فى ذلك الملامح الدلالية ؛ وسواء استطاع الباحث الخارجى التحقق من كل هذه الملامح أم لم يستطع ، فإن المتكلم الفصيح يملك طريقة مختلفة للتحقق منها ، تلك الطريقة التى لا تتضمن صياغة الفروض واختبارها بشكل مقصود مقابل المعطيات التى تمت ملاحظاتها ؛ وتبعًا لهذه الوجهة من النظر لا يستطيع المرء إثبات أنه لا يمكن أن توجد حقيقة موضوعية حول اللغة ، ولتكن (ف) لمجرد بيان أن (ف) لا يمكن أن يثبتها الباحث الخارجى ؛ ومن ثم فإن الخلاف بين كواين و « ألستون » هو خلاف منهجى بين الداخل والخارج أو إن شئت قل بين موقف المشارك وموقف الشاهد ؛ فعلى حين يصر كواين على أن أية حقيقة حول اللغة يتعين أن تكون متاحة للباحث الذى يعالج اللغة بوصفه مشاهدًا على نحو صرف ، على حد تعبير « ألستون » ، نجد أن « ألستون » يجعل حقائق اللغة متاحة للباحث المشارك .

ومهما يكن من أمر ، فإن دعوى اللاتحديد لها قيمة فلسفية تتمثل فى أنها فتحت مجالاً جديدًا للمناقشة حول الدليل والمناهج الخاصة بتفسير ظواهر أساسية من الناحية اللغوية مثل ألفاظ الملاحظة ، والروابط المنطقية ، ناهيك عن أنها قد دفعت أصحاب الاتجاه العقلى فى فلسفة اللغة إلى توضيح مناهجهم وتنقيح أفكارهم إزاء مشكلات اللغة بصفة عامة ومشكلة المعنى وما تنطوى عليه من مفاهيم على وجه الخصوص .

الفصل الخامس

فى فلسفة المنطق

٥ – ١ القضايا والجمل الثابتة

يعد مفهوم الصدق واحدًا من أهم المفاهيم المحورية فى الفلسفة بصفة عامة ، وفى الفلسفة المعاصرة على وجه الخصوص ، وتأتى أهمية هذا المفهوم – شأنه فى ذلك شأن مفهوم المعنى – من أن وجهات النظر المتنافسة فى كثير من المسائل الفلسفية الأساسية الأخرى هى بمثابة انعكاس لاعتقادات مختلفة حول هذا المفهوم ؛ كما يمثل البحث عن الصدق لب لباب المنطق ، وها هو فريجه يستهل مقالته « الفكر : بحث منطقى » بقوله : « إن كلمة (صادق) تظهر هدف المنطق كما تظهر (جميل) هدف علم الجمال ، أو (خير) هدف علم الأخلاق »[1] ، وكذلك يستهل كواين كتابه « مناهج المنطق » بقوله : « المنطق ، مثل أى علم ، مهمته هى ملاحقة الصدق ، وما يكون صادقًا هو عبارات معينة ؛ وملاحقة الصدق هى محاولة لفصل العبارات الصادقة عن العبارات الأخرى التى هى كاذبة »[2] .

ولو أننا تساءلنا : ما الذى يوصف بأنه صادق أو كاذب ؟ أو ما هى وسائل الصدق vehicles of truth أو حوامل الصدق truth-bearers؟ لوجدنا أنه لا يوجد إجماع فيما بين الفلاسفة والمناطقة على ما عساها أن تكون حوامل الصدق ، وإن كان هناك اتفاق يأتى على انطاق واسع يتمثل فى وجهة النظر التقليدية القائلة بأن الشىء الذى يكون قابلاً أو مؤهلاً لحمل قيمة الصدق هو « القضية » proposition التى يميزها الفلاسفة عن الجملة sentence بطرق منوعة ولأسباب متباينة ؛ ولكن مصطلح القضية ذاته من المصطلحات الخلافية فى فلسفة المنطق ، وإذا شاء المرء أن يختار نظرية معينة فى القضية أو إذا أراد أن يقدم نظرية تستبعد القضايا برمتها كما هو الحال مع كواين ، فلابد من أن يلتزم ببعض الأفكار فى الانطولوجيا ونظرية المعنى .

وإلى جانب وجهة النظر القائلة بأن القضايا هى حوامل الصدق ، يقدم كواين وجهة

---

(١) - Frege, G., "The Thought: A Logical Inquiry", translated by A, M. and Marcelle Quinton, in P.F. Strawson (ed.) Philosophical Logic, Oxford University Press, 1968, p. 17.

(٢) - M. of L., p. 1.

نظر أخرى مفادها أن الجمل الثابتة[1] eternalsentences هى حوامل الصدق ، ويتبنى كواين رأيه هذا بعد أن يكشف عن النقائص والمثالب التى تنطوى عليها فكرة القضايا ، فما هى القضايا ؟ وما هى مسوغات قبولها ؟ ولماذا يستبعدها كواين ؟ وما هى مزايا اقتراح الجمل الثابتة ؟ هذه الأسئلة وغيرها هى موضع اهتمامنا فى الجزء الأول فى هذا الفصل .

٥ - ١ - ١ القضايا والجمل

إذا أردنا أن نكشف بوضوح عن طبيعة القضايا ، فلابد من أن نوضح أولاً طبيعة الجمل ، فالجملة هى أكبر وحدة قابلة للوصف النحوى ، وقد تكون بسيطة أو عطفية أو مركبة ، وربما تكون إخبارية أو استفهامية أو طلبية أو تعجبية ، وقد تتكون من كلمة واحدة أو أكثر ، ولها عدة مستويات هى المستوى الفونيمى والمستوى المورفيمى والمستوى النحوى والمستوى الدلالى[2] ؛ ولو استخدمنا المعانى المألوفة لـ (نحوى) و (ذات مغزى) ،لكان بوسعنا أن نقول إن الجمل يتعين صياغتها بشكل نحوى ، ولكن لا يتعين أن تكون ذات مغزى ، ومن هنا جاز للمرء أن يتحدث عن جمل « خالية من المعنى » ، ومن بين هذه الجمل الجملة القائلة : « الأفكار الخضراء تنام غاضبة » ؛ زد على ذلك أن الجملة الواحدة قد تتمتع بمعان مختلفة ، فالجملة « إن يدى فوق يدك » ربما تعنى العون والمساندة ، وربما تعنى حرفيًا الوضع الذى تتخذه يدى بالنسبة إلى يدك ؛ وربما تستعمل الجملة الواحدة بطرائق متنوعة ، فالجملة « إنها حارة » قد يستعملها المرء بطريقة توحى وصف حالة الواقع ، وقد يستعملها بقوة تحمل طلبًا أو رجاء بحيث تحمل سامعها على أن يقوم بتهوية الحجرة أو فتح نافذتها .

ولو بحثنا فى أصل اللفظ الانجليزى proposition أو ما يناظره فى اللغات الأوربية الأخرى ، لوجدنا أنه مشتق من اللفظين pro وتعنى « أمام » أو « بين يدى » و poso وتعنى أنا أضع ، وبذلك تعنى القضية وضع فعل من أفعال الحكم أمام أى شخص من الأشخاص ، وما دام هناك حكم فلا يخلو من كونه إما صادقًا أو كاذبًا ، ومن ثم تكون الصفة الأساسية للقضية هى إمكان الحكم عليها بالصدق أو الكذب[3] .

---

(١) الترجمة الحرفية لهذا التعبير هى « الجمل الأبدية » .

(٢) د . محمد على الخولى، معجم علم اللغة النظرى، الطبعة الأولى ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٢٥٣ .

(٣) د . محمد مهران ، مدخل إلى المنطق الصورى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، دون تاريخ ، ص١١٨- ١١٩ .

وهناك محاولات لوضع تمييز ثلاثى بين الجملة sentence والعبارة statement والقضية proposition، والمقصود بالجملة فى هذا التمييز هو أية سلسلة من التعبيرات الكاملة والصحيحة نحويًا فى لغة طبيعية ، على سبيل المثال « الثلج أبيض » و « اغلق الباب » و « هل الباب مفتوح ؟ » هى جمل ، على حين أن « الحديقة ضع إنسان » و « وصل فكر معذرة » لا تندرج تحت الجمل بالمعنى السالف ؛ والمقصود بالعبارة هو ما يقال عندما تنطق الجملة الإخبارية أو تكتب ، وفى الاستعمال غير الاصطلاحى للعبارة ، نراها غامضة بين الحدث الخاص بالنطق أو الكتابة ومحتوى ما يكتب أو ينطق ، والمغزى الثانى هو الملائم والمراد فى تحديد العبارة ؛ أما القضية فهى ما يكون مشتركًا بالنسبة لمجموعة من الجمل الإخبارية المترادفة ، وبهذا المغزى للقضية ، تعبر الجملتان عن القضية ذاتها إذا كان لهما نفس المعنى(١) ؛ ولعلنا نلاحظ أنه لا يوجد فارق كبير بين العبارة من حيث هى مضمون لما ينطق والقضية من حيث هى الشىء المشترك بين مجموعة من الجمل الإخبارية ؛ وسوف نغض الطرف عن هذا التمييز الثلاثى ونبقى على التمييز بين الجمل الإخبارية والقضايا .

والحق أن الفلاسفة قد اهتموا بنمط معين من الجمل هو الجمل الإخبارية declarative sentences التى تستعمل لتقرير حالة من حالات الواقع ، ومن ثم تكون صادقة أو كاذبة ، وهذا النمط من الجمل هو الذى يقال عنه إنه « يعبر عن قضايا » ، فإذا قلت : « فى الطبق ثلاث تفاحات » لكان قولك هذا تقريرًا لأمر من أمور الواقع يمكن التثبت منه والحكم عليه بالصدق أو بالكذب ، وهكذا تختلف الجملة الإخبارية بهذه السمة عن غيرها من الجمل ، يقول ابن سينا : « هذا الصنف من التركيب هو التركيب الخبرى ، وهو الذى يقال لقائله إنه صادق فيما قاله أو كاذب ، وأما ما هو مثل الاستفهام ، والالتماس ، والتمنى ، والترجى ، والتعجب ، ونحو ذلك ، فلا يقال لقائله إنه صادق أو كاذب »(٢) ، ويقول الغزالى : « اعلم أن المعانى إذا ركبت حصل منها أصناف كالاستفهام والالتماس والترجى والتعجب والخبر ... والخبر هو الذى يقال لقائله إنه صادق أو كاذب فيه »(٣) ؛

---

(١) - Haack, S., Philosophy of Logics, Cambridge: Cambridge University Press, 1978, pp. 75-76.

(٢) ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، مع شرح نصر الدين الطوسى ، تحقيق د . سليمان دنيا ، القسم الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٣) الغزالى ، معيار العلم فى فن المنطق ، الطبعة الرابعة ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٧٩ .

خذ مثلاً عبارة التعجب ، تجد أنك إذا رفعت ناظريك إلى السماء فى ليلة اكتمل فيها القمر ثم قلت : « ما أجمل القمر » ،فإن قولك لا يزيد على أن يكون تعبيرًا عن حالة وجدانية تشعر بها وربما لا يشاركك فيها سواك ، وهو بذلك لا يقرر شيئًا يمكن أن يوصف بالصدق أو بالكذب ، وقل مثل ذلك من عبارات الأمر والنهى والتمنى والاستفهام .

وبالإضافة إلى التمييز السابق بين الجمل الإخبارية وأنواع الجمل الأخرى ، هناك تمييز آخر أكثر أهمية بالنسبة لتحديد ماهية القضايا ، وهو التمييز بين القضايا والجمل الإخبارية ؛ ولقد اصطنع الفلاسفة هذا التمييز الأخير لعدة أسباب : أولاً ، إن الجمل ربما تكون خالية من المعنى أو هرائية ، وبالتالى لا تعبر عن شىء ؛ ثانيًا ، يمكن أن يستعمل الجملة ذاتها أشخاص مختلفون ، أو يستعملها شخص بعينه فى مناسبات مختلفة ، وذلك لتقرير ما يكون صادقًا فى مجموعة من هذه المناسبات وكاذبًا فى مجموعة أخرى ، وبالتالى فإن الجملة « عندى صداع » تكون صادقة أو كاذبة استنادًا على قائلها ، أو صادقة بالنسبة لشخص معين فى وقت معين ، ولكنها تكون كاذبة بالنسبة لنفس الشخص فى وقت آخر ؛ ثالثًا ، هناك شىء مشترك بالنسبة للجمل الآتية :

- إنها تمطر .
- It's raining
- Il pleut

وثمة حاجة إلى طريقة نميز بها هذا المحتوى المشترك ، وهذا المحتوى المشترك هو ما يمثل القضية(١) ، ويمكن أن نستبعد السبب الأول على أساس أن الجملة الإخبارية هى فى غالب الأمر جملة ذات معنى ، ونستنبط من السببين الثانى والثالث أن القضايا ليست هى الجمل الإخبارية ، بل هى (ما تعبر عنه) هذه الجمل ؛ فالجملة الإخبارية هى صيغة لغوية مؤلفة من ألفاظ تم تركيبها بطريقة نحوية معينة بغية التعبير عن شىء بعينه ، وهذا الشىء الذى تروم التعبير عنه هو القضية .

ويمكن أن نوضح طبيعة القضية ونميزها عن الجملة الإخبارية إذا ألقينا الأضواء الشارحة على السبب الثالث . فالفكرة التى يريد إبرازها هى أن القضية شىء يمكن أن

(١) - Grayling, A. C., An Introduction to Philosophical Logic, p. 25.

يقال فى أية لغة ، فقولنا « سقراط فان » و "socrates est mortel" قولان يعبران عن القضية نفسها ، وقد يتم التعبير عن قضية بعينها فى لغة واحدة بطرائق متعددة ، فالاختلاف بين « هزمت مصر إسرائيل فى حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ » و« هُزمت اسرائيل من مصر فى حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ » و « السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ هو اليوم الذى هزمت مصر فيه اسرائيل » هو اختلاف راجع إلى علم البيان ، خذ مثلاً الجمل الآتية :

- هذا أسود
- this is black
- ceci est noir

تجد أن كل مجموعة من الألفاظ تؤلف جملة مختلفة ، ولكن هذه الجمل المتباينة تعبر عن قضية بعينها ، لأن معنى هذه التعبيرات (أى القضية التى تعبر عنها) لا يتغير من تعبير إلى آخر ؛ ولو كانت القضية مرادفة للجملة الإخبارية ، لكان علينا أن نسلم بأننا إزاء ثلاث قضايا مختلفة ، كما أننا إزاء ثلاث جمل إخبارية مختلفة ، وهو أمر لا نلاحظه هنا ، لأننا إزاء ثلاث جمل اخبارية وقضية واحدة فقط[1] ، وخلاصة القول هى أن القضية هى ما تعبر عنه الجملة الإخبارية .

القضايا ، إذن ، وليست الجمل ، هى التى تكون إما صادقة أو كاذبة ، والجمل ذوات المعنى فقط هى التى يمكن أن تعبر عن قضايا ، والقضايا هى ما يتم تقريره عن طريق نطق الجمل ، والقضايا أيضًا هى التى تدخل فى علاقات منطقية الواحدة منها مع الأخرى ، فالجمل لا تستلزم الواحدة منها الأخرى ، ولا تناقض الواحدة منها الأخرى[2] ، أما القضايا فتفعل ذلك ؛ زد على ذلك أن القضايا بوصفها « ما يقال » عن طريق الجمل تكون مرغوبة باعتبارها موضوعات للمواقف القضوية propositional attitudes مثل الرغبة والاعتقاد والأسف وهلم جرا .

والحق أن موقف المرء من القضايا أو الجمل يصطبغ بوجهة نظره الميتافيزيقية التى

---

(١) د . محمد مهران ، مدخل إلى المنطق الصورى ، ص ١٢١ ، وانظر د . محمد مهران ، فلسفة براتراند رسل ، ص ٢٣٣ - ٢٤٤ .

(٢) - Grayling, A. C., Op. Cit., p. 25.

يقتنع بها ؛ إذ يكمن خلف قبول القضايا أو الجمل نزاع ميتافيزيقى يضرب بجذوره العميقة فى تاريخ الفلسفة وعلى وجه الخصوص منذ العصور الوسطى ، وهو النزاع حول الكائنات المجردة ، وهناك مدرستان أساسيتان إزاء هذه المسألة ، تسمى الأولى بالمذهب الاسمى nominalism، وتسمى الثانية بالمذهب الواقعى realism ؛ والمذهب الواقعى فى هذا السياق ، ونعنى به المذهب الواقعى فى الميتافيزيقا وذلك على خلاف المذهب الواقعى فى نظرية المعرفة ، هو وجهة النظر القائلة بأن الكائنات المجردة مثل القضايا والأعداد والكليات توجد حقًا ، ونظرية أفلاطون فى الصور froms تشكل النظرية المنهجية المبكرة للمذهب الواقعى ، فالصور فى (دنيا الوجود) توجد بشكل أكثر احتمالاً وواقعية من وجود الموائد والأشجار ، والتى هى مجرد نسخ ناقصة سريعة الزوال من صورها[1] ؛ ويتمسك الاسميون من ناحية أخرى بوجهة النظر القائلة إن الكائنات المجردة ليس لها وجود حقيقى وإنما هى مجرد أسماء ولا شىء وراء ذلك ، والقضايا باعتبارها واحدة من الأفكار المجردة تثير السؤال الآتى : هل توجد قضايا ، وإذا كانت توجد فماذا عساها أن تكون ؟ وهنا نجد أن الاسميين الذين يكرهون الموضوعات المجردة ، أو الماصدقيين الذين يظنون أن أفكار المعنى تعانى من غموض ولبس لا أمل فى التخلص منهما ، لا يميلون على الأرجح نحو القضايا ، بل يميلون إلى الجمل ، على حين أن الواقعيين الذين يتقبلون الموضوعات المجردة بقبول حسن ، والمفهوميين الذين يؤيدون نظرية المعنى ، يقبلون القضايا ، والحق أن كواين ينتمى بشكل عام إلى المذهب الاسمى ، ويضيف بعض الأفكار الخاصة به سواء فى الهجوم على القضايا أو فى قبول نمط معين من الجمل يحل محل القضايا وهو نمط الجمل الثابتة .

٥ – ١ – ٢ تصور القضايا من حيث هى مقاصد ومعانى

هناك سؤال يطرح نفسه علينا الآن هو : ما هى الدوافع التى دفعت الفلاسفة والمناطقة إلى افتراض وجود القضايا ؟ ولعله من المفيد فى الإجابة هنا أن نستعين بوجهة نظر رايل[2] فى الكشف عن ضرورة تقديم القضايا وسبب التزام الفلاسفة والمناطقة بها ، ومفاد هذه

---

(١) انظر أفلاطون ، جمهورية أفلاطون ، ترجمة ودراسة د. فؤاد زكريا ، الكتاب العاشر ، ف ٥٩٦ ، ص٥٣٠-٥٣١ .

(٢) - Ryle, G., "The Theory of Meaning", pp. 131-135, 148-153.

الوجهة من النظر أن ضرورة تقديم القضايا تعد نتيجة لافتراضين نظريين يرتبطان ارتباطًا وثيقًا ، الأول فى السيكولوجيا الفلسفية ويتمثل فى وجهة النظر المتعلقة بقصدية الشعور intentionality of consciousnes ، والثانى فى المنطق ويتمثل فى النظرية الإشارية denotative فى المعنى ، وهناك علاقة حميمة تربط الافتراضين السابقين على أساس أن الموضوع المجرد الذى تسميه القضية يصلح كموضوع قضوى لفعل عقلى ، ويصلح أيضًا كمعنى للجملة التى تصوغ هذا الفعل .

إن الفكرة القائلة بأن الشعور قصدى هى الفكرة التى مفادها أن كل أفعال الشعور متجهة نحو موضوع ، وبالتالى كلما فكرت ، فإننى أفكر فى شىء ما أو حول شىء معين ، وعندما أرغب ، وأعتقد ، وأعجب ، وأخشى ، وأرجو ، فإننى أرغب فى شىء ما ، وأعتقد أن شيئًا ما ، وهلم جرا ؛ وهذا الاتجاه لأفعال acts الشعور عندى هو « علاقة قصدية » تسود بين هذه الأفعال والموضوعات التى أقصدها ، وتسمى هذه الموضوعات غالبًا « بمقاصد » تلك الافعال acts ، والأفعال verbs من قبيل « يفكر » و« يأمل » و « يرغب » و « يعتقد » و « يعتبر » و « يظن » وغيرها تسمى أفعال قضوية propositional verbs، وتسمى الفاعليات العقلية التى تدل عليها باسم « المواقف القضوية » أو « الأفعال القضوية » propositional attitudes or acts ؛ وتكمن المواقف القضوية فى علاقة ذات موضعين بين العقل من ناحية ، وفى الناحية الأخرى كائن مركب يسميه التعبير « أن » فى جمل مثل « أعتقد أنه قد وصل » والذى يشكل القصد للفعل القضوى فى العقل ؛ والقول بأن المواقف القضوية ومقاصدها أو موضوعاتها تبدو حيث تكون متميزة بعضها عن بعض ربما أدركناه فى الحقيقة التى مفادها أن ما يمكن قوله عن شىء ، أعنى الأفعال acts ، لا يمكن قوله دائمًا عن الآخر ، أعنى المقاصد أو موضوعات هذه الأفعال(١) ، على سبيل المثال ، فعلى act القضوى للاعتقاد بأن فتح مكة حدث فى السنة الثامنة من الهجرة هو الشىء الذى يظهر فى أواخر القرن العشرين ، على حين أن ما اعتقده ، أى أن فتح مكة حدث عندما حدث ، لا يتعلق بفعلى للاعتقاد .

فما أعتقده أو أرجوه عندما أعتقد أن شيئًا ما هو قضية ، أعنى القضية التى تجىء الجملة للتعبير عنها ، والتى تكون مطمورة فى التعبير « أن » فى الجملة ككل ؛ وهناك دور هنا ،

---

(١) - Grayling, A. C., Op. Cit., p. 27.

فالحقيقة القائلة إن القضايا تشكل مقاصد الأفعال القضوية هى شىء متضمن بالفعل فى فكرة الفعل القضوى أو الموقف القضوى نفسه ، ومع ذلك فإن الدور إخبارى ، لأن السبب فى أن القضايا لابد من استحضارها بوصفها موضوعات للأفعال القصدية يصبح واضحًا عند فحص التفصيلات التى تتعلق باستقلال هذه الأفعال عن مقاصدها ؛ ويمكن أن نلقى على ذلك الأضواء الشارحة ؛ هب أننا نتفق أنت وأنا على الاعتقاد فى أن فتح مكة حدث فى السنة الثامنة من الهجرة ، فإننا نعتقد معًا إذن فى الشىء نفسه ، أى لدينا الاعتقاد نفسه ، ومن المتعذر منطقيًا أن نملك أنت وأنا نفس فعل الاعتقاد من الناحية العددية فى هذا الجانب ، لأن اعتقاداتك هى اعتقاداتك واعتقاداتى هى اعتقاداتى ، أما الشىء نفسه الذى نملكه هو « ما » نعتقده ، وليس فعل الاعتقاد ، وما نعتقده هو القضية القائلة إن « فتح مكة حدث فى السنة الثامنة من الهجرة » ، ومن ثم لابد من أن تكون القضايا مستقلة عن أية أفعال للشعور[١] ؛ زد على ذلك ، طالما أننى استطيع الاعتقاد بأن « فتح مكة حدث فى السنة الثامنة من الهجرة » فى أوقات مختلفة من حياتى ، فإن القضية لابد من أن تكون محايدة من الناحية الزمانية فيما يتعلق بمواقفى القضوية المتعددة والمتباينة من الناحية الزمانية تجاهها ؛ وكذلك يعمل الرأى القائل بأننى ربما أملك المواقف القضوية المختلفة بالنسبة للقضية نفسها فى أوقات مختلفة ، كما هو الحال عندما أعتقد فى مرحلة من حياتى فى وجود سنتاكلوز (بابا نويل) ولا أعتقد فى وجوده فى مرحلة أخرى ، وهاهنا أتخذ مواقف قضوية مختلفة فى أوقات مختلفة من نفس القضية الموضوعية القائلة : « إن سنتاكلوز موجود »[٢] ؛ ويمكن أن تتخذ أنت وأنا مواقف قضوية مختلفة إزاء قضية واحدة ، وهكذا يمكن للشخص أن يملك مواقف قضوية مختلفة إزاء قضية بعينها فى أوقات مختلفة ، ويمكن أن يملك عدة أشخاص مواقف قضوية مختلفة من قضية واحدة فى وقت واحد وفى أوقات متباينة ، وإن دل على شىء فإنما يدل على كون القضايا محايدة بين المواقف القضوية المختلفة .

وثمة حجة أخرى على موضوعية القضايا واستقلالها تنشأ من الطبيعة اللازمانية لحقائق وأكاذيب كثيرة[٣] ، فالحقائق من قبيل « ٢ + ٢ = ٤ » و « وقعت غزوة بدر الكبرى

---

(١) - Ibid, pp. 27-28.

(٢) - Ibid, p. 28.

(٣) - Ibid, p. 28, and see also art "Proposition, Judgments, Sentences, and Statements", in The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 6. edited by P. Edwards, p. 495.

فى السنة الثانية من الهجرة » هى حقائق لا تصبح صادقة عندما أبدأ فى التفكير فيها أو تكون صادقة عندما أتوقف عن التفكير فيها ، وإنما هى صادقة بصورة ثابتة ، وأنا لا ابتكرها بشكل شخصى عند افتراض الموقف القضوى نحوها ، واعتقادى ، مثلاً ، بأن الإمام الغزالى قد كتب « المنقذ من الضلال » يعد ملمحًا فى سيرتى الفكرية الخاصة ، وبالتالى يكون حدثًا يمكن تحديد تاريخه فى هذه السيرة ، على حين أن تأليف الإمام أبو حامد الغزالى لكتابه « المنقذ من الضلال » ليس جزءًا من سيرتى الفكرية أو من سيرة أى شخص آخر ، باستثناء الغزالى نفسه ، بل يكون مستقلاً عن امتلاك أى شخص لموقف قضوى إزاء المسألة ، وخلاصة القول هى أن القضايا مستقلة عن أفعال الشعور .

على أن هذا التمييز القصدى للقضايا وإن يكن قد ألقى ضوءًا قويًا على موضوعية القضايا واستقلالها ، فإن هناك نقدًا يعترض سبيله ، ويرتكز هذا النقد على التمييز بين فئتين من الأفعال ، الأولى هى الأفعال القضوية propositional verbs مثل « يعتقد » و« يأمل » و « يحكم » وهلم جرا ، والثانية هى الأفعال الإدراكية cognitive verbs من قبيل « يعرف » و « يرى » و « يشم » و « يتذوق » و « يلمس » و « يسمع » .

وتقتسم الأفعال الإدراكية ملمحًا هامًا مع الأفعال القضوية ، ويتمثل ذلك فى أن كلتا الفئتين من الأفعال تتطلب حالة المفعولية النحوية ، فكما أن الفعل الإدراكى « أرى » يتطلب حالة المفعولية مثل « إننى أرى س » ، كذلك يتطلب الفعل القضوى « أرجو » حالة مفعولية مثل « إننى أرجو س » ؛ غير أننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن هذا الملمح المقتسم على مستوى النحو مضلل فلسفيًا ، لأنه على حين يمكن القول بأنه يجب أن يرد شىء ما فى الواقع على حالة المفعولية النحوية فى الفعل الادراكى ، لا يبقى هذا القول صحيحًا بالنسبة للأفعال القضوية والتحقق من ذلك أمر سهل وميسور عن طريق المقارنة بين ما يلى :

١ — محمد يذوق الحلوى ، ولكن لا توجد حلوى هنا .

٢ — محمد يرجو أن توجد حلوى ، ولكن لا توجد حلوى .

وعندما ننحى جانبًا الحالة المتعلقة بخبرات الهلوسة ، أى الحالة التى سيكون من الملائم فيها أن نعيد صياغة الفعل الإدراكى فى حالة (١) إلى التعبير « يعتقد أن » ، فمن الواضح أن المرء يقع فى تناقض إذا قرر المرء (١) بصورة جادة ، أعنى أن المرء يتدخل فى طريقة

اللغة إذا قال إن محمدًا تذوق أو لمس أو رأى شيئًا لا وجود له بحيث يمكن تذوقه أو لمسه أو رؤيته ، اللهم إلا إذا كان فى ذهن المرء أن يقرر حالة من حالات الهلوسة ، وعلى عكس ذلك ، لا يتعلق التناقض بـ (٢) ، أى رجاء محمد لشىء ما يكون كاذبًا أو غير موجود(١) .

ويمكن توضيح الاختلاف بين الأفعال القضوية والأفعال الإدراكية كأحسن ما يكون الوضوح عندما نبحث حالات الخطأ ؛ لنفترض – فى حالة الفعل الإدراكى – أننى أقول « إننى أرى كلبًا » ثم اكتشف عند الفحص الدقيق أنه ثعلب ، هاهنا أنا ملزم بأن أتراجع عن زعمى بأننى رأيت كلبًا ، وذلك بأن أقول شيئًا من قبيل « إننى ظننت أنه كلب ، ولكن الذى رأيته فى الواقع كان ثعلبًا » ، ولكن – فى حالة الفعل القضوى – إذا حكمت أو اعتقدت بأنه كلب ، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه ثعلب ، فلا أستطيع أن أتراجع عن زعمى بأننى حكمت أو اعتقدت بأنه كلب ، إذ لا أستطيع أن أقول « لقد ظننت أننى حكمت أنه كلب » ؛ وإن شئت أن تضع المسألة بطريقة أخرى قل إن مواقفى الإدراكية تقبل الإلغاء ، أى ربما تكون خاطئة ، وإذا كانت كذلك فيمكن التراجع عنها فيما بعد ، ولكن مواقفى القضوية لا تقبل الإلغاء ، إذ لا أستطيع أن أتراجع عن حقيقة أننى حكمت أو اعتقدت بما حكمته أو اعتقدته(٢) .

إن الملمح الذى تقتسمه الأفعال الإدراكية والقضوية سواء بسواء ، أى الحاجة إلى حالة المفعولية ، قد أغوى أصحاب وجهة النظر القائلة بأن القضايا هى موضوعات للأفعال العقلية ، ذلك بأنهم قد افترضوا وجود مماثلة بين ما تتطلبه هاتين الفئتين من الأفعال ، وزعموا بأنه إذا كانت الأفعال الإدراكية تتطلب وجود شىء فى الواقع يرد على حالتها الإدراكية ، فإن حالة المفعولية للأفعال القضوية يجب أن تسلك طريقًا مماثلاً ، وفى هذا يكمن الخطأ ، لأن هذه المماثلة لا تمثل الواقع ، والنتيجة التى يمكن أن نخلص إليها هنا هى أن الاعتبارات النحوية ليست مرشدة بيقين إلى الاعتبارات الانطولوجية .

وقصارى ما يمكن أن يفعله هذا النقد هو أنه يلقى ظلالاً من الشك على الفكرة ، المتضمنة فى التفسير الذى تتطلبه دعوى القصدية للقضايا ، القائلة بأن القضايا كائنات

---

(١) - Grayling, A. C.., Op. Cit., p. 29.

(٢) - Ibid, p. 30 and art "Propositions, Judgments, Sentences, and Statements", in The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 6. p. 499,

موضوعية لها وجود واقعي بشكل مستقل عن الجمل التى تعبر عنها والمواقف القضوية التى تقصدها ، ويظهر هذا النقد أنه من الخطأ القول بأننى عندما أعتقد فى شيء ما ، يوجد شيء ما أعتقد فيه ، أى القضية ، ومن ثم توجد القضايا ، وذلك بالقياس إلى الأشياء التى توجد إذا قلت على نحو صادق إننى أراها أو ألمسها[1] .

أسلفنا الإشارة إلى رأى رايل فى الدوافع التى كانت وراء تقديم القضايا ، والقائل بأن هذا التقديم جاء نتيجة لافتراضين نظريين أحدهما فى فلسفة العقل ويدور حول قصدية الشعور ، والنظر إلى القضايا من حيث هى مقاصد ، والآخر فى المنطق ويتعلق بالنظرية الإشارية فى المعنى ؛ وإذا كنا قد عرضنا للافتراض الأول ، فماذا عسى أن يكون الافتراض الثانى ؟ إن من بين الأفكار المعقولة والجذابة عن المعنى تلك الفكرة التى مفادها أن معنى الكلمة هو الموضوع الذى تشير إليه ، وتعرف باسم النظرية الإشارية ؛ وتشكل هذه النظرية الدافع الثانى لافتراض وجود القضايا ، لأنه كما يقال إن معنى الكلمة هو الموضوع الذى تشير إليه ، فكذلك يقال إن معنى الجملة هو القضية التى تعبر عنها ؛ والحق أننا نستطيع أن نميز بين ثلاث استعمالات منوعة على الأقل لمصطلح « قضية » ، فهى تستعمل كموضوعات للمواقف القضوية ، وتستعمل كمعانى للجمل ، وتستخدم كحوامل لقيمة الصدق .

طابق الاسميون والماصدقيون القضايا بالجمل الإخبارية فى اللغة ، ثم توقف بعضهم عن معالجة القضية ومضوا فى الحديث عن الجملة الإخبارية ، والمقصود بالجملة هنا هو علامة الجملة sentence - token أى سلاسل عينية من علامات الحبر على قطعة من الورق أو نقوش على قطعة من الحجر أو أصوات تحدث فى مناسبة معينة ؛ ولكن أنصار القضايا من الواقعيين والمفهوميين أدركوا أن هناك صعوبة تواجه هذه المطابقة ، وهى أن الأشياء التى نستطيع قولها عن الجمل لا يمكن قولها بصورة ذات مغزى عن القضية ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الجملة والقضية شيئان متميزان ، فالجملة تكون فى لغة محددة وذات أطوال متعددة ، وقد تكون منطوقة أو مكتوبة ، وقد تكون بحبر أو طباشير ، ولكن هل نستطيع أن ننسب شيئًا من هذه الأشياء إلى القضية ؟ الجواب لا ؛

---

(١) Ibid, p. 30 -

زد على ذلك أن الجمل المختلفة فى اللغة الواحدة أو فى لغات مختلفة يمكن أن يكون لها نفس المعنى ، وتعبر عن نفس القضية ، ومن ثم يجب أن نميز بين الجملة والقضية .

ولقد حظيت فكرة القضية المجردة بتحليل دقيق فى كتابات فريجه الذى ميز بعناية بين :

١ – الجملة المكتوبة أو المنطوقة .

٢ – الفكرة idea (أو الأفكار) العقلية المصاحبة للجملة .

٣ – القضية gedanke (التى تترجم إلى الانجليزية بـ proposition أو thought) التى تعبر عنها الجملة(١) .

وعلى حين تكون الفكرة ذاتية وخاصة بكل إنسان ينطق الجملة أو يقرأها أو يستمع إليها ، فإن القضية لا تكون كذلك ، إذ ليس لها حامل أو مالك ، بل تمثل كائنًا موضوعيًا مجردًا يتمع بنفس الواقعية الأفلاطونية التى تتمتع بها الأعداد والفئات ، ويتحدث فريجه عن القضايا بوصفها تنتمى إلى « عالم ثالث » third realm وتقطن فيه ، والعالم الثالث عند فريجه لا زمن له وهو غير فيزيائى وغير عقلى ، أى أن القضايا تنتمى إلى ضرب من الموضوعات غير الفيزيائية وغير العقلية ؛ وعندما نفهم جملة معينة فإننا ندرك القضية التى تعبر عنها .

والنظر إلى القضايا من حيث هى معانى للجمل يقدم طريقة قوية لتوضيح تجريدها وموضوعيتها ، وبخاصة إذا بحث المرء حالات الترجمة لجمل الاعتقاد ، وهو ما قام به « تشيرش » Alonzo Church التابع المخلص لفريجه والمدافع عن أفكاره ، وخلاصة فكرة تشيرش هى ما يلى : عندما أترجم الجملة (أ) "I believe he is here" إلى العربية ، فإننى أترجمها بـ « إننى أعتقد أنه هنا » ، ولكن لو أننى اعتبرت أن موضوع اعتقادى هو الجملة « إنه هنا » ، فإننى أقول فى الواقع (ب) : (I believ the sentence "he is here")، والتى لابد من ترجمتها بـ (إننى اعتقد فى الجملة "he is here") ولكننا لا نفعل ذلك ، ولابد من أن نترجم (ب) بـ (إننى أعتقد فى الجملة « إنه هنا ») ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن موضوع اعتقادى ليس هو الجملة ، بل ما تعنيه الجملة . أى

(١) - Frege, G., "The Thought: A Logical Inquiry", pp. 17 - 38.

القضية[1] ؛ وتكشف هذه الاعتبارات عن ضرورة تمييز الجملة عن القضية المجردة التى تعبر عنها ، وهكذا يصل تشيرش إلى نفس النتيجة التى ود فريجه الوصول إليها والدفاع عنها .

أما وقد رسمنا صورة للقضايا من حيث هى مقاصد ، وعرضنا لبعض الانتقادات الموجهة إليها ، ورسمنا معها صورة للقضايا من حيث هى معانى للجملة ، فقد بقى علينا أن نتناول انتقادات كواين للقضايا بصفة عامة ، وكمعانى للجمل على وجه الخصوص ؛ عندما يتكلم شخص ما على نحو صادق ، فما الذى يجعل عبارته صادقة ؟ نحن نميل إلى الاعتقاد بأن هناك عاملين هما : المعنى والواقعة ؛ عندما ينطق شخص انجليزى جملة إخبارية من قبيل "the snow is white" فإنه يتكلم على نحو صادق ، وذلك نتيجة لالتقاء حالتين : تعنى جملته أن الثلج أبيض والثلج أبيض فى الواقع ؛ فإذا اختلفت المعانى ، أى إذا كانت white تعنى أخضر ، فإن الشخص الانجليزى بنطق جملته السابقة لن يكون قد تكلم على نحو صادق ، وإذا اختلفت الوقائع ، إذا كان الثلج أحمر ، فإنه ، من ناحية ثانية ، لن يكون قد تكلم بصورة صادقة ؛ إن الشخص الانجليزى ينطق جملته الإخبارية ، ويوجد هذا الثلج الأبيض حولنا هنا وهناك ، وهنا يتساءل كواين : هل يجب أن نواصل الاستعانة أيضًا بعناصر دخيلة غير ملموسة ، أى المعنى والواقعة ؟ إن معنى الجملة هو أن الثلج أبيض ، وواقع الأمر هو أن الثلج أبيض ، ومعنى الجملة وواقع الأمر هنا متطابقان بوضوح أو على أى حال لهما نفس الاسم : الثلج أبيض ؛ ومن الواضح أنه بسبب هذا التطابق أو الاشتراك اللفظى ، جاز القول بأن الشخص الانجليزى الناطق للجملة موضوع البحث قد تكلم بصورة صادقة ، فالمعنى عنده ينسجم مع الواقعة ، ويبدو هذا وكأن له مسحة من نظرية التناظر للصدق ، ولكن لا يبقى التناظر إلا بين عنصرين غير ملموسين استعنا بهما كعنصرين دخيلين بين جملة الشخص الإنجليزى ، والثلج الأبيض[2] .

ولكن ربما يعترض المرء على أن كواين كان حرفيًا بشكل صارم أكثر مما ينبغى بشأن هذه الاستعانة الظاهرية بالعناصر الدخيلة ، إذ يجوز أن يحتج بأننا عندما نتحدث عن

(١) Art "Propositions, Judgments, Sentences, and Statements", in The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 6, p. 501, and see A. Church, "Propositions and Sentences", in J. F. Roesnberg and C. Travis (eds.), -

(٢) p. of L., pp. 1 - 2. -

المعنى باعتباره عاملاً فى صدق ما قاله الشخص الإنجليزى ، فإننا نقول فحسب - بصورة مجازية إلى حد ما - ما لا يستطيع أحد أن ينكره ، أى أنه إذا كانت كلمة white مثلاً تستعمل فى اللغة الانجليزية للأشياء الخضراء بدلاً من الأشياء البيضاء ، فإن ما قاله الشخص الانجليزى عن الثلج سوف يكون كاذبًا ، ويجوز أن يحتج أيضًا بأن الإشارة الظاهرية إلى الواقعة ، كشىء ما بالإضافة إلى الثلج ولونه ، هى طريقة للكلام فحسب[١] .

ويرى كواين أننا لو نظرنا إلى الأمر على هذا النحو ، فلا مجال إذن للشكوى والاعتراض ، ولكن حقيقة البحث فى مجال فلسفة المنطق تعارض ذلك ، إذ أن هناك نزعة قوية فى هذا المجال منذ عهد بعيد لا يمكن التغاضى عنها ، وكانت هذه النزعة مصدر أذى فى معانى الجمل أكثر مما كانت فى الوقائع ، فتم دفع معانى الجمل بوصفها كائنات مجردة بحكم حقها الخاص وتحت اسم القضايا ، ونظر إلى هذه القضايا ، وليس الجمل ذاتها ، على أنها الأشياء التى تكون صادقة أو كاذبة ، وهى أيضًا الأشياء التى تقوم فى العلاقة المنطقية الخاصة باللزوم ، وهى أيضًا الأشياء التى تعرف أو يعتقد بها أو يتم إنكارها[٢] .

لقد شجع غموض مصطلح « القضية » تسامح الفلاسفة إزاء القضايا ، إذ يستعمل المصطلح فى غالب الأمر للجمل ذاتها ، أى الجمل الإخبارية ، وبعض الكتاب الذين يستعملون مصطلح القضية بالنسبة لمعانى الجمل لا يبالون بالتمييز بين الجمل ومعانيها ، ولقد حاول بعض الفلاسفة الهروب من غموض القضايا ووجدوا ضالتهم فى كلمة « العبارة » ، واستعمل كواين بالفعل فى كتبه المبكرة مثل « المنطق الرياضى » كلمة العبارة للإشارة إلى الجملة الإخبارية فحسب ، غير أنه قد تخلى أخيرًا عن هذه الكلمة بسبب ميل فلاسفة مدرسة أكسفورد إلى استعمال تلك الكلمة للأفعال التى نؤديها بنطق الجملة الإخبارية ، واستعمال العبارات بهذا المغزى ، بدلا من القضايا لن يفضى ، فيما يرى كواين ، إلى زيادة فى الوضوح .

ولعل قبول الفلاسفة للقضايا فى نظرياتهم الانطولوجية يرجع ، تبعًا لكواين ، إلى أمرين أحدهما إهمال الغموض الذى يلف كلمة « القضية » والآخر هو الاسراف فى التقبل

---

(١) - Ibid, p. 2.

(٢) - Ibid, p. 2.

الحسن للكلمات الغامضة ؛ وواصل هؤلاء الفلاسفة النظر إلى القضايا ، وفضلوا ذلك على الجمل ، بوصفها الأشياء التى تكون صادقة أو كاذبة ، وهم يعتقدون أنهم بذلك يكتسبون المباشرة ، ويقتصدون خطوة ؛ فإذا نظرنا إلى جملة الشخص الانجليزى مرة أخرى ، وجدنا أنه يتكلم بشكل صادق لأن (١) the snow is white تعنى الثلج أبيض ، (٢) الثلج (يكون) أبيض ، وهاهنا يقع فى ظن الفلاسفة الذين يقبلون القضايا أنهم يقتصدون الخطوة (١) ؛ فالقضية – القائلة بأن الثلج أبيض – تكون صادقة ببساطة بسبب (٢) أى كون الثلج أبيض ؛ ولكن فات هؤلاء الفلاسفة أنهم قد أهملوا الاختلافات بين اللغات ، وغضوا الطرف كذلك عن الاختلافات فى الصياغة داخل اللغة الواحدة(١) .

إن الفلاسفة الذين ينتمون إلى التيار التجريبى لديهم صعوبة فى تقبل الكائنات المجردة مثل القضايا على أساسين ؛ الأول أنها ليس موضوعات فى خبرة مباشرة ولكن يستدل عليها ، وهى ليست كائنات يستدل عليها من نوع جدير بالاحترام بشكل علمى مثل الجينات والالكترونات ، لأن افتراضات وجود الجينات أو الالكترونات يمكن استعمالها للتنبؤ بنتائج قابلة للملاحظة والتى يصلح ظهورها لتأييد الفرض ، وليس ذلك هو الحال مع القضايا ؛ زد على ذلك أن القضايا لا تسد نقصًا فى بنية العلم كما تفعل الكائنات العلمية المستدل عليها ، ويجرى التسليم بها لغرض خاص فحسب ، أى لتفى بالمطالب المفترضة للحجة الفلسفية(٢) .

أما الأساس الثانى لرفض الموضوعات القصدية المجردة فهو الاستعانة بمبدأ الاقتصاد الفكرى الذى ينسب إلى وليم أوكام ، وفحواه « لا يجب أن نكثر من الكائنات بغير ضرورة »(٣) ، فالعالم المؤلف من نوعين أساسيين لكائن هو عالم مقبول بصورة نظرية أكثر من عالم يتضمن ثلاثة أنواع ، زد على ذلك ، لا توجد قضايا صادقة فحسب فى هذا العالم الثالث عند فريجه ، بل لابد من أن ندخل فى حسابنا عددًا لا يحصى من

---

(١) - Ibd, pp. 2 - 3.

(٢) - O' Connor, D. J., The Correspondence Theory of Truth, London : Hutchinson University Library, 1975, p. 51.

(٣) انظر فى مناقشة صحة نسبة هذا المبدأ إلى أوكام ، د . محمد مهران ، فلسفة برتراند رسل ، ص ٣٥٩ .

القضايا الكاذبة ايضًا ، طالما أنه بالنسبة لكل قضية صادقة يوجد عدد غير محدود من القضايا الكاذبة ، ويبدو هذا مرة أخرى متعارضًا مع مبدأ أوكام(١) .

وربما يحاول المرء الدفاع عن فريجه قائلاً إن افتراض الكائنات القضوية هو مجرد عرض للطريقة التى نفكر بها ونتكلم بها عن الاعتقادات والأحكام وهلم جرا ، وبذلك يجتنب تهمة الافتقار إلى الاقتصاد الفكرى ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان ، ولكن فريجه ومن سار على دربه لا ينظرون إلى افتراض الكائنات القضوية على هذا النحو ، بل يقولون ، كما أوضحنا ، إنها تتمتع بوجود واقعى يتجاوز استعمالنا لها .

على أن اعتراض كواين على التسليم بالقضايا لا ينشأ فى المقام الأول من اقتصاد فلسفى ، ولا ينشأ بشكل خاص من نزعة جزئية Particularism ، اى من رفض الكائنات غير الملموسة أو المجردة ، وإنما يظهر اعتراضه أول ما يظهر على القيمة التفسيرية المزعومة للقضايا ، والتى مفادها أننا لو افترضنا وجود مثل هذه الكائنات المجردة ، لكان فى وسعنا تفسير حقائق معينة حول المعنى ، والترادف ، والصدق ، والمواقف القضوية .

ولكى يكشف كواين زيف القوة التفسيرية التى تنسب إلى افتراض القضايا ، نراه يحاول إثبات أن القضايا تحجب الحقائق التى يعد توضيحها بمثابة الهدف الأساسى من وراء التسليم بالقضايا ، أو أن هذه الحقائق يمكن إظهارها وتوضيحها من دون القضايا .

خذ مثلا المسائل المتعلقة بالمعنى والترجمة ، تجد أن افتراض وجود القضايا يزيف هذه المسائل أحرى من توضيحها ، هب أن لدينا جملتين دائمتين (أ) و (ب) الأولى إنجليزية والثانية عربية ، وتعبران عن قضيتين متناظرتين « أ » و« ب » ، ثم افترضنا المعيار الذى يستعمله الفلاسفة لتحديد هوية القضايا ، وهو الترادف ، والذى يقول : تعبر الجملتان عن القضية نفسها فى حالة واحدة فقط وهى أن تكونا مترادفتين ؛ هاهنا يقدم لنا هذا المعيار طريقة لتحديد ما إذا كانتا متطابقتين : تكون « أ » و« ب » متطابقتين فقط إذا كانت (أ) و(ب) مترادفتين ؛ ولكن بسبب اللا تحديد فى الترجمة ، لا توجد طريقة من حيث المبدأ لاكتشاف ما إذا كانت (أ) و(ب) مترادفتين ، ومن ثم لا توجد طريقة لتحديد ما إذا كانت « أ » و« ب » متطابقتين ؛ وهكذا يتضح أن افتراض أن (أ)

---

(١) - Carr, B., "Truth" in An Encyclopaedia of Philosophy, general editor G.H.R. Parknson, Routledge, 1988, p. 90.

و(ب) تعبران عن قضايا يقدم لنا وهما مفاده أن هناك حقيقة حول الترادف لابد من توضيحها ؛ غير أن كواين يزعم أنه لا توجد فى الأمر حقيقة ولا يوجد ترادف يتعين علينا توضيحه ، وبالتالى ليس لدينا ما يسوغ افتراض أن (أ) و(ب) تعبران عن قضايا[1] .

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمسائل المتعلقة بالمعنى والترجمة ، فماذا عن المواقف القضوية ؟ ربما يحتج المرء بأنه من الصعب التخلى عن موضوعات المواقف القضوية ، ويتجلى سبب احتجاجه في قدرتنا على تفسير قدر كبير من السلوك الإنسانى فى حدود الاعتقادات والرغبات والآمال والمقاصد وهلم جرا ؛ ولكننا لو عدنا إلى اللا تحديد فى الترجمة وعولنا عليه ، فسرعان ما تتلاشى القوة الظاهرية لهذا الاحتجاج ، فبقدر ما يوجد لا تحديد فى معانى الجمل الأصلية يوجد لا تحديد فى الاعتقادات الأصلية والرغبات والآمال والمقاصد وغيرها ؛ ولو افترضنا أن هناك جملة دائمة أصلية (س) يوافق عليها الساكن الأصلى ، وأننا قمنا بترجمتها إلى العربية بالجملة (ص) أو الجملة (ع) ، فهاهنا ينشأ السؤال الآتى : ما الذى يعتقده الساكن الأصلى بالفعل ، هل يعتقد (ص) أم (ع) ؟ يخبرنا اللا تحديد فى الترجمة بأنه ليس ثمة طريقة مأمونة لاكتشاف ذلك ؛ وطالما أننا لا نستطيع تحديد ماذا عساها أن تكون ترجمة (س) إلى العربية ، فلن نجد بين أيدينا طريقة لاختيار (ص) أو (ع) بوصفها الترجمة الصحيحة الوحيدة لـ (س) ؛ وعلى هذا النحو يتضح أن افتراض وجود قضية محددة يعتقد فيها المواطن الأصلى فى حالة الموافقة على الجملة الأصلية (س) ، ومن ثم لا مجال للقول بأن المواقف القضوية تقدم لنا أساسًا للاعتقاد بضرورة وجود القضايا .

ولو أننا سايرنا القاعدة القائلة « البينة على من ادعى ... » ، لكان لزامًا على الفيلسوف القائل بوجود القضايا أن يتحمل تبعة الإثبات ، ولكن حجج كواين التى أسلفنا جانبًا منها تحاول إظهار أن الدليل المقدم لتأييد وجود القضايا لا يفى بمهمة الإثبات ، ومع ذلك فإن كواين لا يقف عند هذا الحد ، بل يخطو خطوة أخرى ويزعم أن افتراض وجود القضايا يثير كثيرًا من الصعوبات تأتى فى موضع الصدارة منها صعوبة التشخص individution ، فماذا عساها أن تكون ؟

---

(١) - Davis, S., Philosophy and Language, p. 196.

إن أُحد الأسباب التى تكمن وراء عداء كواين الشديد للغالبية العظمى من الكائنات المجردة والقضايا هنا على وجه الخصوص ، هو أنها تفتقر إلى معايير واضحة للهوية criteria of identity ومعيار الهوية بالنسبة لكائن معين هو المعيار الذى بواسطته نستطيع تشخيص هذا الكائن ولحدد ما هو ، ونميز بين هذا الكائن والكائنات الأخرى ، فنعرف أين يبدأ وأين تنتهى هى ، والشعار الذى ابتكره كواين ليلخص به وجهة نظره هنا هو « لا كائن دون هوية » no entity without identity ويتساءل كواين : « ما هو المغزى الذى يمكن أن يوجد فى الحديث عن كائنات لا يمكن أن يقال بصورة ذات مغزى إن الواحد منها يتطابق مع ذاته ويتميز عن الآخر ؟ »(١) .

ويذهب كواين إلى أننا لا نستطيع أن نتبين متى تكون القضية متطابقة مع ذاتها ومتى تكون مختلفة عن القضية الأخرى ، مثلما نستطيع فعل ذلك مع الموضوعات المجردة الأخرى مثل الأعداد والفئات والموضوعات الفيزيائية مثل الكراسى والموائد ؛ ويؤكد أن مصطلح القضية كان يكتسب مغزى قليلاً قبل محاولة البحث عن معيار معين « لمتى نتكلم عن القضايا بوصفها متطابقة ومتى نتكلم عنها بوصفها متميزة »(٢) ؛ والمعيار المقترح لهوية القضايا أو تطابقها هو : تكون القضيتان متطابقتين فى حالة واحدة فقط وهى أن تكون الجملتان المعبرتان عنهما مترادفتين ؛ ويبدو واضحا أن هذا المعيار يرتكز بصورة أساسية على فكرة الترادف ، ولكن طالما أن فكرة الترادف باطلة وفارغة كما أثبتت دعوى اللاتحديد فى الترجمة ، فإن هذا يعد أساسًا كافيا لرفض القضايا ؛ وهكذا يتضح لنا أن كواين لا يكتفى باظهاره لعدم وجود أسباب للاعتقاد بوجود القضايا ، وإنما يتجاوز ذلك ويبين أن هناك سببًا للاعتقاد بعدم وجودها .

٥ - ١ - ٣ الصدق والجمل الثابتة

أسلفنا الإشارة إلى أن اعتراض كواين على القضايا هو فى المقام الأول اعتراض على القوة التفسيرية المزعومة لها ، والتى مؤداها أن افتراض القضايا يخول لنا تفسير حقائق تتعلق بالمعنى والمواقف القضوية والصدق ، وقلنا إن كواين يحاول أن يثبت إما أن القضايا

---

(١) F. L., P. V., p. 4, and O. R. & O. E., pp. 22 - 23, 140, 144 and see also Munitz., M. K., Contemporary Analytic Philosophy, New York : Macmillan, 1981, p, p. 351.

(٢) W. & O., p. 200.

تحجب هذه الحقائق أو أن هذه الحقائق يمكن توضيحها من دون الاستعانة بالقضايا ، وتناولنا المسائل المتعلقة بالمعنى والترجمة والمواقف القضوية ، ويبقى علينا أن نتناول الآن ما يتعلق بالصدق .

لقد ذهب الفلاسفة الذين يؤيدون وجود القضايا إلى أن من بين مسوغات افتراض القضايا أن الصدق معقول بالنسبة لها أحرى من الجمل ، وزعم هؤلاء أنه من غير الملائم الكلام عن الجمل بوصفها صادقة أو كاذبة ، وهناك عدة حجج لتأييد هذا الزعم تأتى فى مقدمتها حجتان ؛ الأولى أنه إذا كانت الجمل صادقة أو كاذبة ، فإن بعض الجمل سوف تكون صادقة أحيانًا وكاذبة أحيانًا أخرى ، والثانية هى أن بعض الجمل من النمط غير الاخبارى مثل الجمل الاستفهامية والطلبية وجمل التمنى وغيرها ليست مؤهلة للصدق أو الكذب ، ومن ثم لا يمكن أن تكون جميع الجمل صادقة أو كاذبة ، ولكن هل مثل هذه الحجج تعد حاسمة بحيث تفضى إلى التخلى عن الجمل والتسليم بالقضايا بوصفها حوامل الصدق ؟ وإذا كانت هذه الحجج تمثل صعوبات تحول دون قبول الجمل ، فهل يمكن التغلب عليها ؟

يرى كواين أن هناك سببًا عميقًا وغامضًا لاحساس الفيلسوف القائل بالقضايا بأن الصدق معقول فى المقام الأول بالنسبة للقضايا ، وهو أن الصدق يجب أن يتوقف على الواقع وليس اللغة ، والجمل تمثل اللغة ؛ ويقر كواين أن هذا الفيلسوف على صواب فى أن الصدق يجب أن يتوقف على الواقع ، فالجملة « الثلج أبيض » تكون صادقة فى حالة واحدة فقط وهى أن يكون الثلج الحقيقى أبيض بالفعل ، وهذه هى فكرة تارسكى ؛ فالصدق يتوقف على الواقع ، ولكن الاعتراض على تسمية الجمل صادقة من هذه الناحية يعد لبسًا ، وتتجلى أهمية صفة الصدق عندما تدفعنا تعقيدات معينة إلى ذكر الجمل ، وهنا تصلح صفة الصدق للإشارة إلى الواقع من خلال الجملة إذا جاز التعبير ، فهى تصلح كشىء يذكرنا بأنه على الرغم من ذكر الجمل ، فإن الواقع لا يزال هو الهدف برمته ؛ فماذا عساها أن تكون المواضع التى نجد أنفسنا فيها مدفوعين إلى الكلام عن الجمل ؟ الجواب عند كواين أن المواضع من هذا النوع هى التى نلتمس فيها التعميم ، ونلتمسه على طول طرق ملتوية لا نستطيع أن نتخلص منها عن طريق التعميم على الموضوعات ؛ فيمكن أن نعمم على « محمد فان » و « أحمد فان » وهلم جرا من دون

الكلام عن الصدق أو عن الجمل ، إذ نستطيع أن نقول « كل الناس فانون » ، ويمكن أن نعمم بصورة مماثلة على « محمد هو محمد » و « أحمد هو أحمد » و « صفر هو صفر » وهلم جرا ، ونقول « كل شيء هو نفسه » ؛ ومن ناحية ثانية عندما نود أن نعمم على « محمد فان أو محمد ليس فانيًا » و « الثلج أبيض أو الثلج ليس بأبيض » وهلم جرا ، فإننا نصعد للكلام عن الصدق وعن الجمل ، ونقول : (كل جملة فى الصيغة « س أو لا س » هى جملة صادقة) ، وليس الذى يحض على هذا الصعود الدلالى semantic assent أن القول « محمد فان أو محمد ليس فانيًا » يدور بطريقة أو بأخرى حول الجمل ، على حين يدور القولان « محمد فان » و « محمد هو محمد » حول محمد ، فكل الأقوال الثلاثة تدور حول محمد ، وإنما يأتى صعودنا بسبب الطريقة الملتوية التى بها ترتبط الأمثلة التى نعمم عليها[1] .

ونحن قادرون ، فيما يقول كواين ، على التعبير عن تعميمنا « كل شيء هو ذاته » من دون هذا الصعود تمامًا ، لأن التغيرات التى تجرى فى التحول من مثال إلى آخر — « محمد هو محمد » و « أحمد هو أحمد » و « صفر هو صفر » — هى تغيرات فى الأسماء ، والأمر شبيه بذلك فيما يتعلق بتعميمنا « كل البشر فانون » ، ويجوز قراءة هذا التعميم على النحو الآتى : « س يكون فانيًا بالنسبة لجميع البشر س » — كل الأشياء س من النوع الذى يكون (محمد) اسمًا له ، ولكن ما هى القراءة الموازية للتعميم المتعلق بالقول « محمد فان أو محمد ليس فانيًا » ؟ سوف يقرأ : « س أو لا س بالنسبة لكل الأشياء س من النوع الذى تكون الجمل أسماء له » ، ولكن الجمل ليست أسماء ، وهذه القراءة غير متماسكة ببساطة ، إذ أنها تستعمل س فى المواضع التى تتطلب أشباه الجمل وفى موضع يتطلب عبارة اسمية ، وهكذا لكى نكتسب تعميمنا المروم ، ترانا نصعد درجة ونتكلم عن الجمل وننسب إليها الصدق فنقول : (كل جملة فى الصيغة « س أو لا س » صادقة)[2] .

ويجمل بنا أن نشير إلى تصور كواين للصدق ، ويتضح هذا التصور عندما نقابله بتصور فرانك رامزى P. Ramsey. (١٩٠٣ — ١٩٣٠) ، ذهب رامزى إلى أنه لا توجد بالفعل مشكلة منفصلة للصدق بل هناك اختلاط لغوى فحسب ، ويقول : « من الواضح

(١) P. of L., p. 11.

(٢) Ibid, pp. 11-12.

أن (من الصدق أن قيصرًا قتل) لا تعنى أكثر من أن قيصرًا قتل ، وأن (من الكذب أن قيصرًا قتل) تعنى أن قيصرًا لم يقتل ؛ فهى تعبيرات نستعملها أحيانًا للتوكيد ، ولأسباب أسلوبية ، أو لبيان الوضع الذى تشغله العبارة فى حجتنا »(١) .

وتسمى هذه النظرية باسم نظرية الإضافة فى الصدق redundancy theory of truth وطبقًا لهذه النظرية ، فالعبارة التى مفادها أن ق صادقة هى نفسها العبارة التى مفادها ق ؛ وهكذا فإن القول ، مثلاً ، « من الصدق أن الثلج أبيض » لا يزيد على القول « الثلج أبيض » ، ومن ثم فإن إضافة « من الصدق أن » هى إضافة لا ضرورة لها (٢) ؛ وبعبارة أخرى ، نستطيع أن نستبعد هذه الإضافة التى ترد فى العبارات من النوع المشار إليه دون أن نخسر شيئًا ، لأن إسناد الصدق والكذب في مثل هذه العبارات زائد عن الحاجة .

ولقد وضع كواين بعض الملاحظات المماثلة حول مفهوم الصدق ، إذ يقول : « إن صفة الصدق هى حيلة لـ (اللاتنصيص) [أو فك التنصيص] disquotation»(٣)؛ وعندما نضع الجملة « محمد قتل » فى علامات تنصيص ، فإننا نحصل على اسم أو وصف للجملة ، وبينما نستطيع استعمال الجملة الأصلية لوضع تقرير ، فإن الجملة المقتبسة لا يمكن استعمالها لوضع تقرير دون مساعد ، فهى ليست جملة كاملة ، وإنما مجرد اسم أو وصف ، وفائدة صفة الصدق هى أنه بإضافتها إلى الجملة المقتبسة ، فإننا نبطل تأثير علامات التنصيص ، وهكذا فإن (« قيصر قتل » صادقة) يمكن استعماله لوضع نفس التقرير الذى يضعه (قيصر قتل) ؛ يقول كواين : « فالقول بأن العبارة (بروتس قتل قيصرًا) صادقة ، أو أن (الوزن الذرى للصوديوم هو ٢٣) صادقة هو ببساطة فى الواقع القول بأن بروتس قتل قيصر أو أن الوزن الذرى للصوديوم هو ٢٣ »(٤) ، وخلاصة القول عند كواين هى أن « الصدق هو اللاتنصيص »(٥) .

---

(١) - Ramsey, F. P., Philosophical Papers, edited by D. H. Mellor, Cambridge, New York: Cambridge University Press, 1990, p. 38.

(٢) - Brody, B. A., Logic, Theoretical and Applied, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall, 1973, p. 60.

(٣) - P. of L., p. 12.

(٤) - W. & O., p. 24.

(٥) - Q., p. 213, P. of T., pp. 78-80.

لقد خلصنا مما سلف إلى نتيجة هامة وهى أن ما يكون صادقًا أو كاذبًا هو الجمل ، ولكن ما أدركناه على أفضل وجه بوصفه صادقًا أو كاذبًا فى المقام الأول ليس هو الجمل بل حوداث النطق ، فإذا نطق الإنسان الكلمات « إنها تمطر » فى جو ممطر ، أو نطق الكلمات « إننى جائع » بينما هو جائع ، فإن الأداء اللفظى الذى قام به يعد صادقًا ، وبقدر ما يجوز أن تقبل الجملة نطقًا صادقًا أو كاذبًا ، فإنها تقبل كتابة أو نقشًا صادقًا أو كاذبًا على حد سواء ؛ فالكتابة للجملة « أنت مدين لى بعشرة جنيهات » ربما تكون صادقة أو كاذبة وتعتمد فى صدقها وكذبها على من يقولها ولمن يقولها وزمن كتابتها[1] . وهذا القول يمثل بالفعل عقبة كأداء أمام قبول الجمل بوصفها حوامل صدق ، غير أن كواين يحاول التخلص من هذه العقبة عن طريق تخصيص فئة من أنماط الجمل التى لا تغير قيمة صدقها ، والتى أسماها بالجمل الثابتة eternal sentences، وهى البديل المعقول للقضايا من وجهة نظره .

ويمكن توضيح طبيعة الجمل الثابتة عن طريق المقابلة بين الجملتين الآتيتين :

١ – رئيس الجامعة ثقيل الوزن .

٢ – جزيىء البنزين له ست ذرات كربون .

فالجملة الثانية صادقة بالنسبة لكل ذرات البنزين فى كل زمان ومكان ، أما الجملة الأولى فتعتمد فى صدقها أو كذبها على شخص رئيس الجامعة الذى نشير إليه ، والوقت الذى نضع فيه هذا التقرير ، وهلم جرا ، ولكننا نستطيع أن نملأ التفصيلات فى الجملة الأولى إلى الحد الذى لا تكون معه قيمة صدقها عرضة للتغيير الذى يحدث نتيجة لغموض الإشارة وغياب التاريخ مثلاً ، وبالتالى نحصل على الجملة :

٣ – رئيس جامعة القاهرة فى مصر فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٩٢ ثقيل الوزن .

التى تكون صادقة أو كاذبة بشكل ثابت ؛ ولو أننا قمنا بفعل ذلك مع جميع الجمل الإخبارية ، فسوف تتكون الجمل التى لن تتغير قيمة صدقها بمرور الوقت ولا تتغير من متكلم إلى آخر ، وهذه هى الجمل الثابتة .

---

(١) -P. of L., p. 13.

ويوضح كواين هذه الفكرة فى غير موضع من كتاباته ، فيقول فى كتاب « النسبية الانطولوجية ومقالات أخرى » : « عادة ما تكون الجملة الإخبارية صادقة أو كاذبة ، ولكن جملتك الإخبارية النموذجية لا تكون صادقة أو كاذبة بصورة ثابتة ، فهى صادقة فى مناسبة وكاذبة فى أخرى ، وذلك بسبب صيغ أفعالها وإشاراتها المتباينة لضمائرها أو ظروفها الإشارية أو الكلمات الإشارية الأخرى ، ونستطيع عن طريق ادخال معلومات ضافية إلى الجملة – مثل التواريخ وأسماء الأشخاص والأماكن – أن نحصل على جملة ثابتة ، أى جملة تكون صادقة أو كاذبة بصورة ثابتة »[1] ؛ ويؤكد كواين على تلك الفكرة فى كتاب « فلسفة المنطق » بقوله : « الجمل الثابتة هى الجمل التى تظل صادقة إلى الأبد ، أو كاذبة إلى الأبد ، بصورة مستقلة عن أية ظروف خاصة يتصادف أن تنطق بها أو تكتب خلالها ؛ ويفكر المرء تحت موضوع الجمل الثابتة أول ما يفكر فى جمل الحساب ، وبعد ذلك يفكر المرء فى قوانين الفيزياء ، لأن هذه القوانين – وإن كانت معنية بالعالم المادى بالطريقة التى لا تكون بها قوانين العدد المحض – قد قصد بها أن تدوم بالنسبة لجميع الأزمنة والأماكن »[2] .

على أن فكرة الجمل الثابتة إذا كانت تمثل بديلاً معقولاً للقضايا ، فإنها ذاتها لا تخلو من نقائص ، إذ يمكن أن نتخيل ، كما يقرر كواين نفسه ، أن السلسلة الواحدة من الأصوات أو الرموز يمكن أن تصلح لـ « ٢ > ٥ » فى لغة و « ٢ < ٥ » فى لغة أخرى ، وعندما نتحدث عن « ٢ < ٥ » باعتبارها جملة ثابتة ، إذن يجب أن نفهم أننا نبحثها على وجه الحصر بوصفها جملة فى لغتنا (يعنى الانجليزية) ، ونزعم الصدق فقط لعلامتها التى هى منطوقات أو كتابة قدمت فى جماعتنا اللغوية[3] ؛ وهذا يعنى أن النظر إلى الجمل الثابتة بوصفها حوامل الصدق لابد من أن يتم فى إطار لغة واحدة بعينها .

زد على ذلك أنه لا يمكن ، فيما يرى كوهن ، الثقة بأن تحتفظ جملة لغوية كائنة ما تكون بقيمة صدقها تحت كل الظروف ، ويتكىء رأى كوهن هذا على فكرة التغير

(١) - O. R. & O. E., p. 140, and W. & O., p. 193.

(٢) - P. of L., p. 13.

(٣) - Ibid, p. 14.

الدلالى semantic change فى اللغة من وقت إلى آخر ومن متكلم إلى آخر[١] ؛ ويقر كواين بأن الجملة الثابتة التى هى صادقة يمكن أن تصبح كاذبة بسبب تغير دلالى معين يقع فى التطور المتصل للغتنا الخاصة ؛ وهنا يجب أن ننظر إلى التعارض على أنه اختلاف بين لغتين : العربية مثلاً ، فى تاريخ معين ، والعربية فى تاريخ آخر ، إذ يمكن أن تكون سلسلة الأصوات أو الرموز المشار إليها ، أى « ٢ < ٥ » ، جملة ثابتة صادقة فى العربية المبكرة ، ويتصادف فقط أن تقوم بمهمة مزدوجة باعتبارها كاذبة فى لغة أخرى ، أى العربية المتأخرة ، ونظرًا لما أسلفناه يحدد كواين إطارًا نهائيًا للجمل الثابتة بقوله : « عندما نسمى الجملة ثابتة ، فإننا نسميها ثابتة فقط بالنسبة للغة محددة فى وقت محدد »[٢] .

ويوجه « اكونور » بعض الانتقادات إلى اقتراح الجمل الثابتة على النحو الآتى[٣] :

١ – على الرغم من أن افتراض الجمل الثابتة قد جرى تقديمه لتفادى افتراض وجود القضايا ، فإن الشيء الجدير بالملاحظة هو أن بعض الصعوبات التى تجعلنا نميل إلى التخلى عن القضايا يمكن استعمالها أيضًا لرفض الجمل الثابتة :

(أ) الاعتراض بأن القضايا كائنات أفلاطونية وأنها عرضة للصعوبات المعروفة فى الميتافيزيقا الأفلاطونية يمكن استعماله بصورة متساوية تمامًا ضد الجمل الثابتة ، لأن الجمل الثابتة ليست علامات ، سواء كانت أحداثًا عينية للنطق أم كتابات جزئية ، وإنما هى أنماط أى نماذج النطق التى هى أمور كلية .

(ب) إن افتراض وجود القضايا يزود الكون بعدد لا يعد ولا يحصى من الأكاذيب الموضوعية ، وعلى النطاق الذى يعد به هذا اعتراضًا على التسليم بالقضايا لابد من أن يعد بصورة متساوية ضد الجمل الثابتة ، لأنه يجب أن توجد جمل ثابتة كاذبة والتى تطابق بصورة فريدة كل هذه الحالات الممكنة منطقيًا التى لم يتم جذبها أو تقديمها إلى التحقق أو الوجود الفعلى ، وبالفعل فإن كل جملة ثابتة صادقة تناظرها مجموعة غير محددة من الجمل الثابتة الكاذبة ؛ وحتى الآن يجوز القول بأن افتراض الجمل الثابتة يقدم

---

(١) - Cohen, L. J., The Diversity of Meaning, London: Methuen, 1962, p. 232.

(٢) - P. of L., p. 14.

(٣) - O'Conner, D. J., The Correspondence Theory of Truth, pp. 54-57 .

شيئًا قليلاً يتعذر الحصول عليه عن طريق قبول القضايا ، والمكسب الواضح الوحيد هو أن الجمل الثابتة ، من حيث هى كائنات لغوية ، تملك (بنية) مألوفة ، ويمكن فهمها أو ادراكها ، أما القضايا فلا تتمتع بشيء كهذا .

٢ — إن التحول من القضايا التى هى محايدة بين اللغات الجزئية إلى الجمل الثابتة التى هى تركيبات نحوية فى لغة جزئية يثير مشكلات ؛ وإنها لحقيقة تجريبية عن اللغات إنها قابلة للترجمة بشكل متبادل ؛ وليس من شك ، كما يؤكد كواين ، فى أن هناك شكوكًا معقولة حول الدقة التى يمكن بها نقل المحتوى التجريبى من لغة إلى أخرى ، ولكن لا يشك المرء فى أن نقلاً ما يكون ممكنًا ؛ ويظهر اعتراض على افتراض أن الجمل الثابتة هى حوامل الصدق الوحيدة مفاده أن الجمل المتكافئة فى اللغات المختلفة يمكن أن تكون متكافئة بمقتضى محتوى معرفى مشترك من دون أن يملك هذا المحتوى ذاته قيمة صدق ، ودعنا نفترض أن الجمل الثابتة ممكنة ، وأن س١ هى جملة فى اللغة العربية تكون صادقة لحالة معينة هى (ص) ، وأن س٢ و س٣ جملتان فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، وهما صادقتان أيضًا بالنسبة لـ (ص) ، وطالما أن س١ ، س٢ ، س٣ لها محتوى معرفى مشترك هو (ع) والذى بمقتضاه تكون قابلة للترجمة بشكل متبادل فيما بينها ، فلماذا لا نقول بأن (ع) صادق بالنسبة لـ (ص) ؟ وبالفعل يبدو (ع) على أنه قضية فى شكل مختلف إلى حد ما ؛ وهكذا حتى لو كانت الجمل الثابتة ممكنة ، فلا يبدو أنها تمكننا من الاستغناء عن القضايا ؛ وطالما أن هذا هو الهدف الأساسى من وراء افتراض هذه الجمل ، فإن الافتراض يفقد هدفه ؛ وكون افتراض الجمل الثابتة مطلوبًا أم غير مطلوب يعتمد على الإطلاق على ما إذا كنا نقبل حجج كواين الخاصة باللاتحديد فى الترجمة والصعوبات الداخلة فى مفهوم الترادف ، ولكن حتى لو قبلنا هذه الآراء ، فلا يمكن إنكار أن اللغات قابلة للترجمة بشكل متبادل بدرجة ما ، والمحتوى المعرفى المشترك الضرورى لهذا هو كل ما نحتاج إليه لإعادة تقديم القضايا ، وبالتالى يصير افتراض الجمل الثابتة غير ضرورى .

وعلى الرغم من أننا يجوز أن نتفق مع « اكونور » فى الجزء الأول من انتقاداته ، فإننا لا نوافقه على ما يندرج تحت الجزء الثانى ، لأنه بدلا من أن يقدم توضيحًا مقنعًا لفكرة القضية ، يقدم فكرة المحتوى المعرفى المشترك التى يقول إنها تبدو قضية فى شكل

مختلف ، وهو بذلك لا يحل المشكلة وإنما يطرحها بصيغة أخرى ؛ ونقول على خلاف « اكونور » بأننا لو سلمنا بدعوى اللاتحديد فى الترجمة ، فلا يوجد مجال لتقديم القضايا بأية صورة كانت ، ولقد أوضحنا ذلك فيما سلف ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن الجمل الثابتة تكتسب معقولية من الطريقة التى سبق أن قبلناها لتصوير المعنى ، أى المعنى من حيث هو استعمال ، لأن معظم الخلط الخاص بالقضايا هو اعتبار المعانى والقضايا كائنات قصدية ، ولكن نظرية الاستعمال فى المعنى تكشف عن أن الغالبية العظمى من التعبيرات لا تسمى موضوعًا يتجاوز نطاق اللغة ، بل تقوم بدور أو وظيفة فى اللغة ؛ وعندما نتعلم معنى التعبير ، فإننا نعرف كيفية استعماله فى هذه الأدوار ، ومن ثم فإن فهم معنى التعبير هو معرفة القواعد التى تتحكم فى استخدامه فى الأنماط اللغوية المتباينة مثل الاستفهام والتقرير والتمنى وغيرها ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الضلال والتضليل القول مع الفيلسوف الواقعى (بالمغزى الميتافيزيقى) إن المعانى تمثل نوعًا معينًا من كائنات لازمانية تدعى القضايا وتقطن فى العالم الثالث ، إذ لو كان معنى التعبير يكمن فى القواعد التى تتحكم فى استعماله ، فإن المعنى فى هذه الحالة يكون عاديًا وليس خفيًا .

٥ – ٢ تعريف كواين للحقيقة المنطقية

قدم كواين فى مقالة « الصدق بالمواضعة » – التى ظهرت أولاً فى سنة ١٩٣٦[١] – بعض الإفكار التهميدية للحقيقة المنطقية ، من بينها أن التعبير يقال بحيث يظهر « بصورة فارغة » vacuously فى عبارة معينة إذا كان تعويضه فى ذلك المكان بأى تعبير آخر مقبول بصورة نحوية يترك صدق العبارة وكذبها دون تغيير ؛ وبالنسبة لأية عبارة تنطوى على بعض التعبيرات بصورة فارغة توجد فئة من العبارات ، القابلة للوصف على أنها « تنوعات فارغة » للعبارة المعطاة ، والتى تشبهها فيما يتعلق بالصدق والكذب ، وتشبهها أيضًا فيما يتعلق بهيكل معين للبنية الرمزية ؛ وأن التعبير يقال بحيث يظهر « بصورة أساسية » essentially فى عبارة إذا كان يظهر فى كل التنوعات الفارغة للعبارة ، أى إذا كان يشكل جزءًا من الهيكل المشار إليه[٢] .

إننا لو تناولنا بعض الأمثلة من قبيل « بروتس قتل قيصرًا أو بروتس لم يقتل قيصرًا »

---

(١) - in O.H. Lee (ed.), Philosophical Essays for A. N. Whitehead, New York: Longmans, 1936.

(٢) - W. of P. & O. E., p. 73.

و« كل إنسان إنسان » فى محاولة لتجسيد تلكم الأفكار التمهيدية ، لوجدنا ضرورة التمييز بين نوعين من التعبيرات أو الكلمات ؛ الكلمات المنطقية مثل « أو » و « لم » فى المثال الأول ، و« كل » و« يكون » المستترة فى المثال الثانى ، والكلمات اللامنطقية أو إن شئت قل الوصفية مثل « بروتس » و « قتل » و « قيصر » فى المثال الأول ، و« إنسان » فى المثال الثانى ؛ وطالما أننا نقوم باستبدال جميع الكلمات الوصفية الواردة فى عبارة معينة بكلمات وصفية أخرى وتظل هذه العبارة صادقة ، فإن الكلمات الوصفية تظهر فى هذه العبارة « بشكل فارغ » على حين تظهر الكلمات المنطقية « بشكل أساسى » ، وتسمى العبارة فى هذه الحالة باسم الحقيقة المنطقية ؛ وهكذا نحلل فكرة الحقيقة المنطقية إلى عناصرها ، كما يحلل الكيميائى مادة معينة ليرى من أى العناصر تتكون ، وقد تبين لنا أن الحقيقة المنطقية تتركب من عنصرين أساسيين هما : الكلمات المنطقية ، والكلمات اللامنطقية أو الوصفية .

ويمكن أن نكشف عن طبيعة الحقيقة المنطقية بصورة أكثر وضوحًا عن طريق إمعان النظر فى المثال الأول :

بروتس قتل قيصرًا أو بروتس لم يقتل قيصرًا .

وصيغة هذه العبارة هى :

ق أو لا ق .

تتميز هذه العبارة بأنها تظل صادقة مهما تكن التغيرات التى نضعها فى مكان الأجزاء غير المنطقية ، وهذه الأجزاء غير المنطقية فى العبارة السابقة يوضحها الرمز (ق) ، ومهما تكن الجملة التى نضعها مكان (ق) ، أى (بروتس قتل قيصرًا) ، فسوف تظل العبارة الناتجة المركبة صادقة ؛ ولا تتمتع الحقائق غير المنطقية بهذه الخاصية ، ولنتأمل العبارة (بروتس قتل قيصرًا أو بورشيا قتلت قيصرًا) ، نجد أنها صادقة طالما أن أحد البديلين — وهو هنا البديل الأول — صادق على الأقل ، وصورتها (ق أو ك) ؛ أما إذا غيرنا (بروتس قتل قيصرًا) ووضعنا بدلاً منها الجملة الكاذبة (كالبورنيا قتلت قيصرًا) ، فإن الفصل التالى (كالبورنيا قتلت قيصرًا أو بورشيا قتلت قيصرًا) يكون كاذبًا ؛ وبعبارة أخرى لا يمكن تغيير الحقيقة المنطقية إلى كذب عندما نغير التعبيرات غير المنطقية التى تتضمنها على حين يمكن تغيير الحقيقة العادية إلى ذلك[1] ؛ وعلى هذا النحو يكون أساس التفرقة بين الحقائق

---

(١) - Orenstein, A., Op. Cit., pp. 90-91.

المنطقية والحقائق العادية هو أن الحقائق المنطقية تعتمد على الأدوات المنطقية اعتمادًا أساسيًا ، ولا غرو بعد ذلك أن يقال إنها صورية أو تعتمد على صورتها المنطقية .

ولقد صاغ كواين فكرته عن الحقيقة المنطقية عن طريق القول بأن الدور الذى تقوم به الكلمات المنطقية هو « دور أساسى » على حين أن الدور الذى تقوم به التعبيرات غير المنطقية هو دور « المتنوعات الفارغة » ، فنراه يقول : « تتمتع العبارة الصادقة منطقيًا بالخصوصية الآتية : إن الأدوات الأساسية من قبيل « يكون » و « ليس » و « واو العطف » و « أو » و « إلا » و « إذا » و « إذن » و « لا » و « بعض » و « كل » وهلم جرا ، تظهر فى العبارة بهذه الطريقة إلى درجة أن العبارة تكون صادقة بشكل مستقل عن مقوماتها الأخرى ، وبالتالى تأمل المثال الكلاسيكى :

١ - إذا كان كل إنسان فانيًا ، وكان سقراط إنسانًا ، كان سقراط فانيًا . تجد أن هذه العبارة ليست صادقة فحسب ، بل هى صادقة صدقًا مستقلاً عن المكونات « إنسان » و « فان » و « سقراط » ؛ إذ أن تبديل هذه الكلمات لن يكون قادرًا على تحويل العبارة إلى كذب ، وأية عبارة أخرى فى الصيغة :

٢ - إذا كان كل ... يكون ... و ... يكون ... ، إذن ... يكون ...

تكون عبارة صادقة بصورة متساوية ، طالما فقط أن الفراغين الأول والرابع قد شغلا بطريقة متماثلة ، والثاني والأخير ، والثالث والخامس ؛ والحقيقة المنطقية البسيطة هى :

٣ - سقراط فان أو سقراط ليس فانيًا .

إذ أن تبديل (سقراط) و (فان) يعجز عن أن يجعل العبارة كاذبة .

ويجوز القول بأن الكلمة تظهر (بصورة أساسية) فى عبارة إذا كان استبدال الكلمة بالكلمة أخرى قادر على تحويل العبارة إلى كذب ، وعندما لا يكون هذا هو الواقع ، فربما يقال إن الكلمة تظهر « بصورة فارغة » ؛ وبالتالى تظهر الكلمتان « سقراط » و « إنسان » بصورة أساسية فى العبارة « سقراط إنسان » ، طالما أن العبارتين « لولو إنسان » و « سقراط فرس » كاذبتان ، ومن ناحية ثانية تظهر الكلمتان « سقراط » و « فان » بصورة فارغة فى (٣) ، وتظهر الكلمات « سقراط » و « إنسان » و « فان » بصورة فارغة فى (١) ؛ الحقائق المنطقية ، إذن ، قابلة للوصف على أنها تلك الحقائق التى تلمح فيها الأدوات الأساسية فقط إلى أنها تظهر مبكرًا بصورة أساسية »[1] .

---

(١) - M. L., pp. 1-2.

هذا هو تعريف كواين للحقيقة المنطقية ، وهذا التعريف موجود فى كتابات بولزانو(١) BernardBolzano (١٧٨١ – ١٨٤٨) و أجدو كيفتش(٢) KazimierzAjdukiewicz (١٨٩٠ – ١٩٦٣) ، ويشير Orenstein إلى أن كواين لم يكن على وعى بتصور بولزانو للحقيقة المنطقية عندما صاغ تصوره الخاص بها(٣) ، على حين يقول كارل لامبرت وجوردن بريتان إن كواين قد عدل المقياس العام للحقيقة المنطقية ، الذى وضعه فى الأصل بولزانو ، وبعثه من جديد وأعاد صياغته فى كتابه « المنطق الرياضى » سنة ١٩٥١(٤) ؛ والحق أن كواين لا يشير إلى بولزانو فى كتابه « المنطق الرياضى » ، ولا يشير إليه فى مقاله « عقيدتان للتجريبية » وكذلك لا يشير إليه فى مقالته « الصدق بالمواضعة » وهى المواضع المبكرة التى عالج فيها كواين فكرة الحقيقة المنطقية ، وإنما جاءت الإشارة إلى بولزانو فى مقالة « كارناب والصدق المنطقى » ، إذ نرى كواين فى هذه المقالة بعد أن يشير إلى مجموعة من الكلمات المنطقية ، يقدم معيارًا للحقيقة المنطقية يقول فيه : « الحقائق المنطقية ، إذن ، هى تلك الجمل الصادقة التى تتضمن كلمات منطقية فقط بصورة أساسية » (٥) ؛ ثم يضيف كواين أن ما يعنيه هذا هو أن أية كلمات أخرى ، مع أنها ربما تظهر أيضًا فى حقيقة منطقية مثل « بروتس » و « قتل » و « قيصر » فى « بروتس قتل قيصرًا أو بروتس لم يقتل قيصرًا » ، يمكن تغييرها متى شاء المرء دون أن يحدث ذلك كذبًا ، ويقرر كواين أن صياغة معيار الحقيقة المنطقية على هذا النحو تعود بالفعل إلى بولزانو(٦) ، صياغة تخفق فى أداء هدفها المروم إذا فهمنا العبارة « يمكن تغييرها متى شاء المرء » بصورة جادة أكثر مما ينبغى ، أو إن شئت قل إن الصياغة لا تفى بغرضها

---

(١) فيلسوف ورجل منطق وعالم رياضيات نمساوى ، عمل استاذًا لفلسفة العقيدة فى براغ فى الفترة ما بين ١٨٠٥ – ١٨٢٠ ، وكان على رأس الفلاسفة والرياضيين الذين اسهموا بمحاولات مبكرة فى تطوير المنطق الرمزى .

(٢) من أعضاء المدرسة البولندية فى المنطق والفلسفة .

(٣) - Orenstein, A., Op. Cit., p. 92.

(٤) كارل لامبرت وجوردن بريتان : مدخل إلى فلسفة العلوم ، ترجمة د . شفيقة بستكى ، مراجعة د . فؤاد زكريا ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دون تاريخ ، ص ٢٩ .

(٥) - W. of P. & O. E., p. 103.

(٦) - Ibid, p. 103, and see Hinman, P. G. and J. Kim and S.P. Stich, "Logical Truth Revisited", Journal of Philosophy, Vol. LXV, No. 17, 1968, pp. 495-501, and see also: R.M. Chisholm "Reason and the A priori", in Philosophy by R.M. Chisholm (and others) Englewood Cf fs, New Jersey: Prentice-Hall, 1964, pp. 291-292.

ما لم نضع شرطًا مقيدًا فيما يختص باتساق عمليات الاستبدال التى نقوم بها للتعبيرات غير المنطقية ، وبالتالى يجوز أن نقدم صياغة منقحة على النحو الآتى : الحقيقة المنطقية هى العبارة الصادقة التى تظهر فيها الكلمات المنطقية بصورة أساسية ، والتى تظل صادقة تحت كل التفسيرات الجديدة لمكوناتها الأخرى غير الكلمات المنطقية ، شريطة أنه إذا وردت إحدى الكلمات (أو أحد التعبيرات) ، التى نجرى عليها عملية الاستبدال ، أكثر من مرة فى العبارة الأصلية الصادقة ، فإننا نقوم بنفس الاستبدال لكل ورود من حالات ورودها .

وتكمن إحدى مزايا معيار بولزانو - كواين للحقيقة المنطقية فيما لم يقله ، وذلك لأن كثيرًا من كتب المنطق توضح الحقيقة المنطقية والأفكار المرتبطة بها فى حدود الجهة ، فيقال إن الحقائق المنطقية تتميز بكونها « ضرورية » أو « صادقة فى جميع العوالم الممكنة » ؛ ولقد ذهب ليبنتز إلى أن الحقيقة المنطقية هى التى تكون صادقة فى كل العوالم الممكنة ، والحق أن فكرة العالم الممكن فكرة صعبة ، ويتجه فلاسفة المنطق المعاصرون نحو تصوير العالم الممكن كفئة من الأشياء مع خصائصها ، وبناءً على ذلك فإن أحد العوالم الممكنة هو العالم الذى لا يحتوى على شىء ، وفى السنوات الأخيرة قام علماء المنطق من ذوى الاتجاهات الفلسفية ببناء أنساق منطقية تصدق مبرهناتها على جميع العوالم الممكنة بما فى ذلك العالم الفارغ ؛ على أن هذه الصياغة الجديدة للمنطق وفقًا لوصف ليبنتز للحقيقة المنطقية بأنها الصدق فى « كل » العوالم الممكنة ، من شأنها أن تؤدى إلى استبعاد قضايا مثل « يوجد شىء فى هوية مع ذاته » بل وكل قضية تبدأ بلفظ « يوجد كذا » من ميدان الحقيقة المنطقية ؛ فالقضية المعينة لن تكون صادقة إلا فى « عوالم » تتكون من عضو واحد على الأقل ولكنها ستكون كاذبة فى العالم الفارغ ؛ وبما أن معيار الحقيقة المنطقية المتربط باسمى كواين - بولزانو لا يستبعد تلك القضايا من فئة الحقائق المنطقية ، فلا يمكن اعتباره صيغة معادلة للوصف الذى قال به ليبنتز[(١)] ؛ بالإضافة إلى التصور السابق للحقائق المنطقية على أنها صادقة فى جميع العوالم الممكنة ، تعرف الحجة الصحيحة على أنها الحجة التى إذا كانت مقدماتها صادقة فإن النتيجة « لابد من أن تكون صادقة » أو « لا يمكن بأية حال » أن تكون كاذبة ، وهذه التقريرات تجعل المنطق الأساسى يفترض منطق

(١) كارل لامبرت وجوردن بريتان ، مدخل إلى فلسفة العلوم ، ص ١٩ .

الجهة ؛ ولكن تعريف كواين للحقيقة المنطقية يترك المنطق مستقلاً فى هذا الجانب ، ويشك كواين أيضًا فى تفسيرات الضرورة والأفكار المتعلقة بها ؛ والحجة الصحيحة ، فيما يرى ، هى الحجة التى تستلزم المقدمات فيها النتيجة لزومًا منطقيًا.

ويحسن بنا أن نشير إلى ثلاثة ايضاحات أساسية تتعلق بتعريف الحقيقة المنطقية الذى وضحنا أبعاده ؛ أولاً ، من الصعوبة بمكان تقديم معيار دقيق للتمييز بين الكلمات المنطقية والوصفية ؛ ثانيًا ، قد يتبادر إلى الذهن من طريقة تحديدنا لمعيار الحقيقة المنطقية أنه من الضرورى أن تشتمل جميع العبارت على كلمات وصفية ومنطقية ، ولكن لابد من الإشارة إلى أن هناك حقائق منطقية لا تشتمل على كلمات منطقية من قبيل « يوجد شىء مطابق لنفسه » و « كل شىء مطابق لنفسه » ؛ ثالثًا ، إن المعيار المشار إليه للحقيقة المنطقية لا يفرض علينا قبول التصور القائل بأن الحقائق المنطقية هى صادقة فقط بمقتضى معانى الكلمات التى تشتمل عليها ، ولهذا السبب فهى يقينية[1] . طالما أن مبدأ الاستبدال يخفق فى سياقات الجهة ، بمعنى أننا نجد داخل مجال عامل اجراء الجهة أن استبدال حد جزئى بحد جزئى آخر يدل على نفس الشىء يمكن أن يغير من قيمة صدق الجملة الناتجة .

ولو وضعنا انتقادات كواين لمنطق الجهة جنبًا إلى جنب مع اعتراضه على القضايا ، لتبين لنا فى وضوح إلى أى حد يتمسك كواين بوجهة النظر القائلة بأن اللغة الماصدقية extensional كافية للعلم ولتفسير المسائل الفلسفية ؛ فقد أثبت كواين أن القضايا تحجب الحقائق التى نسلم بالقضايا بغية توضيحها أو أننا نستطيع توضيح هذه الحقائق دون الاستعانة بالقضايا ، وتخلى كواين عن القضايا الواقعة فى الجانب المفهومى والتمس بديلاً ماصدقيًا هو الجمل الثابتة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن حجج كواين ضد نظريات المنطق المفهومى تعتمد على إثبات إما أنها تدخل ضمن المنطق الماصدقى ، أى أن هذه النظريات المفهومية تقبل إعادة صياغة ماصدقية ، وفى هذه الحالة لا يقتضى الأمر منطقًا متميزاً بل يتطلب فحسب توسيعًا لمعجمنا ، أو أنها لا تلقى إعادة صياغة ماصدقية ، وهنا تواجه النظريات المفهومية مشكلات منطقية وفلسفية لا سبيل إلى التغلب عليها .

ودقق النظر مرة أخرى فى الملامح العامة لفلسفة اللغة عند كواين ، تجد رفضًا للأفكار والكائنات العقلية ، وتأييدا للسلوك العلنى القابل للملاحظة بشكل بين ذاتى ؛ وهناك

(١) كارل لامبرت وجوردن بريتان ، مدخل إلى فلسفة العلوم ، ص ١٢ .

انكار للغة الخاصة ، وإثبات للسمة الاجتماعية للغة ؛ وهناك رفض للترادف فى علم الدلالة العقلى ، وابراز لعلاقة التكافؤ الدلالى من منظور سلوكي ، وهناك استبعاد للتصور الديكارتى فى فلسفة العقل والنظر بدلاً من ذلك إلى العقل بوصفه استعدادًا للسلوك ؛ زد على ذلك هيمنة مفاهيم المثير ، والإثارة ، وشروط الصدق ، والاستعداد للسلوك ، وجمل الملاحظة ، وجمل المناسبة ، والاستعمال ، والمعنى المعرفى ، وغيرها من المفاهيم التجريبية السلوكية ؛ وإن دل هذا على شيء فإنما يدل أوضح دلالة على أمرين أولهما نزعة كواين إلى التوكيد على اللغة الماصدقية فى فلسفة اللغة ، وثانيهما انسجام فلسفة اللغة وفلسفة المنطق عند كواين واعتمادهما على أساس مشترك .

خاتمــة

بعد هذا الحل والترحال فى فلسفة كواين ، يحسن بنا أن نسعى إلى تأصيل الأفكار التى ضمتها هذه الفلسفة ، والتى ربما بدت للنظرة العجلى متفرقة على طول البحث ، لنردها إلى الينبوع الذى انبثقت منه ، ونحن فى ذلك نشبه من يتعمق ثمار شجرة ليصل إلى جذورها التى انبثق منها جذعها ، ثم من الجذع تفرعت الفروع التى أورقت وأثمرت ، فما هى وجهة نظر كواين التى تسلك فلسفته كلها فى عقد واحد ؟

ذهب « ريتشارد شولدنفرى » إلى أن الطريقة التنويرية للنظر إلى كتاب « الكلمة والموضوع » هى النظر إليه بوصفه قطعة فلسفية تنتمى إلى التقليد الكلاسيكى بمعنى أنه يقدم رؤية معينة للعالم ، وأن أفضل طريقة لوصف هذه الرؤية هى القول بأنها رؤية مادية لا ديكارتية « anti-Cartesian materialist» وسبب وصفها كذلك هو أنها تدعى زعمين ؛ أولاً ، هناك نوع واحد فقط بشكل أساسى لكائن فى العالم ، وهذا النوع هو النوع الذى يدرسه عالم الطبيعة ونعنى به الموضوعات الفيزيائية ؛ ثانيًا ، هناك نمط واحد من المعرفة فى العالم وهو النمط الذى نجده عند علماء الطبيعة[1] ؛ وهكذا يحدد شولدنفرى رؤية كواين للعالم فى إطارين هما الوجود والمعرفة .

ويتضح الزعم الأول كأحسن ما يكون الوضوح عن طريق مقابلته بالدعاوى التى يضعها الفلاسفة الآخرون ، والدعاوى التى يتعارض معها الزعم الأول هى دعاوى من قبيل العقول ، والأفكار ، والمفاهيم ، والمقاصد والمعانى ، ويعتقد كواين أن الشيء المفيد فى الحديث عن مثل هذه الكائنات يمكن أن يظفر به علم النفس السلوكى الذى ينظر إليه كواين على أنه الفيزياء للناس ، وهذا يدخل كواين فى نزاع مع الانطولوجيين من النوع الديكارتى ، وذلك فضلاً عن التقاليد القائلة بوجود نفس مستقلة عن الجسد استقلالاً أساسيًا ، أو تقليد فريجه فى علم الدلالة[2] .

---

(١) - Schuldenfrei, R., "Quine in Perspective", The Journal of Philosophy, Vol. LXIX, No. 1, 1972, p.5.

(٢) - Ibid, p. 6.

وبقدر ما برع الفلاسفة فى ابتكار أنواع مختلفة من الكائنات ، فإنهم قد برعوا فى ابتكار أنماط مختلفة من المعرفة ؛ وطالما أن كواين يرفض الكائنات الذهنية على وجه التحديد ، فلا غرو أن يرفض الفصل فى المعرفة الذى سيأتى من التسليم بعلم خاص بما هو ذهنى ، وهو يرفض أيضًا التمييز فى أنماط المعرفة والذى يتأسس على الزعم بأن بعض المعرفة لها محتوى على حين لا يبدو بعضها الآخر كذلك ، كما يرفض الاختلافات فى المعرفة القائمة على أساس الاختلافات فى وضع الجهة مثل التى يقبلها الفلاسفة الذين يعتقدون فى الصدق الضرورى ، وهو يرفض الاختلافات فى المعرفة القائمة على اختلافات « مزعومة » فى أصل هذه المعرفة ، مثل الاختلافات التى يقبلها أولئك الذين يؤمنون بالمعرفة « الأولية » ، وهو يرفض الاختلافات فى المعرفة المرتبطة بالدعاوى القائلة بأن بعض أنواع المعرفة مضمونة بصورة أساسية أكثر من الأنواع الأخرى ، مثل الأنواع التى يقبلها أولئك الذين يعتقدون فى يقين تقارير الحس أو يقين المنطق[١] .

صحيح أن كواين ينتمى إلى المادية ويرفض المثالية ، كما أشار شولدنفرى ، وأنه لا يعترف بوجود العقول والكئنات العقلية بأى مغزى آخر سوى الاعتراف بها بوصفها صفات أو فاعليات تنسب إلى الأشخاص ، وأن الموضوعات الفيزيائية حقيقية وتوجد بشكل مستقل عنا ، ولكننا نضيف إلى رأى شولدنفرى أن كواين لا يسلم بوجود الموضوعات الفيزيائية فحسب ، بل يسلم أيضًا بوجود موضوعات مجردة من قبيل الفئات classes .

لقد كتب كواين فى سنة ١٩٤٧ بالاشتراك مع نيلسون جودمان : « نحن لا نعتقد فى كائنات مجردة ، وليس هناك من يفترض أن الكائنات المجردة – الفئات والعلاقات والخصائص ، الخ – توجد فى مكان وزمان ، ولكننا نعنى شيئًا أكثر من هذا ؛ إذ أننا ننكرها على الجملة ... ونعد أى نسق يريد الكائنات المجردة غير مقنع باعتباره فلسفة نهائية »[٢] ، ولكن كواين تخلى عن هذا الاتجاه الاسمى فى كتابه « الكلمة والموضوع » ١٩٦٠[٣] ، وقبل الفئات فى نظريته الانطولوجية وذلك بسبب قوتها التفسيرية وقدرتها على الوفاء بالمطالب الرياضية فى النسق الذى نقدمه عن العالم الطبيعى .

---

(١) -Ibid, p. 6.

(٢) - Quine, W. V., and N. Goodman, "Steps Toward a Constructive Nominalism", Journal of Symbolic Logic, 12, 1947, pp. 105 - 106.

(٣) - W. & O., pp. 209 - 210, and see also Harman, G., "Quine on Meaning and Existence, 11", The Review of Metaphysics, Vol. XXI, No. 2, 1967, pp. 358-359.

على أن الشىء اللافت للنظر فى تحديد شولدنفرى لرؤية كواين للعالم هو أنه تحديد سلبى فى جانب كبير منه وليس إيجابيًا ، طالما أنه اعتمد فى تحديدها على مقابلتها بما يخالفها ، فالقول بأنها مادية لا ديكارتية لا يكفى لحدها بدقة ، ومن ثم يتعين علينا أن نبحث عن محاولة أخرى لوصف وجهة النظر التى تشكل أساس فلسفة كواين ، وها هى « مريام سولومون » تولى هذه المسألة عناية فائقة فى بحثها « وجهة نظر كواين »[(١)] وترى أن هناك وجهة نظر وحيدة تكمن تحت جميع نظريات كواين وتنتجها ، ابتداءً من الدعاوى المحددة المتعلقة باللاتحديد ، والتحديد الناقص ، والصدق إلى الدعاوى العامة عن كونه صاحب نزعة فيزيائية وسلوكية وتجريبية ، وتسمى وجهة النظر هذه باسم « التجريبية الطبيعية » natural empiricism وتقول : هناك وجهة نظر تمثل لب لباب فلسفة كواين وهى على النحو الآتى : الأشخاص كائنات فيزيائية تكمن حياتهم المعرفية واللغوية فى استجابات لفظية مكتسبة لاثارة حسية ، ويتم اكتساب هذه الاستعدادات اللفظية لغرض واحد هو التنبؤ بشكل ناجح (ومن ثم التحكم) باثارة حسية غير لفظية ؛ ونسق الاستعداد هو فى الوقت نفسه نظرية الشخص عن العالم وعن لغته ، وبعبارة أخرى نشوء اللغة هو نشوء العلم ، ويطمح العلم إلى تفسير التنبؤات ؛ وعلى هذا النحو يكون محتوى الملاحظة للغة هو محتواها الهام ، وتحصل اللغة على محتوى الملاحظة الخاص بها من خلال الاستعدادات المكتسبة لإثارة حسية لفظية ؛ وطالما أن اللغة ترتبط ارتباطًا واسع النطاق هكذا بالوظيفة الإنسانية ، فيجوز إيجاز وجهة النظر بقولنا إن كواين يعتبر الناس نظريات متجولة وينظر إلى النظريات بوصفها أدوات لتوليد التنبؤات[(٢)] ؛ وتسمى « مريام سولومون » وجهة نظر كواين باسم التجريبية الطبيعية لسببين : أولاً ، الدعوى هى أن المرء يطمح فى الحالة الطبيعية – وليس عندما يمارس العلم فقط – إلى توليد تنبؤات ، وبعبارة أخرى نحن تجريبيون بشكل طبيعى ؛ ثانيًا ، يعتنق كواين صورة خاصة من التجريبية ، إذ يرى أن المحتوى التجريبى للغة يكمن فى استعدادات للاستجابة إلى اثارة حسية غير لفظية ، وليس هناك استعانة بخبرة داخلية ، أو شعور أو إحساس ، ويقينًا

---

(١) كتبت مريام سولومون فى ذلك رسالة للدكتوراه غير منشورة بعنوان :

- Quine's Point of View, Harvard, 1986.

(٢) - Solomon, M., "Quine's Point of View", The Journal of Philosophy, Vol. LXXXVI, No. 3, 1989, pp. 128 - 129.

لا توجد محاولة لبناء العالم خارج هذه الخبرة ؛ وترتبط اللغة بالاثارة الحسية عن طريق الاستعدادات أخرى من ارتباطها عن طريق الأفعال القصدية للتسمية ، إن آراء كواين طبيعية تمامًا وبصورة مباشرة(١) .

ويذهب « جبسون » إلى أن آراء كواين الفلسفية تنشأ عن « مبدأ محورى » يطلق عليه اسم « الدعوى السلوكية الطبيعية » naturalistic - behaviorist thesis، ومودى هذه الدعوى أن اللغة متاحة للبحث التجريبى ، وأن السلوك هو مصدر المعطيات لدراسة اللغة(٢) . ويرى جبسون أننا لو استطعنا فهم فلسفة كواين باعتبارها ترتكز على هذه الدعوى المعقولة ، لكان فى وسعنا أن ندافع عن هذه الفلسفة دفاعًا جيدًا .

ولقد وصف « جون مورفى » فلسفة كواين على أنها « تجريبية براجماتية » وذلك فى فصل أفرده لدراسة فلسفة كواين فى كتابه « البراجماتية من بيرس إلى ديفيدسون » ، ووضع له عنوانًا هو « التجريبية البراجماتية مقابل التجريبية الوضعية » ، ويقرر « مورفى » أن الفلسفة التجريبية فى صورة الوضعية المنطقية – وليس فى صورة البراجماتيـة – قـد سيطرت على الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وبالفعل توارت البراجماتية خلال هذين العقدين ، أما فى الخمسينات والستينات فقد اختلف الوضع ، إذ سيطرت خلالهما رؤية كواين للبراجماتية ، أعنى ما يبقى من التجريبية الحديثة حالما نطهرها من عقيدتين هما التمييز الصارم بين الحقائق التحليلية والحقائق التركيبية والنزعة الردية(٣) ؛ والحق أن كواين يشير فى كتاباته المبكرة مثل « عقيدتان للتجريبية » إشارة صريحة إلى قبوله للبراجماتية ، إذ يقول : « والنتيجة الأولى للتخلى عن هاتين العقيدتين (أى التمييز التحليلى – التركيبى ، والنزعة الردية) هى اثارة الضباب على الحد المفترض بين الميتافيزيقا النظرية speculative والعلم الطبيعى ، أما النتيجة الأخرى فهى التحول إلى البراجماتية »(٤) ؛ زد على ذلك تأثر كواين بوجهة نظر ديوى الطبيعية للغة وروٌيته السلوكية للمعنى ، وذلك

---

(١) - Ibid, p. 129.

(٢) - Gibson, R. F., Enlightened Empiricism: An Examination of W. V. Quine's Theory of Knowledge, University of South Florida Press, pp. 1988, 1 - 2.

(٣) - Murphy, J. P., Pragmatism, From Peirce to Davidson, Boulder. San Francisco. Oxford: Westview Press, 1990, p. 81.

(٤) - F.L. P. V., p. 20.

فى مقالة « النسبية الانطولوجية » ١٩٦٨ ، ولكن الشىء الجديد بالملاحظة هو تلاشى مثل هذه الإشارة إلى البراجماتية فى كتابات كواين المتأخرة .

وعلى الرغم من اتفاقنا مع التحديدات السابقة للفكرة الأساسية التى ترتكز عليها فلسفة كواين ، تلك التحديدات التى تتكامل فيما بينها أكثر مما تتنافر بحيث يحق لنا القول بأن كل تحديد منها يصيب جانبًا من الحقيقة ، نقول على الرغم من ذلك ، إلا أننا نميل إلى وصف وجهة نظر كواين المحورية بأنها « تجريبية سلوكية » ، ونحن نفضل هذا الوصف على وصف « مريام سولومون » بأنها « تجريبية طبيعية » وسبب ذلك بسيط وهو أن المذهب الطبيعى ، أو كون فلسفة كواين طبيعية ، يعد جزءًا من مكونات الفلسفة التجريبية كما حددها كواين .

ونحن نميل إلى تسمية فلسفة كواين بأنها « تجريبية سلوكية » لسببين : أولاً ، يحدد كواين بنية التجريبية بعد هيوم فى خمسة معالم حيث ارتقت التجريبية مرتقى صعبًا من التحسين إلى أن بلغت ذروته ، والسبب الثانى أن كواين يستبعد مفاهيم علم الدلالة العقلى ، والعناصر المفهومية فى التجريبية ، ويضع بدلاً منها بدائل سلوكية ، وهو فى ذلك يلتزم ببعض الأفكار السلوكية التقليدية وبخاصة عند سكنر ، ويضيف إليها أفكارًا سلوكية جديدة .

وينظر كواين إلى فلسفته على أنها تمثل ذروة التحسين المشار إليه ، وأسلفنا الإشارة إلى أن المعالم الخمسة التى تميز التجريبية بعد هيوم هى :

١ – التحول من الأفكار إلى الكلمات .

٢ – تحول المركز الدلالى من الكلمات إلى الجمل .

٣ – تحول المركز الدلالى من الجمل إلى أنساق الجمل .

٤ – الواحدية المنهجية ، أى التخلى عن ثنائية التحليلى – التركيبى .

٥ – المذهب الطبيعى ، أى التخلى عن هدف الفلسفة الأولى السابقة على العلم[١] .

ويحدد « مورفى » المعالم السابقة تحديدًا موجزًا بالترتيب على النحو الآتى[٢] :

---

(١) - T. & T., p. 67.

(٢) - Murphy, J. P., Op. Cit., p. 89.

١ – الاسمية المنهجية — Methodological nominalism

٢ – السياقية الانطولوجية — Ontological Contextualism

٣ – الكلية الابستمولوجية — Epistemological holism

٤ – الواحدية المنهجية — Methodological monism

٥ – المذهب الطبيعى الابستمولوجى — Epistemological naturalism

وسبق أن أوضحنا إضافة كواين الحقيقية للفلسفة التجريبية بقدر ما تمثلت فى المعلمين الثالث والرابع ، وسوف نوضح الآن إضافته فى المعلم الخامس ، والتى تجلت فى تناوله لنظرية المعرفة وعلاقة الفلسفة بالعلم ، وتبلورت فى فكرته « تطبيع الابستمولوجيا » ؛ إن المشكلة الأساسية فى نظرية المعرفة هى « معرفتنا بالعالم الخارجى » ، ورأى التجريبيون التقليديون مثل بركلى وهيوم أن هذه المشكلة تفل أول ما تحفل بتسويغ معرفتنا بموضوعات فيزيائية خارجية مثل القلم والكتاب والمكتب وغير ذلك ، ونظر هؤلاء الفلاسفة إلى الخبرة – فى صورة انطباعات أو معطيات حسية – على أنها تشكل معرفة يقينية ، ثم حاولوا إثبات أن كل معرفتنا ترتبط بالخبرة وبذلك تستمد منها تسويغها ؛ إن التجريبى التقليدى يسعى إلى تسويغ المعرفة فى صورتها العادية والعلمية عن طريق افتراض نقطة إشراف ، أى موضع يطل منه على موضوعه ويسيطر عليه ، ونقطة الإشراف هذه هى الفلسفة الأولى التى تشكل مصدرًا لليقين بالنسبة للمعرفة بعامة والعلوم الطبيعية بخاصة ، إذ يقف الفيلسوف التقليدى بعيدًا عن هذه العلوم ويجيز انجازاتها بالقياس إلى خبرته .

ويرفض كواين هذه الجانب من التجريبية التقليدية ، وينظر إلى مشكلة معرفتنا بالعالم الخارجى باعتبارها مشكلة ترتبط بعملية تعلم اللغة وتعلم الجانب الإشارى منها على وجه الخصوص ، وبعبارة أخرى يصبح السؤال الأساسى فى المعرفة هو : كيف نتعلم الكلام عن الأشياء الخارجية وكيف نشير إليها ؟ وبهذا يستبعد كواين الفلسفة الأولى ويركز بدلاً منها على النشوء النفسى للإشارة .

حاول التجريبى التقليدى تفسير الارتباط بين الخبرة ودعاوى المعرفة ، فزعم هيوم مثلاً أن جميع أفكارنا هى صور لانطباعاتنا الحسية ، وإذا وضعنا ذلك بصيغة لغوية جاز

لنا أن نقول إن دعاوى المعرفة تقبل الترجمة إلى جمل الملاحظة ، وهذا هو ما انتهت إليه التجريبية المنطقية وذهبت إلى امكان معالجة المحتوى التجريبى للجمل جملة بجملة ، وأضافت أن الجملة هى وحدة المغنى أو أنها الوسيلة الأساسية للمعنى وليست الكلمة ، وأنه بذلك يمكن اختبار الجمل وهى فرادى للتأكد من صدقها ومعناها ؛ ومن نافلة القول أن فريجه ورسل وفتجنشتين ومدرسة اكسفورد قد صبوا جميعًا تحليلاتهم على الجمل أحرى من الكلمات ، أما كواين فيظهر اخفاق هذه الخطة التجريبية التقليدية اعتمادًا على نزعة الكلية أو الكلية الابستمولوجية إذا استخدمنا تعبير « مورفى » ، والتى تبعًا لها يتعذر معالجة المحتوى التجريبى للجمل واحدة بواحدة سواء عن طريق التعريف أو الترجمة ، وإنما يعالج ذلك المحتوى بالنسبة لنظرية كاملة أو نسق من الجمل ، وعندما يدرس كواين علاقة المعرفة بجمل الملاحظة يركز على التطور السيكولوجى واللغوى للشخص العارف ، وهو يتتبع المهارات اللغوية التى يمكن أن يكتسبها شخص معين تتبعًا موضوعيًا وعلميًا إلى حد كبير وبخاصة المهارات المتضمنة فى الحديث عن العالم ومعرفته ، ولقد تبين هذا فى الفصل الثانى ، ووضحنا كيف أن جمل الملاحظة تمثل نقاط البداية فى تعلم اللغة بالإضافة إلى أنها تمثل نقاط الفحص فى النظرية العلمية .

وبالإضافة إلى رفض كواين فكرة الفلسفة الأولى والتعويل بدلاً من ذلك على اكتساب اللغة وجذور الإشارة ، فإن كواين يعالج بعض الأفكار فى التصور التجريبى التقليدى للمعرفة مثل « الخبرة » و « الملاحظة » ؛ وفى محاولة لتفادى التعبيرات الاصطلاحية الذهنية ، يركز كواين على عنصرين بديلين « للخبرة » و « الملاحظة » ، وهنا يتضح السبب فى أننا نفضل وصف فلسفة كواين بالسلوكية بالإضافة إلى كونها تجريبية ، ففى مقابل « الخبرة » يوجد حدث فيزيائى يصطدم بالحواس وهو « المثير » أو الاثارة ، وفى مقابل « الملاحظة » يقدم كواين « جملة الملاحظة » ويعرفها تعريفًا سلوكيًا أوضحناه فيما سبق .

ولو أننا عقدنا مقارنة بين وجهة نظر كواين فى المعرفة ووجهة نظر غيره من التجريبيين القدماء والمحدثين على السواء ، لأدركنا مدى تفوق وجهة نظره ، فيما يخص التجريبى التقليدى نجد أن تقريره الابستمولوجى يلزمه من الناحية الانطولوجية بوجود ما هو خاص وغير علمى ولا سبيل إلى اختباره أو تحديده وبموضوعات ذهنية من قبيل الأفكار

والانطباعات كما تتجسد فى فلسفة هيوم مثلاً ، أما تقرير كواين الابستمولوجى فيتطلب انطولوجيا تتألف من أحداث فيزيائية عبارة عن تأثيرات عصبية يجسدها مفهوم المثير ، وبالإضافة إلى المثير توجد كائنات لغوية تتمثل فى جمل الملاحظة ؛ ولقد فطن التجريبيون المحدثون إلى المشكلات الانطولوجية التى تواجه تقرير أسلافهم من التجريبيين التقليديين والناشئة عن التناول الذهنى لمشكلات المعرفة ، وحاولوا تفاديها عن طريق اقتراح جملة الملاحظة ، والحق أنهم قد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، غير أن المقارنة التى عقدناها بين معالجتهم لجملة الملاحظة ومعالجة كواين لها ، أظهرت لنا فى وضوح المزايا التى تتمتع بها معالجة كواين وهى أن صياغته لجمل الملاحظة أقل دوجماطيقية ووضعية وأكثر ووضحًا وتحديًدا ؛ ولقد أسلفنا توضيح هذه المزايا الثلاث بشىء من التفصيل فى الفصل الثانى .

وإذا كان كواين يرفض الفلسفة الأولى تبعًا لمذهبه الطبيعى ، فإنه يروم تناول الابستمولوجيا فى حدود علم النفس وعلم اللغة وفى هذه الحالة تعالج الابستمولوجيا باعتبارها جزءًا من العلم الطبيعى ، يقول كواين : « إن الابستمولوجيا ... تقع ببساطة فى موضع كفصل من علم النفس ومن ثم من العلم الطبيعى ، إنها تدرس ظاهرة طبيعية ، أى تدرس موضوعًا إنسانيًا فيزيائيًا »[1] ؛ ولقد منح هذا الموضوع الإنسانى مدخلاً مضبوطًا بصورة تجريبية يتمثل فى المؤثرات الحسية ، ثم يقدم هذا الموضوع بعد ذلك مخرجًا يجئ على هيئة وصف للعالم الخارجى ، والعلاقة بين المدخل الضئيل والمخرج الغزير هى التى ندرسها لنفس الأسباب التى من أجلها ندرس الابستمولوجيا ألا وهى إدراك كيفية ارتباط الدليل بالنظرية ، وبأية طريقة تتجاوز نظرية الطبيعة عند المرء أى دليل متاح ، يقول كواين : « لقد طمحت الابستمولوجيا القديمة إلى أن تتضمن العلم الطبيعى بمغزى ما ؛ إذ رغبت فى أن تقيم بنيانه من المعطيات الحسية بطريقة أو بأخرى ، وعلى عكس ذلك ، فإن الابستمولوجيا فى وضعها الحديث متضمنة فى العلم الطبيعى بوصفها فصلاً من علم النفس ، ولكن التضمن القديم يظل صحيحًا أيضًا بطريقته ، ونحن ندرس كيفية تسليم الموضوع الإنسانى لدراستنا بالأجسام ، واسقاط الفيزياء لديه من معطياته ، وندرك أن وضعنا فى العالم يشبه وضعه تمامًا ، ومن ثم فإن عملنا

(١) - O. R. & O. E., p. 82.

الابستمولوجى وخلاله علم النفس هو فصل أساسى ، وكل العلم الطبيعى الذى فيه علم النفس هو كتاب أساسى ، وجميع هذا هو تركيبنا أو اسقاطنا الخاص من مؤثرات تشبه المؤثرات التى واجهناها عند موضوعنا الابستمولوجى ، وهكذا يوجد تضمن متبادل ، وإن كان تضمنًا بطرائق مختلفة : فالابستمولوجيا فى العلم الطبيعى والعلم الطبيعى فى الابستمولوجيا »[١] ؛ ويقرر كواين فى موضع آخر ، لا ينكر المذهب الطبيعى الابستمولوجيا ، بل يجعلها مشابهة لعلم النفس التجريبى ، فالعلم ذاته يخبرنا بأن معلوماتنا حول العالم مقصورة على المؤثرات التى تقع على حواسنا ، ومن ثم فإن السؤال الابستمولوجى يكون بدوره سؤالاً داخل العلم ، أى السؤال كيف استطعنا ككائنات بشرية أن ننجح فى الوصول إلى العلم من هذه المعلومات المحددة ؛ ويواصل باحثنا الابستمولوجى العلمى هذا البحث وينشر تقريرًا يتضمن قدرًا كبيرًا يتعلق بتعلم اللغة »[٢] .

والنتيجة الطبيعية المترتبة على دعوى تطبيع الابستمولوجيا عند كواين هى أننا لا نستطيع أن نقف بمعزل عن رؤيتنا العلمية للعالم ونصدر أحكامًا فلسفية فيما يتعلق بوجود الأشياء وكيفية معرفتنا لها ، لأن رؤية الفيلسوف عند كواين تعد امتدادًا لرؤية العالم ؛ ولتوضيح هذه النقطة يلجأ كواين فى غير موضع من كتاباته إلى تشبيه أوتونيوراث ، إذ يقول : « لقد شبه نيوراث العلم بالمركب الذى لو جددنا بنيانه ، لوجب علينا أن نجدد لوحًا خشبيًا بلوح آخر بينما نظل عائمين به ، والفيلسوف والعالم فى المركب نفسه »[٣] أما تشبيه نيوراث ذاته فهو « نحن نشبه البحارين الذين يتعين عليهم أن يجددوا بنيان مركبهم حتى النهاية فى عرض البحر ، ولن يستطيعوا أبدًا نقله فى حوض جاف ، ويعيدوا بنيانه هناك حتى النهاية من مواد أفضل »[٤] ؛ وعلى هذا النحو فإن العالم أو الفيلسوف لا يشبه نجار السفن الذى يضع المركب فى حوض جاف ويصلح ما فسد منه ، ويضمن أن كل لوح قد وضع فى موضعه المراد ، وإنما يشبه بالأحرى البحار على مركب يجرى فى الماء وقد أخذت ألواحه تهترئ واحدًا اثر واحد ، وأخذ هو كلما اهترأ واحدًا منها استبدل به لوحًا جديدًا ، وهكذا يجرى الاصلاحات تريجيًا بينما يظل المركب عائمًا .

وهكذا ينظر كواين إلى الفلسفة بوصفها متصلة بالعلم وحتى بوصفها جزءًا منه ،

---

(١) - Ibid, pp. 82 - 83.

(٢) - T. & T., p. 72.

(٣) - W. & O., p. 3.

(٤) - Neurath, O., "Protocol Sentences", in A. J. Ayer (ed.) Logical Positivism, p. 201.

ولكننا نتساءل مع « ماجى » : إذا كانت الفلسفة متصلة بالعلم أو تعد جزءًا منه ، فكيف تختلف عن بقية العلم ؟ الجواب عند كواين : تقع الفلسفة فى نهاية العلم المجردة والنظرية ، فالعلم ، بالمعنى الواسع ، متصل يمتد من التاريخ والهندسة فى طرف حتى الفلسفة والرياضيات البحتة فى الطرف الآخر ، والفلسفة مجردة من خلال كونها عامة للغاية ، فيريد الفزيائى أن يخبرنا حول العلاقات العلية بين حوادث من أنواع معينة ، ويريد عالم الأحياء أن يخبرنا حول العلاقات العلية بين حوادث من أنواع أخرى ؛ ولكن الفيلسوف يسأل حول العلاقة العلية بشكل عام ، ماذا عن كون حادثة تسبب حادثة أخرى ؟ أو من ناحية ثانية يريد عالم الفيزياء أن يخبرنا بأن هناك الكترونات أو يخبرنا عالم الحيوان بوجود حيوان معين ، ويريد عالم الرياضيات أن يخبرنا بأنه لا توجد نهاية للأعداد الأولية ، ولكن الفيلسوف يود أن يعرف ، بكلمات عامة إلى حد بعيد ، ما نوع الأشياء التى توجد على الجملة ، فالفلسفة تبحث عن الحدود الواسعة للنسق الكامل للعالم »[1] ، وخلاصة القول هى أن الفلسفة لا تختلف عن العلم إلا فى كونها أكثر تعميمًا ، وإن شئت قل إنها لا تختلف عن العلوم الجزئية إلا فى اتساع المقولات .

ينتمى كواين – إذن – إلى التقليد الفلسفى الذى يرى أن الفلسفة ترتبط بالعلم بصلات حميمة ويتجلى على سبيل المثال فى تأثر ديكارت بالفيزياء والفلك والرياضيات ، وكذلك تأثر سبينوزا بمناهج الهندسة وبخاصة فى كتابه الأخلاق ، ويرفض كواين بذلك التعارض الحاد بين الفلسفة والعلم والذى أقامه فلاسفة الوضعية المنطقية وفتجنشتين ومدرسة اكسفورد ومن جرى مجراهم ، إذ رأى هؤلاء جميعًا أن الفلسفة فاعلية تأتى فى مرحلة لاحقة على العلم فتوضح قضاياه أو قضايا اللغة العادية ؛ وواضح مما أسلفناه أن فلسفة كواين تجسد معالم التجريبية تجسيدًا كاملاً وتمزج ذلك بنزعة سلوكية واضحة ، مما يؤيد وصفنا لها بأنها تجريبية سلوكية .

(١) - Magee, B., Men of Ideas, New York: The Viking Press, 1978, pp. 170 - 171.

ثبت المراجع

أولا : من مؤلفات كواين :

١ – الكتب

1. A System of Logistic, Cambridge. Massachusetts: Harvard University Press, 1934.
2. Mathematical Logic, revised edtition, Cambridge: Harvard University Press, 1961, (first ed. 1940).
3. Methods of Logic, third edition, London and Henley: & Kegan Paul, 1974, (first ed. 1952).
4. From A logical Point of View, second edition, New York and Evanston: Harper Torch Books, 1963, (first ed. 1953).
5. Word and Object, Second Printing, Cambridge, Massachusetts: M.I.T. Press, 1964, (first ed. 1960).
6. The Ways of Paradox and Others Essays, New York: Random House, 1966.
7. Selected Logic Papers, New York: Random House, 1966.
8. Ontological Relativity and Other Essays, New York and London: Columbia University Press, 1969.
9. Philosophy of Logic, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1970.
10. The Roots of Reference, La Salle, Illinois: Open Court, 1974.
11. Theories and Things, Second Printing, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 1982, (first pr. 1981).
12. The Time of My Life, An Autobiography, Cambridge, Massachusetts: A Bradford Book, MIT Press, 1985.
13. Quiddities: An Intermittently Philosophical Dictionary, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 1987.
14. The Logic of Sequences: A Generalization of Principia Mathematica, New York, Garland Publishing, Inc, 1990.
15. Pursuit of Truth, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 1990.
16. Dear Carnap, Dear Van: The Quine-Carnap Correspondence and Related Work, edited with an Introduction by Richard Creath, Berkeley. Los Angeles. London: University of California Press, 1990.

٢ – المقالات التى لم تنشر فى الكتب السابقة :

17. Steps Toward a Constructive Nominalism (with Nelson Goodman), Journal of Symbolic Logic, 12, 1947, pp. 97-122.

18. Meaning and Translation, in J. A. Fodor and J.J. Katz (ed.), the Structure of Language: Readings in the Philosophy of Language, pp. 460-478.

19. Linguistics and Philosophy, in H. Morick (ed.), Challenges to Empiricism, Belmont, California, Wadsworth Publishing Company, Inc., 1972, pp. 257-259.

20. Methodological Reflections on Current Linguistic Theory, in D. Davidson and G. Harman (eds.), Semantics of Natural Language, pp. 442-454.

21. On the Reasons for Indeterminacy of Translation, the Journal of Philosophy, Vol. LXVII, No. 6, 1970, pp. 178-183.

22. Philosophical Progress in Language Theory, Metaphilosophy, 1, 1970, pp. 2-19.

23. Mind and Verbal Dispositions, in S. Guttenplan (ed.), Mind and Language, pp. 83-95.

24. The Nature of Natural Knowledge, in S. Guttenplan (ed.), Mind and Language, pp. 67-81.

25. "Replies", in D. Davidson and J. Hintikka (eds.), Words and Objections: Essays on the Work of W. V. Quine, pp. 292-352.

26. On Empirically Equivalent Systems of the World, Erkenntnis, vol. IX, 1975, pp. 313-329.

27. Facts of the Matter, in R.W. Shahan and C.V. Swoyer (eds.), Essays on the Philosophy of W.V. Quine, Hassocks: Harvester, 1979, pp. 155-169.

28. Ontology and Ideology Revisited, The Journal of Philosophy, vol. LXXX, No. 9, 1983, pp. 499-502.

29. States of Mind, The Journal of Philosophy, vol. LXXXII, No. 1, 1985, pp. 5-8.

30. Replies to Critics in The Philosophy of W.V. Quine, edited by L.E. Hahn and P.A. Schilpp, in Various Places.

31. Autobiography of W.V. Quine, in The Philosophy of W.V. Quine, edited by L.E. Hahn and P.A. Schilpp, pp. 3-46.

32. Indeterminacy of Translation Again, The Journal of Philosophy, Vol. LXXXIV, No. 1, 1987, pp. 5-10.

33. Structure and Nature, The Journal of Philosophy, Vol. LXXXIX, No. 1, 1992, pp. 5-9.

34. In Praise of Observation Sentences, The Journal of Philosophy, Vol. XC, No. 3, 1993, pp. 107-116.

ثانيا : كتابات عن كواين :

35. Alston, W.P., "Quine on Meaning", in The Philosophy of W.V. Quine, edited by L.E. Hahn and P.A. Schilpp, pp. 49-72.

36. Bechtel, P.W., "Indeterminacy and Intentionality: Quine's Purported Elimination of Propositions", The Journal of Philosophy, Vol. LXXV, No. 11, 1978, pp. 649-661.

37. Bolton, D.E., "Quine on Meaning and Translation", Philosophy, Vol. 54, No. 209, 1979, pp. 329-346.

38. Boorse, C., "The Origins of Indeterminacy Thesis", The Journal of Philosophy, Vol. LXXII, No. 13, 1975, pp. 369-387.

39. Chomsky, N., "Quine's Empirical Assumptions", in D. Davidson and J. Hintikka (eds.), Words and Objections, pp. 53-68.

40. Davidson, D. and J. Hintikka (eds.), Words and Objections: Essays on the Work of W.V. Quine, Dordrecht-Holland, D. Reidel Publishing Company, 1975.

41. Elgin, C.Z., "Facts that don't matter", in G. Boolos (ed.), Meaning and method: Essays in Honor of Hilary Putnam, Cambridge: Cambridge University Press, 1990, pp. 17-29.

42. Follesdal, D. "Meaning and Experience", in S. Guttenplan (ed.), Mind and Language, pp. 25-44.

43. Gibson, R.F., "Translation, Physics, and Facts of the Matter", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp (ed.), The Philosophy of W.V. Quine, pp. 139-154.

44. Gibson, R.F. Enlightened Empiricism: An Examination of W.V. Quin's Theory of Knowledge, Gainesville, Fla., University Presses of Florida, 1988.

45. Grice, H.P. and P.F. Strawson, "In Defense of A Dogma", Philosophical Review, Vol. LXV, 1956, pp. 141-158.

46. Hahn, L.E. and P.A. Schilpp (eds.), The Philosophy of W.V. Quine, La Salle, Illinois, Open Court, Third Printing, 1988, (first pr. 1986).

47. Harman, G., "Quine on Meaning and Existence, 1", Review of Metaphysics, Vol. XXI, No. 1, 1967, pp. 124-151.

48. Harman, G., "Quine on Meaning and Existence, 11", Review of Metaphysics, Vol. XXI, No. 2, 1967, pp. 343-367.

49. Harman, G., "Review of W.V. Quin's The Roots of Reference", The Journal of Philosophy, Vol. LXXII, No, 13, 1975, pp. 388-396.

50. Harman, G. "An Introductions to Translation and Meaning, Chapter Two of Word and Object", in D. Davidson and J. Hintikka (eds.), Words and Objections, pp. 14-26.

51. Harman, G., "Quine's Grammar", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp (eds.), The Philosophy of W.V. Quine, pp. 165-180.

52. Harris, J.F. and R.H. Severens (eds. with an introduction), Analyticity, Selected Readings, Chicago: Quadrangle Books, 1970.

53. Heal, J., Fact and Meaning: Quine and Wittgenstein on Philosophy of Language, Oxford: Basil Blackwell, 1989.

54. Hinman, P.G. and J.Kim and S.P. Stich, "Logical Truth Revisited", The Journal of Philosophy, Vol. LXV, No. 17, 1968, pp. 495-500.

55. Hofstadter, A., "The Myth of the Whole: A Consideration of Quine's View of Knowledge", The Journal of Philosophy, Vol. LI, No. 14, 1954, pp. 397-417.

56. Hookway, C., Quine: Language, Experience and Reality, Stanford, California: Stanford University Press, 1988.

57. Katz, J.J., "Logic and Language: An Examination of Recent Criticisms of Intensionalism", in K. Gunderson (ed.), Minnesota Studies in Philosophy of Science, Vol. VII, Language, Mind, and Knowledge, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1975, pp. 36-130.

58. Katz, J.J., "Some Remarks on Quine on Analyticity", The Journal of Philosophy, Vol. LXIV, No. 1, 1967, pp. 36-52.

59. Katz, J.J., "Affability and Translation", in F. Guenthner and M. Guenthner-Reutter, (ed.), Translation: Philosophical and Linguistic Approaches, pp. 191-233.

60. Katz, J.J., "The Refutation of Indeterminacy", The Journal of Philosophy, Vol. LXXXV, No. 5, 1988. pp. 227-252.

61. Kaufman, A.S., "The Analytic and the Synthetic, A Tenable Dualism", Philosophical Review, Vol. LXII, 1953, pp. 421-426.

62. Kirk, R., "Translation and Indeterminacy", Mind, Vol. LXXIII, No. 311, 1969, pp. 321-341.

63. Lee, H.N., "Discourse and Event: the Logician and Reality", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp (eds.), The Philosophy of W.V. Quine, pp. 295-314.

64. Levin, M.E., "Quine on Analyticity in L", Mind, Vol. LXXXIV, No. 333, 1975, pp. 114-118.

65. Mates, B., "Analytic Sentences", Philosophical Review, Vol. LX, No. 4, 1951, pp. 525-534.

66. Mates, B., "Synonymity", in J.F. Harris and R.H. Severens (eds.), Analyticity: Selected Readings, pp. 94-121.

67. Moravcsik, J.M.E., "The Analytic and the Nonempirical", The Journal of Philosophy, Vol. LXII, No. 16, 1965, pp. 415-429.

68. Orenstein, A., Willard Van Orman Quine, Boston: Twayne Publishers, A Division of G.K. Hall, 1977.

69. Quinton, A., "The A Priori and the Analytic", in R.C. Slegh (ed.), Necessary Truth, pp. 89-109.

70. Ricketts, T.G., "Rationality, Translation, and Epistemology Naturalized", The Journal of Philosophy, LXXIV, No. 3, 1982, pp. 117-136.

71. Roth, P.A., "Semantics Without Foundations", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp, (ed.), The Philosophy of W.V. Quine, pp. 433-458.

72. Rudner, R., "Formal and Non-Formal", Philosophy of Science, Vol. XVI, 1949, pp. 41-48.

73. Searle, J.R., "Indeterminacy, Empiricism, And the Person", The Journal of Philosophy, Vol. LXXXIV, No. 3, 1987, 123-146.

74. Solomon, M., "Quine's Point of View", The Journal of Philosophy, Vol. LXXXVI, No. 3, 1989, pp. 113-136.

75. Stenius, E., "Beginning With Ordinary Things", in D. Davidson and J.H. Hintikka (eds.), Words and Objections, pp. 27-52.

76. Strawson, P.F., "Reference and Its Roots", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp (eds.), The Philosophy of W.V. Quine, pp. 519-532.

77. Swinburne, R.G., "Analyticity, Necessity and Apriority", Mind, Vol. LXXXIV, No. 334, 1975, pp. 225-243.

78. Vuillemin, J., "On Duhem's and Quine's Theses", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp (eds.), The Philosophy of W.V. Quine, pp. 595-613.

79. Wallace, J., "A Query on Radical Translation", The Journal of Philosophy, Vol. LXVIII, No, 6, 1971, pp. 143-151.

80. Weitz, M., "Analytic Statemants", Mind, Vol. LXIII, 1954, pp. 487-494.

81. White, M., "The Analytic and Synthetic: an Untenable Dualism", in S. Hook (ed.), John Deway: Philosopher of Science and Freedom, New York: Barnes & Noble, 1967, pp. 316-330.

82. White, M., "Normative Ethics, Normative Epistemology and Quine's Holism", in L.E. Hahn and P.A. Schilpp (eds.), The Philosophy of W.V. Quine pp. 649-662.

83. Wild, J. and J.L. Coblitz., "Concerning the Distinction between the Analytic and the Synthetic", Philosophy and Phenomenlogical Research, Vol. VIII, 1947-1948, pp. 651-667.

84. Zabludowski, A., "On Quine's Indeterminacy Doctrine", Philosophical Review, Vol. XCVIII, No. 1, 1989, pp. 35-63.

85. Ziff. P., "A Response to Stimulus Meaning", Philosophical Review, 79, 1970, pp. 63-74.

ثالثا : دراسات فى فلسفة اللغة والمنطق ودراسات أخرى :

86. Alston, W.P., Philosophy of Language, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1967.

87. Alston, W.P., "Semantic Rules", in M.K. Munitz and P.K. Unger (eds.), Semantics and Philosophy, New York: New York University Press, 1974, pp. 17-48.

88. Ammerman, R.R. (ed.), Classics of Analytic Philosophy, Bombay, New Delhi, Tata McGraw Hill Publishing Company LTD, 1965.

89. Austin, J.L., How To Do Things With Words, edited by J.O. Urmson, New York, Oxford University Press, 1970.

90. Ayer, A.J., Language, Truth and Logic, New York: Dover Publications, 1952.

91. Ayer, A.J., (ed.), Logical Positivism, Glencoe Illinois: The Free Press, 1959.

92. Ayer, A.J., "Introduction" to Logical Positivism. edited by A.J. Ayer, pp. 3-28.

93. Ayer, A.J., Philosophy in the Twentieth Century, London: Weidenfeld and Nicolson, 1982.

94. Bechtel, W., Philosophy of Mind: An Overview for Cognitive Science, New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, 1988.

95. Bennett, J., Linguistic Behaviour, Cambridge: Cambridge University Press. 1967.

96. Bloomfield, L., Language, London: George Allen & Unwin, 1935.

97. Bloomfield, L., "Language or Ideas?", in J.J. Katz (ed.), The Philosophy of Linguistics, pp. 19-25.

98. Broad, C.D., Leibnitz., An Introduction, edited by C. Lewy, Cambridge University Press, 1975.

99. Brody, B. A., Logic, Theoretical and Applied, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall, 1973.

100. Burge, T., "Philosophy of Language and Mind: 1950-1990", Philosophical Review, Vol. 101, No. 1, 1992, pp. 3-51.

101. Carnap, R., "The Old and The New Logic", in A.J. Ayer (ed.), Logical Positivism, pp. 133-145.

102. Carnap, R., "The Elimination of Metaphysics Through Logical Analysis of Language", translated from the German by A. Pap, in A.J. Ayer (ed.), Logical Positivism, pp. 60-81.

103. Carnap, R., Carnap, R., Meaning and Necessity, Chicago: University of Chicago Press, second edition, 1956.

104. Carr, B., "Truth", in An Encyclopaedia of Philosophy, general editor, G.H.R. Parkinson, pp. 76-98.

105. Chomsky, N., "A Review of B.F. Skinner's Verbal Behavior", in J.A. Fodor and J.J. Katz (eds.), The Structure of Language: Readings in the Philosophy of Language, pp. 547-578.

106. Chomsky, N., Aspects of the Theory of Syntax, Cambridge, Mass.: MIT Press, 1965.

107. Chomsky, N., Cartesian Linguistics, New York and London: Harper & Row, 1966.

108. Chomsky, N., Language and Mind, enlarged edition, New York: Harcourt Jovanovich, 1972.

109. Chomsky, N., Rules and Representation, New York: Columbia University Press, 1980.

110. Church, A., "The Need for Abstract Entities in Semantics", in I.M. Copi and J.A. Gould (eds.). Contemporary Readings in Logical Theory, New York: The Macmillan Company, 1967, pp. 194-203.

111. Cohen, L.J., The Diversity of Meaning, London: Methuen, 1962.

112. Copeland, B.J. and R.H. Stoothoff, "Theories of Meaning: After the use Theory", in G.H.R. Parkinson (general editor), An Encyclopaedia of Philosophy, pp. 50-75.

113. Davidson, D. and G. Harman (eds.), Semantics of Natural Language, Dordrecht-Holland: D. Reidel Publishing, 1972.

114. Davidson, D., Inquiries into Truth and Interpretation, Oxford, Clarendon Press, 1984.

115. Davis, S., Philosophy and Language, Indianapolis, The Bobbs-Merrill, 1976.

116. Delfgaauw, B., Twentieth-Century Philosophy, Translated into English by N.D. Smith, Dublin: Gill and Macmillan, 1969.

117. Duhem, P., The Aim and Structure of Physical Theory, Translated from the French by P.P. Wiener, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1954.

118. Dummett, M., Frege: Philosophy of Language, New York, Evanston, San Francisco, London: Harper & Row, 1973.

119. Evans, J.L., "On Meaning and Verification", Mind, Vol. LXII, No. 245, 1953, pp. 1-19.

120. Feyerabend, P. "Wittgenstein's Philosophical Investigations", Philosophical Review, Vol, LXIV, 1955, pp. 449-483.

121. Firth, J.R., Papers in Linguistics, 1934-1951, London: Oxford University Press, 1964.

122. Frith, J.R, Selected Papers of J.R. Firth 1952-1959, edited by F.R. Plamer, London: Longman, 1968.

123. Fodor, J.A. and J.J. Katz, "What's Wrong with the Philosophy of Langauge?", in C. Lyas (ed.), Philosophy and Linguistics, Macmillan, St Martin's Press, 1971, pp. 269-283.

124. Frege, G., "The Thought: A Logical Inquiry", Translated by A.M. and Marcell

Quinton, in P.F. Strawson (ed.), Philosphical Logic, Oxford University Press, 1968, pp. 17-38.

125. Goodman, N., "On Likeness of Meaning", Analysis, Vol. X, 1949, pp. 1-7.

126. Goodman, N., "On Same Differences about Meaning", Analysis, Vol. XIII, 1953, pp. 90-96.

127. Grayling, A.C., An Introduction to Philosophical Logic, Sussex: the Harvester Press, New Jersey: Barnes & Noble Books, 1982.

128. Grice, H.P., "Meaning", Philosophical Review, Vol. LXVI, 1957, pp. 377-388.

129. Grice, H.P., "Utterer's Meaning, Sentence-meaning, and Word-meaning", Foundations of Language, Vol.IV. 1968, pp. 225-242.

130. Grice, H.P., "Utterer's Meaning and Intentions", Philosophical Review, Vol. LXXVIII, 1969, pp. 147-177.

131. Grice, H.P., Studies in the Way of Words, Cambridge: Harvard University Prees, 1989.

132. Guenthner, F. and M. Guenthner-Reutter (eds.), Meaning and Translation: Philosophical and Linguistic Approaches, New York: New York University Press, 1978.

133. Guttenplan, S., (ed.), Mind and Language, Oxford: Clarendon Press, 1975.

134. Haack, S., Philosophy of Logics, Cambridge: Cambridge University Press, 1978.

135. Hacker, P.M.S., "The Rise and Fall of the Picture Theory", in I. Block (ed.), Prespectives on the Philosophy of Wittgenstein, Cambridge, Massachusetts: the MIT Press, 1981, pp. 85-109.

136. Halliday, M.A.K., Language as Social Semiotic, London: Edward Arnold, 1978.

137. Hamlyn, D.W., The Theory of Knowledge, Macmillan, 1970.

138. Hanfling, O., Logical Positivism, Oxford: Basil Blackweel, 1981.

139. Hanfling, O., (ed.), Essential Readings in Logical Positivism, Oxford: Basil Blackweel, 1981.

140. Harman, G., "The Levels of Meaning", The Journal of Philosophy, Vol.LXV, No. 19, 1968, pp. 590-602.

141. Harrison, B., An Introduction to the Philosophy of Language, London and Basingstoke, the Macmillan Prees, 1979.

142. Hume, D., An Enquiry Concerning Human Understanding in (Enquiries Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals) edited by L.A. Selby-Bigge, 3rd, edition, Oxford: Clarendon Press, 1975.

143. Kant, I., Critique of Peason, Translated by N.K. Smith, London: Macmillan, New York: St Martin Press, 1958.

144. Katz, J.J., The Philosophy of Language, New York and London: Harber & Row, 1966.

145. Katz, J.J., The Underlying Reality of Language and Its Philosophical Import, New York, Evanston: Harper & Row, 1971.

146. Katz, J.J., Semantic Theory, New York: Harper & Row, 1972.

147. Katz, J.J., (ed.), The Philosophy of Linguistics, Oxford University Press, 1985.

148. Lehrer, A. and K. Lehrer (eds.), Theory of Meaning, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1970.

149. Leibnitz, G.W., New Essays Concerning Human Understanding, Translated by L.G. Langicy, 3rd. edition, the Open Court Publishing Company, 1949.

150. Lewis, D.K., Convention: A Philosophical Study, Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1969.

151. Lock, J., An Essay Concerning Human Understanding, Vol. 2, edited with an Introduction by J.W. Yolton, Dent: London, Everyman's Library, Dutton: New York, 1961.

152. Lyons, J., Semantics, Vol. 1, London, New York: Cambridge University Press, 1979.

153. Magee, B., Men of Ideas, New York: The Viking Press, 1978.

154. Mates, B., "Synonymity", in J.F. Harris and R.H. Severens (eds.), Analyticity: Selected Readings, pp. 94-121.

155. Moravcsik, J.M.E., "Linguistics and Philosophy", in T.A. Sebeok, (ed.), Current Trends in Linguistics, Vol. 12, Mouton, the Hage. Paris, 1974, pp, 3-35.

156. Munitz, M.L., Contemporary Analytic Philosophy, New York: Macmillan, 1981.

157. Murphy, J.P., Pragmatism, From Peirce to Davidson, Boulder. San Franciso. Oxford: Westview Press, 1990.

158. Neurath, O., "Protocol Sentences", translated by George Schick in Logical Positivism, edited by A.J. Ayer, pp. 199-208.

159. O'Connor, D.J., The Correspondence Theory of Truth, London: Hutchinson University Library, 1975.

160. Palmer, F.R., Semantics, Second edition, Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

161. Parkinson, G.H.R. (general editor), An Encyclopaedia of Philosophy, Routledge, 1988.

162. Passmore, J.A hundred Years of Philosophy, London: Penguin Books, 1984.

163. Pelc, J., "The Place of the Philosophy of Language", in G. Floisted (ed.), Contemporary Philosophy, A new survey, Vol. 1, Philosophy of Language and Philosophical Logic, the Hague, Boston: Martinus Nijhoff, 1981, pp. 11-34.

164. Pitcher, G., The Philosophy of Wittgenstein, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1964.

165. Putnam, H., Mind, Language and Reality, Philosophical Papers, Vol. 2, Cambridge: Cambridge University Press, 1975.

166. Putnam, H., Realism and Reason, Philosophical Papers, Vol. 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1985.

167. Ramsey, F.P., Philosophical Papers, edited by D.H. Mellor, Cambridge, New York: Cambridge University Press, 1990.

168. Russell, B., Logic and Knowledge, edited by R.C. Marsh, London: George Allen & Unwin LTD., New York: the Macmillan Compeny, third empression, 1966.

169. Ryle, G., "Introduction", in A.J. Ayer (and others), the Revolution in Philosophy, London: Macmillan, 1956, pp. 1-11.

170. Ryle, G., "The Theory of Meaning", in C.E. Caton (ed.), Philosophy and Ordinary Language, Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1963, pp. 128-153.

171. Ryle, G., The Concept of Mind, Penguin Books, 1970.

172. Schiffer, S.R., Meaning, Oxford, Clarendon Press, 1972.

173. Schilpp, P.A. (ed.), The Philosophy of Rudolf Carnap, La Salle, Illinois, Open Court, London, Cambridge University Press, first edition, 1963.

174. Schlick, M., "Meaning and Verification", in A. Lehrer and K. Lehrer (eds.), The Theory of Meaning, pp. 98-112.

175. Skinner, B.F., Verbal Behavior, New York: Appleton-Century-Crofts, 1957.

176. Slegh, R.C. (ed.), Necessary Truth, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall, 1972.

177. Strawson, P.F., "Carnap's View on Constructed Systems vs Natural Language in Analytic Philosophy", in P.A. Schilpp (ed.), The Philosophy of Rudolf Carnap, pp. 503-518.

178. Taylor, D.M., Explanation and Meaning, Cambridge: Cambridge University Press, 1970.

179. Waismann, F., The Principles of Linguistic Philosophy, edited by R.Hare, London, Macmillan, 1968.

180. Waismann, F., How I See Philosophy, edited by R.Hare, London. Melbourne. Toronto: Macmillan, New York: St Martin's Prees, 1968.

181. Waismann, F., "Verification and Definition", in O.Hanfling (ed.), Essential Readings in Logical Positivism, pp. 27-32.

182. White, M., Toward Reunion in Philosophy, Cambridge: Harvard University Press, 1956.

183. Weitz, M., "Oxford Philosophy", Philosophical Review, Vol. LXII, 1953, pp. 187-233.

184. Wittgenstein, L., Philosophical Investigations, Translated by G.E.M. Anscombe, Oxford: Basil Black Well, 1963.

رابعا : المعاجم والموسوعات الأجنبية :

185. Crystal, D.A first Dictionary of Linguistics and Phonetics, London, Andre Deutsch, 1980.

186. Ducrot, O. and T. Todarov, Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language, Translated by Catherine Porter, Baltimore and London: the Johns Hopkins University Press, 1980.

187. Edwards, P. (ed.), The Encyclopedia of Philosophy, New York, Macmillan Publishing Co., Inc., The Free Press, 1967.

188. Flew, A., A Dictionary of Philosophy, London, Pan Books LTD, 1979.

189. Hartmann, R.R.K., and F.C. Stork, Dictionary of Language and Linguistics, London, Applied Science Publishers LTD., 1976.

190. Lacey, A.R., A Dictionary of Philosophy, London, Boston: Routledge & Kegan Paul, 1976.

191. Malmkjaer, K. (ed.), The Linguistics Encyclopedia, London and New York: Routledge, 1991.

192. Pei, M., Glossary of Linguistic Terminology, New York, Anchor Books, Doubleday and Co. Inc., 1966.

193. Pei, M. and F. Gaynor, Dictionary of Linguistics, Totowa, N.J., Littlefield, Adams and Co., 1975.

194. Richards, J. and J. Platt and H. Weber, Longman Dictionary of Applied Linguistics, Longman, 1985.

195. Runes, D.D. (ed.), Dictionary of Philsophy, Totow, New Jersey: A Helix Book, Rowman & Allanheld, 1984.

خامسا : المراجع العربية :

١ — ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، مع شرح نصر الدين الطوسى ، تحقيق سليمان دنيا ، القسم الأول ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ .
٢ — أفلاطون ، جمهورية أفلاطون ، ترجمة ودراسة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
٣ — تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .
٤ — جون سيرل ، « تشومسكي والثورة اللغوية » ، الفكر العربى ، العددان ٨ ، ٩ ، يناير — مارس ١٩٧٩ ، دون ذكر مترجم ، ص ١٢٣ — ١٤٣ .
٥ — رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضيرى ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
٦ — ذكى نجيب محمود ، ديفد هيوم ، نوابغ الفكر الغربى (٧) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ .
٧ — ستيفن اولمان ، دور الكلمة فى اللغة ، ترجمه وقدمه وعلق عليه كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
٨ — صلاح إسماعيل ، التحليل اللغوى عند مدرسة اكسفورد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٣ .
٩ — عاطف مدكور ، علم اللغة بين القديم ، والحديث ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
١٠ — عبد القاهر الجرجانى ، دلائل الاعجاز ، الطبعة السادسة ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
١١ — عزمى إسلام ، اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ، الطبعة الأولى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠ .
١٢ — عزمى إسلام ، مفهوم المعنى ، دراسة تحليلية ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ، الرسالة الحادية والثلاثون ، ١٩٨٥ .
١٣ — الغزالى ، أبو حامد ، معيار العلم فى فن المنطق ، الطبعة الرابعة ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣ .
١٤ — كارل لامبرت وجوردن بريتان ، مدخل إلى فلسفة العلوم ، ترجمة د . شفيقة بستكى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دون تاريخ .

١٥ – ليبنتز ، جوتفريد فيلهلم ، المونادولوجيا ، والمبادئ العقلية الطبيعية والفضل الالهى ، ترجمة وتقديم وتعليق عبد الغفار مكاوى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
١٦ – لودفيج فتجنشتين ، رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة عزمى إسلام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .
١٧ – محمد مهران ، مدخل إلى المنطق الصورى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، دون تاريخ .
١٨ – محمود فهمى زيدان ، فى فلسفة اللغة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
١٩ – نعوم تشومسكى ، « اللغة البشرية وأنظمة سيميوطيقية أخرى » ترجمة كاطع نعمة الحلفى ، فى كتاب « أنظمة العلامات فى اللغة والأدب والثقافة ، مدخل إلى السيميوطيقا ، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد ، دار إلياس العصرية ، القاهرة ، ص١٩٥–٢١٠ .
٢٠ – نعوم تشومسكى ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة د . حمزة بن قبلان المزينى ، الطبعة الأولى ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ .
٢١ – ياسين خليل ، مقدمة فى الفلسفة المعاصرة ، الطبعة الأولى ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، ١٩٧٠ .
٢٢ – يحيى أحمد ، « الاتجاه الوظيفى ودوره فى تحليل اللغة » ، عالم الفكر ، المجلد العشرون ، العدد الثالث ، اكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ، ١٩٨٩ .

سادسًا : المعاجم العربية :

٢٣ – ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبدالله على الكبير وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ،دون تاريخ .
٢٤ – جميل صليبا ، المعجم الفلسفى ، فى مجلدين ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، المجلد الأول ، طبعة أولى ١٩٧١ ، المجلد الثانى ، طبعة أولى ١٩٧٣ .
٢٥ – رمزى منير بعلبكى ، معجم المصطلحات اللغوية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٠ .
٢٦ – فاخر عاقل ، معجم علم النفس ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٧ .
٢٧ – مجمع اللغة العربية (بالقاهرة) ، المعجم الفلسفى ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٨ – محمد عزيز الحبابى ، المعين فى مصطلحات الفلسفة والعلوم الإنسانية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٧٧ .

٢٩ – محمد على الخولى ، معجم علم اللغة النظرى ، الطبعة الأولى ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٣٠ – مراد وهبه ، المعجم الفلسفى ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٣١ – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات ، تونس ، ١٩٨٩ .

٣٢ – نخبة من اللغويين العرب ، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، الطبعة الأولى ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٣ .

الفهرست

الصفحة

الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0208780

